رواية

بائع الأمل

ناهض الرمضاني

بائع الأمل

ناهض الرمضاني، رواية

ISBN: 978-9948-22-003-9: تدمك

© جميع الحقوق محفوظة للناشر

الناشر: دار ورق للنشر والتوزيع
الطبعة الأولى – الإمارات 2015

دار ورق للنشر
والتوزيع
DAR WARAQ PUBLISHING
AND DISTRIBUTION

T : + 971 4 264 4410
F : + 971 4 272 2077
P.O. Box : 91110 Dubai, UAE
info@darwaraq.ae
www.darwaraq.ae

إن دار ورق للنشر والتوزيع غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر وجهات النظر الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف، وليس بالضرورة عن آراء دار ورق.

رواية

بائــع الأمــل

ناهض الرمضاني

الفصل الأول: الجحيم

مقدمة

.... الوقت يمضي بسرعة وقد ضيعت منه الكثير والآن لا بد لي من أن أبدأ بالكتابة أو أن أتركها نهائياً.. بقي ثمانية عشر يوماً وتقع الواقعة، لذا فعليّ أن أنهي عملي هذا قبل نهاية المدة التي حددها لنا (مجلس الأمن) مشكوراً.

قد يتاح لي إكمال هذه الأوراق. وقد لا يتاح لي ذلك.. قد أتمكن يوماً من نشرها.. وقد لا أتمكن.. قد تقرؤونها إذا نشرت.. أو ربما لن يقرأها أحد...

ولكنني ورغم كل شيء سأكتب....

سأكتب لأنني إن لم أفعل سأنفجر. أريد أن أتحدث. أريد أن أصرخ. أريد أن أقووول. (كنت أريد أن أصبح كاتباً طول حياتي وفشلت.. وهذا هو دفاعي).. قد يقولون عن كتابي إنه سيرة ذاتية. أو ربما مجموعة من القصص أو ربما رواية «وهذا الرأي الأخير هو ما أميل إليه، فالرواية هي الجنس الأدبي الوحيد الذي لا معيار له يقاس عليه كما يقول باختين». حسناً إذن. اعتبروها رواية أضع فيها نفسي أنا شخصياً «ناهض الرمضاني» لأصبح بطلاً – لا بطولياً. بالطبع– لهذا العمل.

الوقت يحاصرني من كل جانب وأيامي في الحياة قد تكون معدودة. وقد لا تتجاوز الأيام الثمانية عشر الباقية من مهلة مجلس الأمن المبجل، ولهذا كله اخترت أن أتكلم إليكم مباشرةً. أخاطبكم بضمير الأنا وأبتعد – مرغماً –عن التقنيات الأكثر حداثة في الرواية.

قد تستغربون إذا أخبرتكم أنني أشعر الآن بالسعادة رغم كل شيء. أنا سعيد لأنني أكتب. أقدم اعترافي الأخير على مسمع منكم جميعاً. أكتب الآن وأنا أتذكر بطل قصتي الكئيبة «أغنية الخراب» يقول البطل في مقدمتها «ترى هل سيتاح لي قراءة هذه الأوراق ثانية». من العجيب أن أمرّ أنا شخصياً بنفس الموقف تماماً. فالعراق يرفض الانسحاب من الكويت نهائياً. وأمريكا تعد أساطيلها وقواتها لضرب الجيش العراقي الذي أجلس أنا في طليعته الآن منتظراً تلقي الضربة الأولى لأمتصها وأرد عليها (بإذن الله).

العالم كله على شفا حرب لا يعلم مداها إلا الله، حرب إذا ما بدأت فلن أشهد نهايتها على الأرجح. (فأنا ولا فخر في قائمة الفدائيين هنا) رغم أني أساساً في لواء من ألوية المقدمة.

فرصة نجاتي محدودة جداً إذا ما وقعت الحرب التي مازال قلبي يكذّب حدوثها. الكل هنا يتمنى أن تنتهي المشكلة الخليجية سلمياً رغم أن العالم اليوم (كما كان دائماً) تحكمه مجموعة من المجانين.

لا أريد أن أطيل عليكم في هذه المقدمة. أريد أن أبدأ بسرد قصة حياتي التي آمل أن تدوم فترة أخرى أطول قليلاً. – ربما إلى الحرب التي ستعقب هذه الحرب فحسب – فيبدو أننا قد خلقنا الآن وهنا لنحارب ونحارب ولا نفعل شيئاً آخر سوى ذلك.

(١) ف١

ولدت – أنا الملازم ناهض عبد الله الرمضاني – في مدينة الموصل، وهي – كما لا تعرفون – من أكبر مقابر الفنانين في العالم. مدينة صغيرة غائرة في التاريخ فهي نفسها نينوى عاصمة الدولة الآشورية، وهي مدينة تثير لدى المرء الكثير من الأحاسيس وتفتح شهوته للحياة ولكنها في نفس الوقت لا تلبث أن تقتل في النفس جميع ما أثارته لما فيها من انعدام فرص الانتشار.

ولدت عام ١٩٦٤ لأسرة متوسطة الدخل من أبوين معلمين على درجة من الثقافة واليسر وقد أتاحا لي طفولة سعيدة بكل معنى الكلمة. كنت أحسُّ بفخر دائم من وضعي المتميز دائماً على أقراني في المدرسة. فقد كان أبي هو معاون المدير. وكان –خلافاً لبقية المعلمين –يمتلك سيارة وبيتاً بحديقة كبيرة. كان أبي ينحدر من عائلة غنية ما لبثت أن فقدت ثروتها مع تغير الأيام والأحوال. ولكن كان لديه بقية من مال ومكابرة أتاحت له البدء بداية سهلة. نشأت وسط هذه العائلة وكان لي هدف واحد في الحياة. كنت أجيب كل من يسألني عما أريد أن أكونه حين أكبر. كنت أقول بثقة (سأصبح كاتباً). كانت هذه الفكرة راسخة في ذهني منذ كنت في الثامنة أو التاسعة من العمر. أي منذ أتقنت الكتابة وشغفت بالقراءة. كنت طفلاً خاملاً.

لم أفعل في طفولتي شيئاً أتذكره الآن. كنت أكثر من الجلوس وحدي في الحديقة. أتجنب الاختلاط بالآخرين. فقد كنت خجولاً جداً. وما إن أتقنت القراءة حتى لازمني الكتاب تماماً وشغلني عن كل ما سواه. كنت ألتهم قصص الأطفال بشراهة. وأنتظر بداية كل شهر لأشتري مجلة «مجلتي» التي كانت مجلة رائعة في بداية السبعينات وقبل أن أنهي مرحلة الدراسة الابتدائية كنت قد قرأت قصص «فيكتور هيكو. وديكنز وملفيل وفيرن». والكثير من قصص التاريخ العربي والإسلامي مما ساهم في تشكيل شخصيتي التي جنحت –حتى مرحلة متأخرة – إلى مثالية حالمة.

اليوم هو ١٩٩٠/١٢/٣١.. غداً سيبدأ العام الجديد. لن أحاول أن أعرف أو أتكهن أو أتمنى ما سيحمله. فقد تعودت خيبات الأمل الكبيرة.

كنت صغيراً حينما قرأت اللعنة الصينية القديمة التي تقول «اذهب. ولتقضِ حياتك كلها في أزمان مثيرة». كانت اللعنة موجهة من أب ساخطَ إلى ولده كما أذكر الآن. كانت هذه العبارة تحيرني كثيراً. فقد كنت أعتقد أنه لا شيء أجمل من الإثارة وكسر الرتابة والجمود. الآن فقط أدركت قسوة هذه اللعنة. فأنا –ومعي كل الشعب العراقي – نسير بسرعة وسط دوامة من الإثارات القوية. لا نملك الوقت لنفكر، نُحسّ. ونُحِسُّ فحسب.. ثم ننسى الإحساس حينما يطغى علينا إحَساس جدَيد لمؤثر آخر أكثر شناعة.

ورغم كل هذا.. أو ربما بسبب كل هذا أشعر بأنني قد فقدت الدهشة. فأنا لم أدهش لأي شيء منذ فترة. فكل شيء ممكن الآن وهنا. «والمستحيل ليست كلمة عراقية». قمت أمس بتحضير الأرواح وسألتها عن احتمال نشوب الحرب فكانت الإجابة «لا

حرب – مفاوضات – هدنة» مما ولدّ لديّ طمأنينة كبيرة. ورغم أني قبل اسبوع واحد فقط لم أكن أعترف أصلاً لا بالأرواح ولا بما شابه وكنت أسخر من كل ذلك فإن خوضي المباشر لهذه التجربة ولّد لديّ قناعة بصدق الموضوع.

أنا الآن محتار بين الأرواح التي استدعيتها ونفت لي وقوع حرب. وبين نبوءة «نوسترا داموس» الذي يتكلم كثيراً عن (رجل الدم القادم من الشرق) والذي سيشعل العالم. قد يكون فنجاني مخطئاً أو يكون (نوسترا داموس) هو المخطئ وربما كانا كلاهما واهمين. وربما كنت أنا الأحمق الوحيد. لا يهم... لا يهم أبداً.. فقد بقي لي بقي خمسة عشر يوماً فقط. خرجت من البيت دون أن أودع أهلي معتبراً ذلك فألاً حسناً... ترى هل سأراهم ثانية؟!

أتمنى الآن لو كان لدي دفاتر يومياتي ومجموعة رسائلي الضخمة لثابت وتوفيق وزوجتي وبقية الأشخاص الذين راسلتهم لأستطيع من خلال الرسائل استحضار الصور التي بهتت الآن في مخيلتي. وحينما أعود الآن بذاكرتي إلى الوراء أستغرب تصميمي الكبير على اعتبار الكتابة مستقبلي الوحيد. ولم أكن وقتها أميز نوع الكتابة التي سأختارها. هل سأصبح شاعراً مثلاً أم صحفياً أم مسرحياً. كانت الكتابة تمثل لي عالماً واحداً متكاملاً لم أكن أفرق فيه آنذاك بين (الأصمعي) و(إليوت). فكلاهما كان كاتباً في نظري. كنت أحس بأني أختلف تماماً عن جميع من حولي. كانت اهتماماتي مختلفة، وسلوكي مختلفاً. أذكر جيداً مدرستنا الابتدائية التي كانت تحوي مكتبة ضخمة فيها أكثر من ألف كتاب للأطفال. أعتقد أنني قد قرأت معظمها خلال السنوات الثلاث الأخيرة في المرحلة الابتدائية.

ومازلت حتى الآن أتذكر والدي وهو يهديني مجاميع قصصية كلما تفوقت في امتحانات فصل دراسي.

عموماً.. كانت جميع الأجواء من حولي تمهد لي السبيل، وكنت مندفعاً تماماً باتجاه هدفي الذي لم أتحقق منه جيداً بعد (سأصبح كاتباً) أكيد، ولكن أي نوع من الكتّاب؟ لم أكن أفكر حينها بالجواب، فلم يكن السؤال ذاته يفرض نفسه على ذهني.

وفي مرحلة الدراسة المتوسطة – في السنة الثانية بالتحديد– بدأت أولى محاولاتي الكتابية المجردة. فقبلها كنت أكتب مواضيع مدرسية كان المعلمون يعدونها مثيرة ومبشرة.. إلا أن المرحلة المتوسطة التي بدأت فيها مرحلة المراهقة صاحبها أول قصة لي مازلت أذكر اسمها وبعض تفاصيلها. وصاحبت هذه القصة محاولة مني لكتابة بعض الأبيات الشعرية المقفاة والبعيدة عن الوزن «إذ لم أكن أفقه شيئاً لا عن الأوزان ولا التفعيلات وقتها». ولم تدم فرحتي طويلاً فقد صدمني مدرس اللغة العربية الذي رفض أن يقرأ قصتي الأولى «الحقيبة» طواها بإهمال وأعادها إليّ حينما قدمتها إليه. ولم يكن وجهه يحمل أي تعبير سوى اللا اكتراث. أحسست بخيبة أمل قاتلة. كنت أعتقد أن الجميع ينتظرون مني بلهفة أن أبدأ بالإبداع. فلماذا يرفضون الآن ما أقدمه لهم – كنت آنذاك مغرقاً بالتفاؤل – أما الآن وبعد كل هذه السنين والخيبات المتكررة فأنا متفائل فقط دون إغراق.

طويت قصتي ومضيت بصمت. ولم أكرر التجربة بعد ذلك، ولم أحاول كتابة القصة حتى مرحلة لاحقة. اكتفيت بنظم الشعر بأبيات قصيرة ولأسباب عاطفية بحتة. كنت أحس بصعوبة وأنا أختار الكلمات للقصائد. كنت أحس بافتعال وتصنّع واضح. إلا أن

إدراكي لتفاهة ما أكتبه مقارنة بمئات الأبيات التي كنت أحفظها عن ظهر قلب «وخاصةً لشعراء المهجر» كان عقلي ينتقد بقسوة إبداعي الشعري ويضعه في مكانه الصحيح (سلة المهملات).

أنهيت دراستي المتوسطة– وهي مرحلة في حياتي لا أحمل عنها إلا أقل القليل من الذكريات– وبدأت الدراسة الإعدادية التي تمت في (الإعدادية المركزية) بالموصل. وهي مدرسة عريقة كانت تضم نخبة من الأساتذة القدماء العاشقين لمهنتهم. كنت قد قطعت شوطاً أطول مع القراءة. كان التاريخ يستهويني وكنت أقرأ (الطبري والواقدي) بشغف مساوٍ لقراءة روايات وكتب(كولن ولسن).. كان التاريخ المعاصر للوطن العربي يصور لي العالم وكأنه مجموعة من الطغاة تسحق مجموعة أخرى من الثوار. واختار عقلي المراهق طبعاً وقوفي إلى جانب الشهداء.

كانت السنة الدراسية الأولى في الإعدادية تحمل لي الكثير. فقد تعرفت إلى مجموعة من الأصدقاء يكبرونني في السن (سنان وتوفيق) وهذا يعني مجموعة جديدة من الأفكار.. وأسماء مؤلفين جدد. وكتباً جديدة. أصبح لديّ وللمرة الأولى قُراء جادّون بدأوا يناقشون قصائدي التي سلمت من التمزيق. كنت أستمع إلى كلماتهم وأنظر إلى السطور التي خطتها يدي. لم يطل الوقت حتى أطلقت رصاصة الرحمة على رأس شيطاني الشعري وأرديته قتيلاً.. وإلى الأبد.

أصبحت أكثر اهتماماً بالنثر. كانت دروس الإنشاء فرصة ذهبية لي لإثبات كفاءتي الأدبية العالية قياساً ببقية الطلبة. وكان أن لاقيت تشجيعاً غير عادي في أول موضوع كتبته في السنة الأولى مما حركَ فيَّ عنصر الإبداع ودفعني للاهتمام أكثر فأكثر بدرس الإنشاء. ما لبثت

أن أصبحت كاتباً معروفاً تُقرأ مواضيعي على طلاب المرحلة الرابعة في سبعة صفوف. وكان هذا انتصاراً ساحقاً لي آنذاك. ولم يكن في المرحلة من ينافسني –في النثر على الأقل– وكان سر نجاحي هو تحويلي للمقالة المطلوب مني كتابتها إلى قصة تدور بنفس المضمون، وكان هذا الإجراء يحمل الكثير من التشويق للطلبة ويشكل مفاجأة للأستاذ «محمد العبوبي»، الذي عدني أديب المرحلة الرابعة بلا منازع.. وفي السنة التي بعدها اخترت القسم الأدبي بكل إصرار. وبدأت أستفيد من خلفيتي الثقافية في مشاغبة الأساتذة ومحاولة إحراجهم في التاريخ والأدب والاجتماع والنقد. فقد أصبحت أحد مراكز القوى بين الطلاب الذين كانوا يعدون كل تلكؤ في الإجابة يبديه أحد الأساتذة عن سؤال محكم أوجهه إليه نصراً لي ولهم ودليلاً على نبوغي المبكر. وانتصاراً من فريق الطلبة على فريق الأساتذة.

١٩٩١/١/١

الساعة الآن الحادية عشرة ليلاً... الجو بارد في الخارج، والعد التنازلي مستمر. ولا جديد لدينا أو لديهم. معنوياتي نائمة. وأحاسيسي ليست معي. نواصل الحفر بإصرار. ونتسلّم كل يوم كميات أخرى من العتاد وتصلنا كل يوم أعداد جديدة من الجنود.

أعتقد أن المعركة القادمة لن تكون سهلة أبداً «هذا إذا حدثت». فنحن مزروعون في كل مكان في الصحراء ولا نملك غير خنادقنا. ومن الصعب على أيٍّ كان أن يهرب من موضعه ويصل إلى مكان آمن إلا إذا كان قادراً على السير عشرات الكيلومترات في الصحراء دون نقاط دلالة.

أحس الآن بهدوء داخلي... لم يعد يهمني ما سيحدث. ولا متى سيحدث. المهم أنني الآن وفي هذه اللحظة أحس باسترخاء وخدر كامل ولا أريد أن أفعل شيئاً سوى ترك شريط الذكريات يتدفق في ذهني لأصطاده وأرميه على الورق وأتخلص منه إلى الأبد. فلن أعيش عمري كله أسير هذه الذكريات.

كتبت أمس عن أيام الدراسة الإعدادية. وهي المرحلة التي أعدها الآن أسعد مرحلة في حياتي. لولا إحساسي المبكر وقتها بأن هذه الأيام ستضيع إلى الأبد. كنت دائماً أقول لأصحابي: إننا الآن في أجمل لحظات الحياة فلدينا الكثير من الحرية والقليل من المسؤوليات. كان الجميع يستغرب كلامي. واليوم حين تجمعنا الصدف أجدهم يتذكرون تلك الأيام على أنها فعلاً أجمل أيام حياتهم. وقد كانت الفترة عموماً فترة رخاء لكل العراقيين ومازال العراقيون يتذكرون بألم عام ١٩٨٠ والأعوام التي قبلها ويتحسرون.

كنت قد بدأت أوسّع مطالعاتي بشكل كبير. كانت العلوم الإنسانية كلها تستهويني. فبدأت ألتهم كتب (محمد حسنين هيكل، وأحمد بهاء الدين، والعقاد، وطه حسين، والحكيم، ويوسف إدريس). وبدأت أقرأ قليلاً في علم النفس «الذي لم أفقه منه الكثير»، ووقع في يدي ذات مرة كتاب قصة الفلسفة لـ (ديورانت)، وكان لهذا الكتاب تأثير كبير في أفكاري. كان هذا الكتاب يحكي قصة تطور الفلسفة من سقراط إلى راسل، وكان الفصل الخاص بشوبنهاور هو الفصل الذي قلب لديّ الكثير من الموازين. لقد صدمني شوبنهاور صدمة سحقت كياني، لم أكتفِ بالفصل الموجز عن شوبنهاور في هذا الكتاب وعثرت بسرعة على كتاب عبد الرحمن البدوي (شوبنهاور)

ولا أزعم الآن أنني قد استوعبت كل فلسفة شوبنهاور آنذاك. ولكن ما أدركته منها كان كافياً لتهشيم الكثير من معتقداتي التي كانت حتى ذلك الوقت مغرقة في المثالية.

الأربعاء ١٩٩١/١/٢

سقط المطر اليوم ولأول مرة بغزارة على الجيش العراقي في الكويت. كنت قد شاهدت أمس مجموعة من العصافير الصغيرة وكان المنظر غريباً عليَّ بعد شهور قضيتها في الصحراء لم اجد خلالها شكلاً من أشكال الحياة عدا الخنافس والعقارب والأفاعي. أدهشني كثيراً وأسعدني منظر تلك المخلوقات الصغيرة التي يبدو أنها حملت إلينا المطر.

الجنود في راحة إجبارية اليوم. فالمطر أوقف جميع النشاطات. وقد استطعت اليوم أن أنام خلال الظهيرة أكثر من ساعة كاملة شاهدت خلالها حلماً غريباً لطيفاً مازلت أذكر بعض تفاصيله. شاهدت نفسي وسط ضباط وحدتي وهم يودعونني لأنني قد نقلت إلى لواء جديد. غادرتهم وبصحبتي اثنان من الجنود ساعة الغروب ومع لحظات اشتعال أضوية الطرق. سرنا لمسافة لأجد نفسي في حيّنا القديم «في الموصل» التفتُ إلى أحد الجنود «الذي انقلب خلال الحلم إلى فتاة» وطلبت منه أن نمر بقرب بيتنا القديم لألقي عليه نظرة أخيرة. وقفت قرب السياج. وأخذت أنظر إلى الحديقة التي بدت نضِرة ومليئة بالأشجار. كانت الأشجار التي زرعناها قد كبرت كثيراً وبِساط العشب أخضر لامعاً. نظرت إلى غرفة الجلوس التي كانت مؤثثة بنفس الأثاث الذي كنا نستخدمه نحن حينما كنا نقطن هذا

المنزل. دخلت بحذر من الباب الرئيسي إلى المطبخ، حيث كان الأثاث نفسه. نفس الدواليب والأطباق والسكاكين.. أشعلت الضوء لأحقق النظر فأحسست بسكان المنزل قادمين باتجاهي. خرجت من البيت راكضاً بسرعة شديدة وأنا أتحسس جيوبي لأكتشف أنني لا أحمل هوية ولا أية أوراق. واصلت الركض تحت المطر «فقد بدأ المطر بالسقوط» حتى وصلت إلى عربة نقل عسكرية كبيرة «إيفا».. صعدت فيها لأجد اثنين من الضباط الذين هم معي الآن في السرية. أعطوني ملابس جافة ارتديتها وشعرت بالدفء نظرت حولي لأجد صورة كبيرة لـ (تشيخوف) معلقة خلف مقاعد الشاحنة وتحتها كتبت عبارة «في هذا المكان تمنح جائزة نوبل».

وقبل أن أعرف إن كنت سأحصل على جائزة نوبل أم لا. أيقظني أحد الجنود ليبلغني بوجوب حضوري إلى مؤتمر الفوج. ذهبت إلى المؤتمر وعدت بسرعة. تناولت العشاء مع ملازم (جاسم) و(كهلان) ثم بدأت رحلتنا اليومية مع الأخبار، وزير خارجية أمريكا سيزور الخليج، ملك الأردن سيزور بريطانيا، مندوب السوق الأوربية سيزور بغداد، صدام حسين يزور الكويت، ياسر عرفات يدلي بتصريح، سوريا وليبيا ومصر يعقدون قمة ثلاثية، إذاعة عراقية سرية تبدأ ببث برامجها. دوامة لا تنتهي ليعود السؤال المفجع ثانيةً يطل من الأعماق صغيراً ويكبر يكبر مثل الفقاعة وينفجر. «ملازم ناهض هل تعتقد أن الحرب ستنشب حقاً؟». هذا السؤال يوجّه إليَّ مئة مرة كل يوم، وكان ملازم ناهض هو الـ (سيبيلا) التي تقرأ المستقبل. مساكين. لا يعرفون أن ملازم ناهض الذي يتكلم أمامهم بحماس كبير عن أسلوب المعركة الدفاعية. واستخدام الأسلحة بشكل أمثل مازال

حزيناً لأنه قد قتل عصفوراً عام ١٩٨٣ وألقاه تحت شجرة دون دفن.

بقي ثلاثة عشر يوماً ويأتي الجواب الكبير عن السؤال المهم: هل ستنشب الحرب؟ أتمنى من أعماقي ألا تنشب. وقد عاهدت نفسي على عدم الشعور بالقلق أو الحزن أبداً إذا قيض لي البقاء حياً بعد ذلك. وأتمنى إذا ما نشبت الحرب ألا تمس المدن. أخشى ما أخشاه أن يصاب أهلنا بمكروه أو حتى بالرعب من جرّاء هذه المعركة.

الخميس ١٩٩١/١/٣

العالم كله يتحرك فزعاً. باحثاً عن حل. الجيش العراقي وحده هادئ تماماً. والجنود منشغلون منذ الفجر حتى المساء بأشياء تافهة. الأرزاق، حفر الخنادق، المناوبات الليلية. استقبل الجنود اليوم خبر زيادة الرواتب بطريقتين. البعض هلل فرحاً للزيادة الكبيرة. واكتفى الآخرون «وهم من ذوي الدخول الكبيرة» بالتعليق قائلين «لا بد أن هذه الزيادة مخصصة لشراء الأكفان لنا».

أسلوب التعزيز الإجرائي ثانيةً مع الجيش. وهو أسلوب ناجح جداً حينما استخدم في الحرب مع إيران. وبعد أن تم تكريم آمري الوحدات بسيارات فاخرة «مما أثار استياء الآخرين» جاءت زيادة رواتب الجميع لتمتص هذا السخط. القمة التي كانت ثلاثية في الأمس أصبحت رباعية وهناك احتمال لقاء لـ (جيمس بيكر) مع (طارق عزيز) في أوربا. وفي النشرة أنباء أخرى.

أصبت اليوم بنزلة برد قاسية. فلم أتحمل الأمطار أمس. أصبح الجو قاسياً جداً. وأنا مصاب بنوبات سعال شديدة نتيجة البرد ونتيجة التبغ الرديء الذي أدخنه بالبايب «مثل أدونيس» بسبب الغلاء

الفاحش لأسعار السكائر.

زيارات القادة والمفتشين مستمرة بكثافة عالية وكأن المعركة واقعة لا محالة «ترى هل سأرى أهلي ثانيةً؟». أتمنى أن أفعل.. فقد فاتني أن أودعهم الوداع الأخير كما فاتني أن أكتب وصيتي. ورغم أني لا أملك ما أوصي به لأحد فإنني أعتقد الآن أنه كان من المفروض عليّ كتابة وصية ما لأحد ما. أنا أرتكب مرة أخرى نفس الخطأ حينما أهمل مثل هذه الأمور فقد نسيت أن ألتقط صورة لزفافي. ونسيت أيضاً أن أقيم حفل الزفاف نفسه ونسيت بعد ذلك أن ألتقط صورة لي بملابسي العسكرية لكي تعلق على الجدار إذا ما متّ. (ترى هل سأموت قريباً). ورغم أني لا أملك أطفالاً سيتيتمون ولا أعيل أحداً ما. ولا أشغل وظيفة مهمة أو أنجز شيئاً نافعاً للبشرية. رغم كل هذا هل يجب أن أموت بهذه السرعة؟

أذكر فكرة لأحدهم يتحدث فيها عن الموت مبكراً وكيف تجعل الذكرى قوية ومؤثرة. وكيف أن الإنسان الذي يعمر طويلاً يفقد جاذبيته ومزاياه في نظر الآخرين... إلخ. ورغم اقتناعي بصحة الفكرة فإنني أعتقد الآن أن ستة وعشرين عاماً ليست عمراً كافياً تماماً للموت. فمازال هناك الكثير من الشوارع التي ينبغي أن أسير فيها والكثير من الأشجار تنتظر أن أزرعها. والكثير من الكتب التي أريد أن أنفض الغبار عنها وأقرأها. ورغم أني مسجل في قائمة الفدائيين هنا فإن هذا لا يعني أنني أختار الموت مقابل الحياة، لكنني أختار أن أموت متقدماً، بدلاً من أن أموت منتظراً ومذبوحاً بشظايا القصف التمهيدي. لن أحاول أن أستبق الأحداث. ولا أريد أن أعرف الآن أكثر مما أعرفه. أتمنى أن يتاح لي الوقت لأنهي كتابتي هذه رغم أنني

أجهل السبب الحقيقي لكتابتها، ورغم تشككي بوجود من يهمه قراءتها «باستثناء زوجتي طبعاً».

كنت أرفض الذهاب إلى روضة الأطفال لعدم رغبتي في ترك الفراش صباحاً. كان الاستيقاظ المبكر يسبب لي إزعاجاً حقيقياً – ومازال–. خاصةً في صباحات الشتاء الباردة. كان دفء الفراش يعني لي السعادة نفسها. كنت طفلاً صامتاً. مازلت أذكر أبي الذي كان يتركني عند الحلاق ويذهب لقضاء حوائجه. كنت أجلس ساعات طويلة وراء الواجهة الزجاجية للمحل أنظر إلى الشارع. ولا أفارق مكاني كتمثال من الشمع.

ورغم أني كنت صغيراً جداً وقتها فإنني أذكر أيام حرب ٦٧ وما بعدها كان خالي الذي يجلسني أمامه على الدراجة الهوائية يمر ببطء أمام الدكاكين الصغيرة، وكانت محطات الإذاعة تبث أغاني أم كلثوم «ثوار. أصبح عندي الآن بندقية...»، ومازالت هذه الأغاني تضعني فوراً إلى جانب الجهة التي تبدأ بإذاعتها أولاً. جسدي يقشعر وأعجز عن النطق عند سماعها.

السبت ١٩٩١/١/٥

غداً عيد الجيش العراقي. وغداً سيزورنا قائد الفرقة «٣٠» لإكمال التفتيش وبعد عشرة أيام تماماً ستنتهي المهلة. ورغم أن حركات دبلوماسية قد نشطت كما يبدو في العالم وبشكل مكثف فإن الأمر لم يعد يعنيني كثيراً، وأن ١/١٥ لناظره قريب، وعند (جورج بوش) الخبر اليقين.. لم أستمع إلا إلى موجز بسيط للأخبار هذا اليوم.

استمعت إلى أغنية طويلة لعبد الحليم عوضاً عن التقارير

والتحليلات المفصلة. لقد بدأت أقدّر شعور النعامة حق التقدير.

إذا كان بقي لي عشرة أيام فلأعشها بهدوء ولأحاول التمتع بها قدر الإمكان. نوبات السعال تمزقني «ولكن دون أن أبصق دماً كـ (تشيخوف). لم أستطع النوم أمس بسبب الحمى التي سأحاول أن أتغلب عليها بسرعة.. فلا وقت للمرض».

أضجرتني مسرحية بستان الكرز. فليس الوقت مناسباً لهذا النوع من الشخصيات التي تتضايق من دخان السكائر الرخيصة. وترتدي قمصاناً بيضاً بياقات عالية أو ملابس صيد. أتمنى من أعماقي لو كان معي كتاب «الإنسان والسلاح» لبرنارد شو مثلاً. أو ملحمة كلكامش. أو دواوين الشعر التي أعشقها. أو كان معي (هلال محمد جهاد) الذي يخبط رأسه على المنضدة أمام ورقة بيضاء الآن بانتظار شطر هارب.

كان من المفروض أن أكتب سيرتي الأدبية القصيرة. أتذكر الآن بوضوح تام أول قصة نشرتها—وهي بالمناسبة واحدة من قصتين نجحت في نشرهما فقط طول حياتي— كنت في عام ١٩٨٠ قد اطلعت على مجلة الطليعة الأدبية التي كانت تهتم بالنشر للأدباء العراقيين. ورغم أنه من المفروض أن تنشر المجلة للأدباء الجدد فإنها كانت تخصص لهم حيّزاً ضيقاً في الصفحات الأخيرة فقط. شدّني في الغلاف عبارة تقول «مجلة تعنى بأدب الشباب» بقيت الجملة عالقة في ذهني.. وبعد ثلاث سنين وأنا في المرحلة الأولى من دراستي الجامعية، كتبت قصة قصيرة جداً «(نسيت أن أختار لها اسماً)»، وأرسلتها إلى هذه المجلة مع رسالة فيها عبارة واحدة (إلى المجلة التي تعنى بأدب الشباب أرسل قصتي الأولى). وبعد عدة شهور أخبرني أحد أقربائي أنه قد قرأ قصتي

منشورة في المجلة. سارعت إلى السوق وبحثت عن العدد الذي كان قد مضى شهران على صدوره. عثرت بصعوبة على نسخة واحدة لأفاجأ بقصتي منشورة مع نقد وإطراء نفخا فيَّ الكثير من الغرور.. لم أصدق نفسي. حملت النسخة معي حيثما ذهبت. أصدقائي، خطيبتي، وأهلي. كان الحدث هائلاً عندي. وكانت المفاجأة كاملة. فمن المعروف أن النشر في العراق لا يتم إلا بصعوبة كبيرة وبتأثير من العلاقات الخاصة والعامة، ويحتاج لبذل مجهود كبير ووساطات دبلوماسية وولائم عامرة. ووو...

كان موضوع القصة يتحدث عن شهيد تراقب روحه جسده حتى مثواه الأخير. كانت أجواء الحرب تسيطر تماماً على كل المنشورات آنذاك «وستبقى كذلك لسنين تلت». ومن الطريف أن الناقد الذي عرض القصة أوضح تأثري الكبير بأدباء عراقيين لم أكن قد قرأت لهم أبداً. ومن المؤسف أنني لا أحتفظ الآن بنسخة من المجلة ولا من القصة.

وفي الأيام التالية اعتقدت أنه لا بد لي من إدامة الزخم والاستمرار في النشر. بدأت بوضع أصابعي في الشق ولا بد من توسيعه لأستطيع الدخول.. حاولت كتابة قصة ثانية وثالثة. دون جدوى. فلم أكن أقتنع بسهولة بكل ما أكتبه. ويوماً بعد يوم بدأت أدرك أن الفرصة السهلة التي أتيحت لي ذات يوم لن تتكرر بنفس السهولة بعد ذلك. فالطليعة الأدبية هي المجال الوحيد المتاح للنشر أمام المئات من الشباب ولا بد –كما أسلفت– من مواهب كثيرة لا أمتلك أياً منها إذا ما أردت مواصلة النشر فيها.

وفي كلية الآداب قسم اللغة العربية؛ القسم الذي حولني إليه معدلي المتوسط كنت قد التقيت بزمرة جديدة من الطلاب. بعضهم

يحب الأدب، وبعضهم قطع شوطاً طويلاً «نسبياً» في هذا المضمار. وكان الدكتور عمر الطالب (بمزاجه العجيب) الشخص الوحيد الذي تؤهله ثقافته الرفيعة وحسّه الفني لمساعدتنا. كتبت ذات يوم قصة ثانية. كانت قصة مصطنعة (كما أذكر) عن لعبة نرد بين شخصين. وكانت اللعبة معادلاً موضوعياً للحرب «العراقية الإيرانية». وكانت أجواء القصة كئيبة تدور في مقهى عتيق «كالمقاهي التي بدأت أتعود ارتيادها آنذاك». وحينما حملت القصة إلى الدكتور عمر فوجئت به بعد أسبوع يخبرني بأنه قد حملها إلى جريدة الحدباء لتصدر في الملحق الثقافي. ولم يكن النشر في جريدة الحدباء (وهي جريدة محلية أسبوعية) يثيرني بعد أن كنت قد نجحت في الوصول إلى الطليعة الادبية إلا أن الأمر لم يضايقني إطلاقاً. وبعد انتظار عدة أسابيع ذهبت مع صديق لي إلى الجريدة لأستفسر عن سبب تأخر نشر القصة ففوجئت بسكرتير التحرير ينصحني بالمطالعة والاستمرار بالمحاولات الكتابية مما أثار فيّ غضباً هائلاً كتمته لأخبره ببرود أنني لم أحاول النشر في هذه الجريدة التافهة إلا لأرفع من مستواها قليلاً ونزولاً لرغبة الدكتور عمر «الذي كان يحظى بمكانة مرموقة لدى اسرة التحرير». انفجرت معركة صغيرة بيني وبين المحرر لم تنته إلا بعد أن سحبني صاحبي خارج المبنى. ومنذ ذلك اليوم اتخذت قراراً قاطعاً بعدم محاولة النشر إلا في وقت مناسب وبنص حقيقي.

كانت الحرب تلقي ظلالاً ثقيلة على ميدان الثقافة المثقلة أصلاً بقيود صارمة. كان كلام وزير الثقافة قاطعاً حينما خاطب اتحاد الأدباء قائلاً (لا كتابة إلا عن روح النصر. ومن لديه نصوص أخرى فليحتفظ بها الآن لنفسه).

ولا شك أن الكتابة عن روح النصر لثماني سنين أمر عسير للغاية كما تبين فيما بعد. استمرت محاولاتي الكتابية بالتراجع. كانت تتناسب تناسباً عكسياً مع قراءاتي، فكلما توسعت دائرة معارفي ومعلوماتي قلَّ احترامي للنص الذي أكتبه، مما دفعني تدريجياً إلى الانقطاع عن الكتابة لمدة عامين كاملين. منذ (٨٣ وحتى ٨٥ تقريباً).. أحسست حينها بالجفاف. مما أثار لديّ قلقاً رهيباً. وبدأت وللمرة الأولى أحسّ بأن ثقتي بنفسي تهتز وكأن السؤال يكبر في داخلي (هل سأتمكن من قول شيء جديد وسط كل هذه المعمعة؟). وسؤال آخر أشد مرارة: لمن أكتب؟ ولم يكن الجواب مشجعاً أبداً على كتابة أي سطر. خاصةً مع احتمالات النشر التي بدت شبه مستحيلة مع استمرار غلق مجلة «الجامعة» الشهرية لظروف الحرب. كان الوسط الجامعي مخيباً لآمالي. فلم تكن الجامعات حصوناً للثقافة كما كنت أتوهم، بل كانت مجرد مدرسة كبيرة، همّ الأساتذة الأول فيها هو كسب العيش فقط. ولا يشذ عن هذا إلا القليل. وكانت كفاءة الكثير من التدريسيين موضع شك، بل موضع سخرية في كثير من الأحيان. وكانت مناهج قسم اللغة العربية بالذات من أسخف ما يمكن أن يدرسه إنسان على الإطلاق. فإلى جانب نظريات جومسكي اللغوية التي كان يشرحها لنا مدرسون متشدقون؛ كنّا ندرس ألفية ابن مالك كما فعل أسلافنا في القرن العاشر. وكان شرح ابن عقيل للألفية مصدر عذاب لنا في كافة مراحل الدراسة ومبعث سخرية طلبة الأقسام الأخرى منّا.

لم يكن للدراسة أي جدية إطلاقاً. كان يكفي ألا تتجاوز الغيابات النسبة المسموحة لننجح في قسم اللغة العربية. وكان تجاوز نسبة الغياب الشبح الوحيد الذي يقلق الطلبة وليس المناهج الصعبة. فقد

كانت هناك عشرات الطرق لتحصل على ما يؤهلك للنجاح ومازلت أذكر أحد الصحاب الذي سألني بحذر وقبل دقائق من امتحان المرحلة الأخيرة للدراسة الجامعية سألني عن الممنوع من الصرف. ما هو؟ فقد سمع به كثيراً ويخشى أن يكون ضمن أسئلة الامتحان. وقد اجتاز صاحبنا الامتحان بجدارة وهو الآن مدرس لغة عربية «ومسمار جديد في نعشها» – كما كان يقول الدكتور عمر الطالب – رغم كل ذلك.....

الاثنين ١٩٩١/١/٧

الساعة الآن هي العاشرة ليلاً. أبدأ بالكتابة بعد أن استنفدت جميع وسائل التهرب المألوفة. قرأت بضع أوراق قديمة. رتبت حقيبة ملابسي. وصندوق تجهيزاتي ودخنت غليوناً مترعاً بالنيكوتين.. وفكرت كثيراً لا أدري في ماذا.. وأخيراً.. لا بد لي من الكتابة الآن. فقد نفذت جميع حججي ولا بد لي أن أحاول كتابة الأوراق الخمسة التي قررت أن أكتبها كل يوم، وحتى إشعار آخر. إشعار قد يكون قريباً جداً...

أمس كان يوم (٦ كانون الثاني) الذكرى السبعين لعيد الجيش العراقي، الجيش الذي أخشى الآن أن ينكب أعظم نكباته. أشار الرئيس إلى تضحيات كبيرة ستقدم –لا شك أنني على رأسها–.. لهجة الخطاب حادة قاطعة تنذر بالثبور وعظائم الأمور. استقبلنا الخطاب بلا مبالاة رغم التصعيد الحاد الذي ينطوي عليه. وعند الظهر كنت أشعر بسعادة. سعادة حقيقية لأن الشمس كانت دافئة جميلة وكان مناخ الصحراء نقياً رائعاً. وفي المساء قمت بتجربة ثالثة

في تحضير الأرواح. وكان الجواب واضحاً «لا حرب – هدنة – مفاوضات» ورغم شكّي إلى الآن بالمسألة. مع أني أمارسها بنفسي فإن هذا الجواب أثلج صدري. وبعث فيَّ راحة عميقة.

– تبين لي أن معظم العراقيين يمارسون الآن مثل هذه الأمور. ولا عجب في ذلك–

واليوم لم أهتم كثيراً بسماع نشرات الأخبار في الإذاعات. لا أريد أن أتلف روعة الأيام الثمانية الباقية حتى انتهاء الموعد الأخير. أغرقت نفسي هذا اليوم بالعمل. تتدفق علينا هنا مواد التحكيم. استخدمنا اليوم العوارض الكونكريتية لتسقيف ملاجئ الراحة وتحصينها ضد القصف وهو عمل أرهق الجنود غاية الإرهاق وهو أمر حسن، إذ إن ذلك سيجعلهم ينامون بعمق وبدون تفكير. رغم أنني ألاحظ أنهم قلمّا يفكرون بالمعركة كأنهم يستبعدون حدوثها. الأغرب من هذا أنهم يضحكون وهم يخبرونني يومياً عن انقضاء يوم آخر من المهلة. أحياناً يكون عظم الكارثة مبعثاً للبلادة والغباء، وهذا من فضل الله على عباده المحبطين.

ثمانية أيام.... أقل من أصابع اليدين، وقد يحترق كل شيء. (إلى أين تمضي الطيور. وكل السماوات نار....)

إلى أين أمضي ولماذا أدرجت اسمي مع الفدائيين. أتذكر الآن قصة فكرت كثيراً بكتابتها ولم أستطع التوصل إلى أسلوب مقنع لطرحها. قصة الفراشة والنار. في حديث الرسول (r) أن الفراشة تظن أن ضوء النار ثقب في جدار الليل يوصلها إلى النهار الذي تحبه. طالما حاولت تطويع هذا المعنى في شكل مناسب لقصة قصيرة ولم أنجح. وأنا الآن أتذكر هذه القصة. فقد يكون هذا اللهب من حولي

ثقباً في جدار الليل وقد لا يكون. سأحاول اختراقه وأرى النتيجة التي أتمنى ألا تكون مؤسفة. فأنا لا أكره الحياة. على العكس من هذا أنا عاشق كبير للحياة بكل فصولها. الشتاء البارد الذي قد لا أشهد نهايته هذه السنة. الصقيع الذي يغطي عشب الحديقة. بخار الماء على زجاج النوافذ. الأنوف المحمرة. المطر ليلاً وأنا في فراشي الدافئ. الاستيقاظ صباحاً وعدم مغادرة الفراش. مُتع قد تبدو بسيطة للسذج. ولكنها بالنسبة لي أمر مختلف تماماً الان. أما الربيع الذي أستعد لاستقباله منذ الشتاء بسماع أغنية (فريد الأطرش) ودندنة العود في المقدمة الموسيقية فهو الربيع. ورغم أني كنت أشعر أحياناً بضيق هائل لسماعي نقيق الضفادع وصرير الجنادب. فإنني أتحرق الآن شوقاً لسماع سيمفونيتها الحبيبة وسط سكون الصحراء الرهيب هذا. الصيف المحرق. النهر. سد الموصل. صيد الأسماك. السباحة. وذكريات رحلات بعيدة إلى المصايف. الإجازة الدراسية. المقاهي المكشوفة المشجرة. السهرات المتأخرة. الأمسيات في الحديقة. ثم يأتي الخريف – سيد الفصول بلا منازع – تخرج البدلات من الدواليب. أربطة العنق الحريرية. تساقط الأوراق في غابات الموصل. في هدوء – في هدوء. تشايكوفسكي وبجعاته الرائعات. بداية لقاء مع عام جديد. يقربني أكثر من الحلم. الحلم الذي عرفته منذ زمن، وتبعته. لكل شيء في الخريف معنى آخر. دور الساعة ٥,٤٠ في السينما والعودة ماشياً إلى البيت. الغابات الخالية قبل الظهر. زخة المطر الأولى ورائحة التراب. حتى التدخين يصبح أشد لذة في هواء الخريف. خريف مدينتي العتيقة (الموصل) التي يحتمل ألا أراها ثانيةً... سأستحق إجازتي الدورية بعد ثلاثة أيام فقط. ولكن هل من

المعقول أن تبقى الإجازات مفتوحة قبل موعد الضربة المنتظرة بخمسة أيام فقط؟؟ لا أدري. ولا أعلم كيف سأقضي مثل هذه الإجازة وبأية أعصاب. هل سأكون بارداً هناك. كما أنا هنا. أخشى ما أخشاه أن تحدث الضربة وأنا في الموصل. بعيداً عن فصيلي. فقد قررت ولسبب ما ألا أدع أحداً يجتاز قاطعي الممتد لنصف كيلومتر ما دمت حياً، وقد أجريت لأجل ذلك كل ما بوسعي من إجراءات وتحوطات.

أحياناً أحس بارتياح. فلو كنت مدنياً أثناء هذه الحملة لأصبتُ – ربما –. بالجنون. أذكر جيداً كيف كنت أتمزق وأتمزق حينما يحدث هجوم إيراني على العراق وأنا لا أزال طالباً جامعياً. (كنت أريد أن أشارك الآخرين مصيرهم فحسب). فأنا في الحقيقة لا أملك نزعة عدوانية قوية تجاه الآخرين. على العكس. فمع كل يوم يمضي أزداد كرهاً للعنف. «لا سيما بعد دخولي للكلية العسكرية». كنت أشعر بالعار حينما يتساقط الصحاب هناك. وأنا في مأمن من الخطر. لن أنسى ما حييت تلك الحرب «وأي عراقي سينساها!». كانت الجدران تمتلئ باللافتات السود. («ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً». الشهيد البطل... استشهد أثناء الواجب المقدس).

العجائز الثكلاوات. الشيوخ المنهارون. رصاص غزير يطلق صوب السماء. قطارات مزدحمة. توابيت ملفوفة بأعلام. طائرات سود تقصف المدن. صواريخ تسقط في أحياء شعبية. لحم طري متناثر. حملات تبرع بالدم. بالذهب. بالنقود. مفارز لجمع قوات «الجيش الشعبي». أرامل في العشرينات. أطراف مبتورة. عيون بلا نور. الكثير من الأمعاء البلاستيكية. لا أنسى الشهور التي قضيتها بلا نوم بعد هجوم «بحيرة الأسماك» واضطراري للذهاب إلى

المستشفى العسكري لزيارة (طارق حازم) صديقي الذي أوشك أن يفقد ذراعه. منظر الردهات الرهيب. أطفال مبتورو الأطراف. رؤوس مفتوحة. أنابيب....

كان يوم ١٩٨٨/٨/٨ يوم جنون حقيقي لدى العراقيين. سعادة دفعتني للبكاء ساعات منفرداً في الحمام. هاأنذا أبتعد كثيراً عن موضوعي. كنت أتحدث عن الحلم الذي تبعته بإخلاص. في المرحلة الجامعية بدأت آفاقي تزداد اتساعاً. فمع ابتعادي عن سن المراهقة وأحلامها العريضة، ومع زيادة احتكاكي بشرائح من الطلبة المثقفين، ومع وجود مكتبة الجامعة الضخمة، بدأت أدرك الصعوبات التي يجب أن أجتازها لأصل إلى نص مقنع. وقد بدأت أقتنع بإمكانياتي في القصة القصيرة. كما تملكتني وقتها فكرة رواية قصيرة. استوحيتها من خطبة للإمام علي كانت الرواية باسم «حكاية الأيام الصفر» واسم الرواية هو الشيء الوحيد الذي أنجزته فقط. أما النص فقد بقي يتشكل في ذهني بأشكال مختلفة.. كنت أظن وقتها «وللأسف» أن مجرد الإكثار من قراءة النقد. ومن ثم التفكير والتخطيط الخيالي للأعمال كافٍ لإظهارها كاملة إلى الوجود. وقد استمررت في هذا الخطأ سنوات عديدة.. كنت أكتفي خلالها بالتفكير والتأمل. بدلاً من محاولة التمرين على الكتابة. كانت هذه الرواية وإلى جانبها قصة قصيرة بمضمون فلسفي «عميق جداً جداً» تدوران في ذهني منذ زمن. كانت القصة تدور في مدينة مات كل أهلها بسبب قذيفة تسقط في مكان ما منها كل يوم. ولم ينج من كل سكانها إلا شخص واحد يستطيع أن يتوقع وقت ومكان سقوط القذيفة فيتجنبها. حتى يأتي يوم تبدأ فيه أسنان هذا الشخص بالسقوط (وهذه نقطة التحول

وضربة النهاية) بعدها ينتظر البطل القذيفة في مكان سقوطها تماماً. قصة عظيمة لو كتبها (دورينمات) مثلاً. ولكنني لم أكتبها ولن أستطيع ذلك الآن. وكنت قد اخترت لها اسم «عيون المدينة الحجرية».

استمر انقطاعي عن الكتابة الفعلية حوالي سنتين. بعدها ولسبب غريب استطعت فجأة أن أكسر الحاجز وأعود ثانيةً للكتابة، إذ حدث أني التقيت صدفة بأحد الأصدقاء الذي حدثني عن ظروفه في الجيش وكيف أن الجنود الذين معه لم يفهموا سبباً لعزلته وإطراقه الدائم. ولما كان عاجزاً عن شرح إحباطاته لهم. قص عليهم قصة حياة مخترعة روى فيها خيبات أمله في الحياة وموت حبيبته واحتراق طفلته وزوجته «رغم أنه كان وقتها أعزب». وفي النهاية استطاع كسب الجميع الذين فضّلوا أكذوبته على الحقيقة البسيطة التي تتلخص في ضيقه لانخراطه (آنذاك) في معركة لا يريد خوضها.

عدت إلى البيت بسرعة. أغلقت باب غرفتي واستلقيت على السرير وأمامي الدفتر والقلم، وبدأت أبحث عن العبارة المناسبة لبدء القصة التي تصورتها مكتوبة بالشكل التقليدي «السرد والحوار». لم أستطع أن أخط حرفاً واحداً، إذ إن فكرة أخرى خرجت من الأعماق، حيث كانت ترقد منذ أكثر من سنتين ولم يستغرق الأمر بضع دقائق حتى أنجزت قصتي «اللا خوف» وهي مسروقة من الفصل الأول من روايتي الموءودة «الأيام الصفراء».. قرأت القصة مرات ومرات. لم أنم ليلتها من الفرح. ها قد عدت ثانيةً إلى الكتابة بعد انقطاع رهيب لم أكتب خلاله إلا نصاً واحداً لم أقتنع به وقتها وهو «الحافلة». ورغم أن البعض من أصدقائي يعتبرون قصة الحافلة هي أفضل ما كتبت على الإطلاق فإنني أتحفظ كثيراً إزاءها. وأجد الآن تأثيراً كبيراً لبيكت

«الكاتب الذي أمقته» على تلك القصة الحوارية. إذن فقد كتبت «اللا خوف» بطريقة غير مقصودة «وهذا ما سيحدث لي كثيراً بعد ذلك». كنت أحصي الدقائق ليجيء الصباح فأذهب بقصتي إلى الأصدقاء الذين استقبلوها استقبالاً حاراً. وبدأت ثانية أفكر في النشر الذي بدا لي أصعب «في السنة السادسة للحرب» فربما تم فهم النص على وجه مريب، وهذا ما يؤدي إلى كارثة. كان خوفنا من الرقابة رهيباً. ورغم أنه قد يحدث أحياناً أن يفلت نص ما من هنا أو من هناك فإن القاعدة الحديدية كانت لاتزال سارية المفعول: «الكتابة عن روح النصر ولا شيء سواها».

الثلاثاء ١٩٩١/١/٨

سمعت نكتة أمريكية جديدة تقول إن التقويم العراقي هذه السنة يمتد إلى ١٥ كانون الثاني فقط أي أن نهاية التقويم ستكون بعد سبعة أيام. قد لا يبدو وقتاً طويلاً للبعض. ولكن الله خلق العالم في وقت أقل من ذلك. الكل هنا ضباطاً وجنوداً لا يخشون إلا شيئاً واحداً: أن تتأجل المهلة الممنوحة للانسحاب. وقد يبدو هذا غريباً. ولكنه ما يحدث فعلاً. فلا أحد يطيق الانتظار فترة أطول.

الأربعاء ١٩٩١/١/٩

لم أستطع أمس كتابة نصف ورقة. يبدو أنني سأعجز عن الالتزام بالعهد الذي قطعته على نفسي بكتابة خمس أوراق كل يوم. كنت أمس مرهقاً للغاية. استغرقت في نوم عميق لعشر ساعات كاملة منذ العاشرة ليلاً وحتى الثامنة من صباح هذا اليوم.

أكملت قبل يومين قراءة كتاب «تشيخوف» لترويا. أحسست بالبداية بمقت لتشيخوف الذي يرفض بشكل قاطع أن يتدخل بأي شأن سياسي. لكنني بعد قليل تذكرت أن تشيخوف نفسه هو مبدع قصة «فانكا» القصة التي أبكتني طويلاً وأنا في الحادية عشرة من عمري. إن كاتباً كهذا ملتزم جداً بشعبه مهما ادعى. وقد يكون موقفه الشخصي محايداً «لسبب ما» إلا أن إبداعه لم يحايد. وقد حسدته على الشهرة التي حصل عليها، فقد عاش في العصر الذهبي للقراءة. عصر انتشار التعليم في المرحلة التي سبقت ظهور السينما والتلفزيون وبقية وسائل الإعلام الجماهيرية الأخرى التي دفعت الكتاب إلى زاوية مهملة. ورغم أن العراقيين مازالوا شغوفين «نسبياً» بالتهام الكتب فإن السبب يرجع في رأيي إلى تفاهة ما تقدمه برامج الإذاعة والتلفزيون لهم وليس حباً خاصاً منهم بالكتاب. «كيف سأستطيع مخاطبة الآخرين وسط هذه الظروف؟». سؤال يفرض نفسه عليّ دائماً وطالما احترت في الجواب. أحياناً كان يداعب خيالي حلم الكتابة للتلفزيون. إنها طريقة مثالية الآن للتوجه إلى أعرض شرائح المجتمع وبكافة طبقاته، ولكن المشكلة نفسها تبقى قائمة، فالكتابة لوسائل الإعلام العراقية تتطلب مواصفات معروفة تتربع على رأسها «روح النصر وإدامتها». فضلاً عن العلاقات العامة والجهود الدبلوماسية وما إلى ذلك، لكي يستطيع النص الذي يحوز رضى الرقابة أن يرى طريقه للنور – فالإعلام– ككل ميادين الدولة الأخرى – خاضع تماماً للعلاقات والوساطات والمصالح الشخصية. وإذا كان أديب محبط كـ «أسامة أنور عكاشة» قد استطاع أن ينتشر أكثر من نجيب محفوظ مئة مرة بسبب كتابته للتلفزيون، فليس من الضرورة أن أستطيع السير على خطاه بنجاح.

وعموماً فالمسألة قد حُلّت بالنسبة لي فأنا لا أملك وسيلة أخرى إلا الكتابة على صندوق عتاد في ملجأ محفور في باطن الأرض دون نوافذ. وعلى ضوء «فانوس» صغير. وسأحسب ستة أيام أخرى قبل أن تزلزل الأرض زلزالها وينتهي كل شيء... لقد كتب دوستويفسكي «المقامر» في ٢٤ يوماً ويبدو أنني مضطر الآن لاختصار الفترة إلى الثلث. ورغم أن الوقت ضيق فإن سعادة كبيرة تغمر الجميع الذين باتت خشيتهم الوحيدة أن تتمدد المهلة ويزداد العذاب. الكل هنا مطمئنون لانقضاء المهلة، بل فرحون بها عسى أن شيئاً جديداً سيحدث. لدى الجميع آمال غامضة في أشياء لا يعرفونها. إنهم يريدون أي تغيير ولا يرفضون شيئاً إلا الوضع الحالي الذي هم عليه. أمس حدثني ملازم أول «جاسم» عن أمنيته في طوفان يجتاح كل العالم. طوفان كطوفان نوح. بعده سيتاح للأرض أن تبدأ بداية جديدة بعد أن تزول عنها كل آثامنا.

وأنا شخصياً لا أعتقد أن طوفاناً سيحدث «ربما حدثت زلازل أو حرائق فقط» وأتمنى من أعماقي ألا يموت جميع البشر «فنحن سنفديهم» وأتمنى لهذا النص أن يكتمل، وأن يقوم رفاقي وزوجتي بمحاولة نشره وأحملهم مسؤولية ذلك كاملة. لينتظروا عاماً أو اثنين حتى يجيء الوقت المناسب «لا بد أن يجيء» ويصبح مسموحاً للإنسان أن يقول ما يفكر في قوله. بالطريقة التي تعجبه.

وربما لاقى الكتاب رواجاً لا أتوقعه – فكل شيء جائز– عندها سيقال (ترى هل كان –المرحوم– يعرف أن كتابه سينتشر هكذا؟) أما الآن. فأنا واثق من صعوبة «ما لم أقل استحالة» نشر أي عمل لا يصفق. فكل شيء في العراق يصفق. يصفق حتى تحمر الأكف. يصفق

للرئيس الشمس. الرئيس الذي يحكم قبضته الحديدية ذات القفاز الحريري على رقابنا. ورغم أن بعض الشجعان قد أطلقوا الرصاص على صورة له وهم سكارى. فإن الأغلبية الساحقة مازالت تصفق.

لست ضد شخص «صدام حسين» فهو رجل عظيم بمقاييس التاريخ التقليدية لو كتبها المنتصرون، ولكنني ضد الدكتاتورية التي أراها قبيحة قبيحة. مهما وضعت من مكياج على وجهها. هل صحيح أن الشعب الذي ظهرت فيه أولى الحضارات وأول القوانين. وأعطى للإنسانية الكثير من المخترعات في الرياضيات وعلم الفلك «كما تقول الأغنية» هل من المعقول ألا يكون قادراً على التمتع بقليل من الحرية، لأنه سيسيئ استخدامها.. ولأنه غير مؤهل بعد لخوض مثل هذه التجربة!

الجمعة ١١/١/١٩٩١

لم أستطع الكتابة أمس نهائياً. فقد قضيت اليوم كله في السفر من الكويت إلى الموصل في ظروف صعبة... أجل.. وعلى غير ما كان متوقعاً حصلت على إجازة قصيرة من يوم ١٠ ولغاية يوم ١٤. أي قبل الموعد بيوم واحد. وهذا ما سيدفعني إلى اتجاه آخر فلن أجلس الآن في موضعي وأحسب الساعات ولن أتحدث هنا عن الحرب. فكل شيء في المدينة. «كما لاحظت لحد الآن» لا يعكس رعباً أو هلعاً، بل إن أكثر الناس هنا يتناسون كل شيء ولا يذكرون المعركة من قريب ولا بعيد. كانت رحلة صعبة. محطات الوقود ملأى بصفوف طويلة من السيارات التي تنتظر دورها. حوادث طرق أكثر من المألوف. طقس بارد.

حاولت الكتابة في الطريق كي لا أخسر وقتاً ثميناً. لكنني فشلت، «إذ تستحيل الكتابة عذاباً وعشرات العيون تحدّق فيك».

اجتمع (بيكر وطارق عزيز) في جنيف ست ساعات وانتهى المؤتمر بالفشل «رغم الأجواء الودية للقاء». سأنهي الكتابة الآن. فيبدو أن الأصدقاء لن يتركوا لي وقتاً للكتابة هنا.

السبت ١٢/١/١٩٩١

لم أستطع الكتابة أمس رغم محاولاتي المستميتة. الوقت يجري بسرعة شديدة. الناس هنا منهمكون في مشاغلهم ومشاكلهم اليومية دون أن يأخذوا في الاعتبار مسألة وقوع الكارثة. إنهم يتجاهلونها بشكل كامل وبتسليم مطلق. كلما حاولت مناقشة أحدهم حول الموضوع أشاح بوجهه بعيداً وغيّر مجرى الحديث. شخص واحد شاهدته يغلف شبابيك منزله «بالنايلون» ليمنع التلوث الكيميائي حسب رأيه، ولكنه مع هذا كان يعمل وهو يروي نكات قديمة ويضحك منها كثيراً.

الكثير من الناس يحسّون براحة خفية لم يعد لديهم الآن ما يخسرونه.. والموت الآن أفضل بكثير من عذاب بضع سنين أخرى. أصبحنا الآن شعباً ينتظر رصاصة الرحمة، بل ويتلهف عليها. إنهم يقتلون الجياد. أليس كذلك؟ لا. لم يكن العرب يقتلون الجياد، بل كانوا يضعونها في مارستانات خاصة حتى تموت هرماً. لكن ذلك الزمن قد ولّى... ذهبت اليوم إلى الجامعة. كان هلال وعمار مستمرين في دراستهما العليا رغم عدم اقتناعهما بالأسلوب ولا بالمادة التي يدرسانها. عموماً أصبحت الدراسة طريقة للتهرب من

الخدمة العسكرية. حضرت معهما اليوم محاضرة في النقد للدكتور عمر الطالب. ورغم أنه لم يكن أمامي كوب شاي ولا قطعة بسكويت مغموسة فإنني استغرقت في رحلة إلى الوراء، إلى حيث كنا نحن الثلاثة وآخرين. نجتمع دائماً في مناطق مختلفة وننهمك في مناقشات صاخبة حول كل شيء. حتى ذلك الوقت. ورغم استمرار الحرب وقتها إلا أننا كنّا لا نزال نملك بارقة أمل في الوصول إلى غايتنا. كنت وعمار نكتب القصة. وكان هلال شاعرنا. كانت المقاهي التي نتردد عليها كثيراً لا تتيح لنا إلا فرصة محدودة للنقاش «فللحيطان آذان» وكل كلمة نقولها «أو ننوي قولها» قد تستخدم ضدنا في المحاكمة. وليس من حقنا توكيل محام. لذا فقد كنّا نفضل غالباً الاجتماع في أحد البيوت «فذلك أكثر أمناً، رغم بعض المحاذير». وكنا نتكلم على هوانا ونخطط لأعمال جديدة أو نقرأ أعمال بعضنا بعضاً ونناقشها. وكان عمار عبد الباقي سيد الموقف بلا منازع ولم أكن أسلم إلا نادراً من تعليقاته الساخرة المحكمة التسديد، ولا من نقده اللاذع. فقد كان يتمتع بسرعة بديهية لا أمتلكها. وكان حاضر النكتة مرير السخرية. وأعتقد أنه لو كان يكتب بنفس الطريقة التي يتكلم بها في مكان يسمح له بقول ما يريد لأصاب شهرة واسعة. أما هلال فكانت قصائده تنزل على قلوبنا برداً وسلاماً. كان «برغم قدرته المحدودة وقتها على النقاش» يدهشنا بقصائده التي تعبر تماماً عن تمزقنا. ومن المؤسف أنه لم ينشر لحد الآن أي قصيدة من قصائده الرائعة. التي قرأت آخرها قبل أيام فوجدت أنه يتقدم بسرعة مذهلة – ربما أنضجته الظروف التي أحرقتنا –.

استمعت قبل قليل إلى الأخبار. وافق الكونغرس على منح

الرئيس(بوش) صلاحية شن الحرب. مظاهرات عارمة ترفض الحرب في كل مكان (روما، باريس، نيويورك، بون). مئات الآلاف يتظاهرون في كل أنحاء العالم. لا أحد يريد الحرب الكل يرفض إلا نحن هنا. في العراق فلن تخرج مظاهرة واحدة ما لم يخط «الرفاق» لافتاتها. الكل ينتظر من الرئيس صدام أن يسمح للناس أن يخرجوا للتظاهر قائلين «نريد صدام ولا نريد الكويت». ولكنه كما يبدو لن يسمح. هذه الإشاعة التي كذّبها «مجلس قيادة الثورة» لا تزال سارية المفعول في الشارع ويعلق عليها الكثيرون الكثير من الآمال.

ورغم أن (سيادته) قد وعد العراقيين في خطاب تسلّمه القيادة ألا يكون السيف وحيداً بين السيوف إلا أنه سرعان ما كسر بقية السيوف والخناجر، بل وسكاكين المطبخ. وتحوّل إلى مقصلة ينتظر منها كل الشعب ألا تهوي على رؤوسهم، وأن يمنحهم مكرمة الخروج في مظاهرة تدعو له بالبقاء وطول العمر، وترجوه التخلي عن الكويت تفادياً للمذبحة.

الأحد ١٩٩١/١/١٣

بقي من المهلة يومان. صفارات الإنذار تدوي في كل أنحاء العراق كممارسة على الدفاع المدني. الساعة الآن هي الرابعة عصراً ومازلت أتخبط وأتخبط. غداً سأعود إلى الجبهة وبعد غد قد تنفتح أبواب الجحيم على مصاريعها. أسمع صرخات الطالبات في المدرسة التي تجاور بيتنا. ترى ماذا سيفعلن إذا ما حدثت معركة حقيقية وليس مجرد ممارسة. لا بد لي أن أسرع قليلاً في إكمال المذكرات... قمت قبل قليل بإعادة النظر في أوراقي القديمة. اكتشفت قصتين أخريين

كنت قد نسيت كل شيء عنهما لأنهما في الدرج منذ زمن أجهله. استمتعت بقراءتهما وكأنني قد ألفتهما للتو. الأولى بعنوان «تساؤل» كنت قد كتبتها في عام ١٩٨٨، والثانية أقدم منها وبدون عنوان أطلقت عليها اسم «مرور» بعد تفكير مرير.

ثم قمت بسلسلة القصص حسب تاريخ كتابتها على ورقة كي لا أخلط بينها فذاكرتي لم تعد تستطيع الإيغال في الماضي بدون عكاز. لا المكان هنا ولا الوقت في صالح الكتابة. أعجز عن الانفراد بنفسي نصف ساعة. فالأهل والأصحاب لا يدعون لي مثل هذه الفرصة. وأنا أيضاً «في الحقيقة» لا أريد التفريط بأي ثانية... أريد أن أعيش اللحظات المتبقية. وأن أسعد بها. فمن يعلم ماذا سيحدث بعد غد.

الاثنين ١٩٩١/١/١٤

قصة عابرة

ربما سوف تسمع منها القليل، وتشغل عنها

لعلك لا تملك الوقت

أو لا ترى طائلاً من رماد قديم

لأن ادعاء الحرائق صيحة هذا الزمان

المقطع الأول لقصيدة «اعتذار إلى ولدي القادم» لهلال محمد جهاد. قرأت القصيدة ثانيةً هذا اليوم. الوقت الآن حوالي العاشرة صباحاً. البيت فارغ تقريباً «فالكل في أعمالهم» وأنا هنا وحدي أحاول الاستمرار في الكتابة. بعد ساعات سأرحل عائداً نحو الكويت لأصلها فجر الغد «كما يفترض».

أمس تعرضنا لخدعة جديدة. فعلى غير العادة بدأ التلفزيون فجأة بعرض الأغاني الراقصة واستمر العرض متواصلاً بضع ساعات مما ذكرنا على الفور بليلة انتهاء الحرب العراقية الإيرانية. استمرت إلى نشرات الأخبار في الراديو. لم يكن هناك جديد. عدت ثانيةً إلى التلفزيون وبقيت حتى جاوزت الساعة الواحدة ليلاً بقليل. بعدها تبين أن السيد الرئيس قد عقد مؤتمراً مع الصحفيين العراقيين. ومنذ البدء استمرت لهجة الرئيس «الذي بدا متفائلاً وأكثر حرية في الحديث مع العراقيين منه مع الصحافة الأجنبية» استمرت لهجته في الحديث بنبرة متفاوتة في حديث عن السلم حيناً وعن الحرب أحياناً أخرى. أغلقت التلفزيون. وخلدت «مغتاظاً» إلى النوم. فلا جديد تحت الشمس. أعددت حقيبتي للسفر. وقد قررت ألا أصطحب معي هذه المخطوطة. خشية أن تضيع. سأحاول إكمالها «إن أكملتها» هناك كما أنني لن أصطحب معي أية أوراق أخرى. فأنا أخشى أن تضيع معي هناك، إذ لا أحد يضمن ما سيحدث.

وإذا ما أردت الاستمرار في سرد حياتي ومسيرتي الطويلة على درب الأدب لا بد لي أن أذكر بكثير من الاعتزاز قصة «اللدغة» وهي قصة بأجواء أسطورية كنت قد استوحيتها من كتاب «الغصن الذهبي» بترجمة جبرا. ففي مقطع من الكتاب يرد: أن روح الملك تحل في جسد أي حيوان تشاهده الحاشية بعد وفاة الملك مباشرةً.. وبالطبع تحرك محور القصة باتجاه آخر، معبراً عن رأيي في مسألة مازلت أراها صحيحة. ورغم اختياري شكل الحكاية الأسطورية «بل وربما بسبب اختياري هذا» فإن القصة كانت مفهومة للأغلبية منذ البداية.

وكالعادة لم تكن القصة من النوع الجائز نشره آنذاك. فقد كان

عام ١٩٨٦ عام حزن وحداد... إذ شهد انكسارات خطيرة للجيش وتمزقات رهيبة. وكان الجيش، بل والوطن كله بحاجة ماسة إلى كل كلمة تحافظ على روح النصر. ولا شيء سوى ذلك. ورغم أن القصة لاقت إعجاباً شديداً «وقتها» من قرائي كلهم، إلا أن إعجاب سبعة أو عشرة من الأشخاص لم يكن ليشفي غليلي. ولم يكن هذا أصلاً هدفي من كتابة القصة. وضعت القصة في خزانة كتبي جنباً إلى جنب مع قصة «اللا خوف».

لم يستغرق الأمر مدة طويلة قبل أن أنهي قصة أخرى. كان وجه الممثل «كلاوس كنسكي» قد أثار فيّ إحساساً ما. وجهه الجلدي الخالي من التعبير. وصياح ديك في وقت مبكر من الليل. وقت لا يفترض أن يصيح فيه أي ديك أوحيا إليّ بقصة جديدة. كانت تعبر تماماً «وقتها» عما يجري حولي. وبنفس السرعة الشديدة التي تستغرقها عملية نقل الفكرة من الذهن إلى الورقة «سرعة التدوين» أنهيت قصة «العائدون» التي احترت منذ البداية في تسميتها. كنت أكتب القصة بسرعة وأعجز عن اختيار الاسم المناسب لها. «طرح أحد الإخوان فكرة الترقيم للأعمال بدلاً من الأسماء»، ورغم أن القصة لم تحظ بإعجاب الجميع «رغم قلة عدد من قرأها» إلا أنني كنت واثقاً – وقتها – من إنجازي لعمل معبّر.

وفي صيف عام ١٩٨٦ تمت دعوة الطلاب إلى معسكرات التدريب وجعلهم جيشاً احتياطياً تحسباً لما سيحدث. استمر التدريب أربعة أشهر تغير خلالها نمط حياتنا اليومية. ولم يعد هناك متسع للقراءة العميقة أو للكتابة «ومن يستطيع الكتابة في قاعة تضم سبعين شخصاً؟». لكن البديل كان حاضراً. نقاشات صاخبة طول الوقت

مع سخرية مريرة. وأفكار أكثر جرأة. كان الخوف ينتابنا، إذ كان مصيرنا معلقاً في الفراغ. ولم يكن أحد يدري ماذا سيحدث. وباستثناء الاستمرار في مراسلاتي مع (ثابت الحمداني) الصديق الذي كنت دائماً أتحفه برسائل عصماء تدفع عنه وحشة الحرب التي يخوضها. باستثناء الرسائل لم أكتب خلال تلك المدة كلها أية قصة. لكن بذرة غامضة لقصة جديدة كانت تكبر بداخلي، إذ كانت مدينة (سنجار) التي عسكرنا قربها، تنام منذ ساعات المساء الأولى. وفي الساعة التاسعة مثلاً، كانت المدينة تبدو خالية من أي أثر للحياة. «خوف تحول إلى عادة» – كما قال لي أحد مواطنيها وقتها –. وفي منتصف الشهر العاشر. ومع الأيام الأولى لعودتنا إلى الجامعة كتبت فوراً قصة «المنقذ» بنفس أسطوري حكائي. وهو أسلوب أعشقه وكنت أتمنى دائماً أن أكمل روايتي العتيدة «الأيام الصفراء» لأشبع نهمي بهذا الأسلوب. ومن الواضح لديّ الآن أن قصة المنقذ قد دارت في نفس مدينة (اللا خوف) تلك.. ولكن في شارع آخر من شوارعها ربما. ولكنها نفس المدينة والتي سأكتب لاحقاً عنها بضع قصص أخرى. أثارت قصة «المنقذ» جدلاً واسعاً. اتهمني البعض باقتباس أجوائها من فيلم تونسي لم أره. واتهمني آخرون من اقتباس مشاهد من فيلم «الدم الأول» لكن أحداً لم يعرف المثير الأول الذي دفعني للتفكير فيها، إذ كانت عبارة في لقاء صحفي مع (دورينمات) يقول فيها (ماذا يحدث إذا ما دخلت إلى المتاهة لتقتل الوحش إذا ما تحولت أنت نفسك إلى وحش!) عبارة من هذا القبيل تشير إلى الاسطورة اليونانية القديمة. كانت هذه العبارة قد أثارت الشرارة الأولى قبل شهور وكانت مدينة سنجار «لشبهها الكبير بمدينتي الخيالية كما

رأيتها» مثيراً آخر ينتج عن اقترانها قصة جديدة عن بطل كنت أحاول ألا أكونه.

ومرّ الوقت سريعاً وابتدأ عام ١٩٨٧ «وهو عام فاصل في حياتي كما سترون» كان الجميع منهمكين في إعداد بحوث تخرجهم ومحاولة الحصول على درجات عالية، إذ إن هذه السنة هي السنة الأخيرة في دراستنا الجامعية. كان هلال قد اختار أن يحقق مخطوطة نحوية «وهو أمر طالما اعتبرته سخيفاً»، وقد تطلب منه ذلك رحلات عديدة إلى بغداد ليستنسخ نسخاً أخرى من المخطوطة التي يحققها. وفي أحد الأيام عاد ليحدثني عن فتاة أحلامه التي شاهدها هناك. ولكن وقته كان أضيق من أن يحاول التعرف إليها. وبالطبع فإنه من السخيف في هذا الوقت أن نتحدث عن فتيات الأحلام والصور الخيالية. إلا أن هلال «وهو استثناء» كان وقتها جاداً وحزيناً للغاية. لم يستغرق الأمر بضع دقائق من العزلة في غرفتي. حتى انتهت قصة «الأحمر والأخضر» كانت القصة تحكي عن الحلم. والحلم الآخر. قصة تتكلم بصدق عن السيارة «بطلة القصة» وليست الفتاة. وقتها كان همّ الجميع الحصول على سيارة.. كان تكريم المقاتلين بسيارات. قد ألهب في الجميع حمى مجنونة. كانت السيارات سبباً مهماً جداً لكسب الحرب العراقية الإيرانية؛ سبباً دفع الكثيرين من آمري التشكيلات إلى زج تشكيلاتهم في معارك لم يستعدوا لخوضها. وفي تنافس الطيارين على تنفيذ الطلعات... إلخ.

اختلفت الآراء تماماً في القصة. صرخ ثابت لا. لا ينبغي أن تكتب هكذا.. أنك قاس جداً. بينما قرأ عمار القصة ولم يعلق عليها إطلاقاً. قرأها آخرون وأعطوا وجهات نظر تنم عن بعض الغباء. لم أجد في

النص وقتها صعوبة تذكر لأحاول تبسيطه. والعجيب أن هلال لم يتعرف من خلال النص إلى قصته التي حكاها لي قبل أيام. تركت القصة دون اسم «كالعادة» في خزانة الكتب جنباً إلى جنب مع شقيقاتها الأكبر.

فاتني أن أتكلم عن السقف. القصة التي أعتقد أنها كانت سبباً لرفض قرائي «العشرة» قصة (الأحمر) كانت قصة السقف القصيرة جداً «والتي أضعت نصها ولم أعثر عليه إلا بصعوبة شديدة لأضيّعه مرة أخرى الآن.. وسأحاول البحث عنه ثانيةً». كانت قصة ناجحة جداً وقتها في عيوني. وعيون القراء «والمستمعين في بعض الأحيان». كانت قصة بسيطة. وذات دلالة عميقة تعبر وقتها (وحتى الآن) عما يمر بنا. كنت ذات ليل أقرأ في مجلة (آفاق عربية) لقاءً مع مخرج مسرح شكسبيري. وكان يتكلم عن التنوع في المسرح. تحدث تفصيلياً عن الستائر، ورمزيتها في مسرحيات هاملت. أعجبتني الفكرة. كنت مستلقياً على السرير وأنا أنظر إلى الستائر وأبحث لها عن معنى جديد. لم أستطع. نظرت إلى أعلى. سقف غرفتي العتيد. ماذا عنه. ماذا سيحدث لو كان له وظيفة أخرى غير حمايتي. مددت يدي إلى الدفتر والقلم اللذين أحتفظ بهما قرب رأسي دائماً «ربما لإغواء شيطاني القصصي على المجيء» انطلقت أكتب بنفس واحد قصة السقف الجديدة. ولم أتوقف حتى أكملتها.. ورغم بساطة القصة «وربما بسبب بساطتها» فقد لاقت استحساناً وترحيباً شديداً «أشبعا غروري» هذا الغرور الذي أوشك أن يتحطم بعد شهرين حينما استُقبلت قصة «الأحمر» بالفتور الذي ذكرته.

وبعد شهرين آخرين. كدت أتعرض لحادث دهس في شارع

اعتدت عبوره دائماً «شارع نينوى» وهو أحد أهم شوارع المدينة العتيقة. ولم تكن تلك هي المرة الأولى التي فاجأتني فيها سيارة في هذا الشارع «سأكتب قصة عن هذه الحادثة»، قلت لصاحبي الذي كان يرافقني. ولم أكن أعرف تماماً كيف سأكتب هذه القصة. أسابيع مرت ولم أمسك قلماً ولم أجرب الكتابة. حتى برقت الفكرة بذهني بعد وجبة عشاء دسمة وأقداح الشاي والكثير من السكائر والدواوين الشعرية الصغيرة «كعادتي كل شتاء». كانت الفكرة قد أضمرت برأسي تماماً. وحفزتني القصائد التي قرأتها «للبياتي» إلى جرّ القلم فوق الورقة بسرعة متزايدة لأنهي قصة (الشارع). وهي أول قصة قمت بنسخها ثانيةً مجرياً فيها بعض التحوير لأعيد نسخها ثالثةً بتحوير آخر. حتى استقامت بأبسط شكل ممكن. فقد كانت البساطة هاجساً عندي ورد فعل عنيفاً لمحاولات أدبائنا في الإغراق بالغموض «حتى كادت نصوصهم تستعصي على فهمهم هم شخصياً». «يفهمني عشرة في كل العراق» يقول أحدهم وكنت أقول دائماً وماذا لو لم يقرأ لك هؤلاء العشرة. كانت الكتابة لنخبة النخبة مبرراً للكثيرين للإيغال في تجارب مبهمة كانت نتيجتها الوحيدة ابتعاد القراء عن الكتاب تماماً.

والآن... أنا أعتقد أن سبب كل ذلك الغموض هو محاولة الهروب من الكتابة في مواضيع يتعذر نشرها في وسائل الإعلام العادية أولاً، وعدم وجود إبداع حقيقي لدى من تتاح لهم فرص النشر ثانياً، وأخيراً انسياق الآخرين مع التيار الجارف مصفقين ومهللين. بفنيّة عالية وبتكنيك رفيع وبلا معنى لأي شيء. فما قيمة المعنى؟!!

أعتقد الآن جازماً أن هناك مئات النصوص الرائعة موضوعة في

الخزانات والأدراج تنتظر الإفراج عنها كما أنتظر. وأتمنى ألا تضيع كما ضاع الكثير من قصصي التي كنت أحتفظ ببعضها في بعض الكتب. أعطيه لأحد الأشخاص فتسقط الورقة ومعها إبداعي كله وتضيع. ولولا زوجتي «خطيبتي آنذاك» وهي أشدّ قرائي حماساً لي «طبعاً» لضاعت كل كتاباتي وأوراقي. فهي الآن تحتفظ بنسخة أخرى لكل قصة أكتبها.

كان عام (١٩٨٧) حافلاً بالإبداع كما أرى. ولعل السبب الرئيسي لذلك هو بحث التخرج الذي كان يتطلب مني الكثير من القراءة والكتابة مما يضعني في جو مناسب ومقارب للأجواء الكتابية. كنت قد اخترت موضوع «أساطير العرب قبل الإسلام» وبدأت الكتابة فيه مخالفاً جميع الآراء التي كانت تملى علينا في الجامعة. كان لايزال لديّ دافع للتحدي. وكان من نتائج هذا البحث بضع قصص قصيرة جميلة كما أرى الآن. منها «أغنية الخراب» التي كتبتها قبل تخرجي بقليل. كان التخرج يعني الخدمة الإلزامية. وكانت الخدمة تعني الحرب التي مضى عليها سبع سنين دون أن تنطفئ. كانت معنوياتي شبه منهارة في تلك الفترة التي سبقت دخولي الجيش. وكان الموت يلوح أمامي أينما نظرت.

سأنهي الكتابة الآن. فبعد أقل من ساعة سأرحل إلى الكويت. ولا بد لي من إنجاز بعض الأعمال. وأتمنى من أعماق أعماقي أن أتمكن من إكمال هذه المخطوطة. ونشرها وأنا على قيد الحياة.

ناهض

كانت أيام دراستي الجامعية تمر بسرعة وأنا أحاول تجاهل كل شيء لأصحو فجأة على تبليغ بضرورة تسليم بحث التخرج خلال ثلاثة أيام. ولم أكن قد أنجزت منه وقتها إلا المقدمة وبضع صفحات رغم أني قد قرأت عشرات الكتب المتعلقة بالموضوع واستنسخت ما يهمني منها. حاولت تأجيل موعد تسليم البحث ليومين آخرين. نجحت في ذلك ثم بدأت الكتابة بسرعة شديدة محاولاً طرح كل الأفكار التي تولدت لديّ عبر صفحات البحث ولم يكن من الممكن بلوغ الكمال في ظروف كهذه، بل على العكس، كان أسلوب إنجاز البحث يبدو مضحكاً فقد كنت أكمل الصفحات لأعطيها بسرعة للصديقات والأصدقاء ليقوموا بتبييضها ومازلت أذكر النسخة العجيبة التي كتبت بعدة خطوط وبأنواع مختلفة من الورق وبأخطاء إملائية فاضحة ومفردات وجمل ناقصة هنا وهناك. أخيراً سلمت بحثي «بعد الموعد المؤجل بيومين» وانقطعت عن الدوام في الجامعة استعداداً لخوض امتحانات البكالوريوس «فوجئت لاحقاً بحصول البحث على تقدير جيد جداً»... وفي أحد تلك الأيام مفاجأة للمرة الثانية بقصة جديدة تنشر لي في مجلة التضامن اللندنية هذه المرة فقد كنت قد اشتركت –بعد إلحاح أحدهم– في مسابقة القصة القصيرة جداً. وكان ما أغراني هو وجود لجنة تحكيمية عالية المستوى «جبرا، ألفريد فرج، بلند الحيدري، زكريا تامر» ولكنني وكالعادة أرسلت رسالتي متأخراً جداً.

يبدو أن القصة قد وصلت بعد نهاية المسابقة لكنها لم تهمل، إذ وضعت في درجة استحدثت لها ولبعض القصص الأخرى المتأخرة أيضاً. وكان فوزي في مسابقة كهذه شارك فيها أكثر من خمسة آلاف قاص من كل الوطن العربي اعترافاً عربياً بأصالتي – بعد أن انتزعت الاعتراف العراقي عام ٨٣–. هذا ما فكرت فيه ولم أجرؤ على إعلانه.. كنت متأكداً وقتها من لا جدوى كل ذلك. فهذه فلتة أخرى قد يتاح لي مثلها بعد عشر سنين وأخرى بعد عشرين سنة لأنتهي وأنا في الخمسين بحصيلة لا تتجاوز خمس أو ست قصص قصيرة منشورة هنا وهناك. وكان أطرف ما في الموضوع أنني كنت قد نسيت أن أكتب عنوان القصة التي شاركت فيها. لذا فقد ظهرت باسم آخر هو «الأسنان» بدلاً من عنوانها الدقيق «اللا خوف» مما أفقد القصة مفتاحها الأصلي.

ولا أذكر بالضبط عدد الأفلام التي شاهدتها أو الكتب التي قرأتها في تلك الفترة. ما أذكره يقيناً هو عزوفي الكامل عن بذل أي جهد للدراسة فقد كنت واثقاً من شيء واحد هو أنني وبعد شهر أو يزيد قليلاً سأكون قد ودعت حياتي السابقة إلى الأبد، وذهبت إلى هناك... حيث النار والموت والدم. وكلمة الوطن. وسيحدث هذا حتماً سواء أنجحت أم لا. فالقانون هنا يدفع جميع طلاب المرحلة الأخيرة إلى الجيش ناجحين كانوا أم راسبين. لا فرق. رغم هذا مرت الامتحانات بصورة طبيعية. وظهرت النتائج بعد أيام، وكنت (كالعادة) من الناجحين. وبدأت زميلاتنا الطالبات بالحديث عن حفلة التخرج التي تنظمها الجامعة. ولم أكن مستعداً أبداً لهذا النوع من الحفلات لأنني كنت أكره التخرج رغم عدم حبي للجامعة. كنت

أكره كل شيء يذكرني بانطواء هذه الصفحات من حياتي، لخوفي من المرحلة التي ستليها.

كان حفل التخرج الذي شاركت فيه مرغماً حفلاً كئيباً للغاية. حاولت جاهداً «وحاول معي الجميع» الظهور بمظهر السعداء. إلا أن الجميع (لاسيما الذكور) كانوا يحسّون بهول ما سيحدث لهم بعد أشهر، إذ كانت نيران القادسية على أشدّها. وكان نعي زميل أو اثنين ممن سبقونا في التخرج أمراً مألوفاً لنا بعد كل هجوم. وبعد أسابيع قليلة ذهبت وهلال إلى دائرة التجنيد. سلمنا وثائق التخرج وانتظرنا تسلّم كتب سوقنا إلى مراكز التدريب. كان الموقف رهيباً وكان القلق مما سيأتي يحرقنا. وقفنا صامتين في طابور طويل وأنا وهلال نحدّق كل في صاحبه.. (ماذا سنفعل؟) سألني هلال فجأة. (نذهب إلى السينما) أجبته بثقة وغادرنا مركز تجنيد الموصل الثالث إلى الدواسة ودخلنا فوراً أول سينما صادفناها. أمضينا وقتاً غير ممتع في مشاهدة فيلم (هندي ربما) لنعود بعد ذلك إلى دائرة التجنيد التي كانت قد أكملت الأوراق لتسوقنا إلى مركز تدريب مشاة الموصل.

وهكذا وفي يوم ١٦ آب أصبحت ج م خ ناهض عبدالله يعقوب. ورغم أن التدريب العسكري لم يكن جديداً عليّ، إذ كنت قد شاركت عدة مرات في دورات عسكرية (منذ دراستي الثانوية) وفي قواطع الجيش الشعبي وفي معسكرات تدريب الطلبة إلا أن الجيش النظامي، وخاصةً في الموصل كان أمراً مختلفاً تماماً، إذ كانت السياقات العسكرية تطبق بحذافيرها خاصة معنا «نحن – المستجدين – كما كانوا يسموننا».

إذ كانت لفتة رأس صغيرة أو حركة قدم غير مضبوطة تعني الكثير

من العقوبات البدنية البدائية القاسية. (الزحف في الطين. السير على الركب. الدحرجة... إلخ) كانت قسوة التدريب تهدف إلى طمس ملامح الشخصية الفردية. وتحويل الشخص إلى «شيء» يطيع طاعة عمياء. وكان القمع والإرهاب هو الأسلوب الأسهل للوصول إلى هذه النتيجة. ولم أكن أستطيع قبول الأمر ببساطة (أنا المعتز بفرديتي) لكن خياراً آخر لم يكن متاحاً أمامي، باستثناء الهروب من الخدمة العسكرية. «الجريمة التي يعاقب عليها الفرد وعائلته وأقرباؤه حتى الدرجة الرابعة في العراق». ولم يكن هذا الخيار وارداً في حساباتي أبداً. حاولت التكيف مع الوضع العام. وكان هذا يعني ببساطة إلغاء نفسي وترك ماضيّ الجليل كله ورائي والبداية من جديد. ولم تكن لديّ أي مواهب خاصة تسهل حياتي الجديدة كجندي، فأنا لا أملك جسداً قوياً ولا صوتاً مرتفعاً ولا حتى سيارة خاصة أضعها باستخدام أحد الضباط ليعفيني من التدريب.

أما الثقافة أو الأدب فيعد الحديث عنهما من المضحكات في الوسط العسكري. بعد شهر أو أكثر بقليل كان لا يزال في صدري نَفَسٌ أدبيّ أخير زفرته بائساً فكانت قصة «الشجعان» ورغم أني وقتها لم أكن بعدُ قد سكنت ملاجئ الجنود إلا أن أحداث القصة كانت تدور في أحد تلك الملاجئ. وكانت تعبر عن أمنية كانت ولاتزال عزيزة جداً على قلبي. كنت قد شخصت سلبيتي وحاولت التخلص منها بإسقاطها على شخوص القصة جميعاً. ورغم أن القصة رمزية (كما أعتقد) إلا أن أحداثها محتملة الوقوع آنذاك (وقد وقعت فعلاً فيما بعد في أكثر من مكان في العراق). فالكابوس أثقل بكثير من أن يزول بمجرد الاستيقاظ.. هذه القصة أيضاً حظيت بردود فعل متباينة، إذ

أعطى الأستاذ (أسعد الكبيسي) – وهو دبلوماسي مُقال ومثقف كبير نجحت في ضمه إلى زمرة قرائي– رأياً معتدلاً فيها وتراوحت آراء بقية جمهوري بين التشجيع والتجاهل، لكن الاستقبال الفاتر لهذه القصة لم يكن يهمني كثيراً، فما يهمني فعلاً هو استمراري في الكتابة.

بعد شهرين تم ترشيحنا لدخول دورة الضباط المجندين، وكان هذا الأمر محفوفاً بالمخاطر بالنسبة لي، فالضباط المجندون لا ينتدبون من الجيش مهما كانت مدة خدمتهم طوال فترة الحرب. وكان التسريح متوقفاً بالطبع. فكرت بشكل منطقي إذا استمرت الحرب فإن انتداب الجنود المدرسين سيتوقف بسبب الخسائر البشرية الهائلة وبهذا يتساوى الجنود والضباط في الخدمة. وإذا توقفت الحرب فإن الضباط المجندين سيسرحون كأقرانهم الجنود لانتفاء الحاجة إليهم. كان تفكيري منطقياً «وهذا هو الخطأ العراقي الكبير»، فالمنطق شيء رجعي متخلف في ظل القائد الرمز. فالقيادات الثورية تملك منطقها الخاص دائماً. كان بقائي كجندي قد أصبح أمراً لا يطاق بالنسبة لي. ومع هذا فقد تركت الأمور تسير في مجراها فأكملت الفحص الطبي ثم عدت إلى مركز التدريب بانتظار نتيجة الفحص التي كانت إيجابية. ثم تم استدعاؤنا إلى المقابلة النهائية. وقتها كنت قد قررت التمسك بوضعي كجندي، نتيجة النصائح التي انهالت على رأسي من كل الضباط المجندين الذين أعرفهم.. كانت نصائحهم متأخرة. ولما أجبت عن سؤال اللجنة الأزلي (هل ترغب في أن تصبح ضابطاً) بكلمة (لا) كان الجواب بسيطاً جداً (ليس الأمر كما تريد... اخرج). أجابني أحد الأعضاء الثلاثة وكان يرتدي بدلة زيتونية بدون رتب ويجلس وسط عقيدين.

عدت إلى الموصل والقادسية تدخل مرحلة حرجة فقد بدأت صواريخ الطرفين تصيب المدن. كانت حرب المدن قد خلقت رعباً جديداً لدى الجميع. قام الجيش بتحويل مدارسه ومعسكراته الكبيرة وإفراغها لأنها كانت مستهدفة دائماً مما ولد لدينا شعوراً بالراحة، إذ تأجلت دورتنا في الكلية العسكرية مرة ومرة. فوجئت أثناء التأجيل الأخير بنقلي إلى مدرسة ضباط صف المدفعية في المحاويل، وكانت تلك هي نقلتي العسكرية الأولى خارج الموصل.

وهكذا بدأ عذابي الطويل وأنا أرحل بعيداً عن الموصل «المدينة التي أحببتها رغم كل شيء»، ولم أكن وقتها أعلم أن رحلتي ستطول وأنني سأرافق القطارات البطيئة والحافلات القديمة التي أنهكها السفر وحقائب اليد التي تضيع دائماً. والكراجات القذرة المزدحمة بالجنود وهم يتصارعون للحصول على مقعد في رحلة لا يريدون القيام بها، في رحلة طالت بين كراج الموصل وعلاوي الحلة وكراج النهضة وساحة سعد. هذه الأماكن التي تثير أسماؤها ذكريات مرة في قلوب العراقيين فمن منا ينسى الحافلات المنطلقة ببطء وصمت ثقيل يقطعه «إلياس خضر» وهو ينوح ببطء أغنيته الحزينة «تايبين» الأغنية التي رافقت رحلاتنا لسنتين.. كنا نمضي خلالها إلى الموت. ونعود أو لا نعود ذلك الأمر كان متروكاً للصدفة. رحيل بلا وداع. فمن سيودعك في مثل هذا الكراج القذر المزدحم. وعودة بلا استقبال «إلا إذا عدت ملفوفاً بعلم».

لم تكن الأمور شاقة كما توقعت في المحاويل. فقد شاركني في الدورة عدد من زملاء دراستي الجامعية. وكانت الأمور العسكرية أقل تعقيداً من معسكرات الموصل مما مكنني من اغتنام أوقات الفراغ في القراءة.

وكنت أصطحب معي وقتها كتب تاريخ العراق الحديث وبالذات التاريخ الملكي الذي بدأت الدولة تدريجياً تسمح للباحثين بنشر دراساتهم عنه ليكتشف جيلنا فجأة أن الملكية لم تكن شرّاً خالصاً وأن سياسيينا السابقين لم يكونوا وحوشاً بأنياب معقوفة يغرسونها في رقاب الناس «كما يحدث الآن»، وكان أجمل ما في مدرسة المدفعية وجود دار سينما قديمة داخل الموقع تغير أفلامها كل يوم وحسب طلباتنا أحياناً، وكان وجود السينما «التي أعشقها» يمثل متنفساً هائلاً لي، إذ كانت السينما ولا تزال بالنسبة لي أمراً لا يقل روعة عن الأدب. وكانت مشاهدة أفلام كـ (العوامة ٧٠ أو زهور عباد الشمس) أمراً لا يجلب لي السعادة فحسب، بل كنت أحس بأنني أتعلم من مثل هذه الأفلام أكثر بكثير مما أتعلمه من قراءة عشرات المقالات في مجلاتنا الأدبية.

وبعد أشهر ثلاثة قضيتها في المحاويل أنهيت دورة مشغلي الرادار «سامبلين» الذي يستخدم في استمكان المدفعية المعادية. وهكذا أصبحت فجأة الـ (نائب عريف مكلف. ناهض عبد الله) إلاّ أن هذا الأمر لم يدم إلا أياماً معدودة. فقد وصل فجر يوم حزين كتاب نقلنا إلى الكلية العسكرية الثانية للاشتراك في دورة المجندين «٣٩» القياسية. ولسوء حظي كان السيد الرئيس قد أمر بتمديد دورات الضباط المجندين من ٦ شهور إلى ١٨ شهراً، وكانت دورتي هي فاتحة العمل بهذه المكرمة. وقبل يومين من افتتاح الدورة عدت من المحاويل إلى الموصل وأنا أتظاهر باللامبالاة ولكنني كنت منهاراً من الداخل. حاولت أن لا أضيع الوقت. التقيت بمعظم الأصدقاء وذهبت إلى كل الأماكن التي أحبها. كنت أتصرف وكأني أودع

الأشياء وداعي الأخير. وقد كان هذا صحيحاً إلى درجة كبيرة. وفي إحدى الكافيتريات في جامعة الموصل كان عدد من الصحاب ملتفين حول مقداد وهو حقوقي يجيد إلقاء النكت. كان يتكلم بشكل هستيري، فقد كان هو الآخر سيشاركني دورتي القاسية بعد يوم واحد. نكتة وأخرى.. وأخرى.. كنا نضحك أكثر مما يقتضيه الأمر ولا أدري لماذا. فجأة روى لنا نكتة عن سبب حدوث الحرب العراقية الإيرانية – وما أكثر النكات التي تدور عن هذه الحرب– كانت النكتة سخيفة تقريباً إلا أننا ضحكنا منها حتى البكاء. ووسط عاصفة الضحك الباكي. أحسست بشيء ما. لقد أمسكت ذيل قصة قصيرة. هل يحق لي سرقة هذه النكتة وتحويلها إلى قصة أضع عليها اسمي؟ لمَ لا!! شكسبير نفسه كان يفعل ذلك بطريقة ما.. هذا ما حاولت إقناع نفسي به رغم عدم يقيني من وجود النكات في عهد شكسبير. وبقيت الفكرة تدور في رأسي ساعات النهار «هل يجوز؟ لا يجوز. هل من الممكن؟ عيب..». وحينما حاولت أن أنام ليلاً حانت مني التفاتة إلى المنضدة المجاورة لسريري. الأوراق البيض المتناثرة. والأقلام.. لأكتب إذن. إنها قصة قصيرة. بل قصيرة جداً. لن يعلم أحد مصدرها بالتأكيد، وسرقة الأفكار أسهل من سرقة الأشياء الأخرى.

كنت أفكر وكأن قصتي ستنشر في اليوم التالي على كل الصفحات الأولى في المجلات. وسيقرؤها الجميع وسيعرفون أني قد سرقت فكرتها من تلك النكتة السمجة.. لم أقاوم إغراء الكتابة. رغم كل شيء. أنهيت قصة «التساؤل» بسرعة ثم طويتها بإحكام ووضعتها مع «مجموعتي القصصية الكاملة» في أحد الأدراج. ولم أقرأها على

مسمع أحد من جمهوري هذه المرة. فقد كنت أحس بالعار من فعلتي الرديئة. وكنت أرجو أن يمحو الزمن آثار هذه الغلطة (التي سأكررها فيما بعد كما سيتبين).

انتهت الإجازة بأسرع من لمح العين. حملت حقيبتي وذهبت هذه المرة إلى الكلية العسكرية الثانية في «خان بني سعد» قرب بغداد. حيث تم استقبال جميع طلاب الدورة بزفة كبيرة. كانت الطبول والأبواق بانتظارنا عند باب النظام. سرنا أرتالاً حتى مقر الفوج الثاني لتبدأ بعد ذلك بدقائق مغامرة لن يفلح حتى (أوديسيوس) في النجاة من مصائبها.

تم تفتيشنا تفتيشاً دقيقاً وتبين لنا أننا كنا محملين بالممنوعات (سجائر. بسكويت. معلبات. كليجة. صحف ومجلات وكتب) جردونا من أثقالنا. ثم بدأت المرحلة الثانية (الحلاقة) كم أغاضنا الحلاق الذي كان يبدو مسروراً جداً وهو يدوس على أكوام الشعر المتساقط من الرؤوس التي تدخل إليه بشعور مصففة. وتخرج من تحت ماكينته الكهربائية وهي تلمع. تسلّمنا التجهيزات وقُسّمنا إلى سرايا وفصائل وحضائر. بعد عدة ساعات بدأت رحلة المجد والعذاب. لا أذكر تماماً ما حدث لي في الأيام الأولى من الدورة. لا أذكر إلا الركض نذهب راكضين ونعود راكضين ونأكل راكضين ونركض راكضين. كان الوقت ضيقاً جداً خلال ساعات اليوم ولا يتسع لفعل أي شيء فقد كان أمامنا الكثير من الركض لنركضه. بعد أيام بدأت مرحلة أخرى سخيفة في التدريب تتطلب منا هذه المرة رفع أقدامنا وضربها بشدة على الأرض. «الاستراحة والاستعداد» عشرات الساعات تحت القيظ ونحن لا نفعل شيئاً سوى رفع أقدامنا

«إلى مستوى النطاق» وضربها بشدة «مشطاً وكعباً» على الأرض. وكان مطلوباً منّا أن تكون الحركة رشيقة وموحدة وبصوت مدوٍّ. ولما كان الكمال لله وحده فقد كنّا نخطئ دائماً في ضبط الشروط الثلاثة «الرشاقة والتوحيد وقوة الضربة»، وكان علاج خطئنا موجوداً وبديهياً (المزيد من العقوبات)..

بعد أيام كانت قدماي قد تورمتا تماماً وتعذّر عليّ ارتداء الحذاء. لكن (الإجازات المرضية) ممنوعة في هذه المرحلة من التدريب والحل إذن هو المزيد من الضرب بالأقدام المحشورة عنوةً في الحذاء.

فجأة أتيحت لنا ساعة كل يوم للمذاكرة. لم نكن قد بدأنا بعد بالدروس النظرية إلا أن جدول التوقيتات قد أضيفت إليه هذه الفقرة ولا أدري لماذا. كان علينا إذن أن نجلس صامتين «تحت المراقبة الشديدة بالطبع» وأن نقرأ الدروس التي لم نكن قد بدأناها.. ومنذ ساعة المذاكرة الأولى. بل منذ الدقيقة الأولى فيها تملّكني هاجس قوي جداً. هاجس حملني من مكاني وألقاني عنوة في الماضي. ماضيّ القريب والبعيد.. تهت في دوامة عجيبة من الذكريات. صور وأصوات وحتى روائح لأشياء بعيدة. وغير حقيقية. كان عقلي يقاوم الواقع. يرفضه وينسحب منه إلى مكان آخر. وزمان آخر.. – ستنتابني هذه الحالة لاحقاً في كل المواقف الصعبة التي سأمرّ بها– إذن أخذت أتذكر.. أتذكر بعنف أشياء كثيرة مهمة وغير مهمة؛ مواقفَ وأحداثاً وكلمات وقصصاً وأحياناً، أبياتاً من الشعر أو قطعاً موسيقية. أحسست بألمٍ شديد. أوشك سيل الذكريات الجارف على تمزيقي. قاومته بأسلوبي الوحيد. الكتابة. كانت لديّ عدة الكتابة. الدفتر والقلم. فتحت الدفتر الصغير من منتصفه وكتبت.

ما كنت أتخيل أني سأحيا في ذكرياتي كل هذه الحياة. التذكر حياة غنية جداً.. تنثال الصور في مخيلتي تباعاً. نابضة بالحياة. غير أنها ليست صوراً متناسقة ولا منطقية التسلسل. فحادثة من طفولتي تعقبها أخرى من الجامعة، وثالثة من الثانوية ورابعة من الطفولة وهكذا... لكن ما يربط كل هذه الذكريات هو شدة وضوحها وخصوبتها. أتذكر الآن أن أبي كان واقفاً ذات يوم وقد نزع سترته ورفع كمي قميصه وأسند أحد ذراعيه إلى إطار باب المطبخ وعيناه مثبتتان على نقطة مبهمة. كان يفكر بشيء ما. ما هو؟ لا أدري.. وكان شعاع نور يتسلل من النافذة ويسقط أمام رجليه على الأرض والآلاف من ذرات الغبار تتسلل من النافذة وتسبح متراقصة في الشعاع. في ذلك اليوم كانت المعلمة قد قصت علينا قصة (الغراب والثعلب، وقطعة الجبن) وكنت قد عدت من روضة الأطفال باكياً لأتركها إلى الأبد.

أذكر يوم الثلاثاء في مدرستي الابتدائية. كانت مدرستنا العتيقة تبهرني دائماً بإيوانها القديم وقنطرة المدخل الطويلة وفنائها الذي يمتلئ بالطيور حينما يخلو من التلاميذ وعبد الهادي الفراش الأزلي ذي الشعر الأبيض والقلب الحنون. مازلت أتذكره وهو يداعب قطته البيضاء بيد ويعد طعام الطيور بيده الأخرى وبقربه إناء شاي يغلي على مدفأة نفطية صغيرة ليشربه هو وزميله الأحدب. لا أدري لماذا أتذكر دائماً شمس شتاء دافئة بعد زخة مطر خفيفة. كنت وقتها في الصف الثاني الذي يقع في إيوان مرتفع تحيط بسلّمه أصص الزهور. كانت إطارات الشبابيك الخشبية الزرقاء مشبعة بمياه المطر.. وبقايا الغيوم البيض تنسحب بسرعة من السماء وتترك المجال واسعاً أمام

الشمس. شمس الشتاء التي أعشقها. كان معلمنا الرقيق (محمد جلال الدين) يتكلم بهدوء وبصوت منخفض، ويضحك خلسة من أفكارنا وأسئلتنا وهو ينظر بين حين وآخر من الشبابيك ليغرق في صمت قد يطول. هل كان مثلي يعشق تلك الشمس ولن أنسى ما حييت أستاذي وأنا في الصف الأول حينما جاءنا في نهاية السنة الدراسية (وقد علمنا فيما بعد أنها سنته الأخيرة في الخدمة). دخل (فخري أفندي) كما كنا نسميه إلى صفنا الصغير. تكلم كثيراً ثم سكت. لم يكن مخيفاً كعادته. أدار عينيه من خلف عدسة نظارته بهدوء. مسح صلعته الكبيرة تأمّل في كل شيء في الصف إلا نحن. فقد تهرب من نظراتنا. أخذنا نتكلم خلسة وقد رأينا سكوته. ولما علت همهمتنا نظر إلينا فجأة وقد بدأ بريق شيء ما من خلف نظارتيه. سكن قليلاً ثم تحرك بسرعة وكأنما قد لاحت بخاطره فكرة مجنونة. أخرج من جيبه مفتاح الخزانة الخشبية الموضوعة في صدر الصف. فتح بابها وبدأ يخرج الصور والأقلام واللعب الصغيرة ووسائل الإيضاح الخاصة به وكل ما كان يحتفظ به من أشياء كان يستعين بها في دروسه. وبدأ يلقي بكل ذلك في الهواء واندفعنا بجنون لنلتقط تلك الأشياء التي طالما استهوتنا.. ساد هرج ومرج في الصف. وكل منا يحاول الحصول على أكثر ما يستطيع من أشياء. أذكر وقتها أني قد أخذت دمية صينية صغيرة تستقر على أسفلها حتى لو وضعتها مقلوبة. وصورة ملونة لمنطاد يطير في الهواء (كم رافقني ذلك المنطاد في أحلامي) بعد ذلك خرج أستاذنا وقد ترك خزانته فارغة مفتوحة. خرج بهدوء ولم يلتفت إلى الخلف ولم أره بعدها إلا منذ سنين. كان قد شاخ وهرم.. كيف لا ونحن تلامذته الصغار قد شبنا الآن.

تمرّ ببالي ذكرى أبعد من هذا. كنت أسير مع والدتي وكفي الصغير ممسك بكفها الدافئ. كنا داخل باب السراي (سوق الموصل القديم) خرجنا بعد ذلك إلى (شارع غازي) تشاغلت وقتها بشيء ما شد انتباه عقلي الطفولي. غفلت للحظة وتركت كفّ أمي. ثم عدت لأمسك طرف عباءتها واستمررت بالسير خلفها لأكتشف بعد بضع خطوات أن المرأة التي أسير خلفها ليست أمي. وأنها تنظر إليَّ باستغراب أكثر من استغرابي. تجمّع وجع العالم كله في حلقي فمنعني من التنفس. أدهشتني تلك المفاجأة. ذلك الوجه الغريب. أحسست بأنني قد ضعت إلى الأبد. كنت صغيراً جداً وقتها. أستطيع المسير بالكاد. لا أعرف كيف انجلت الأمور. لا بد أن والدتي قد عثرت عليّ بعد دقائق، لكنها دقائق كانت كافية لهزّي من العمق. وجعل هذه الحادثة تترسخ تماماً في داخلي وكأنني قد ضعت إلى الأبد.

استمرت عملية تدوين خواطري وذكرياتي أكثر من شهر كامل. بعدها بدأت أزمتي تأخذ منحى خطراً لاسيما بعد بداية التدريب على الأسلحة ودخولي إلى المشاجب للمرة الأولى لأقرأ الشعار العسكري الشهير «ارم لتقتل». انجلت المسألة أمامي بشكل مدهش.. ها هم يعدوني لأصبح قاتلاً جماعياً محترفاً، بل ومرخصا أيضاً. «ارم لتقتل» مازال طنين هاتين الكلمتين يدوي في أذني.. أحسست بأن خلايا عقلي بدأت تتحلل بسرعة، انهارت مقاومتي الداخلية وبدأت الأشياء تتحول من لونها الرمادي لتكتسي لوناً أسود كالحاً تماماً. أحسست بأني ملوث بالدماء. جزء من آلة الموت الرهيبة التي تدور طاحنة كل شيء. حاولت أن أوقف هذه الآلة. أو أن أمنع نفسي على الأقل من الدوران معها. أجد في دفاتري ما يلي: أدور ثانية وثالثة

في نفس الدوامة التي تسحبني إلى القاع. أغوص بسرعة وقوة. إلى أين. إلى الدرك الأسفل. تقلعت أظفاري وأنا أتشبث لكنني سأقاوم، سأقاوم حتى آخر فرصة. ولن أستسلم. لن أستسلم. في اليوم التالي لكتابة هذه السطور ارتكبت حماقة جديدة. ففي العرض الصباحي وأثناء تقديم الموجود للسيد العميد وخلال حركة (السلام خذ) بالذات لم أستطع رفع قدمي وضربها بقوة «إذ كانت متورمة تماماً» مما دفع عريف الفصيل – وهو شخص قصير القامة سريع الحركة وفي منتهى الحقارة – لضربي فجأة على قصبة ساقي. وهو ينظر إلى عينيّ مباشرةً.. ليفاجأ بأخمص بندقيتي يضربه على بطنه بقوة. أحسّ بدهشة مساوية للألم.. فلم تكن حركتي متوقعة. أبداً ركض صارخاً وركضت خلفه لأكرر الضربة. أمسكوا بي بعد خطوات لأُقدم فيما بعد مع المذنبين. كنت أرتجف من الغيظ ولكني أحس بسعادة دفينة. فعقوبة جريمة كالتي أقدمت عليها هي فصلي من الكلية ونقلي إلى صنف الـ (قوات الخاصة). تمت محاكمتي بشكل مرتجل من قبل النقيب آمر السرية الذي قدر ظروفي «بعد التحقق من ورم قدمي» ثم أصدر حكمه القاسي بإعفائي من أية عقوبة. كانت الصدمة شديدة عليّ.. فقد فشلت خطتي في الخلاص كما فشلت الخطط التي سبقتها لفصلي من الدورة. ومن الغريب أن موقعي أصبح جيداً أمام العرفاء والطلاب. فأنا شرس كما يعتقد معظمهم ويبدو أن الفترة التي أعقبت هذه الحادثة قد شهدت انحساراً ملحوظاً في سيل ذكرياتي الذي كان دافقاً قبل هذا الحين. فأنا لم أخط في دفتر يومياتي حرفاً طوال شهر كامل تقريباً كنت أفتح الدفتر يومياً وأعد السطور ولا أستطيع كتابة شيء حتى يوم ٨٨/٧/٦ الذي كتبت فيه.

أصبحت الآن أشتهي تذكّر الأشياء بعد أن كانت تنفجر في رأسي كالصواعق قبل أشهر. بل كانت تطاردني مهما حاولت التخلص منها. صار يلزمني الآن التفكير في الماضي كي أتذكر شيئاً، لهذا قررت الآن أن أتذكر شيئاً أخيراً أختم به هذا الدفتر التعيس.

كنت في التاسعة، نحيلاً جداً. أستيقظ في الساعة السابعة أو الثامنة. أرتدي ملابسي وأخرج إلى الشارع لأنتظر الباص. كان الباص الأحمر العتيق يحملني إلى المكتبة العامة. أدخل من الباب إلى داخل مخزن الكتب لأجلس فوق كرسيي الخاص. وأمام منضدتي الخاصة وأبدأ بالقراءة حتى الساعة الواحدة ظهراً. ثلاث سنوات مرّت عليّ وأنا أكرر هذا في كل عطلة.. أقضي عطلة الصيف كلها «ماعدا أيام الثلاثاء» بين جدران المكتبة ولم أفكر لمرة واحدة أن ما أقوم به عمل ممل أو غريب لطفل في مثل سني. كان الموظفون قد عقدوا معي صداقة صغيرة. فقد كنت قريب مديرهم كما ظنوا في البداية. أذكر يومي الأول هناك. ذهبت بمفردي وحاولت استعارة كتاب ربما كان عنوانه (ألف ليلة وليلة الفرنسية) وهو كتاب مترجم بأسلوب ركيك وبمضمون سخيف كما بدا لي آنذاك. خرجت من المكتبة بعد ساعة وأنا حزين فقد تبددت الصورة الجميلة التي كنت قد رسمتها في مخيلتي عن رفوف الكتب التي سأقلّب فيها كما أشتهي، إذ فوجئت بأني يجب أن أملأ ورقة بمعلومات مأخوذة من أدراج تبحث فيها عن رقم الكتاب واسمه... وكانت هذه العملية غريبة تماماً عليّ آنذاك. خرجت من المكتبة خائباً، لكنني عدت في اليوم الثاني مع أبي الذي أخذني إلى صديقه مدير المكتبة الشاعر الموصلي(عبد الحليم اللاوند) الذي اصطحبني بدوره إلى مخزن الكتب، حيث أصبح لي

هناك كرسي خاص ومنضدة، وأحاطتني رفوف الكتب كما كنت أحلم دائماً وبدأت أستنشق رائحة الورق التي أحبها لحد الآن وتحولت تماماً إلى دودة قارضة للكتب ٦/٧ / ١٩٨٨.

وبهذه الكلمات أقفلت دفتر ذكرياتي الصغير... وتدريجياً. بدأت أتكيف مع الموقف «أليس الإنسان هو الحيوان الوحيد القادر على التكيف مع كل الظروف؟». أخذت أصوات المعارضة تخفت في رأسي وبدأت أحاول الانسجام «ولو جزئياً» مع محيطي خشية أن أصاب بالجنون بدأت وقتها بهروب كبير من الواقع والشروع في كتابة رواية «رائعة جداً» أسميتها «أوقات للحياة» وما عدا الاسم وتخطيط بعض الاسكتشات البسيطة لشخصيتين أو ثلاثة من الأبطال فلم أقم بإنجاز شيء فعلي من هذه الرواية التي طواها عقلي بعناية ووضعها إلى جانب أختها الأكبر «الأيام الصفراء» لأقوم فيما بعد (كالعادة) بسرقة بعض مواقفها لأصنع منها قصصاً قصيرة بعد تكثيفها.

كنت أحاول النحت في صخر أصم. حاولت إقسار نفسي على كتابة نص إبداعي وكان أخشى ما أخشاه أن يجف ينبوع الإبداع في داخلي «وهو شبه مسدود منذ البداية».. سوّدت عشرات الصفحات محاولاً استدراج شيطاني القصصي لكن شيئاً ما كان يدفعه للإشاحة بوجهه بعيداً عني حتى نجحت بعد جهد في كسر الحصار المفروض على عقلي. فبعد أن كنت قد أعدت كتابة قصة المنقذ لأطورها بعض الشيء استيقظت ذات مساء بعد غفوة قصيرة جداً على كابوس هزّني أمسكته بإحكام ونقشته على الورق لأحوله إلى قصة من بطولة (كاثرين دينوف وكريكوري بك) والآن أشعر بمرارة شديدة كلما

تذكرت هذه القصة التي ضاعت مع ما ضاع من نصوص. فأنا بالطبع لا أستطيع إعادة كتابتها من الذاكرة. كل ما أذكره منها هو البطل الذي كان يركض هارباً من دقات ساعة خفية تطارده في المستنقعات ليجد نفسه فجأة وسط مدينة بيضاء مهجورة يلتقي فيها بامرأة لا يتطاير شعرها الطويل ولا يرف ذيل ثوبها الأبيض رغم وقوفها وسط العاصفة ممسكة بشمعة تحترق بهدوء شديد ولا تمنحه ناراً ليوقد منها سيجارته لأنها تخبره بهدوء أن السماء ستمطر. تستمر القصة لتنتهي كما بدأت بدقات الساعة كما ابتدأت. والآن وكلما حاولت إعادة كتابة هذه القصة أدركت عقم محاولاتي. كأن النصوص الضائعة تعاقبني على إهمالي لها برفضها الولادة ثانيةً. حتى القصتان اللتان أعدتُ كتابتهما فيما بعد فأنا أظن أن ما سهل ذلك هو احتفاظي (ولا أدري لماذا) بعدد كبير من نسخ هذه القصص التي تفاجئني في كل درج أفتحه أو كل كتاب أتصفحه وقد قمت بالتحوير والتعديل فيهما بعد دراسة طويلة مملة للنصين.

وبعد أن كتبت قصتي الضائعة (والتي استقبلها أربعة أو خمسة من قرائي باستغراب فهي لم تكن مما توقعوا مني كتابته لروحها السريالية) أحسست بالأمان. فمازال في جعبتي إذن المزيد من السهام، ولن يتكرر العذاب الذي قاسيته حينما فشلت في الكتابة عامي ٨٤ و٨٥.

مرّت الأيام بطيئة متشابهة، ولم تعد كتابة اليوميات تخفف ألمي بالقدر الذي كان يخففه وجود صديقي الأزلي (عمار عبد الباقي) قريباً مني. انتابنا هاجس جنوني للكتابة. كنا نغتنم الدقائق القليلة التي يتاح لنا أن نلتقي فيها (إذ كان في سرية أخرى) لنتحدث عن الأدب ونناقش الكتب التي كنا قد رتبنا طريقة لإيصالها إلى داخل

الكلية – فالكتب طبعاً من المحرمات–. وأحياناً كنا نحصل على ساعة أو نصف ساعة نقوم خلالها «منفردين» باستخدام أصواتنا في الغناء بصوت منخفض (طبعاً) تجنباً لحدوث كارثة بيئية. رغم كل تلك الصعوبات كان هناك أمل كبير قد بدأ يلوح في الأفق. كان شهر آب يحمل لنا في طياته الكثير من المفاجآت التي بدأت أستشعرها. أجد في أحد دفاتر المحاضرات العسكرية ما يلي. «عاد النور الأخضر يطالعني ثانيةً من هناك. من أعماقي». و»بحيرة البجع» تدوّي في آذاني. أشعر الآن بنشوة. أعلن العراق أمس قبوله بوقف إطلاق النار. لم نعد نستطيع أن نصدق انتهاء الحرب. لكن يبدو أنها انتهت. وستنتهي معها ملايين المشاكل التي أمر بها داخل نفسي وخارجها. وسيبدأ عقلي بالاسترخاء تدريجياً. لا أجد الكثير لأضيفه.. لست متشنجاً الآن لأكتب بغزارة.

للأسف يبدو أن الراحة لا تحتاج إلى أن نعبّر عنها. وفي اليوم الثاني، وفي إحدى المحاضرات أيضاً وبينما كان أحد الضباط يشرح لنا مادته المهمة كان ذهني يشرد بعيداً في مكان آخر وكنت أكتب «سمعت قبل قليل أن وقف إطلاق النار سيكون هذا اليوم في الساعة الثانية عشرة ظهراً. الساعة الآن هي الثانية عشرة إلا ربعاً تقريباً. هل هذا الخبر صحيح. هل سيتوقف إطلاق النار. هل ستنتهي هذه الحرب الآن. هل إن السعادة التي أحس بها حقيقية. هل آأمن إليك أيها الفرح ولا أحذر خيانتك». ومرت الدقائق والساعات ولم تنته الحرب. مرَّ مساء ٨/٨ بطيئاً، كئيباً ككل الأمسيات. لا، بل كان أسخف من بقية الأمسيات. فقد كان الضابط الخافر ذلك اليوم إنساناً لجوجاً تافهاً يحاول فرض شخصه الضعيف علينا بإكثاره من معاقبتنا بشكل

جماعي. وكانت حقارته تعني لنا شيئاً واحداً. لا نوم. عقوبات. حتى مطلع الفجر. في الساعة العاشرة أطفئت أنوار القاعات «كما في جدول التوقيتات تماماً» ولم يكن أحد ليجرؤ على مغادرة فراشه إلا من كان مدخناً مدمناً (مثلي) يحاول البحث عن فرصة لتدخين بضع أنفاس من نصف سيكارة مخبأة في مكان سري. حاولت النوم. كنت متعباً لكن محاولتي فشلت.. سمعت طرقاً شديداً على باب القاعة وصراخ م/عظيم وهو يصيح «تجمع خارجاً». أنيرت المصابيح التي تئن وتئز قبل أن تتوهج تماماً. ارتديت «بدلة العقوبات» ولكنني وقبل أن أكمل ارتداء الحذاء كان صوت إطلاق الرصاص قد دوى في المكان.

«انتهت الحرب. الحرب انتهت. تجمعوا خارجاً. احتفلوا بانتهاء الحرب. انتهت الحرب». دوي رصاص يصم الآذان. صراخ. ضحك هستيري. قبلات. رصاص. خرجت مذهولاً لأجد أن كل طلاب الفوج الثاني يصرخون ويرقصون ويتعانقون. وكان عدد كبير من الضباط والمراتب يطلقون الرصاص في الهواء بطريقة جنونية.. هل إن كل ما يحدث أمامي حقيقي. لم أستطع فعل أي شيء. عدت إلى دفتري بسرعة. فتحته لأكتب في أعلاه «١٩٨٨/٨/٨». «الساعة الواحدة إلا ثلثاً ليلاً. انتهت الحرب». أغلقت دفتري، إذ إنني لم أكن قادراً على كتابة حرف آخر. خرجت ثانيةً إلى الساحة. كان الراديو يذيع بيان انتهاء الحرب. وكان إطلاق الرصاص قد بدأ يأخذ شكلاً جنونياً في كل مكان. لم يعد باستطاعتي تحمل الموقف ذهبت إلى الحمامات التي كانت فارغة. جلست في أحدها وأغلقت الباب وانخرطت في بكاء طويل طويل طويل. لماذا؟ لا أدري بالضبط.

وفي نحو الساعة الرابعة فجراً عدت إلى سريري منتفخ العينين لأنام ساعة وبضع الساعة. استيقظت بعدها لأعود إلى الموصل فقد منحونا إجازة لمدة ثلاثة أيام ككل دوائر ومؤسسات ومعاهد الدولة. وفي الطريق اكتشفت أن كل العراقيين قد ابتدعوا أشكالاً مجنونة للتعبير عن فرحهم الهائل نتيجة انزياح الكابوس الجاثم على صدورهم منذ ثمانية أعوام. وبعد عشرة أيام كتبت (مازلت أحسّ بسعادة عميقة. لقد انتهت الحرب.. لم أكن أعلم عمق هذا الهم في نفسي حتى انزاح الكابوس. أحسّ بنفسي الآن خفيفاً كريشة لم أعد آبه لأي مشكلة مادمت لن أقاتل. ولن أقتل. سأبقى إنساناً كما أنا.. أية مأساة كنت أعيشها).

بدأت أنام بسرعة نوماً لا تقطعه الكوابيس. لا أقدر على أن أعبّر تماماً عن إحساسي. كل شيء حسن الآن. خطأ. بل كل شيء للأحسن. «أليس كذلك يا كنديدا». استمرت الأفراح والاحتفالات تطغى على وسائل الإعلام. ولا سيما التلفزيون. كانت سعادتي العميقة مشوبة بغصة أخذت تكبر وتكبر بسرعة لتمنع تنفسي.

كان صدام حسين لا يزال في الحكم. وقد كان خروجه منتصراً يعني المزيد من الغرور والاستهتار. رغم أن الإعلام كان يقول العكس. فقد بدأ الحديث يدور عن الديمقراطية بعد أن ظهر صدام كعادته على شاشة التلفزيون وأخذ يتكلم كلاماً غامضاً عن الموضوع. دستور. أحزاب. حرية صحافة. واستمرت قنوات الإعلام تتحدث بشكل مثير للاشمئزاز عن القائد الفذ الرمز المنتصر... إلخ. وقد بدأت الابتكارات تتوالى في هذا المضمار واستمر الوزير الضاحك «لطيف نصيف جاسم» في سياسته الإعلامية الغبية التي تعتمد على تحويل

الأوهام إلى حقائق بتكرارها آلاف المرات.

واستمر الاتفاق الهائل على المهرجانات الأدبية والفنية الضخمة «مهرجان بابل. المربد. مهرجان الأدباء الشباب الفني العالمي... إلخ». كانت هذه المهرجانات الفخمة تقام لسبب واحد هو تمجيد شخص القائد. وكان أدباء وفنانو الدول الأخرى يدعون ويكرمون لسبب واحد هو التسبيح بحمد القائد الفذ والرئيس الشمس. في الوقت الذي كان فيه أدباؤنا (غير الرسميين) ينظرون إلى تلك الزفة من خلف زجاج فنادق الدرجة الأولى وهم غير قادرين على الدخول. وجيوبهم محشوة بنصوصهم التي لم ولن يتاح لها أن ترى النور. في تلك الأثناء. ورغم أن فرحتي بانتهاء الحرب لم تكن قد انتهت بعد أن بدأت بكتابة قصة جديدة. متشائمة أيضاً تدور أحداثها في السيرك. كنت دائماً أريد كتابة قصة عن السيرك. وبالتحديد عن الشخص الماشي على الحبال. إلا أن قصتي دارت في مكان مشابه وعن شخص آخر. هو (الساحر) كانت القصة تتحدث عن العلاقة بين الساحر والجمهور. بين الفعل والتصديق بين الحدث والأمل. الخوف والرجاء. وغريزة القطيع. والعنف الذي تسببه خيبة الأمل. كانت قصتي ملأى بالرموز. الخبز. الجرائد. القلم. ورق اللعب. الفتاة. ولا أعتقد أن شخصية الساحر في القصة تحتاج إلى توضيح، أما في الحقيقة فإن من أوحى لي بهذه الشخصية هو صديق لي كان يضايقه جداً صمتي حينما يتكلم في مواضيع أعرفها لاسيما حينما يكون غير واثق مما يقوله. كانت نظراتي تضايقه. وكان صمتي يضايقه أكثر مما كان يدفعه للقيام بأفعال كان الجميع يستغربها (إلا أنا). كان هجومي السلبي عليه يؤذيه أكثر من أي فعل آخر. كذلك كان صدام

حسين متأكداً من وجود شريحة عريضة مثقفة تعرف أساليبه كلها. وكان مستعداً لفعل أي شيء لشراء هذه الشريحة أو لتحطيمها تماماً «إذا أمكن». وبعد عرض قصتي على قرائي الذين كان عددهم أكبر هذه المرة «فوجئت برأيين متناقضين تماماً». فقد أجمع المثقفون منهم على وضوح النص، ومباشرته، بل وخطابيته، بينما أكد لي الآخرون بطريقة أو بأخرى عدم فهمهم معظم الأحداث والرموز التي كنت قد اخترتها بعد تدقيق ومشقة.

سقطت ثانيةً في نفس الدوّامة (أن تفهم ما يقال. وأن تقول ما يُفهم) كانت تلك المسألة قد شغلتني وقتاً طويلاً وكنت قد توصلت إلى قرارات مهمة بهذا الشأن. وكنت أعتقد «مخطئاً» أنني قد توصلت إلى تبسيط نصوصي إلى أبسط الأشكال الممكنة لاسيما بعد الصدمات التي تلقيتها من كتابنا المعاصرين الذين أوغلوا بتجارب غريبة وأخذت مواضيع نصوصهم وأشكالها وصيغها تنحو منحىً عجيباً.. الأدباء الذين لا يفهمهم إلا عشرة في العراق «كما يزعمون». لقد تولد لديّ رد فعل عنيف ومضاد لهذه التجارب مما أوقعني في «الخطابية» كما يتهمني البعض. رغم أن هناك من يتهمني «ويا للغرابة» بالغموض. عموماً. كانت قصة الساحر إضافة جديدة جيدة لمجموعتي التي أوشكت على التعفن في الدرج. استمرت محاولاتي الأدبية. كانت كل قصة جديدة تزيد من مساحة الأمل في داخلي «سأتمكن من النشر ذات يوم. وسيقرأ الناس كل ما كتبته».. هذا ما كنت أحاول أن أقنع به نفسي. حاولت جعل الكتابة عادة يومية. ولما كنت قد أقلعت تقريباً عن كتابة اليوميات والذكريات فقد أرغمت نفسي على تأليف قصص لم تكن تقبل أن تكتمل. كنت أحاول التخطيط ودراسة

الموضوع واختيار الشخصيات والرموز. كنت أحاول تقليد القصص التي أعجبتني، أو الكتابة عن شخصيات أعرفها. وطبعاً كان وقت الكتابة هو ساعات المحاضرات النظرية للعلوم العسكرية المختلفة. فبينما يكون المحاضر منشغلاً بإملاء مادته علينا أكون أنا مستغرقاً في كتابة من نوع آخر، هذا ما لم أكن مستغرقاً في النوم. وللنوم قصة طويلة يعرفها كل طلاب الكليات العسكرية في العراق. فبعد صباح مجهد يتخلله التدريب البدني الشاق، يذهب الطلاب عادةً إلى غرف المنام لتبديل ملابسهم، ثم نسير أرتالاً إلى المطعم لتناول وجبة الساعة ١٠,٥ (وهي أدسم الوجبات تقريباً). بعد ذلك تسير أرتال الطلبة إلى قاعات الدروس المكيفة ذات المقاعد الوثيرة. وهنا تبدأ المحاولات المستحيلة في منع الجفون من الانغلاق. الجسد المرهق، والمعدة المتخمة، والهواء المكيف والمقعد الوثير. كل هذه العناصر تتضافر لتجعل الاستيقاظ واستيعاب ما يقوله المحاضر أمراً مستحيلاً. عشرات المرات يتحول الوجه المتحدث أمامي إلى كتلة متحولة الأبعاد. يقترب مني وأنا أحاول قسراً إبقاء عينيّ مفتوحتين. يقترب أكثر وأكثر.. وتصبح عملية فتح العينين أصعب. يقف أمامي تماماً في اللحظة التي تكون عيناي قد انطبقتا فيها وسقط رأسي على كتفي. وكانت عقوبة مثل هذه المخالفة هي البقاء واقفاً طوال المحاضرة «هذا إذا كان المحاضر لطيفاً جداً ورقيق الحاشية». وكم من المرات تم ضبطي نائماً وأنا واقف «أثناء العقوبة». أما في ساحة التدريب فقد كان ارتداء الخوذة يولد لديّ منعكساً شرطياً مباشراً هو إطباق العينين والاستغراق في نوم عميق. كانت خوذنا الرديئة مصنوعة من مادة بلاستيكية سميكة وثقيلة الوزن. وكان ضغط حزامها الجلدي على

جبهتي يمنعني من إبقاء عينيّ مفتوحتين لمدة طويلة. وستصاحبني هذه المشكلة حتى التخرج.

عموماً.. في الليل كنت أقاوم الأرق.. وفي النهار كنت أقاوم النوم... وكنت أقاوم الصدأ الفكري المتسلل إلى ذهني بالكتابة. وبالطبع فأنا لم أنجح مرة واحدة في كتابة قصة مرضية بهذه الطريقة إلا أنها كانت بالتأكيد وسيلة ناجحة لمنح نفسي «المهزوزة» ثقة كافية تدفعها للاستمرار في الكتابة. الكتابة التي بدأت أظن – مخطئاً – أنها ستكون ذات جدوى في المدى القريب. فقد أخذت وسائل الإعلام ثانيةً في الحديث عن الديمقراطية بشكل متكرر (وبأمر رسمي بالطبع) ثم صدر كراس يحتوي على مؤتمر عقده صدام مع أعضاء مجلس قيادة الثورة يناقشون فيه مسألة منح المواطنين حقوقهم الديمقراطية ومسألة حرية الصحافة وتشكيل الأحزاب. وبدا الأمر وكأن صدام يحاول إقناع الأعضاء بأهمية هذا الأمر وكأن الآخرين هم من يرفض ارتكاب مجازفة كبيرة كهذه.. عموماً، كنت متيقناً أن مسألة نشر قصصي أصبحت مسألة وقت فحسب. أخيراً.. سوف أضع اسمي منشوراً مع النصوص التي طال حبسها. سأستطيع أن أتنفس. أقول كلمتي. حاولت –كالعادة– تبرير تفاؤلي للآخرين «وأنا متفائل دائماً ولا أدري لماذا» كانوا أكثر شكاً مني، بل كان معظمهم متيقناً من استحالة تحقيق مثل هذه الوعود التي أخذ القائد يقطعها على نفسه وبكثرة. وأصبح النقاش حدثاً يومياً متكرراً وصاخباً في بعض الأحيان ورغم الحذر الشديد في انتقاء العبارات وذكر مصطلح (حفظه الله) من قبل الجميع بعد ذكر اسم الرئيس طبقاً للتعليمات. كنت أحاول بمنطقي أن أبرر تفاؤلي. لكن عقلي الباطن

كان يرفض بشكل قطعي هذه الأفكار وكان يسخر من إمكانية منح الحريات على طبق من الفضة، بل ويسخر ممن سيتمتعون بمثل هذه الحريات. هنا وفي هذه اللحظة انبثقت فكرة قصة «الكلام» وهي منولوج طويل عن أحد الأشخاص الذين سيتمتعون بالحرية الموعودة. كان جانب من الشخصية يشبهني. اطلع قرائي الأزليون على النص. شعرت بالغيظ حينما أهمل معظمهم كالعادة أسلوب التهكم الواضح في القصة. وتصور آخرون أنني أهاجم الديمقراطية – مازلت غير قادر إذن على التوصيل – ربما كان ذلك صحيحاً – أم أنهم لم يعودوا يحترمون النص المكتوب بإهمال على قصاصة ورق مجعدة. في هذه الحالة فالحق معهم. هناك فرق كبير جداً بين أن يقرأوا النص في كتاب أنيق لمؤلف شهير وبين قراءتهم لنص على ورقة جرداء. وأمامهم يقف الكاتب النحيل برأسه الحليقة «حتى اللحم» وملابسه العسكرية. عموماً. كتمت غيضي مرغماً – أنهم يحترمونني ككاتب ويؤمنون بي.. ولكنهم لا يعيرون أهمية كبيرة لما أكتبه. –ما أكتبه الآن وهنا وبهذه الكيفية–... بعد حوالي عشرة أيام جاء شهر رمضان. ورمضان هذه المرة يحمل لي مفاجآت جديدة. فقد قرر والدي – ولم أرغب بمخالفة قراره – أن أتزوج في نهايته «أي في إجازة العيد» كان لديه أكثر من سبب، لذلك كنت قد عقدت قراني قبل ثلاث سنوات. وكان زواجي يتأجل دائماً لأسباب مختلفة. وكانت خطيبتي هي ابنة عمي وزميلة دراستي وناقدي اللدود. لذا كان من السهل عليّ تجاوز الكثير من الشكليات «التي أزدريها» وتجنب بعض المصاريف التي لا طاقة لي بها. رغم كل هذا فإن إحساسي بالأعباء المادية قد بدأ يتعاظم. وتحت هذا الوطء كتبت وللمرة الأولى قصة

بعيدة عن السياسة «كما تبدو للوهلة الأولى» قصة تستوحي أجواءها من قصص (ألان بو) بطريقة غير مباشرة. قصة الموظف البسيط الذي لا يجد فكاكاً من أعبائه المادية وحياته اليومية التافهة. وفي يوم ٢٤ نيسان وبمناسبة كتابتي للقصة كتبت في أحد دفاتري «أفطرنا قبل قليل في احتفال مهيب حضرة معظم الضباط الذين جاملونا وتناولوا معنا لقيمات من طعامنا الفقير. دخنت سيكارتين متتاليتين وشربت الكثير من الماء. الغرفة الآن في فوضى كبيرة. والكلية كلها مقلوبة رأساً على عقب. فالأخبار تؤكد أن زائراً مهماً سيزورنا غداً «لن يأتي بالتأكيد» غداً سيكون يوماً صعباً في الصباح. فهناك تدريب شاق بانتظارنا. لكنه سيمر ككل الأيام التي مرت. لم أنم ليلة أمس ولا الليلة التي سبقتها. وكالعادة قضيت نهار اليوم نصف نائم حتى الساعة السادسة والنصف. أكملت أمس كتابة قصة قصيرة لاقت استحسان البعض وعدم استحسان الآخرين. لكنني مرتاح لكتابتها. لم أعثر لها على اسم بعد. ربما سأقوم بإعطائها رقماً فحسب. فلم يعد هناك المزيد من الأسماء» وهكذا أجد أن المشكلة في أسماء النصوص قد بدأت تضايقني منذ ذلك الحين. أصبحت أقل اهتماماً بالأسماء بعد يأسي من العثور على اسم جديد ينسجم، بل ويكمل النص (كما حدث لي باختياري الموفق لاسم قصة اللا خوف مثلاً). تركت القصة بدون اسم. لاسيما فيما بعد «الخلاص». هذه القصة ستكون آخر ما كتبته من القصص في الكلية العسكرية. فسرعان ما حلت ليلة العيد. عدت إلى الموصل بسرعة ليتم زفافي في حفل عائلي بهيج «لم يحضره أحد لضيق الوقت»، إذ كانت إجازتي لا تتجاوز أيام العيد الثلاثة. وكان يوماً مشهوداً لن تنساه مدينة الموصل لمدة

طويلة. فقد داهمتنا عصر ذلك اليوم عاصفة ترابية غريبة. لأفاجأ في صبيحة يوم زفافي بخبر موت (عدنان خير الله) وزير الدفاع وابن خال الرئيس بحادث طائرة. وبعد انقضاء الأيام الثلاثة «تحت أعلام الحداد» عدت إلى الكلية مرغماً لإكمال شهر العسل في حمرين، إذ سرعان ما ابتدأت فرضية التخرج التي كان من مستلزماتها أن أحمل على ظهري تجهيزات تزن أكثر من ٣٠ كغم لأقطع أكثر من عشرين كم يومياً سيراً على الأقدام في سلسلة تمارين تعبوية شاقة كمرحلة أخيرة في إعدادنا كضباط.

(الموصل من ١١ إلى ١٤ /١/١٩٩١).

الأحد ٧ /٦/١٩٩١

لم يكن يدور في ذهني أنني سأبدأ بكتابة هذا الفصل من هذا المكان بالذات. غابات الموصل خضراء وأشجارها تتمايل أمامي بجلال، والتلال مازالت مكسوة ببقايا أعشاب الربيع. أشجار الحدائق الكبيرة المشذبة تتمايل بعظمة. وكل شيء يبدو رائعاً من الخارج. كما كان في السابق أكتب من غرفتي التي عدت إليها بعد شهور ومازلت رغم كل شيء غير مصدق لكل ما حدث «وكأنه قد كان حلماً».

لا تزال السيارات تقطع الشوارع الطويلة بسرعة. وأعمدة النور شامخة «رغم انقطاع التيار» ومازال نظام بيتنا الدقيق. وفوضى الصغار التي هي جزء من هذا النظام.. وقرائي العشرة. مازالوا ينتظرون كتاباتي.. وهذا ما أتمنى أن أفعله «لأجلهم على الأقل».

كنت قد أخبرتهم قبل مدة بشروعي بتأليف كتاب كبير «وليس قصة قصيرة هذه المرة» مما ولّد لديهم شوقاً للقراءة. كان الجميع ينتظر مني رواية. رواية اختلفت توقعاتهم بشأنها إلا أنهم كانوا متأكدين من شيء واحد هو أن أحداث هذه الرواية ستدور عنّا نحن الآن. وهنا... ربما كنت قد أوحيت لهم بشيء من هذا «رغم حرصي على عدم البوح بأسرار كتابي» إلا أن شيئاً ما جعلني أتكلم كثيراً عن الكتاب. كنت أريد أن أحرج نفسي لأضطرها إلى الكتابة «فأنا لا أحب أن أبدو بمظهر مخلف الوعد». وكنت أمتلك فعلاً مادة كثيرة

للكتابة. وكان دافعي وقتها «قبل ١٥/١» كبيراً. كان دافعاً مجنوناً أهوج يدفعني بقوة للكتابة. تبينت فيما بعد أن الكثير من العراقيين كانوا يفعلون الشيء ذاته. فقد عثر الصحفيون بعد تفتيشهم لمواضعنا المتروكة على الكثير من السير الذاتية التي بدت للجميع ملاذاً أخيراً لتفادي الانفجار.

والآن وحينما أقرأ ما كنت قد كتبته منذ ١٩٩٠/١٢/٢٩ وحتى ١/١٤. أجد أنني كنت أحمل الكثير من التصورات الخاطئة عن الموقف فرغم إيماني الشديد «آنذاك» بعدم حدوث أية حرب. فقد حدثت الحرب فعلاً. ورغم أني كنت أرجح انسحاب العراق قبل ١/١٥. فإن العراق لم ينسحب. ورغم أني كنت أظن أن معارك هائلة ستنشب إذا ما وقعت الحرب فإن أية معارك مهمة لم تحدث. «حرب بلا معارك» هذا ما وقع فعلاً. مع الأسف. فلقد تلقينا الضرب دون أن نستطيع الرد. ودون أن يشعر من يضربنا بألم في قبضته. وهكذا انتصر «عبيد الكمبيوتر» كما كان صدام يسميهم على الجنود الجياع المهملين في الصحراء.

«كل شيء حسن» كنت أرد دائماً. ومازلت... فمازال أمامنا الكثير من المصائب ما لم يتغير النظام في العراق «وهذا ما يبدو الآن احتمالاً ضعيفاً».. فصدام متشبث تماماً بالكرسي. ويستخدم أسلوبه المفضل «القتل» بكثرة هذه المرة ولديه مبرر قوي لذلك «إفشال المؤامرة على العراق» كما يزعم. لكن الأيام حبلى.

حينما فكرت بكتابة هذا الكتاب كنت أريد أن أتكلم أولاً عن الأمكنة التي عملت فيها أثناء خدمتي العسكرية. الجبال والصحارى والمستنقعات. وما إلى ذلك. كانت الفكرة عائمة في رأسي ولكني

وقتها «كما أذكر الآن» كنت أريد أن أصف معاناة العراقي أثناء خدمته العسكرية الطويلة الطويلة. وقتها كنت في البصرة على حافة العراق الشرقية الجنوبية في شهر تموز القائظ من عام ١٩٩٠. وكنت أفكر بالاستفادة من رسائلي الطويلة لزوجتي كمادة خام لهذا الكتاب. لم أكن أعلم وقتها «أو حتى أحلم» أن الجيش العراقي سيخترق الكويت بعد أيام. رغم أن أخباراً عن حشود عراقية على الحدود كانت قد تسربت إلينا من مصدر أو آخر. ورغم خطاب ١٧ تموز الذي ألقاه الرئيس بحرارة شديدة وهو يلمح بطرف خفي إلى احتمال استخدام القوة إذا ما استمرت الكويت ودولة الإمارات بخفض أسعار النفط. ورغم دوامات الجدل التي ثارت وقتها بين الضباط طارحين كل الاحتمالات فإن موقفي كان واضحاً للغاية. كنت أزعم استحالة تدخل العراق العسكري في الكويت أو غيرها من الدول العربية. «لقد كان الإعلان القومي الذي أصدره صدام عام ١٩٨٠ راسخاً في ذهني تماماً. وكان أهم بنوده (عدم استخدام القوة العسكرية في فض النزاع مع دولة عربية). ولما كنت قد درست هذا الإعلان بضع سنوات في الكلية وكمادة إلزامية) أجد الآن لنفسي عذراً لتصديقه».

مازلت أذكر تماماً ذلك الفجر (فجر ٢ آب) حينما أيقظني أحد جنودي ليخبرني أننا في حالة إنذار من الدرجة (جـ) قمت سريعاً بتفقد فصيلي الممتد على الساتر أمام القوات الإيرانية والتي يفصل بيننا وبينها نهر الكارون في قاطع «الكشك البصري».. كان كل شيء يبدو طبيعياً.

اعتقدت أن كل ما في الأمر هو تمرين روتيني. لم يخطر ببالي فتح جهاز الراديو فما علاقة الراديو بالممارسات التعبوية!! بعد ساعة

كانت الشمس قد أشرقت عدت لأكمل نومي بكل هدوء. بعد فترة لا أعلم كم طالت أيقظني الجندي الذي يقوم بخدمتي ليخبرني أن الجيش العراقي قد اجتاح الكويت. نهرته غير مصدق وعدت للنوم الذي لم أكن قد صحوت منه، لأفاجأ بعد قليل بآمر السرية يزورني وهو يعجب من عدم تصديقي للأمر الذي انتشر بسرعة هائلة. «أجل الجيش العراقي دخل الكويت هذه الليلة. ربما قامت ثورة هناك أو لا أدري ماذا حدث بالضبط». كان يؤكد لي وهو يحاول إرغامي على التصديق رغم أنه هو شخصياً كان يبدو أكثر دهشة مني.

اتضح فيما بعد يقيناً صدق الخبر. انتشر القادة والآمرون ليوضحوا لنا لنوضح نحن لجنودنا أسباب ما حدث. بالطبع لم يكن أحد ليصدق أن ثورة قد قامت في الكويت «الإمارة المرفهة» وأن الثوار قد استنجدوا بالجيش العراقي. فلو كان الجيش الكويتي قد ثار فمن هناك ليردعه؟!. دارت الأحداث بسرعة أعادت القيادة العامة تشكيل عشرات الفرق المتهيكلة وبضمنها الفرقة «٣٠» فرقتي.. فنقلت إلى لوائي القديم «لمش ٧٠٥» الذي كان قد أعيد تشكيله في الناصرية.

كانت عملية الهيكلة قد تمت بصورة مرتجلة وغير مدروسة، مما أفرز الكثير من السلبيات، وخاصةً ما يتعلق بالأسلحة والآليات «التي كنا نعاني الكثير منها منذ البداية». بقينا فترة في الناصرية لنتحرك بعدها إلى الكويت التي دخلتها لأول مرة في ١٩٩٠/٩/١٢. ورغم أن الكثير من الأحداث قد مرت بسرعة في هذه الفترة كاستقبال صدام لقائد الانقلاب الكويتي المزعوم. ومن ثم توحيد العراق والكويت وإعلان الكويت المحافظة العراقية رقم (١٩) وقرارات مجلس الأمن

بإدانة العراق وما إلى ذلك من عشرات الأحداث التي لست الآن بصدد توثيقها. على الرغم من كل هذا وربما بسبب كل هذا كنت أشعر بسعادة خفية فأنا أحلم كالملايين منذ زمن بعيد بالوحدة العربية التي يبدو أن جزءاً مهماً منها قد نُفِّذ الآن. وأنا أكره «وبفعل الإعلام طبعاً» كل ما يتعلق بشيوخ النفط الـ(رجعيين).. ابتدأ الإعلام العراقي يعزف على أوتارنا الحساسة فلسطين، والوحدة العربية، والثروة العربية المسروقة.. وما إلى ذلك. كنت وقتها أحمل مزيجاً متناقضاً من المشاعر. سعادة غامضة. وقلق كبير وخوف وأمل. كنت أعرف رغم كل شيء أن ما سيفعله صدام بالكويت «حتى لو انتصر بضمها» لن يكون أفضل مما حدث للعراق في عهده. ولكن...

دخلت الكويت لأول مرة ضمن رتل عسكري ضخم لأفاجأ وأصعق ببشاعة ما حدث. لا يمكنني تصديق كل هذا الدمار. أحسست بسرعة أن وحدة بيننا لم ولن تحدث. وأن كل ما حدث كان سرقة غزواً واضحاً وفاضحاً. قامت به دولة قوية على دولة أضعف.. كان النهب هو القاسم المشترك الأعظم للجميع في الكويت، إذ قامت الدولة بتفكيك منشآت كاملة ونقلها إلى العراق. وقام السادة المهمون «كعدي صدام حسين» بنهب مخازن ومنشآت أخرى. وقامت جهات أخرى «مهمة أيضاً» بسرقة الباقي. واقتسام الغنائم هذا كل ما حدث. وكان لا بد للدولة من أن تعطي حصة لأبنائها فسمحت للجنود «بطريقة غض النظر» بسرقة الدور أو المحال بحجة عدم القدرة على السيطرة. وبهذا تحولت دولة كاملة برغبة، بل بأمر من قادتها أو على الأدق قائدها الملهم إلى جماعة من قطاع الطرق.

تحولت الكويت بسرعة إلى مزبلة. طرق مقطوعة، سيارات محترقة

في كل مكان، مخازن منهوبة، بيوت محطمة. شاحنات محملة بكل ما يخطر ببال تتجه نحو العراق. شعرت بالقرف من كل شيء، وخاصةً من غبائي الشديد. كان لا بد لي أن أحفظ الدرس منذ البداية وألا أسمح لأحد أن يخدعني ولو للحظة واحدة. من سرق العراق يأتي هنا ليسرق الكويت وكل ما عدا ذلك هراء. هراء. لم تعد تسحرني أغاني الوحدة العربية التي استمر الراديو بإذاعتها. ولا فضائح شيوخ النفط التي ارتكب قادتنا الثوار وأولادهم ما هو أبشع منها مئات المرات. كانت الحقيقة الوحيدة لديّ تتلخص في كوني جزءاً من هذه الماكينة الهائلة التي أتت لتمارس واجباً قذراً رغماً عنها. بالطبع لم أفكر لحظة بترك الخدمة والهرب إلى مكان آخر. فمن عادة قيادتنا الحكيمة أن تقوم باعتقال عوائل الهاربين وربما إعدامهم بدلاً من ذويهم. ولم تطل بي الحيرة فلا وقت لها، إذ سرعان ما استقر اللواء في مكان ما في صحراء الكويت وبدأت أشق وأقسى مهمة مارستها في حياتي، إذ كان علينا أن نحفر الأرض ونشكل منها ملاجئ ونقاط رمي وخطوط مواصلات تربط بينها. كانت المعاول والمجارف أدواتنا الوحيدة للتنفيذ. وأخذت الأيدي تتشقق والمعاول تتكسر على الصخور التي تختفي تحت رمال الصحراء الناعمة. وكانت العواصف الرملية تقوم يومياً بدفن ما كنا قد أنجزناه. وما إن أكملنا حفر مكان الفصيل حتى صدر الأمر إلينا بالحركة إلى مكان آخر. ثم آخر فآخر. ويوماً بعد يوم كانت الأرزاق تزداد ندرة. وكانت مقاومة جنودي تقل. وأخذ عدد الهاربين منهم يزداد. وابتدأت الأمور تسير من سيئ إلى أسوأ، وكنت أثناء ذلك أقيم في برميل مياه ضخم من البلاستيك عثرت عليه بالصدفة كان يقيني من العواصف الترابية الهائلة التي كنّا نتعرض

لها. وربما شاركني فيه ضابط أو اثنان أحياناً. استغرق الأمر بضعة أسابيع قبل أن أستقر في ملجأ مناسب «حفرة ٢,٥ × ٢,٥ مغطاة بالصفيح». في هذا الملجأ وفي يوم ١٠/٢٥ فكرت ولأول مرة بالشروع بهذا الكتاب.. أجد من رسالة لي لزوجتي مقطعاً يقول «لم أخبرك بعد أنني عثرت أخيراً على روايتي الضائعة». فقد تجمعت في ذهني الآن كل أحداثها وخيوطها ولم يبقَ إلا أن أكتبها. ولكن الكتابة تتطلب مني تفرغاً تاماً لمدة شهر على الأقل. تصوّري شهر واحد فقط لرواية عظيمة كالتي سأنجزها. ولقد تم الاكتشاف بالصدفة البحتة «كالعادة» حينما كنت أفكر في كتابة قصة تراودني عن نفسها بعنوان «الحقائب» اندمجت مع نفسي في عالم الكتابة والأفكار المصاحبة لها.. قررت حينها تغيير اسم قصة الساحر إلى «التصفيق» فهو العنوان المناسب تماماً لها. وبعد أن رضيت بتغيير العنوان كان هناك شيء يتفتح في داخلي كبالون ضخم يملؤه غاز خفيف ولا يستطيع المكوث في الأعماق بعد الآن. «مذكرات شخص تافه» هذا ما قرأته على سطح البالون الذي خرج وحلق بعيداً. وجدت الاسم. ووجدت الفكرة وبقيت عملية التدوين والشحذ والتنقيح. وما هو أصعب من ذلك بكثير «الطبع والنشر والتوزيع». إذن فقد وجدت فجأة ما كنت أبحث عنه. ولكني أتساءل الآن. هل كانت الفكرة آنذاك هي نفس ما سأقوم بكتابته لاحقاً. لا أدري. ولكني متأكد فقط أنني كنت وقتها قد قررت كتابة قصتي مع قصصي الموءودة.

وأجد أيضاً أنني كنت مغرقاً في التفاؤل فيما يتعلق بالوقت الكافي للكتابة. عموماً كانت فرحتي كبيرة، إذ وجدت لي أخيراً ما يشغلني «ولو جزئياً» عن المأساة التي أعيشها، بل وأساهم في صنعها. أصبح

لوجودي هدف ثابت «وإن كان مرحلياً» وأصبحت أوقات فراغي النادرة أكثر متعة.

ويوماً بعد يوم أخذت الأمور تصبح أكثر قسوة. فقد هاجمنا فجأة برد الشتاء الصحراوي. ولم يبق لدينا ملابس شتوية للجنود. ولم تكن لدينا مدافئ ولا وقود للتدفئة. وكانت الأطعمة تزداد ندرة. وقتها أعلن مجلس الأمن عن الفترة التي حددت لانسحاب العراق من الكويت سلمياً. وكان يوم ١٩٩٠/١/١٥. آخر أيام هذه المهلة ومن رسالة بتاريخ ١٢/٥.

«أجدني أقول لزوجتي» ليس الموعد بعيداً كما يبدو ولقد بدأ العد التنازلي. بقي اربعون يوماً وتنتهي المهلة التي منحها مجلس الأمن «أو اللا أمن» لا أدري الأخبار تتحسن يوماً وتسوء أياماً. المفاوضات العراقية الأمريكية تفتح آفاقاً جديدة. رغم أنها مبهمة. ولكننا نأمل في حلول الوضع العام وفتور الهمم العدوانية وإنهاء الأزمة.

وفي مكان آخر من نفس الرسالة.

«معنوياتي متقلبة. أحياناً أحس باطمئنان شديد وتنتابني قناعة كاملة بأنني سوف لن أرى أية معركة هذه المرة. وأن نهاية هذه الأزمة ستعني تقليص الجيش واحتمال تسريحنا عن قريب «هذا ما يقوله المنطق». وفي أحيان أخرى أشعر بقلق شديد وغثيان قاتل حينما أفكر بالاتجاه الآخر. دم. حرب. وطن».

«الأدب هو الملاذ الأخير للمرء حينما يشعر بأنه خان كما يقول جان جينيه». لا أملك بديلاً عن الكتابة لا أجرؤ على فعل شيء آخر. وحتى ما كتبته بقي محبوساً في الدرج قرب رأسي استعداداً للتخلص منه بسرعة إذا اقتضى الأمر. أشخاص محدودون جداً هم كل قرائي.

هل هذه هي رسالتي في الحياة. لا ثم لا. يجب أن أكمل روايتي ويجب أن أنشرها بأي ثمن. أي ثمن فلم يبق لديّ إلا هذا الملاذ.

«لم يكن الوقت مناسباً أبداً لأي جنس إبداعي». «ماعدا البكاء الصامت» فالواجبات التي كنّا نكلف بها كانت تستغرق منا جميع اليوم. منذ الفجر وحتى ساعة متأخرة. صحيح أن مجمل الأعمال كان تافهاً. يتعلق فقط بحفر المواضع والشقوق وخنادق المواصلات وتهيئة الأسلحة وما إلى ذلك إلا أن هذا الجهد الغبي كان يمتص قوانا تماماً. وبالطبع فإن هذه الطريقة في ملء وقت الجنود والضباط كان مدروساً بعناية والقصد فيه عدم ترك أي حيز للتفكير لدى الإنسان. وامتصاص شحنته وتمرده وإغراقها في متاعب اليوم الجسدية. مع كل هذا. كنت مستعداً للتضحية بساعات نومي القليلة لأجل الكتابة. لم أكن حتى تلك الساعة قد بدأت فعلاً في كتابة الرواية. لكنني كنت مستمراً في كتابة الرسائل لزوجتي «قارئي الأول» مضمناً تلك الرسائل أسلوب حياتنا اليومي في الصحراء وما في ذلك من صعوبات فمن رسالة أخرى أقتبس «اليوم قصير جداً هنا قضيت أياماً لا أدري عددها تماماً ومع هذا فأنا لم أنجز إلا القليل مما كلفت به لأن ما أكلف به يفوق طاقة الإنسان العادي «مثلي» إذ يجب عليّ الركض هنا وهناك من ساعات الفجر الأولى وحتى نهاية اليوم. أتابع تموين العتاد وإدامة الأسلحة وحفر الشقوق وخزن العتاد وتدريب الجنود وما إلى ذلك من عشرات المهام الأخرى المتشابكة».

خرجت قبل قليل لتفقد الحراسات فأضعت ملجئي، وأصبحت في موقف لا أحسد عليه، خاصةً أن الجو بارد جداً هنا في الليل، ولا قمر أو بصيص من ضياء في هذه الصحراء. لاسيما بعد أن أزلنا كل ما يدل

على المواضع المحفورة في باطن الأرض. ولكن شعاعاً اختلج أمامي فجأة من الشمعة المحترقة أرشدني للمكان وعدت لأكمل الرسالة – أحاول الكتابة إليك منذ يومين. ولم يتيسر لي الوقت.. حلمت قبل يومين حلماً جعلني أقضي وقتاً سعيداً. حلم غريب كالعادة وذو طابع سينمائي. رأيت فيما يرى القائم أنني أسير وسط بناية حكومية قديمة إنكليزية الطراز «ربما أنشئت في الأربعينات» وكنت أرتدي زي ضباطنا القدماء وأسير وسط ممر يطل على فناء جانبي فإذا بشخص يناديني من خلف شباك بقضبان معدنية. «ناهض الرمضاني، ألا تريد أن تأخذ صورك». التفت إلى الرجل الغريب. كنت أراه لأول مرة. استغربت أن يعرف اسمي ولكنني مع هذا شعرت بشيء من الفخر فأنا معروف كما يبدو. اقتربت منه قليلاً. كان رجلاً نحيل الجسم طويل القامة ذا شارب رفيع على شفتيه وذا نظرة غريبة مستفزة. «أي صورة» سألته باستغراب. فقال لي إنها صور كان قد التقطها لي منذ زمن وقد نسيتها عنده. «ناهض الرمضاني. أنا لا أنسى أبداً أي اسم أو أي وجه صادفته في حياتي» قال بثقة كاملة. أخذت منه حزمة الصور. كانت الصور الأولى لي وأنا طفل في أمكنة مختلفة وفي مراحل متعددة، ولكنني كنت أرى هذه الصور للمرة الأولى بالتأكيد. وكانت الصور الأخرى حديثة تشبهني كما أنا الآن، ولكنها صور التقطت لي في أماكن كنت أتمنى زيارتها ولم أرها أبداً. مدن أوربية. جزر استوائية. ساحات عامة مشهورة. صور أمام أبراج وتماثيل شهيرة. صور بملابس كنت أتمنى شراءها وأمام سيارات حلمت بامتلاكها. قلبت الحزمة وأنا أحوّل نظري بين الصور وبين تعابير الوجه الجامد الذي كان قد رصد كل مراحل آمالي وصوري متلبساً

بها. وأخيراً صورة بالأسود والأبيض لأرض قد شققها العطش. نظرت إليه بشماتة فهذه صورة لا تخصني. ولكنني فوجئت بنظرته التي مازالت واثقة ومنتصرة أعدت النظر إلى الصورة. كانت تحمل وراء الشقوق ملامح وجه أعرفه جيداً «هو وجهي» وخلف الوجه أبراج حمام فارغة أو نوافذ منزوعة المصاريع والزجاج. كأنها صورة طبعت على صورة – إلى هنا وينتهي الحلم. أو ما أذكره من حلم سريالي جميل ومؤلم جداً في نفس الوقت. انتهى الاقتباس

لقد كنت أكتب الرسائل بكثافة «كما كنت أفعل طوال حياتي» مضمناً تلك الرسائل كل ما أستطيع تضمينه من مواقف وأحاسيس وأفكار. وبالطبع لم يكن بإمكاني إرسالها بواسطة البريد «فلا يوجد بريد بين المدنيين والعسكريين في الجيش العراقي» مما كان يدفعني للقيام بتصرف قد يبدو مضحكاً جداً. وهو أن أقوم بتسليم الرسائل إلى «زوجتي» يداً بيد وآخذ منها في نفس اللحظة جوابها على رسالتي السابقة. كنت أولي الرسائل اهتماماً شديداً في الفترات التي أنقطع فيها عن كتابة القصص أو التفكير في مشاريع أدبية فهذه الرسائل خيط رفيع يشدني إلى عالم الكتابة الذي أحاول دائماً أن أتواصل معه. وفي الشهور الأخيرة كنت أحس بأن لهذه الرسائل أهمية ما في عملي المقبل، لذا فقد احتفظت بمعظمها وقد فعلت خيراً. فأنا أجد الآن تفاصيل كنت سأنساها بالتأكيد لو لم أدوّنها. ومن رسالة أخرى بتاريخ ١١/١٣ أنقل منها «هناك الكثير يدور حولي ولكن الوقت لم يحن لكتابته أحس بتعب شديد فقد نزعت حذائي قبل قليل علماً أنني ارتديته في الساعة الخامسة والنصف فجراً والساعة الآن تقارب العاشرة ليلاً. أتمنى أن يتاح لي يومياً وقت فراغ قليل لأمارس

فيه الكتابة بانتظام». وأخيراً أهديك هذا المقطع لكازانتزاكيس من كتاب الأخوة الأعداء. يقول فيه:

«ما أبسط الحياة يا حبيبتي إذا تأملنا حقيقتها. وما أقل ما يلزم الإنسان ليعيش سعيداً. لكنه يفضل أن يتيه وهو يركض وراء أمجاد وهمية. أكثر من مرة تملكتني الرغبة في أن ألقي البندقية وأرحل. وأظهر فجأة على عتبة غرفتك. وإذ ذاك أمسك يدك دون أن أتكلم. فقط لأشعر في يدي بحرارة يديك. إني واثق بأنه ما من سعادة أعظم من أن أضغط على راحتك. لكنني لن أفعل ذلك قط. وسأبقى هنا والبندقية على كتفي. أحارب حتى يأمروني بالعودة. لماذا؟ لأنني خائف. لأنني أشعر بالخجل. وحتى لو لم أكن خائفاً فهناك الواجب والوطن. والشرف. والفرار من العسكرية. هذه الكلمات الكبيرة التي تقيد بالأغلال روحي المسكينة وتصيبني بالشلل».

هذا ما يقوله أحد الأخوة الأعداء. وما أقوله دائماً. فمأساتنا قديمة ومتكررة حدّ التفاهة. ولكن لا مهرب منها. فهناك هو يقول لي نفس الكلمات الكبيرة. الواجب، الوطن، الشرف، العسكرية. وداعاً.

ومن رسالة أخرى بتاريخ ١١/١٦. أجدني كنت قد اخترت الشكل النهائي لكتابي «تبين لي فيما بعد أنني لن أختار هذا الشكل» فأقول:

«عزيزتي. أكتب لنفسي ولأصدقائي ولتلطيف سير الوقت. يقول بورخيس ما أريد قوله تماماً. كنت قد أخبرتك قبل فترة عن نيتي كتابة روايتي الأولى (مذكرات شخص تافه) أو (يوميات شخص عادي) لقد تكامل هيكل هذه الرواية في ذهني، تكامل عمودها الفقري ولم يبق إلا أن أكسوه باللحم هل تعرفين أي أسلوب سأختار؟ سأكتبها

بالطريقة الأولى والأقدم لكتابة الرواية «أسلوب الرسائل» تماماً كما فعل ريتشاردسن في رواية باميلا «ألا أجيد كتابة الرسائل؟!».

عزيزتي. أذا أمهلني الوقت لن تنتظري طويلاً لتقرئي اليوميات. أرجو أن نكون تعويضاً مناسباً لك عن خيبات أملك المتعددة في زوجك المخلص».

مقطع من رسالة مؤرخة ٥ /١٢/١٩٩٠

وهكذا وبعد ١٢/٥ لم أسطر حرفاً واحداً في رسالة. فقد بدأت جدياً بالعمل على كتابي الذي كنت وقتها أظن أنه سيكون رواية بعنوان «يوميات شخص تافه» أي يومياتي أنا. وأجدني وقتها متفائلاً بعثوري على الشكل المناسب «أسلوب الرسائل» وهذا ما لم يحدث أيضاً. فقد كانت الأحداث السريعة تغير وجهات نظري بالموضوع. وكانت رغبتي بكتابة ما يحدث «الآن» وقت كتابة الرواية ممزوجاً بما كنت أريد كتابته فعلاً «قصة قصصي» وأسباب كل ذلك ونتائجه. كل هذه العناصر جعلتني أكتب بأسلوب آخر لم أكن أفكر فيه. كنت أكتب كما أتكلم. بنفس السرعة والبساطة. كنت أريد أن أوصل مقولتي قبل أن أتحطم. ولهذا خرجت الرسائل التي كنت أهتم بها من موضوع الرواية ولم أستفد منها إلا في أماكن قليلة لأغطي الفترة التي لم أكن قد بدأت فيها بالكتابة الفعلية لهذا الكتاب. رغم أنني كنت أفكر آنذاك «نظرياً» بالتخطيط للعمل ومنذ يوم ١٩٩٠/١/٢٩ اليوم الأول الذي بدأت فيه فعلاً بالكتابة انقطعت عن التفكير في كتابة قصة ما. أو أية خاطرة أو تعليق أو رسالة كما أسلفت. وأصبح جهدي كله منصباً على الكتاب.

مازلت أذكر السعادة الخفية التي كانت تغمرني وقتها وأنا أفكر

وأخطط أثناء واجبي وأثناء مسيري وفي يقظتي ورقادي.. كان هذا العمل مخدراً هائلاً منعني من الإحساس بالألم والخوف. كان هذا العمل هدفاً يدفعني للنجاة «لأكمله على الأقل».. أحسست بنفسي وكأنني في أحسن أوضاعي «وهذا ما كان يثير استغراب الجميع».

وفي الإجازة الأخيرة التي حصلت عليها دون توقع. بدأت أكمل الفصل الأول في البيت وبشكل محموم.. كنت أتمنى أن أستطيع كتابة تاريخ جميع القصص قبل انتهاء الإجازة. ولكنني لم أستطع. مما دفعني إلى ترك ملاحظات مع المخطوطة الناقصة. آملاً أن أكملها فيما إذا عدت يوماً. أو يكملها غيري فيما لو متّ وكانت الملاحظات تتضمن شكل الكتاب كما كنت أتخيله آنذاك: كتاب من جزأين سأقوم بكتابة جزئه الثاني في الكويت. «نرفق القصص خلف الفصل كجزء رئيسي من بقية الكتاب»، ثم أشير لمن سيكمل الكتاب للاستفادة من رسائلي الأخيرة التي تدور حول نفس الموضوع. وأخيراً. كتابة تمهيد وفاتحة توضح مجرى العمل في الكتاب الذي سيحمل «يوميات الذي كان» ومعها اسمي. ولا شك أن هذا الاسم كان يحمل الكثير من الرومانسية الساذجة التي أخذت تسيطر عليّ في الأيام الأخيرة قبل الحرب وفي ظهر ١٤/١ خرجت من البيت مؤملاً الوصول إلى وحدتي في الكويت. قبل الساعة ١٢ من ليلة ١٥/١. وهي الساعة الأخيرة الحاسمة في إنذار مجلس الأمن. تبين لي فيما بعد أنني كنت مغرقاً في التفاؤل. ما إن وصلت إلى الكراج حتى أحسست بالمأساة فقد كان الكراج خالياً تماماً من الناس أو الباصات أو حتى سيارات الأجرة. شعرت بإحباط شديد، كان من الواضح أن السائقين قد تركوا العمل وبدأوا بنقل عوائلهم وعوائل الآخرين إلى القرى النائية

خشية تعرض الموصل للقصف. وكان يفترض بي أن أتوقع حدوث هذا الأمر. ولم يعد لديّ مخرج سوى القطار الذي أكرهه جداً. فهو يقطع مسافة ٤٠٠ كم بين بغداد والموصل في أكثر من عشر ساعات. وهذا يعني تأخري عن موعد التحاقي. ولم يكن حصولي على تذكرة القطار عملية سهلة. لكني حصلت عليها بطريقة أو بأخرى. وبعد أن بدأ القطار بالمسير فكرت بإخراج الدفتر والاستمرار في الكتابة. فالساعات العشر وقت ثمين جداً لا ينبغي تفويته. لكن (مناف شمدين) وهو من أصدقاء الكلية المقربين صعد معي صدفة وأفسد لي مخططي.. فقد جلس بجانبي وبدأنا نتذكر ونثرثر عن أيام الدراسة الجامعية عن الرسم، إذ كان رساماً وبعد دقائق فقدت كل حماس للكتابة وانخرطت كلياً في حديث الذكريات التي لم نعد نملك سواها في العراق. كان الكل يتذكر من أبسط إنسان في الشارع وحتى الرئيس الشمس. أجل كان صدام نفسه يتذكر. ففي أحد خطاباته الأخيرة ابتدأ حديثه قائلاً. «حينها كنا في مرحلة الدراسة الثانوية» وابتدأ سيل من ذكرياته. بالطبع صدام لا يملك أية ذكريات جامعية فهو لم يحصل على شهادة جامعية كما هو معروف. بقينا نتذكر ونتذكر والقطار يسير ببطء يقطّع نياط القلوب حتى وصلنا منهكين إلى بغداد مع صباح يوم ١/١٥. قفزت بسرعة إلى سيارة أجرة لأصل إلى كراج النهضة، حيث توجد - بالغالب- باصات تنقل العسكريين إلى الكويت. وقبل أن أترك التاكسي تبين لي ثانيةً أنني كنت مغرقاً في تفاؤلي. فقد كان الكراج عبارة عن كتلة بشرية هائلة تتحرك بسرعة خارقة نحو أية عربة تدخل الكراج. كتلة ضخمة تسحق أمامها كل شيء. لجأت إلى جنود الانضباط العسكري في الكراج ليتدبروا لي بعد

ساعات مقعداً في سيارة متهالكة ستوصلنا إلى العمارة. وفي العمارة تكرر نفس المشهد لأصل بعدها إلى البصرة وفي البصرة حصلت على سيارة توصلني نحو الحدود (الملغاة) بين العراق والكويت. عند نقطة الحدود هذه كان الظلام قد خيم تماماً. وكانت جيوبي قد فرغت من أية قطعة نقود. فقد التهمت المواصلات ما تبقّى من راتبي وأصبحت مفلساً.

انتظرت طويلاً قبل أن أحصل على توصيلة مجانية استخدمت فيها نفوذي العسكري بالطبع واضطررت لإشهار مسدسي لإجبار السائق على «مساعدتي».. وقبل الساعة ١٢ ليلاً. «ساعة الصفر» كنت في الصحراء في نقطة سيطرة تبعد ٥٠ كم عن وحدتي أبحث عن عربة نقل عسكرية لأكمل الرحلة وأنا أنظر إلى السماء منتظراً مجيء الطائرات.. وخاب ظني في الأمرين. فلم تجئ الطائرات. ولم أستطع الحصول على توصيلة. مما أرغمني على قضاء ليلتي في الصحراء وعيناي تتجهان إلى السماء مع بضعة من جنود الانضباط العسكري. في الصباح تعلقت بأول شاحنة عسكرية محاولاً الوصول بأسرع وقت. وصلت إلى لوائي في الساعة الثانية ظهراً. كنت مرهقاً للغاية. وكان كل شيء هادئاً على الجبهة. فلا طائرات ولا قصف مدفعي ولا أي شيء ينبئ بحدوث معركة. كان الرأي القديم لا يزال مسيطراً على عقولنا. لن تقع الحرب. سيحدث أمر ما في اللحظات الأخيرة ويقلب الموقف «حسناً إذن. إذا كانت الحرب لن تقع فلأنم قليلاً. فأنا مرهق للغاية» هذا ما فكرت فيه، دخلت إلى ملجئي. وتمددت على سريري لأغط فوراً في نوم عميق. لم أستيقظ منه إلا على الدويّ الهائل الذي كانت تحدثه المدافع المقاومة للطائرات.

والرشاشات الثقيلة. بعد قليل خرجت مذهولاً من ملجئي. كانت الساعة تقارب الثانية والنصف ليلاً أو تزيد قليلاً نظرت غير مصدق إلى الأعلى. لم أكن أرى الطائرات لكنني كنت أسمع دويها بوضوح كامل. استمرت مدافعنا بالرمي. ولكن كان من الواضح أن الطائرات تطير بارتفاعات أكبر بكثير من مدى المدافع المحدودة.. كان جنودي أيضاً يشعرون بالدهشة وخيبة الأمل.. وقعت الحرب. وكأن الأمر كان مفاجأة تامة لنا. شعرت بخوف شديد. ويأس وألم. وقعت الحرب التي كنا نكذّب وقوعها. ماذا سيحدث لنا بعد ذلك؟؟ لا يهم. فنحن من الآن موتى.

لا داعي للقول بأنني بقيت متيقظاً حتى الفجر. كان جنودي في مواضعهم يعدون اسلحتهم للمعركة البرية. كنّا نعتقد «كصدام حسين تماماً» بأن القصف الجوي سيستمر لساعات يعقبه قصف تمهيدي بالمدفعية. لبضع دقائق. ثم يبدأ الهجوم البري. كان هذا السيناريو الذي تخيله صدام وأذاعه من شاشة التلفزيون مطبوعاً في نفوسنا. ولكن الشمس ارتفعت في الأفق ولم تلح لنا دبابة. ولم تسقط فوقنا قذيفة مدفع. حتى الطائرات كانت تجتازنا لتقصف مواقع أخرى في العمق. كانت إذاعة الكويت «التي تبث من مكان ما» قد أعلنت منذ الخامسة صباحاً عن تحطيم جميع المطارات وقواعد الصواريخ والمنشآت العسكرية في العراق. ولايزال مصير صدام مجهولاً –على حدّ تعبير الإذاعة– بعد ذلك بقليل بدأ صدام يذيع خطاباً من أغرب الخطابات السياسية والعسكرية التي سمعتها في حياتي.. كان يقول في مقدمته «لقد غدر الغادرون بهذا البلد الآمن» وختمه بقوله «يا ما احلى النصر بعون الله». إذن فمصير صدام

ليس مجهولاً على أية حال فهو حيّ ومستمر في الكذب. فهل غدر الغادرون فعلاً. وهل كان العراق بلداً آمناً ليوم واحد تحت حكم «القائد الملهم». لم نكن نتوقع – ويبدو أن القيادة الحكيمة نفسها لم تكن تتوقع– أن يستغرق القصف المدة لتي استغرقها. ففي الأيام الثلاثة الأولى كنت أتوقع أن يتم الهجوم البري في أية لحظة أو في فجر أي يوم. أو عند مغيب الشمس. وفي اليوم الثالث استدعاني آمر اللواء «العقيد الركن مناف العبوسي» ليكلفني وضابطاً آخر بتنفيذ مهمة خطف أسير. كانت القيادة بحاجة إلى معلومات وكانت القوة الجوية العراقية قد أجهضت. لذا كان لا بد من الحصول على المعلومات بأي ثمن. كانت الخطة بسيطة جداً. ولا تحتاج لشيء سوى الجرأة التي كنّا نملكها. لم أكن أخشى شيئاً أبداً. فلم أخف وأنا ميت!! بالعكس. كنت أفضل أن أموت متقدماً محاولاً فعل أي شيء بدل الجلوس في الخندق منتظراً قذيفة النهاية. لم نتمكن من الإعداد الجيد للواجب. فقد كان الوقت محدوداً جداً.. (٢٤) ساعة فقط. ولم يكن استطلاعنا للهدف موفقاً. فقد كان الهدف موضعاً متقدماً أمام مخفر حدودي سعودي. وكان يفترض وجود أربعة جنود في هذا الموضع، وواجبنا خطف أحدهم.

ذهبت لاستطلاع المكان من مرصد مقام في مخفر كويتي مقابل المخفر السعودي وبعد أن غادرت المرصد بدقائق. قامت الطائرات بقصفه. مما منعني من تكرار المحاولة. قمت بأخذ إحداثيات الهدف من نقطة مراقبة عراقية وبواسطة جهاز «الرازيت». ومساء ليلة ١/١٩ انطلقت ومعي ملازم صفاء وعشرون جندياً متطوعاً لتنفيذ المهمة. كانت البوصلة العسكرية «القنباز» هي الطريقة الوحيدة

المتاحة لنا للوصول إلى الهدف، وكانت المسافة تحسب بالخطوات والحصى «أقدم طريقة في التاريخ» ولما كان الاتصال اللاسلكي يعرضنا للافتضاح، فقد اصطحبنا معنا هاتف ميدان سلكياً وعدداً كبيراً من لفات الأسلاك لنؤمن اتصالنا بآمر اللواء الذي كان يتابع العملية من نقطة متقدمة. كانت هذه الأسلاك اللعينة سبباً في تأخير وصولنا بضع ساعات. إذ كان علينا المسير لحوالي سبعة كيلومترات داخل الأراضي السعودية لنصل إلى الهدف. وكانت الأسلاك القديمة المتشابكة تعرقلنا تماماً عن التقدم بسرعة. وكانت الطائرات التي تحلّق فوقنا باستمرار سبباً آخر يجعل التقدم السريع صعباً. فلو ألقى أحد الطيارين مشعل تنوير «كما كان يحدث دائماً» لكشفنا ببساطة شديدة، خاصة ونحن نرتدي ملابس مغايرة للون الأرض «ملابس داكنة وسط صحراء قاحلة» وفي حوالي الساعة الرابعة من فجر يوم ١/٢٠ كنا قد وصلنا إلى الهدف. وانطلق ملازم صفاء مع مجموعة الاقتحام لجلب الأسرى، لكنه اختفى ولم يعد. كان الضباب كثيفاً والرؤية شبه مستحيلة ثم بدأت السماء تغسلنا بالمطر. وكان التعب والإرهاق قد نالا مني ومن جميع الجنود وكانت عيناي تعجزان عن البقاء مفتوحتين لأنني سرت تسع ساعات وأنا أنظر إلى البوصلة المفتوحة في راحة كفي. وبعد نصف ساعة صدر إلينا أمر بالانسحاب. ومن بعيد لمحنا إطلاقات مسدس المخابرة التي تأمرنا بالانسحاب، لكننا لم نكن قد أنجزنا المهمة بعد. وقبل الخامسة بقليل ابتعدت عن الجنود «وأنا ممسك بأحد الأسلاك كي لا أضيع» وبدأت أشعل مصباحاً يدوياً ضخما وأنادي ملازم صفاء. كنت أتمنى وقتها أن يقوم أحدهم بإطلاق الرصاص عليّ. كنت أريد أن

أكتشف الهدف بأية طريقة ولو كان الثمن حياتي «وما أرخصها آنذاك».. بعد قليل عاد صفاء خالي الوفاض مسترشداً بمصباحي. كانت الشمس قد أوشكت على الشروق لولا السحب التي أخرت انتشار ضوئها. تركنا أسلاك الهاتف وانسحبنا راكضين. لنصل إلى نقطة انطلاقنا في الساعة السادسة والنصف صباحاً. كانت المهمة قد فشلت ككل شيء في هذه الحرب. عدت إلى الفصيل وأنا أريد أن أنام. أنااااام.... لكن الطائرات التي أخذ قصفها يقترب منّا يوماً بعد يوم منعتني من النوم براحة، لكن «سرعان ما اعتدت الأمر وأصبح من الطبيعي أن أنام بعد أن أنطق بالشهادتين. رغم الملجأ الذي يرقص بعنف مع كل قذيفة».

وحينما استيقظت كانت هناك عربة بانتظاري لتوصلني إلى مقر اللواء كي أقدم تقريري عن فشل المهمة. كان آمر اللواء «وهو العسكري الذي حنكته المعارك» متفهماً للموقف. ولم يسبب لي أي شعور بالإحراج «كان ينقصكم قليل من الحظ» علّق بأسف. عدت إلى فصيلي لتنطوي بهذا صفحة التطوع للموت. فيبدو أن القصف المشدد على المقارّ قد ألغى فكرة تشكيل الوحدات الانتحارية التي كنت قد بدأت أشعر بالندم لترشيح نفسي لها. والآن وحينما أفكر في السبب الحقيقي لهذا الترشيح أجد أن هدفي كان المغامرة «بأي ثمن» أولاً، والمحافظة على صورتي اللامعة أمام جنودي حتى في أحلك الظروف ثانياً، وسرعان ما تعودنا على القصف الجوي. وأصبحت الأمور في منتهى الطبيعية. عاد الجنود ثانيةً ليسيروا خارج الخنادق وبدون خوذ وكأن القصف لا يعنيهم. وعاد الجميع «جميع العراقيين كما أظن» ليلتفوا حول الراديو «كما كان يحدث

أيام الحرب الإيرانية» وهم يتوسلونه خبراً مفرحاً. كانت أعصابنا تتوتر وتسترخي حسب نشرات الأخبار وحسب تقارير المراسلين وحسب تحليلات المعلقين. وكان الصراع على أشده بين التقريرين «حسن الكاشف» من بغداد و»عبدالله الشهري» من السعودية. وكان صوت الأمهات العجائز الكويتيات وهن يتحدثن إلى أبنائهن في دول أخرى عبر الإذاعات يبكيني «نبيكم... نبي نشوفكم» وكنا مثلهن.. لا «نبي إلا أن نشوف أهلنا» ولكن.......

كنت أسهر يومياً حتى تستنفد الأخبار أخبارها ثم أبدأ بالكتابة. كنت أتكلم عن كل شيء. وعن كل التفاصيل. وكنت أيضاً مستمراً في إكمال الحديث عن بقية قصصي لم تمضِ إلا أيام معدودة حتى واجهتنا أعتى مشكلة «المياه والأرزاق» فيوماً بعد يوم أصبحت عربة الأرزاق أكثر صعوبة حتى غدت مستحيلة بعد عشرة أيام تقريباً من بدء القصف. ولما كان أشقاؤنا الفرنسيون قد قاموا ومنذ الساعات الأولى بقصف المدافع المضادة للطائرات. فقد أصبحت سماؤنا مفتوحة لهم على رحبها. ويوماً بعد يوم أخذت طائرات الجاكوار العتيقة تطير بارتفاعات أكثر انخفاضاً مما أتاح لها أن تقصف بدقة المدافع والدبابات وأكداس العتاد ومقارّ الألوية والفرق، ناهيك عن نقاط تموين الوقود والأفران ومناطق توزيع مياه الشرب ومن ثم أصبحت عربات الأرزاق وعربات الماء هدفاً سهلاً لهذه الطائرات. حتى استحالت حركة الآليات تقريباً مما ضاعف أزمتنا.

إذن فلم يعد الطعام ولا الماء متيسراً لنا. وكانت كلمتا «تصرّف.. ودبر حالك» هما الجواب الوحيد لكل مطالبنا. ولم يكن بإمكاننا «التصرف ولا تدبير الحال» ونحن معزولون في الصحراء، وتحت

رحمة الطائرات التي تقذفنا بكل الذخيرة التي أنتجتها المصانع الغربية طوال الحرب الباردة. بدأ الجوع يهاجمنا بشراسة شديدة مما دفع الكثير من الجنود لترك مواضعهم والتنقل هنا وهناك بحثاً عن قطعة خبز أو قدح ماء أو عقب سيكارة. تطور الأمر بعد قليل، إذ أخذ الجنود يغادروننا بلا عودة حاملين معهم الرمانات اليدوية وعاقدين العزم على مهاجمة من يحاول وقف هربهم أو منعهم من العودة إلى أهلهم.

كانت الأخبار مثيرة جداً. قصف المدن. والمنشآت. والمصانع. والجسور ومحطات القطار وكل ما له أهمية في العراق. وكان كل واحد منا يتحرق شوقاً لمعرفة أخبار أهله وعائلته. بالطبع لم تكن هناك خطوط هاتفية بيننا وبين أهلنا ولا رسائل بريدية ولم تكن الإجازات مفتوحة. كان الطريق الوحيد المتاح لنا لرؤية أهلنا هو الأحلام. ورغم القصف الشديد فقد كنا ننام ونحلم بعوائلنا دائماً.

وبعد أن بدأ مسلسل الهروب من المواضع تقلص عدد جنودي ليصبح ١٥ جندياً بدلاً من ٣٢. كان الكثير ممن تبقى مصاباً بأمراض مختلفة كالصمم أو العشو الليلي أو إصابات أخرى ناتجة عن الحرب الإيرانية. وكان توفير الطعام شغلنا الشاغل لهذه المجموعة القليلة. وقد تدخل القدر يوماً ما حينما عثر أحد الجنود على نصف كيس من الشعير في أحد حضائر الماشية المتروكة. اعتبرها الجنود هبة من السماء. استمر هذا الكيس طعاماً لنا بضعة أيام قبل أن ينفد.. واصطاد جنودي في يوم آخر جملاً هائجاً ضالاً قطّعوه بسرعة شديدة قبل ذبحه.. طاردوه وأشبعوه طعناً بحرابهم ثم تقاسموه وهو يصرخ.. لم أذق لقمة من هذا اللحم رغم جوعي.. ورغم وجود أرزاق طوارئ

في مقر الفوج إلا أن الأمر بصرفها كان مركزياً ولا يتم إلا بأمر من قائد الفرقة «وحسب تعليمات مشددة» أما الماء فقد كنا نصلّي يومياً كي تمطر السماء لنحصل على ما يسد رمقنا منه. ثم بدأ الجنود بفرش معاطفهم المطرية البلاستيكية على شكل قمع ليجمعوا ماء الندى والضباب ليلاً.

في تلك الفترة كان «الأستاذ» عدي صدام حسين قد ودّع والده على شاشات التلفزيون وجاء إلى الجبهة ليقف مع إخوانه أو على الأدق وراء إخوانه العراقيين ومعه لجان الإعدامات. وكالعادة بدأ مسلسل الإعدامات الذي لم ينته إلا باشتداد القصف الجوي.

ولم تكن السيطرة على الجنود أمراً ممكناً مع انعدام الغذاء والماء. لذا فقد أخذت نسبة الهروب تزداد فظاعة. فلم يبق في الكثير من السرايا أكثر من عشرين جندياً من أصل مئة وعشرين ولم يكن بإمكان الضباط وقف هذا السيل من الهاربين الذي امتد ليشمل الكثير من الضباط أيضاً بعد أن أهلكهم الجوع والعطش. وأوامر الإعدام التي لا تنتهي. فقد حدث أن اجتمع «القائد الرمز» بقادة الفيالق مطالباً إياهم بإيجاد حل لنسبة الهروب المتزايدة. ولما كان الحل مستحيلاً مادام الغذاء معدوماً فقد اقترح سيادته حلاً عبقرياً يقتضي إعدام بعض الجنود والضباط من كل وحدة لردع البقية. وأن يتعهد آمرو الفصائل بالوقوف أمام لجان الإعدام إذا ما هرب جندي واحد من فصائلهم. وهكذا تم إجراء جرد مفصل لكل السرايا. وقام كل آمر فصيل وآمر سرية بالتعهد بالخضوع للإعدام إذا ما هرب منه أحد جنوده. وكان الخلاص الوحيد للضباط هو أن يقوم بقتل الجندي الذي يبدي نية للهرب. طُلب منّا أن نجمع جنودنا «أو ما تبقى منهم» في ملجأ واحد

وأن يبقى الضباط يقظين حتى الفجر ليضمنوا عدم هروب أحدهم. وبالطبع لم يكن هذا حلاً عسكرياً مألوفاً، لكنه كان إلهاماً عبقرياً وإبداعاً ذاتياً من لدن «القائد الشمس» المهيب الذي لم يصبح في يوم ما آمر فصيل. ولم يدرك أبداً طبيعة العلاقة بين الضابط وجنوده. الجنود الذين قضينا أوقاتاً طويلة معهم في القتال وفي التدريب. أصبح لزاماً علينا الآن أن نقتل بعضاً منهم لنردع الآخرين.

ازداد الأمر سوءاً بعد انكسار جيشنا في معركة الخفجي. في البداية شعرنا بفخر شديد ونحن نسمع أنباء انتصار قواتنا في أحد القواطع فلم يكن ممكناً «برأينا» أن نهزم بهذه البساطة ونحن الجيش الذي لا يقهر. كان خبر دخول قطاعاتنا إلى مدينة الخفجي من أسعد الأنباء التي سمعناها، ولكن نبأ الهزيمة اللاحقة حطّم كل ما كنا قد بنيناه من آمال.

يبدو النصر بعيداً رغم تأكيدات القائد المنصور «الذي صرح في أحد اللقاءات معه بأن احتمال خسارة العراق لهذه المعركة هو واحد في المليون» ولا أدري لحد الآن على أي أساس استند صدام في هذا التقييم. لم نكن وقتها نعلم ما حدث فعلاً. هل أن لجوء طائراتنا إلى إيران هو تكتيك معين استخدمته القيادة أم هو فعلاً عملية تهريب للطائرات.. وهل أن الصواريخ التي أطلقها العراق قد دمرت نصف «إسرائيل» كما وعدنا صدام قبل المعركة. وهل. وهل. وهل. كان هناك الآلاف من الأسئلة ولا جواب.

انهمكت ثانيةً في الكتابة. مخلصي الوحيد. كنت أقسم يومي لثلاثة أقسام: القراءة، والكتابة، وسماع نشرات الأخبار. كنت وقتها أقرأ كتاب «ما بعد الحياة» لكولن ولسن وهو يتحدث عن حالات

اتصال الأرواح بالإنسان وطرقها. كان هذا الموضوع قد غدا قريباً إلى نفسي فقد كنت أظن وقتها أنني سرعان ما سأموت وأتحول إلى روح كالتي أقرأ عنها. لذا فقد كان من المستحسن التعرف إلى عالمي الجديد الذي سأعيش فيه.. أما الكتابة فقد كانت مصدر سعادة وعذاب لي في نفس الوقت. فقد كنت أكتب يومياً خمس صفحات تقريباً وكانت الذكريات التي كنت أحبسها على الورق تثير فيّ إحساساً كبيراً بالألم، وكان هناك أيضاً خوفي من ضياع ما أكتبه أو احتمال موتي قبل إكماله. ورغم هذا كله فإنني واصلت الكتابة بروح تحدٍّ عالية جداً والآن. ورغم أن كل ما كتبته من ١/١٦ ولغاية ٢/٢٤ قد ضاع إلا أنني أشعر بأنني قد فعلت الشيء الصحيح. فلولا الكتابة لأصبت ربما بالجنون.

أما المذياع فقد استمر يلعب معنا لعبة القط والفأر. ولو كتبت كتاباً كاملاً عن وضعنا أمام المذياع لما استطعت أن أصف جزءاً من طبيعة علاقتنا بهذا الجهاز آنذاك. فقد كان ينقلنا بسرعة مدهشة ما بين القمة والحضيض. من أقصى الأمل إلى هاوية اليأس. من الرجاء إلى التشاؤم. ومن الأمان إلى الخوف. إلى الأمان ثانية. كان كل شيء يبدو ممكناً آنذاك. وكنّا مقتنعين جداً «وقتها» بأن صدام سيعلن عن نيته في الانسحاب غير المشروط. فقد انتهت أم المعارك عسكرياً منذ فقدنا غطاءنا الجوي. استمر مسلسل الزيارات والمباحثات والوساطات بريماكوف يزور بغداد وطارق عزيز في موسكو. وطارق عزيز يعود إلى بغداد وغورباتشوف يقدم مبادرة ووزير الدفاع الفرنسي يستقيل. تاتشر تتخلى عن رئاسة الوزارة وحريق في مكتب بوش و.. و.. و.. كان كل شيء خاضعاً لأكثر من تفسير، وكنت أحاول دائماً تصديق

الأخبار المتفائلة وإشاعتها بين الجنود لأقوم فيما بعد بتصديقها بعد أن أضيف لها ما يؤكد صدقها. فعلاً لم أكن أظن أن الأمور ستصل إلى ما وصلت إليه لاحقاً. كنت وقتها لا أزال أظن أن صدام سيحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه وقد أثبتت الأيام فداحة خطئي.

كان جو الأمل الذي كنت أشيعه بين جنودي قد ساهم إلى حدٍّ كبير في خلق استقرار نفسي لديهم – خاصة بعد اعتيادهم على القصف الجوي– كنت أمنحهم الأمان وأنا خائف. خائف من معركة غير متكافئة قد اضطر فيها إلى إكراه جنودي إلى فعل ما لا أريد أن أفعله.

– لماذا قتلتني.

– لأنني كنت أخشى أن تقوم أنت بقتلي.

نفس الموقف الذي سبق أن كتبت عنه في قصة (هو والآخر) اقتل كي لا تقتل. كان جسمي يقشعر حينما أتخيل نفسي أقوم بإطلاق النار على أحدهم لقتله. كنت متأكداً وقتها أن هجوماً برياً لن يحدث، وأن أمراً بالانسحاب سيصدر بين لحظة وأخرى، وأن كل شيء سينتهي بأقرب وقت. لكن الأيام مرّت ولم يحدث شيء من هذا القبيل حتى حل يوم ٢/١٧ لنفاجأ ببيان مجلس قيادة الثورة الموقر الذي يعلن فيه عن عزم العراق الانسحاب بعشرات الشروط الخيالية. لم يفهم أحد حقيقة الموقف، لكن الكلمة السحرية «انسحاب» كانت قد وردت بالتأكيد مما خلق قناعة كاملة لدى الجميع (وأنا منهم) بأن اللعبة قد انتهت. وكالعادة عبر العراقيون عن فرحهم بإطلاق الرصاص. اشتعلت السماء فجأة وأخذت كل قطعة سلاح عراقي صالحة للرمي تقذف حممها إلى السماء. كان الجميع يريدون جعل القرار أمراً واقعاً بتأكيد فرحتهم الهائلة به، إلا أن سعادتنا لم

تستغرق ساعات حينما أعلن بوش أن القرار العراقي «مزحة سمجة» وأن الانسحاب المشروط – خاصةً بمثل هذه الظروف– أمر مرفوض قطعاً. كان الكثير من عتادنا قد أهدر بلا سبب، وكان فرحنا كله بلا مبرر. لم يستطع الكثيرون امتصاص الصدمة، مما زاد ثانيةً من حالات ترك الموضع الدفاعي. رغم كل هذا حافظ عقلي العنيد على تفاؤله. فمادام صدام قد ذكر كلمة (الانسحاب) الكلمة التي كان من المحرم على العراقيين لفظها.. فلا بد من حدوث شيء ما، بطريقة ما، وبأسرع وقت ممكن.

كان الجوع قد فعل فعله في الجنود الذين كان يكفيهم قطعة خبز وقدح ماء كل يوم ليسد رمقهم، الأمر الذي كان متعذراً آنذاك. والآن وحينما أفكر كيف استطعنا البقاء أحياء كل ذلك الوقت وفي تلك الظروف أتأكد تماماً من قدرة الإنسان الخارقة على التحمل، خاصةً إذا كان جندياً عراقياً يقوده رئيس ملهم كصدام حسين الذي استمر هو ووزير إعلامه الذي اعتاد دائماً أن يسخر من تصريحات قادة الحلف بكل صلافة.

وبعد طائرات الجاكوار والميراج الفرنسية بدأت طائرات B52 بزيارتنا بشكل متكرر. لم تكن زيارات مرغوباً فيها بأية حال لكن منعها كان مستحيلاً.

كانت تلك الطائرات الجميلة التي تأتينا بارتفاعات شاهقة تلقي علينا حمولتها لتحوّل الأرض إلى جحيم. بدأت تلك الطائرات بقصف حقول الألغام والوحدات المتقدمة. مما كان يعني لنا شيئاً واحداً هو اقتراب موعد الهجوم البري. وفي مكان آخر من الجبهة «قرب السواحل» كانت البارجتان «وسكنسن ونيوجرسي» تقومان

بتأدية واجبيهما على أحسن حال.

وبعد فشل مبادرة غورباتشوف، وبعد الإنذار الأخير الذي وجهه بوش لصدام محدداً فيه الساعة الثامنة من مساء ٢/٢٣ كآخر موعد لقبول العراق الانسحاب اللا مشروط. كنا نحصي الدقائق أمام الراديو ونحن نتوقع أن يوافق العراق في أية لحظة. وبدلاً من الموافقة خرج علينا هذه المرة (عزت الدوري) نائب رئيس الجمهورية بتصريح عن عزم العراق تشكيل حكومة جديدة في الكويت بعدها بدقائق وفي تمام الثامنة أعلن الراديو أن الهجوم البري لتحرير الكويت قد بدأ. ركضت إلى مقر الفصيل، إذ كنت حينها أستمع إلى الراديو في مقر السرية.. جلست وأنا أكاد أموت غيظاً. إذن لا بد من هجوم بري. لا شك أن صدام سعيد جداً الآن. فقد بدأ الهجوم الذي كان يتمنى وقوعه منذ اليوم الأول، ولكننا الآن لسنا في اليوم الأول. وكيف سنقاتل. لم يكن قد تبقى في أسلحتنا إلا البنادق وقاذفات (RBG7) بمداها الذي لا يتجاوز الـ (٥٠٠م) والكثير من الرمانات التي علق عليها القائد آمالاً كبيرة، إذ كان يكفي «برأيه» أن يتسلق الجندي الدبابة أو على الأقل يقترب منها لمسافة خطوات ثم يلقي برمانته فتنفجر محطمة الدبابة الأمريكية «الواهنة» كما قيل لنا.

ولا أدري إذا كان صدام قد سأل نفسه لماذا ينبغي علينا أن نفعل ذلك؟ هل لندافع عن المجاعة التي سبّبها لنا، أم لنضمن له استمراره في نهب العراق، أم لنضمن لرصاصاته أهدافاً متحركة هي أجسادنا. أو ربما لندافع عن المحافظة «١٩» التي أكد فخامته قبل أقل من شهر بأنها (كويتنا) وأنه سيدافع عنها ألف سنة، وأن كلمة الانسحاب غير واردة نهائياً في قاموس العراقيين. ومن يتلفظ بها سيعرض نفسه لما

لا نحمد عقباه، بل ربما كان يظن أننا سنحطم الدبابات بأجسادنا لنضمن عودة عائلته من إفريقيا قبل حلول الصيف.

عموماً مرّت ليلة ٢٤/٢٣ شباط ببطء شديد. كنت أرهف السمع لعلّي أسمع صوت سرف الدبابات التي ستتقدم لاجتياحنا وقبلها كنت أنتظر مطر القذائف التي ستغمرنا بها مدافع الميدان في مرحلة القصف التمهيدي الذي لا بد منه في كل هجوم مدبر. لا أذكر إن كنت قد نمت ليلتها أو لم أنم، إلا أن قذيفة لم تسقط ولا دبابة أبداً طوال تلك الليلة.

وفي صباح يوم ٢٤ صدرت أوامر مشددة للجميع بعدم ترك ملاجئهم لحظة واحدة فنحن معرضون بأي وقت للقصف المدفعي. ولا ملاذ لنا إلا ملاجئنا. كانت المدافع تثير فيَّ الرعب، إذ إنّ بإمكانها تمشيط المنطقة بدقة. والتركيز على المناطق المأهولة ولم يكن هناك ما يردعها. فنحن لا نملك مدافع لإسكاتها ولا طائرات تقوم برصدها وتحطيمها. لا نملك إلا أجسادنا وعلينا حمايتها من التمزق، فأي جرح هنا مهما كان بسيطاً معناه الموت، إذ لا يوجد لدى وحداتنا أي نوع من الأدوية حتى القطن الطبي كان نادراً جداً. أما سيارات الإسعاف فمن المضحك الحديث عنها في لواء لم يعد يملك إلا عربة واحدة هي عربة آمر اللواء الخاصة فقط. إذن فالإصابة تعني شيئاً واحداً النزف حتى الموت، وهذا ما حدث فعلاً للكثيرين من ممن أصيبوا من جرّاء قصف الطائرات. أما الموتى فمشكلتهم أكثر سهولة، فإكرام الميت دفنه وللصحراء قلب رحب يتسع للجميع.

في عصر يوم ٢٤ بدأنا نسمع من بعيد هدير محركات وسرف الدبابات «لا تخافوا هذه دباباتنا وقد عادت لتسوية الجبهة» أخبرت

جنودي بهدوء كاذب، إذ كنت أعرف أن لا دبابات لنا في الأمام أبداً.

استمر الهدير يقترب دون إطلاق نار.. فجأة انفجرت بضع عبوات كنا قد زرعناها وسط ساقية نفطية. احترق النفط مولداً حاجباً نارياً ضخماً منعنا من رؤية المدرعات.. ومنعهم من رؤيتنا. استمرت النيران تعلو وتعلو.

ولما كان فوجنا فوج عمق يسد ثغرة بين الفوجين الآخرين كان من المستحيل على المهاجمين الوصول إلينا دون الاشتباك بأحد هذين الفوجين. هبط الظلام بسرعة وأنا أنتظر قذائف المدافع التي لم تسقط. متى سيبدأ القصف التمهيدي كنت أتساءل؟.. قسمت جنودي إلى ثلاث مجموعات تقوم كل منها بالحراسة شطراً من الليل. وكان لكل جندي بندقية وقاذفة وبقربه كمية من العتاد وبجيوبه بعض الرمانات. حملت أنا أيضاً رمانتي (RKG3) وقاذفة إلى ملجئي. أخبرت الجميع بإيقاظي إذا حدث شيء ما. «مثل ماذا!!» سألني أحدهم مستغرباً. فأي شيء سيحدث أكثر من وقوف الدبابات أمامنا استعداداً للهجوم. «أيقظوني حينما تصبح الدبابات على مدى ٥٠٠م، أي في مرمى أسلحتنا». دخلت إلى الملجأ لأنام. ونمت.. نمت كما لم أنم في حياتي. نوماً ثقيلاً لا مكان فيه للأحلام. نمت بكامل ملابسي وجيوبي محشوة بالرمانات والإطلاقات وبندقيتي والقاذفة بمتناول يدي. وفي الساعة الثامنة من صباح ٢٥ أيقظني عريف الفصيل وهو يبتسم بخبث. استيقظت وأنا أشعر بالغيظ فأنا للأسف مازلت حيّاً كما يبدو.. وكنت قد توسلت إلى الله أن أموت نائماً وأن أتجنب هذا العذاب.. أخبرني عريف الفصيل أن الدبابات

أمامنا تماماً، وأن النار التي أحرقناها بالأمس قد خمدت. أخذت الناظور لأتابع الدبابات إلا أنه أخبرني بعدم الحاجة إليه. خرجت من الملجأ إلى شق المواصلات. رفعت رأسي قليلاً لأرى أمامي أرتالاً من الدبابات والمدرعات والمدافع والراجمات وما إلى ذلك.

كانت هذه الآليات تنتشر بلا نظام معين وبعدد هائل مثير للإحباط. وصار يسمع بوضوح صوت إطلاقات الرشاشات وهي تمشط فوجينا الأماميين. كانت الدبابات تتقدم ببطء شديد وتقترب من أفواجنا التي لم تكن تبدي أي مقاومة تذكر، إذ لا مجال إطلاقاً للمقارنة بين هاتين القوتين. فجأة تذكرت شيئاً مهماً. كنت قد نجحت قبل فترة بخزن كمية قليلة من الطحين والزيت مغفلاً أمرهما عن الجنود. حانت الآن ساعتها. أخرجت جنديين أمرت أحدهما بإشعال نار داخل أحد الملاجئ وأمرت الثاني بعجن الطحين وتقسيمه إلى ١٥ حصة وقليه بالزيت بينما كان بقية الجنود في نقاطهم وأصابعهم على الزناد.

لا أدري كم استغرق من الوقت لتنضج أرغفة الخبز، لكنني أذكر أننا جميعاً قمنا بأكلها وشربنا بعدها شاياً بدون سكر، وأخيراً قدم لي أحد الجنود سيكارة محشوة بالشاي المجفف «إذ كان التبغ بأشكاله حينذاك محظ خيال».

كان الجميع ينظر إليَّ بحيرة. ماذا سنفعل الآن؟ كانوا يسألونني وكانت الدبابات تقترب ببطء ولم أكن أدري ماذا سنفعل فعلاً.. هل نقاتل؟ إن باستطاعتهم أن يبيدونا بينما هم خارج مديات أسلحتنا تماماً. هل نهرب. لم تمر الفكرة برأسي للحظة رغم صعوبة تنفيذها. هل نستسلم. كان هذا أصعب الأسئلة. هل أستسلم؟؟ هل أصبح

أسير حرب؟؟ لم يكن هذا جزءاً مما كنت قد خططت له في حياتي. لم أكن أستطيع تحمل الموقف، إلا أن الوقت لم يكن مناسباً أبداً للتفكير فقد أخذت الطائرات تلقي قنابر الدخان في المناطق التي مازال فيها أشخاص. كان معظم أفراد اللواء قد تركوا مواضعهم واستسلموا، ولم يكن قد بقي أكثر من ثلاثين أو أربعين جندياً وبضعة ضباط منتشرين في مسافة ٣ كيلومترات أو أكثر.

ابتدأت مدافع الدبابات بإطلاق النار مسترشدة بأعمدة الدخان، لكنها كانت ترمي بقصد الردع وليس التدمير. أصبحت اللحظات أثمن. وأنا لم أتخذ قراري بعد. نظرت ثانية إلى جنودي كانت وجوههم صفراء مخضرة من الجوع. عيون جاحظة، وثياب بالية، وسيقان لا تقوى على المسير. «حسناً لم أعد منذ الآن آمركم.. افعلوا ما تشاؤون» قلت بهدوء. قفز أحدهم باتجاهي وهو يبكي «لن نفعل شيئاً بدونك. انزع الرتبة وتعال معنا لو.. بقيت هكذا فسيقتلونك».

كان معظمهم ممن شارك في الحرب الإيرانية التي كان قتل الأسرى ولاسيما الضباط أمراً شائعاً وقتها. وكانت هذه الفكرة قد ترسخت في عقولهم، إلا أنني مع هذا شعرت بغضب شديد هل أنزع رتبتي العسكرية بيدي؟؟ آخر ما تبقى لي من الشرف العسكري... لم أفعل ذلك لأنهم سيقتلوني.. هل أنا حيّ لأقتل. صرخت بهم زاجراً «تفرقوا» تجمع معظم الجنود حاملين قطعة قماش بيضاء وساروا يلوحون بها وهم يبكون. توقفوا بعد قليل حاول أحدهم العودة لإقناعي بالذهاب معهم إلا أنني أشحت بوجهي عنهم ودخلت ملجئي. ابتعدوا عني تدريجياً ثم اختفوا. كان أخشى ما أخشاه أن أتعرض للضرب أو الإهانة أمامهم. وبعد وقت لا أعلمه. دفنت

أوراقي وسجلاتي العسكرية.. وتأملت طويلاً مخطوطتي التي كنت قد دونتها في أيام المعركة.. تمنيت أن أحافظ عليها بشكل ما.. لكنني أهلت عليها التراب أيضاً.. ثم سرت أجرجر رجلي نحو الفصيل المجاور. كان ملازم أول جاسم محمد الحسن وهو (شطراوي معتد بعروبته).. قد صرف جنوده هو الآخر وجلس في الشق وهو ينظر إلى المسدس في يده. وفوهة المسدس تتجه نحو وجهه.. يبدو أنني جئته في وقت غير مناسب. فقد حرمته من متعة الانتحار منفرداً. لم يدر بيننا كلام كثير. لا ادري ماذا قلت له بالضبط.. لكنني أخرجت مسدسي وبدأت أصوب نحو علبة فارغة مرمية في الشق. أطلقت عليها كل رصاصاتي. ورغم براعتي في الرماية لم تصب الهدف رصاصة واحدة فقد كنت أبكي. بكيت وقتها كما لم أبكِ في حياتي. هذا إذن نهاية حطامنا. ولو كان (المنفلوطي) نفسه حاضراً في ذلك اليوم لهاله كثرة الدموع التي أرقناها على رمل الصحراء.

في ذلك اليوم وما تلاه كان الجيش العظيم لا يملك سوى البكاء. من أبسط جنوده حتى أكبر ضباطه المحترفين. بعد دقائق انضم إلينا آمر السرية وهو يقدم رجلاً ويؤخر أخرى بعد أن تركه الجنود. خرجنا نحن الثلاثة دون راية بيضاء. ودون سلاح، ليلتحق بنا أحد جنودي الأوفياء وهو (نائب العريف غني النعيمي) الذي كان مختبئاً في أحد الملاجئ ليشاركني مصيري «كما أخبرني لاحقاً». سرنا بهدوء إلى الأمام إليهم كانت ميكرفوناتهم تحث من تبقى على الاستسلام وكانت تخاطب جنودنا بطريقة تثير حماسهم، إذ استخدمت عبارات مثل «أبطال الجيش العراقي. وحراس البوابة الشرقية» الألفاظ التي كانت دائماً تطلق على جيشنا أيام عزّه.

اقتربت منّا ببطء ست أو سبع عربات تحمل رشاشات متوسطة ليبدأ إطلاق الرصاص باتجاهنا. «لا ترفع يديك ولا تنبطح أرضاً» صرخ ملازم أول جاسم آمراً ومتوسلاً معاً.. ولم أكن لأفعل حتى لو لم يطلب مني ذلك. استمر تقدم العربات واستمر إطلاق الرصاص وبقينا نتقدم بهدوء وكأن الأمر لا يعنينا. وحينما أحاطت بنا العربات تماماً توقف إطلاق النار وترجل بضعة جنود وهم يشهرون بنادقهم ويتقدمون نحونا بحذر شديد. اقتربوا أكثر فأكثر بعد أن تأكدوا من عدم حملنا لأية أسلحة. وما إن لمح أحدهم رتبنا حتى عاد إلى إحدى العربات ليتكلم مع أحدهم. ترجّل من العربة شخص طويل القامة وبلحية كبيرة. كان عقيداً سعودياً تقدم منّا بهدوء ليمد يده ويصافحنا مهنئاً على سلامتنا بكل بساطة. وهكذا أصبحت فجأة أسير اللواء المدرع «٢٠» لأنقل بعدها إلى معسكر المرور في حفر الباطن ومن ثم إلى مدينة تبوك لأقيم فيها أربعة أشهر قبل أن أعود إلى العراق ثانيةً.

الفصل الثاني : الأمل

الأحد ١٩٩٢/٧/٢٦

الرئيس القائد يقلد أنواط الشجاعة لعدد من أعضاء مجلس قيادة الثورة لدورهم «التاريخي» في أم المعارك. ويتحدث عن الغلاء والتجار الذين لم يكونوا عند حسن ظنه في المحنة. والناس في الشارع تبتسم وتدخن وتحتسي الشاي ولا تفعل شيئاً آخر. فليس باستطاعتهم فعل شيء آخر.

هل سنتعرض لضربة جديدة. لحد الآن لم يحدد مجلس الأمن موعداً أو إنذاراً لذلك. لكن الأخبار عادت ثانيةً لتتحدث عن النظام العراقي. وجورج بوش يهدد. ونحن نبتسم. وننتظر. ولا نستطيع فعل شيء آخر. أكتب بعد انقطاع طويل. لم أكمل الرواية في المدة المقررة. مضت أكثر من سنة على الموعد النهائي الذي حددته لإكمالها. ولم أفعل شيئاً إلا التفكير. وتصوير المشاهد الداخلية «داخل الدماغ» واختيار الموسيقى التصويرية. ثم تتبخر الأفكار بسرعة. ولاشيء يحدث. أنهيت خدمتي العسكرية قبل أربعة أشهر. كنت وقتها متفائلاً جداً. ومازلت رغم أني في هذه الأشهر الأربعة قد مارست مهنتين مختلفتين. ولم أستطع من خلالهما جمع ما يعادل راتب شهر واحد لي في الجيش. الركود والتضخم يخيمان على كل شيء في العراق. وأنا أعزل.. لا أتقن عملاً معيناً ولا أملك رأسمالاً صغيراً لبداية مشروع ما. أما التدريس «مكاني الطبيعي» بحكم

شهادتي فقد قررت ألا أمارسه حتى يتبدل النظام الذي مازلت أتمنى أن يتبدل سريعاً. أحس بشوق للكتابة. ربما لأنني معرض الآن لخطر غامض تماماً كما كنت حينما بدأت الكتابة لأول مرة. ماذا سيحدث هذه المرة لا أعلم. لا أستبعد أي احتمال «غير الأسر بالطبع». الناس تهز رؤوسها وتبتسم «ماذا نستطيع أن نفعل» يقول الجميع. هل ستأتي الطائرات أم هم سيكتفون بإطلاق الصواريخ الذكية هذه المرة. ويطفو السؤال الأزلي على السطح: هل سيبقى صدام أيضاً أم أنه سيذهب؟ هل سينزاح الكابوس؟ هل سنفيق على فجر جديد؟ شهور مرت والأيام هي الأيام. محاولات انقلابية فاشلة. شرطة في كل مكان. تزوير. وتهريب. وفوضى. وصدام يبدي دهشته من طمع بعض التجار. وتفضيلهم السعادة الشخصية على حساب المجتمع. هل أستطيع أن أضحك؟

الخميس ١٩٩٢/٨/٢٨

استيقظت اليوم على صوت الطائرات التي تحلق على ارتفاع منخفض فوق الموصل. أحسست بشعور غريب. لعل النهاية قد أوشكت. أصبت بخيبة أمل بعد أن فتحت المذياع. كانت إذاعتنا تبث برامجها المعتادة. ولا جديد فقد أصبح طيران الحلفاء فوقنا أمراً مألوفاً. وسيصبح مألوفاً فوق الجنوب أيضاً منذ اليوم.

أصدرت القيادة التاريخية أمس بياناً «تاريخياً» لم يفهم منه أحد شيئاً. الجيش في حالة إنذار كامل. والغلاء قد تفاقم بشكل مذهل. وأنا عاطل عن العمل ولا أملك سوى خمسة عشر ديناراً «تكفي لشراء ثلاث علب سكائر فقط». كتبت قبل أسبوعين قصة «المدفع

العملاق». أحسست بسعادة بعد أن أكملتها «ها قد عدت ثانيةً للكتابة». نفضت عني أخيراً نشارة الخشب «إذ كنت وقتها أعمل نجاراً» وأمسكت القلم وتركته يسير على الورقة لينتج قصة. قصة جديدة. وفي مساء ذلك اليوم كانت زوجتي قد قرأت القصة ولم تدل بأي تعليق «وهذا مثير للغيظ» وحينما استقبلت صديقيّ الحميمين «ثابت وتوفيق» قرآ القصة. قرأها ثابت بصمت وتوفيق بتكشيرة صغيرة. تركتهما قليلاً مع «النص» وحينما عدت إليهما فوجئت بالتعليقات اللاذعة تنهال على رأسي من كليهما (أنت تكتب بصورة مباشرة. أنا مطمئن عليك الآن لقد تحولت فعلاً إلى نجار) قال توفيق. أما ثابت فقد كان أكثر هدوءاً وقسوة حينما قال (إن هذه القصة لا تحمل أي رائحة منك أو من كتاباتك) حاولت الدفاع عن عملي. أفهمتهما أن القارئ يجب أن يتحلى بروح الدعابة ليفهم القصة، وأن للنص بعداً رمزياً وآخر واقعياً وأن.. وأن.. وأن.. كنت أدافع عن النص المتداعي بينما تغمرني في الداخل راحة غريبة. «حسناً سأبتعد عن الكتابة الآن. لقد جف الينبوع لن تخدعني الآمال الكاذبة بعد الآن. أترك الكتابة. أترك. أبتعد. أرتاح». قرأت القصة وحدي بعد رحيلهما. كانت كإنسان آلي رديء الصنع يحرك ذراعيه بصعوبة لتفلت مرة واحدة وتئز وترن جميع مفاصله ولوالبه.

لم يكن للقصة روح. ومع ذلك فلا أزعم أني كرهتها. ربما كانت بحاجة إلى شطب أو تحوير «فقد قرأ الجميع المسودة الأولى للقصة». عموماً فإن فرحتي باعتزالي الكتابة لم تدم إلا ساعات. فقد عادت الأمور إلى مجاريها. وعاد حلمي العنيد يلح على جدران دماغي محاولاً تكسيرها ليخرج إلى النور.

الأربعاء ١٩٩٢/١٠/١٤

بهدوء ترتفع نشارة الخشب. وبهدوء أكثر تهبط. وتغطيني ساعة بعد ساعة. ويوماً بعد يوم، اكتشفت أن هناك خدعة ما. وأن ما يحدث ليس حلماً طال أمده.. هل الخطأ في المكان. أم هو خطأ في التوقيت. أم أنني أنا الخطأ. هل أن ما يحدث من حولي قد حدث فعلاً. وأنني لن أستيقظ ضاحكاً بعد قليل. تتحول الآمال والساعات إلى... نشارة خشب.

غبار. غبار يعلو كل شيء. هل تجيد الزراعة. عليك إذن أن تكون نجاراً. هل أنت مدرس. إذن افتح لك محل خضار. هل أنت ضابط، تاجر إذن بالسيارات. الكل يمارس مهناً أخرى. أشياء جديدة، غريبة، ومضحكة. أين ما كنا نريد؟؟ أين نحن؟؟ لم نعد نستمع حتى إلى المذياع. تخلى الجميع عن هذه العادة في الشهرين الأخيرين. بقيت ورقة أخيرة. مخزية لنا. الانتخابات الأمريكية ومفاجآتها. ننتظر إذن هذه المفاجآت. ننتظر وحسب. هل هذا كل ما نستطيع فعله؟. أحس تماماً كما كان دون كيشوت سيحس لو أخبروه بأن المارد الذي ضربه كان طاحونة. ولكنه ولحسن حظه لم يعرف. أما أنا فلم أعد أنا إطلاقاً.. والآخرون ليسوا هم الآخرين. وكل شيء قد تبدل. هل الخطأ في الزمان «نعيب زماننا...» أم في المكان. أم أنني أنا المخطئ. هل أنا أنا. لا... لست أدري.

الجمعة ١٩٩٢/١٠/١٦

زارني بعض الأصدقاء اليوم. عدنا ثانيةً لسماع الأخبار ستصل لجان التفتيش الأربعة في أي لحظة وتحاول إثارة مشكلة كما أعتقد. الانتخابات على الأبواب. العراق يتصدر ثانيةً نشرات الأخبار

ارتفعت أمس أسعار الخشب فجأة. واختفى من السوق. كيف سنستطيع العمل والحياة في مثل هذه الدوامة. هل للفرد دور في صنع التاريخ؟ كيف؟ أريد أن أعلم.

الأربعاء ١٣/١/١٩٩٣

الساعة الآن تقترب من الثانية عشرة ليلاً. تلفزيون العراق يبث الأناشيد والأغاني التي تتغنى بجمال عيون القائد التاريخي. وإذاعات العالم تعلن عن بدء ضربة جديدة للعراق. أشعر باللا مبالاة. لا فرح. لا خوف. لا أمل. لولا الازدحام الحاصل في محطات البنزين لقلت إنّ الأمور عادية تماماً. منذ ثلاثة عشر عاماً ونحن نعيش في دوامة متصلة من الحروب. لا جديد فعلاً.

ولكن سؤالاً كبيراً ما زال يدور في ذهني. هل سيبقى صدام حسين في السلطة. والجواب «نعم» للأسف الشديد. فكل الأعاصير التي هبت لم تستطع زعزعة كرسي الطاغية. أما نتيجة الضربة الجوية فمعروفة مقدماً «النصر الحاسم على الأعداء وليخسأ الخاسئون والله أكبر». النصر الحاسم حتى لو أبيد الجيش. وتحطمت البيوت والجسور والمعامل والمدارس. النصر الحاسم حتى لو قبّل من بقي حيّاً أحذية الآخرين. فالنصر قادم مادام القائد بخير. كلنا فداء للقائد. وليخسأ الوطن والمواطنون.

يعلن المذيع الآن أن القائد سيلقي خطاباً «تاريخياً هاماً» بعد قليل. إنّ كل ما يتفوه به القائد تاريخي، بل إنّ كل شيء فيه تاريخي. أولاده أولادٌ تاريخيون، وزوجته زوجةٌ تاريخية. كم من المهازل ترتكب باسمك أيها التاريخ.

الجمعة ١٩٩٣/٢/١٢

هل هو غباء شديد، أم خبث ودهاء؟ لا أدري.

غداً الذكرى السنوية الثانية لقصف ملجأ العامرية. وبهذه المناسبة قامت دائرة الإذاعة والتلفزيون يبث فيلم تلفزيوني عنوانه «فجر نهار حزين» يصور ما حدث. ما يهمني هنا هو أن المؤلف قد صور العراقيين «الصامدين» والعراقيات «الماجدات» بطريقة تجعلهم يتقبلون فيها الموت تماماً كما تفعل الأغنام في المسلخ. لا أحد يسأل عن السبب. إنهم يموتون وحسب. هنا في الداخل أو هناك على الحدود. وأكثر ما يغيظ في الأمر هو صدام الذي يضحك دائماً ضحكته اللزجة الكريهة وهو يهز كتفيه. ضحكة مصطنعة تكبر وتكبر عن تكشيرة بشعة. إنه سعيد. إنه يقاوم وينتصر على كل الآخرين. ومستعد دائماً لبذل المزيد من التضحيات. فهذا لا يهمه بشيء. فنحن الضحايا. ورقابنا تركع للسكين. وتقطع وهي تشعر بسعادة بالغة. أذكر ذلك اليوم تماماً. كنت فيه مع ملازم أول جاسم وملازم كهلان في ملجأ ضيق تحت الأرض حينما أعلنت جميع الإذاعات عن قصف ملجأ العامرية. وبدا لنا وقتها ذلك الأمر تافهاً. فقد كان آلاف، بل عشرات الآلاف منا معرضين للموت كل دقيقة تحت القصف الرهيب الذي كنا وقتها قد ألفناه. لاأزال أذكر تماماً طائرات (B52) بالذات وهي تلقي حمولتها الهائلة فوق رؤوسنا كل يوم. كل ساعة. وكل دقيقة. أذكر أياماً طويلة لم تفارق فيها الطائرات رؤوسنا. فهي إما قادمة أو ذاهبة أو تقوم فعلاً بقصفنا. وكنت وقتها أتساءل بحرارة لماذا لا يرفع أحد إصبعه محتجاً على موت العسكريين «أي نحن وقتها» بينما يستنكرون بشدة موت المذنبين «الأبرياء» هل كنا مجرمين. هل كان قتلي وقتها عملاً بطولياً. وقتلي الآن عملاً شنيعاً. هل كانت

حرباً متكافئة بأي معيار ليكون فيها عسكريون ومدنيون. لقد كانت مذبحة.

الاثنين ١٩٩٣/٤/١٨

إن نقطة الرجوع هي محور قطب الدائرة.

عود على بدء منذ شهرين وأنا عاطل عن العمل.. أنفقت مدخراتي القليلة وبدأت بالاقتراض. الأمور تزداد سوءاً. في كل مرة أكتب فيها هذه العبارة أكون على يقين بأننا قد وصلنا إلى القاع، إلا أن الأيام تكذّب ظني. فما هو أسوأ سيأتي غداً مادام القائد بخير. الركود والتضخم يجثمان على صدر السوق. ومع ذلك وربما بسبب ذلك ظهرت طبقة فاحشة الثراء أثرت بشكل مثير للاستفزاز وبسرعة شديدة وبدون تحقيق أي فائدة للآخرين. ازدادت طوابير الشحاذين بشكل مذهل. ازدادت الجرائم وبدأت تصرفات الناس تتغير. أصبح الجميع عصبياً ومستعداً لتبادل اللكمات مع الآخرين لأتفه الأسباب. وأنا عاطل عن العمل. أين هو الدور الذي كنت قد أعددت نفسي له. أين هي الرسالة التي عليّ حملها وإيصالها للآخرين. أين أنا وماذا سأستطيع أن أفعل. بمفردي وسط هذه الدوامة. لم يعد للكلمات طعم. ولا معنى. أنا غارق في قراءة المجلات «القديمة» وأنتظر الحل السحري الذي سيخرجني من مأزقي.. ولولا ولادة ابنتي (ميس) »الذي تصادف مع يوم تسلّم كلينتون للسلطة« لولا ولادة هذه الكتلة الطرية من اللحم لتركت كل شيء وخرجت هائماً على وجهي بعيداً عن الناس. إلى أين نمضي؟ وكم من الوقت سنبقى على هذه الحال؟ لا أحد يدري.

الاثنين ١٩٩٣/٦/٢٩

إن أكبر حافز للكتابة هو وجود قلم جديد قرب يدي. لا جديد تحت الشمس. الأمور عادية تماماً. رغم ثلاثة وعشرين صاروخاً أطلقت قبل يومين على بغداد... حتى محطات الوقود لم تعانِ الازدحام هذه المرة. كل شيء اعتيادي تماماً. لم نهرع هذه المرة إلى المذياع. فلم يعد هناك جديد. والقائد يبتسم للعدسات. ولطيف نصيف جاسم يستنكر من موقع جديد الاعتداء الغاشم على المدنيين الآمنيين. ويبتسم للعدسات «كعادته».. حتى ارتفاع الأسعار الهائل أصبح أمراً قديماً ومألوفاً ويومياً. واعتاد الناس على بيع «ما يزيد عن حاجتهم» من أثاث البيت أو حلي الزوجة بعد أن نفدت مدخراتهم. رغم أن الرئيس قد اقترح قبل أيام حلاً «تاريخياً» لجميع هذه المشاكل يتلخص - ببساطة - بأن يحمل الجميع «طاسة الطين» على رؤوسهم ويعملوا في مشاريع الدولة «أي قصوره الخاصة» لتحسين وضعهم المعيشي. متناسين شهاداتهم وعناوينهم الوظيفية وخبراتهم القديمة.. من الطين خلقنا ويجب أن نحمله على رؤوسنا أو نمرغ فيه وجوهنا كي نستطيع البقاء على قيد الحياة في عراق القائد صدام.

السبت ١٩٩٤/١/١

أكتب الآن وأنا في الدقيقة الأولى من عام ٩٤... بعد أن أنهت الساعة دقاتها الاثنتي عشرة. بثت القناة الأولى أغنية (سنة حلوة يا رئيس) وبثت قناة الشباب «قناة الشاب عدي صدام» أغنية (يحفظك الغالي وينصرك يا صدام) الأمور تشير هنا وكأنما جاء العام الجديد خصيصاً كهدية من السماء للسيد الرئيس شخصياً. عام جديد..

ترى ماذا يحمل لنا في طياته هذه المرة. حرب خارجية جديدة؟؟ مع من يا ترى. لم يبق من الدول المحيطة بنا سوى الأردن لندخل معها في حرب. ولكنها قريبة جداً من «إسرائيل»!؟ هل سيتحول ثانيةً إلى «الجبهة الداخلية»؟؟ إنه لا يزال ممنوعاً من إرسال طائراته إلى الشمال وإلى الجنوب. الموقف غريب صعب محيّر. قبل يومين كان الجيش يملأ الشوارع. وكان الجنود «بتجهيزاتهم السفرية» وأسلحتهم الحربية يحفرون مواضعَ وخنادق «كالتي حفرناها في الكويت»، يحفرونها هذه المرة في الشوارع وقرب الجسور والطرق الرئيسة.. مفارز الشرطة تملأ المدينة ونقاط التفتيش في كل مكان. الأسعار تتضاعف عشرات المرات. والسرقة والقتل والجرائم تنتشر بصورة هائلة.

عام جديد. هل سنرى فيه الشمس التي نترقبها جميعاً!! الأيام تمضي والحلم يزداد ابتعاداً. قبل شهرين تم إعدام عدد كبير من الشخصيات المرموقة. قادة عسكريون. مثقفون. ورجال أعمال. عدد كبير منهم من أبناء مدينتي. وعوقبت المدينة بقطع التيار الكهربائي لمدة أسبوعين تقريباً. ولم نستطع فعل شيء. ابتلعنا غضبنا مرغمين. وسكتنا. مازلت أبحث لي عن دور وسط كل ما يحدث. أنا متأكد أن بإمكاني فعل شيء مفيد وسط هذه المعمعة. ما هو؟؟ إن لي دوراً أريد أن أؤديه. بل لا بد لي أن أؤديه. لقد خلقت لذلك. وأعددت نفسي له منذ البداية. هل أقوم بواجبي كمواطن صالح. وأدبلج المقالات في بريق عيني القائد ويده الخيّرة. وابتساماته التاريخية كما هو مطلوب مني الآن بعد أن أصبحت «مكرهاً» عضواً في التجمع الثقافي الذي يرأسه «الأستاذ» عدي صدام حسين. لم ولن يحدث هذا.. سأنتظر وأحاول ألا أموت متعفناً.. سأستمر. أنا أقرأ كل يوم، ولكنني عاجز عن الكتابة

بصورة منتظمة. فعملي يستهلك الكثير من طاقتي البدنية. أستأجرت محلاً صغيراً أنا وابن عمي (شهم) وخصصناه لبيع الأثاث.. سمّيته (معرض الأمل) وهكذا أصبحت رسمياً (بائع الأمل).

السبت ١٩٩٤/٢/٢٦

أشعر بغيظ شديد وأتساءل بحزن (لماذا؟).. فلماذا يستطيع طفل صغير أن يلقي حجارته على الجنود في فلسطين ولا نستطيع نحن فعل شيء. أي شيء.. هل نحن جبناء؟؟ أنا متأكد من العكس. لقد شاهدت بعيني العراقيين وهم يستهزئون بالموت لمدة طويلة. هل هي اللا مبالاة. لا. فكلما تحدث اثنان منا في أي مكان كانت السياسة ثالثهما. هل هو الصبر ونحن أشد الناس عصبية!!أنا حائر. لماذا كل هذا السكون كل هذه السنين؟ أما آن للميت أن يقوم؟ حدثت بالأمس مجزرة الحرم الإبراهيمي. سقط عشرات القتلى وهم راكعون في صلاة الفجر. وخرج الفلسطينيون في كل مكان يعبرون عن سخطهم وثورتهم ونحن. لقد سقط منا عشرات الألوف لحد الآن برصاص إخوتنا لا برصاص «يهودي مضطرب عصبياً»، ومازلنا لا نجرؤ على فعل شيء سوى الترقب، والتمني. لا نجرؤ على رفع إصبعنا احتجاجاً على الذي قتلنا وحطم مستقبل أجيال ستأتي بعدنا. لماذا؟ لماذا؟

الشارع ساكن تماماً ولم يحدث شيء. لم يحدث شيء. لم ننظم مسيرة احتجاج واحدة ضد ما جرى أمس ولم يستنكر أحد الجريمة البشعة. واكتفت إذاعتنا بنشر الصور «المسروقة» من محطات أخرى أثناء فترات الأخبار. واستنكرت كون بقية الدول الغربية لم تقطع بثها

الاعتيادي لتغطي أنباء المجزرة. واكتفت بنشرات الأخبار التقليدية. رغم أن إذاعتنا نفسها فعلت ذلك!؟ الأغاني الراقصة تقدم باستمرار وبشكل أكثر من الطبيعي. كأن الدولة سعيدة بما حدث. فستتعثر مسيرة السلام. وستتخبط الدول العربية فيما بينها وكل هذا يسعد قيادتنا الحكيمة. ككل الفواجع التي تحدث في العالم. والتي يركز عليها إعلامنا تركيزاً كبيراً وكأن الزلازل والبراكين والفيضانات التي تحدث في العالم هي ضربات الله لدول العالم «جميعاً» التي تآمرت على مجد القائد الشمس وحاولت إنزاله عن عرشه الدامي.

الهدوء مخيم في الخارج ولا يقطعه سوى إطلاقات متفرقة تعودنا على سماعها كل ليلة «ولا أدري لماذا؟» رغم أننا لسنا في حالة حرب. أنا شخصياً الآن وهنا لا أملك سوى الانتظار مع بقية المنتظرين. آملاً أن يحدث شيء أستطيع من خلاله أن أفعل شيئاً. شيئاً أريد فعله من زمن.

تملكتني رغبة حادة للبكاء. «خذني على بلادي» اليوم هو آخر أيام عيد الفطر. والناس في كرب عظيم فقد ألقى القائد العظيم كلمة أمام مجلس وزرائه قبل ثلاثة أيام بثها التلفزيون ثماني مرات. وهو كالعادة ينذر بالثبور وعظائم الأمور انطلقت الإشاعات والتحليلات والتخيلات والأمنيات. وأصبح حديث الناس الوحيد هو ما سيحدث بعد أيام قليلة حينما سيجتمع طارق عزيز بأعضاء مجلس الأمن ويتخذ معهم إجراءً حاسماً كأنه خروتشوف في مؤتمر الأقطاب.

وسط هذه المعمعة. بث تلفزيون الشباب حفلة – مسروقة– لفيروز. أنشدت فيها(خذني على بلادي) وتمنيت أكثر منها أن أعود خمسة عشر عاماً إلى الوراء وأن أعيش في بلادي. أحس الآن أني

غريب تماماً هنا. كلنا يحس هذا الإحساس.. لسنا متأكدين من الأشياء حولنا. هل هي حقيقة أم مجرد ديكور! هل هي قديمة أم أنها استحدثت بتصميم قديم! لم نعد متأكدين في أي شيء حتى بعد أن نلمسه ونتحسسه ونستنشق رائحته. هل هذا الذي يسقط في الخارج من السماء هو المطر؟ أم أنها خدعة سينمائية برع بها المخرج؟

السبت ١٩٩٤/١٠/٨

الساعة الآن هي الحادية عشرة ليلاً. منذ أكثر من نصف الساعة وأنا أحاول ممارسة الكتابة. اشتهيتها. وأعجز عن الفعل. لقد تجاوزت الثلاثين. هذه أول مرة أكتب فيها بعد أن تجاوزت الثلاثين. أحس بالشيخوخة. أحس بأنني قريب إلى الموت. وبعيد عن آمالي التي انطفأت واحداً تلو الآخر. ولكن ذلك النور الخافت مازال يرسل بصيصاً بين الحين والآخر. أحس بأن أفكاري قد تيبست وأن ينبوعي بدأ بالنضوب دون أن يتدفق بالعطاء. أحس بالاختناق. وأحاول جاهداً أن أتنفس. الخريف يقترب بهدوء غير ملحوظ. كل الأشياء تمر بشكل غير ملحوظ في هذا الزمن الكئيب... فجأة. لا أدري بالضبط ماذا أريد أن أقول. أحاول منع القلم من الركض على السطور. أريد أن أصرخ. فأنا أتألم. الكساد يخيم تماماً على السوق. منذ أكثر من شهرين والركود قد ضرب حولي حصاراً مادياً قاسياً. ومع هذا فإن أسعار المواد الغذائية قد ارتفعت فجأة بشكل جنوني بعد خطاب «تاريخي» ألقاه الرئيس الرمز وزعم فيه أنه سيدعم موظفي الدولة. فقام بتقليص حصة جميع المواطنين إلى النصف وألغى حصة الموظفين الغذائية المدعومة وقام بتعويضهم بمبلغ (٢٠٠٠) دينار

اقتصها التضخم فوراً يجب علينا أن نصبر. ألسنا مجاهدين. علينا أن نفعل المستحيل لنديم الوضع الراهن هذا ما نص عليه خطاب السيد الرئيس قبل أسبوع تقريباً.

وقبل أن نستوعب الصدمة. جاءتنا صدمة أشد. الرئيس العراقي يحشد قواته على حدود الكويت. لم نصدق آذاننا. أدرنا مؤشر الراديو. أمريكا. مونت كارلو و(BBC). إنهم يرددون نفس الخبر. الأساطيل تتحرك. حاملات الطائرات تقترب. التصريحات تتتابع في كل مكان. إلا العراق. سيقوم تلفزيون الشباب بعد قليل بنقل مباراة «فرنسا ورومانيا» ربما لكي يستمتع الشعب. وبالأمس انتهى مهرجان بابل «التاريخي». وغداً يكون سحب اليانصيب الدوري.. تغطية إعلامية عميقة. تعبر تماماً عن حاجات المواطنين وتجيب عن أسئلتهم وتستفز عقولهم لمزيد من التفكير.

ماذا سيحدث بعد غد. هل سيضرب الرئيس المؤمن «حشد الكفار» كما يريدنا أن نتوهم. أم هل سيسامح دول العالم ومجلس الأمن بعد أن يرقّ قلبه لحالهم. لا أستطيع أن أجيب. لا أستطيع أن أستنتج. ولا أن أقترح. كل ما لديّ هو الأمنيات... بل هي أمنية واحدة فقط... أمنية واحدة....

الاثنين ١٠/١٠/١٩٩٤

صرح ناطق رسمي بأن العراق قد سحب قطعاته من المنطقة المحاذية للكويت قبل قليل، وأن هذه القطعات ستكمل «تمرينها» في منطقة أخرى. هكذا وبكل براءة. والمذيع يتصنع الدهشة والاستغراب من موقف الدول التي أخذت تحشد جيوشها ضد

العراق. كأننا لم نصرح قبل أيام ثلاثة أو أربعة بأننا سنتخذ إجراءات صارمة ضد الكرة الأرضية ما لم يتم فتح الحصار. يبدو أننا سننتصر ثانيةً (أو على الأصح. قد انتصرنا فعلاً) ولكن على طريقة صدام حسين. فقد سحبنا الذريعة التي تدفعهم لضربنا. وهكذا أفشلنا مخططهم وأحبطنا سعيهم. إن فن السياسة والدهاء والحنكة يتجسد في فكر هذا الشخص الملهم. لا، بل إنه يستمد أفكاره من روح الله مباشرةً. فمن في هذا الكون يستطيع أن يفكر ويحلل ويستنتج مثله. إنه يعادل محفلاً من المفكرين. وسيبقى كذلك.. وسيستغربون سبب الحشد. وسيحللون ويستنبطون ويتكهنون لمعرفة الدوافع الخفية التي تكمن وراء تحرك الأساطيل وسينسون وننسى أنهم قبل أيام ثلاثة كانوا يشدون على يد القائد ويبايعونه على الموت فداءً لعينه. لا أدري ماذا أقول. مازلت أبحث عما ينبغي لي أن أفعله. لا أجد سوى الكلمات. الكلمات التي فقدت معناها عن الدكتاتورية، والحماقة، والخراب. إلى متى.. وإلى أين سيمتد هذا الطريق المظلم. لا أدري.

الاثنين ١٩٩٤/١٠/١٧

صرح ناطق رسمي بما يلي: (إن العراق مستعد لأن يعترف بحدود دولة الكويت التي تم ترسيمها من قبل الأمم المتحدة. دون قيد أو شرط إيماناً من العراق بمبادئ المنظمة العالمية ورغبة منه بحفظ السلام في المنطقة!!).

وهكذا عدنا بخفي حنين، بل عدنا بدونهما. (وكأنك يابو زيد ما غزيت).. إذن لماذا جرى كل ما جرى. أين كل ما قدمناه من ضحايا. لماذا تعرض العراق لكل هذه المخاطر. لماذا جعنا. لماذا

قُتلنا. لماذا. لماذا؟؟ من سيعيد إلينا سنوات عمرنا التي ضاعت. ولكن لا. فسوف ننتصر وسيتقلد قائدنا الرمز وسام كسر الحصار. كما سبق له وأن تقلد وسام أم المعارك. ووسام قادسيته وعشرات الأوسمة الأخرى. ألم يكن فرحنا هائلاً عندما انتهت حرب الخليج الأولى لمجرد أنها انتهت ولم نتساءل عن المكاسب التي جنيناها في حرب دامت ثمانية أعوام. إن انتصارنا الحقيقي دائماً هو نجاحنا في العودة إلى النقطة التي انطلقنا منها.. والمطابع تدور. المواقف تتبدل من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار في خلال دقائق.. فما أن يدير الرئيس عينيه صوب جهة ما حتى تقوم مؤسسة كاملة بتنظير معنى التفاتته. وتحليل أبعادها «التاريخية» والأنثروبولوجية وهو يصدق. وهم يصدقون. ونحن نصفق مرغمين.

الخناق يضيق علينا أكثر وأكثر. ومازلت أستغرب قدرتنا الهائلة على التكيّف. كنت قد انتسبت إلى كلية القانون التي فتحت أبوابها للدراسة المسائية لأول مرة هذا العام. ولكنني انقطعت بعد أسبوعين لاضطراري للعمل في معرض (الأمل) كل الوقت. نعمل أكثر ونكسب أقل. والغد أسوأ بكثير من اليوم، والأمس حلم سعيد دائماً. مازلت أقاوم الذبول رغم أن طاقتي على المقاومة تتناقص.. لا وقت لديّ للقراءة؛ فضلاً عن الكتابة. أحياناً تطرأ في ذهني أفكار لقصص قصيرة. تدور وتدور ثم تتلاشى بعد أن لا تجد لها مخرجاً. أحس بالأسى. هل سأقضي حياتي بهذه الطريقة. أتخيلني في الستين وأنا لم أكمل بعد هذه الأوراق. (لأن القصة لم تنته) ألم تحن ساعة الخلاص!

يا ليل أين النور إني تائه   متى ينبثق أم ليس عندك نور؟

الثلاثاء ١٨/١٠/١٩٩٤

حلقت الطائرات الأمريكية اليوم في سماء الموصل. أعادني هدير الطائرات ثلاثة أعوام إلى الوراء أحسست بغيظ شديد. ماذا يستطيع الإنسان أن يفعل ضد طائرة. هل أكره هذه الطائرات؟ أم أنتظر خلاصي منها؟ لا أدري...

حملة اعتقالات واسعة تجرى في المدينة. ويقال إنها تشمل معظم العراق. اعتقل جارنا (وهو في السبعين) لأن له لحية كثة بيضاء. وزنه لا يتجاوز الأربعين كغم. ويعمل مثلي في بيع الأثاث مع ابنه الذي نجا من الاعتقال لأنه بدون لحية. لقد ضبطوه متلبساً بحليته الكثة. وضبط معه آخرون في أنحاء العراق. كلما زادت ضراوة هذه الحملة زاد يقيني بهلع دولتنا العظيمة. إنها تعتقل الجميع بلا استثناء. يأخذونهم إلى مكان مجهول ولا توجد جهة نستعلم منها عن المعتقلين. لا أحد يجرؤ على السؤال عنهم إنهم قد «تبخروا».. فقد قام أشخاص مجهولون بحملة اعتقال وقادوا المعتقلين إلى مكان مجهول.. على الشعب أن يضرب ولكن السؤال الكبير يطفو ثانيةً.. يضرب من؟ وكيف؟ ليس أبسط علينا من قتل شرطي أو ضابط. ولكن ذبح المئات منهم «وهم العراقيون مثلنا تماماً» لا يهز شعرة في النظام. ولو كان بإمكاننا الوصول إليه.. لو كنا نعرف أين يوجد لو كنا نعرف أين سيظهر. لو. لو. لو. ولا فائدة.

أحسّ بالمرارة. والغيظ. إن مرور الطائرات فوقنا أسهل بكثير جداً من مجرد تذكّره. كيف سيتاح لنا الخلاص؟ لا أدري...

الأربعاء ١٩/١٠/١٩٩٤

مازالت دائرة الاعتقالات تكبر وتكبر. ففي خضم حملة صدام الإيمانية يستمر اعتقال المصلين في مداهمات عشوائية. حدث اليوم تفجير في بناية وزارة الأوقاف. هل قام الإسلاميون بالتفجير انتقاماً لذويهم. لا أعتقد، ولا أحد يعتقد ذلك، الكل يعرف أن الدولة تقوم بهذه العمليات لتغطي حملة اعتقالاتها المجنونة.

أذيع قبل أيام عن دعم فرنسا للعراق لأن النظام العراقي قادر على وقف التيار الإسلامي في المنطقة. ويبدو أن النظام يريد أن يستعرض إمكاناته داخل إقليمه في البداية. وهو يفعل ذلك بحذر خشية الفشل والفضيحة. يجب أن يتقمص الدور بكل جوارحه كي ينجح في الاختبار. ولا يهم أبداً عدد الضحايا فنحن دائماً مستعدون لتقديم أرتال الشهداء في الطريق إلى معبد المبادئ أية مبادئ. لا ندري بالضبط وليس من حقنا أن نسأل. المهم أن نسير وفي طوابير منتظمة. رؤوسنا إلى الأسفل. لا داعي لأن نستطلع الطريق. فهناك عينان تاريخيتان تسترقان آفاق الماضي والحاضر والمستقبل تمهدان لنا طريقنا إلى الخلاص السريع. إنه طريق الموت. الراحة التي يتمتع بها العراقيون في ظل «القائد الملهم».

الخميس ٢٠/١٠/١٩٩٤

التقيت اليوم بالأستاذ (أسعد الكبيسي).. منذ أكثر من سبع سنوات لم أر هذا الشخص القريب إلى نفسي. لاحظت أنه قد شاخ كثيراً.. وهو أيضاً أخبرني أنني قد أصبحت نحيفاً جداً. لم يدم لقاؤنا أكثر من نصف ساعة. لقد جاء إلى الموصل ليصفي أثاث بيته المتروك

لأنه قد يرحل إلى خارج العراق. كان متشائماً جداً وأثار فيّ إحباطاً مؤلماً. يبدو أن الأيام قد قست عليه هو الآخر أكثر مما كان يحتمل.

أخبرني بمرارة بأنه يتوقع بقاء صدام في الحكم مادامت الحكومة الإسلامية موجودة في إيران. وأن من مصلحة الغرب إبقاءه ليمنع تدفق التيار الإسلامي في المنطقة. معلوماته معروفة. كنت أتمنى أن أراه متفائلاً وأن تكون لديه توقعات إيجابية، ولكن ما باليد حيلة فهذا هو ما يتكهن به الرجل. خرجت من عنده متألماً، متألماً لفراقه فقد لا يتاح لي لقياه إلا بعد سنين. وقد لا نلتقي أبداً. ومتألماً لخيبة أملي في سماع أخبار جديدة تحمل بعض الأمل (حتى ولو كان كاذباً) يعينني على قضاء هذه الأيام السمجة. وفي المساء زارني توفيق في المحل. كان يبدو متفائلاً ويتوقع فتح الحصار ولما سألته عن أرباحنا بعد كل هذه العملية التي استغرقت أربع سنوات وكلفتنا مئات المليارات. أطرق قليلاً ونسي أن يجيب. هل أحرقنا نصف «إسرائيل»؟ هل صلينا في القدس؟ هل رفعنا لواء العروبة فوق المجرة؟ أين الشعارات التي ترددت في هذه السنوات وكانت لاتزال تتردد حتى بضعة شهور مضت. هل «رضينا من الغنيمة بالإياب» ككل مرة. ربما.

الأربعاء ١٩٩٤/١٠/٢٩

فجأة. ماتت رغبتي تجاه الكتابة. كأن الأزمات وإرهاصات التغيير وحدها تحفزني لإنهاء هذه الأوراق. هذه الأوراق التي ترجو أن ترى النور يوماً ما. هدأت الزوبعة. (وانتصر العراق). واستمر تدفق الشباب للتطوع في منظمة «فدائيي صدام» وقبل ثلاثة أيام ظهر الأستاذ (عدي) في ندوة فكرية صرح فيها سيادته بأن «عصر

المبادئ قد انتهى وحان الآن عصر المصالح» وقد يظن البعض أن دولتنا ستنتهج منهجاً براجماتياً في سياستها. ليس هذا هو ما قصده الأستاذ بالطبع. إنه يقصد أن عصر خداع الشعب بالكلمات قد انتهى وأنه لا داعي للبس الأقنعة والقفازات الحريرية. وقد حان الآن وقت النهب السافر لخيرات العراق–أو ما بقي منها– سقط القناع المهلهل. أو أسقطوه. لم يعد هناك فرق.

حملة الاعتقالات مستمرة. والكل يمضي إلى المجهول. عرض التلفزيون أمس مجموعة من «فدائيي صدام» وهم يمسكون بكلب حي ويخرجون قلبه وأحشاءه ويأكلونها نيئة والدماء تسيل من أشداقهم وسط الصرخات الوحشية. كان من الواضح لي أن من ظهر على الشاشة ليسوا متطوعين تدربوا لمدة أسبوعين، بل جنود محترفون متدربون تدريباً عالياً كانوا ينتحلون شخصيات المتطوعين. وكان المتطوعون المساكين يكتفون بالصراخ أمام الكاميرا. منظر يثير التقزز. لحم كلب نيء ومدمى. والمقصود منه بالطبع إرهابنا أكثر وأكثر. فلدى صدام «لحد الآن» القدرة على أكل لحومنا بواسطة هؤلاء.

القلم يسير على الورقة بالكاد. لم تعد هناك بارقة أمل. لماذا يجهد نفسه إذن. أحاسيسي التي استيقظت قبل أيام عادت إلى سباتها القاتل. عاد طعم الرماد إلى حلقي. بدأت أفكر «وللمرة الأولى في حياتي» بترك البلد والخروج إلى أي مكان في العالم بعيداً عن الظل النتن.. بعيداً عن التسلط القاسي. بعيداً عن الكذب والنفاق. ولكن إلى أين؟ هل بقيت كرامة لمهاجر عراقي بعد كل ما حدث. هل أترك العراق «بلد الخيرات وجنة الله على أرضه» لأشتغل أجيراً في دولة أخرى؟ لا أستطيع أن أتكيف مع هذه الفكرة... تماماً كما أنني لا

أستطيع التكيف مع حياتي الحالية.

سأنتظر (غودو)... ولن يأتي. أخشى أنه لن يأتي. سأنتظر «الحافلة» مع الجميع لعلها تأخذنا إلى أرض النور.

الثلاثاء ١٩٩٤/١١/١

وسط حملة الاعتقالات الهوجاء للإسلاميين.. أصدر السيد الرئيس أوامره الكريمة بتدريس القرآن والسنة النبوية للكوادر المتقدمة لحزب البعث العربي الاشتراكي الذي أسسه الأستاذ ميشيل عفلق. هل كان عفلق يحلم أن إسلامه سيعلن بعد موته. وأن جسده سيدفن تحت قبة إسلامية. وأن قبره سيصبح مزاراً وأن أعضاء حزبه العلماني سيدرسون القرآن والسنة النبوية. كل شيء ممكن في عراق صدام. تباً للمستحيل.. اللاعب الأكبر يستطيع خلط الأوراق ببراعة مقامر محترف. ويعرف تماماً أين توجد الأوراق الرابحة.. ورغم أنه يغش في اللعب. إلا أن مسدسه المشهر تحت المائدة يمنعنا من الكلام. وهو بارع في الرماية أكثر من براعته في خلط الأوراق. مازلت لحد الآن أحاول تخيل منظر «الرفاق» بشواربهم الكثة وبدلاتهم الزيتونية وشعورهم المصبوغة وهم يحاولون «بخشوع إيماني» تلاوة القرآن ولا يفلحون في جرّ المجرور. فالسادة المسؤولون جميعاً وعلى رأسهم الرئيس يرفعون المجرور محاولين بذلك إيجاد قواعد جديدة للغة تتناسب وطبيعة المرحلة الراهنة التي فرضها الحصار الظالم على البلد.

الأحد ١٣/١١/١٩٩٤

بكل برود وصفاقة اعترف العراق قبل يومين بدولة الكويت وبحدودها الجديدة وباستقلالها وسيادتها. مرّ الخبر مرور الكرام لدى أجهزة إعلامنا. وتلاه مباشرةً خبر عن بركان هنا، وحادث باص هناك. والكثير من الأخبار عن الجزائر وأفغانستان. وفي اليوم الثاني تصدرت نشرات الأخبار العراقية رسالة أرسلتها مواطنة أمريكية اسمها «إيميليا براون» إلى السيد الرئيس تهاجم فيها سياسة الولايات المتحدة. مما أقام أجهزة إعلامنا ولم يقعدها فقد شهد شاهد من أهلها. (فمن فمك أدينك). وأن أمريكا ستركع للعراق الصامد مادام مواطنوها يراسلون قائدنا. وربما افتتح العراق قريباً فرعاً له في الولايات المتحدة تديره السيدة إيميليا. لا أحد يدري ما يخبئه الغد لهذا القائد المعجزة. هذا الفذ الذي نسي أن يسأل نفسه بعد أن اعترف بالكويت دولة مستقلة. لماذا دفع بالجيش لدخولها أصلاً. لماذا تعرض البلد لعشرات الألوف من أطنان المتفجرات. لماذا أمطرت علينا السماء لهباً. لماذا مات الآلاف؟ لماذا جاع الشعب؟ لماذا أهدر شرف آلاف النساء؟ لماذا. لماذا. لماذا؟ لا أحد يسأل لا أحد يجرؤ على السؤال. لماذا اعترف بالكويت؟ فقط لأنه يريد البقاء جالساً على كرسيه وهو مستعد لدفع الثمن. مهما كان.

الأربعاء ٨/٣/١٩٩٥

إن أعتى الزلازل وأقسى الأعاصير لم تعد تستطيع شدّ اهتمام العراقيين لحظة واحدة. لو أن ما يحدث لدينا الآن يحدث في أي بلد آخر على سطح هذا الكوكب لأقام مواطنوها الدنيا وأقعدوها.

أما نحن فلم يؤثر فينا ارتفاع أسعار الغذاء بدرجة مدهشة أصبح سعر كيلو البصل «٨٠٠ دينار» أي ما يزيد على تقاعد ضابط برتبة لواء في الجيش. أصبح سعر الطحين، والسكر، وجميع أنواع المأكولات الطازجة والجافة، الأساسية، والكمالية فلكياً جداً جداً قياساً على ما كانت عليه قبل شهرين فقط... الشوارع ملأى «بالرفاق». في كل ركن ومنعطف هناك خمسة أو ستة منهم يحملون البنادق الآلية والمسدسات ويقفون ليل نهار ولا أحد يدري لماذا «حتى هم أنفسهم». الجيش يزحف نحو الشمال. والدولة تكذّب ذلك. وبدأت قوافل الشهداء تصل. والإذاعات تعلن عن وقوع معارك بين الجيش وقوات الأكراد والدولة تكذّب ذلك. الطرق مسدودة والدبابات تصعد شمالاً والمفاوضات حول البترول تتعثر والأسعار تتضاعف يومياً والركود يخنق الجميع والدولة تدين موقف (ويني مانديلا) وتصرفاتها اللا مسؤولة. وتدين اللجنة التي تمنح جائزة نوبل. الأخبار هنا لا تصل. لا شيء يبدو أنه يحدث. لم نعد نستطيع توقع حدوث شيء. الدولة تطالبنا بترك التدقيق وعادة شرب الشاي البذيئة. أما الخبز والرز والسمن فقد تقلصت الحصة التموينية حفاظاً على رشاقة الشعب ورغم كل هذا وربما بسبب كل هذا. فبناء مجاميع القصور والبحيرات الرئاسية مستمر على قدم وساق. برك للسباحة وأخرى للصيد وأخرى للتزلج وبرك للدلافين ووو.. ونحن صامدون.. لا بل صامتون. خانعون. لا أحد يعرف ما يتوجب عليه فعله. وكف واحدة لا تصفق. وإذا اجتمع كفّان بُترا. فنحن هنا في عراق صدام الذي يرفع شعار (اعدم ثم حاكم). عقلي يحدثني باقتراب النهاية. وقلبي يكذّب ذلك. لم نعد نستطيع تصديق وجود عراق بلا صدام. والكل خائف من حرب أهلية قد تنشب بعد أن زرع القائد بذورها

ورواها بدمائنا مثيراً كل أنواع الحزازات الدينية والعرقية التي يمكن إثارتها داخل دولة صغيرة. خاصةً أنه قد قام بتسريب الأسلحة إلى كل الفئات المتنازعة. أصبح الحصول على قوت اليوم حلماً نعرق يومياً لتنفيذه. وأصبحت وجبات الغذاء المشبعة ترفاً يشتاق إليها الكثيرون. وربما كان الوضع في بقية المحافظات أكثر صعوبة مما نعانيه نحن هنا في هذه المدينة. لا أدري لماذا أكتب. وما جدوى ذلك!

الجمعة ١٩٩٥/٦/١٦

بالأمس حصل (الأستاذ عدي) على الهوية الصحفية رقم (١).. إنه الآن نقيب الصحفيين. تسلّم البطاقة وهو يبتسم خجلاً وتواضعاً فقد فاجأه الصحفيون بهذا التكريم. لا جديد على شاشة التلفزيون. تكريم الأستاذ بعد يوم واحد من الأحداث العنيفة التي جرت في «أبو غريب»، وبينما كانت إذاعات العالم تبث أخبار هذه الأحداث «أو محاولة الانقلاب أو لا أدري ماذا على وجه اليقين» كان تلفزيون الشباب يبث حفلة لـ (راغب علامة) تماماً كما حدث قبل أقل من شهر حينما حصلت المجابهات بين الدولة وقبيلة الدليم وسكان مدينة الرمادي.. قبل أن تبرد الدماء كان القائد الشمس يتقلد «بخجل واستحياء أيضاً» وسام «فخر العروبة» هل كان وسام فخر العروبة أم عارها. وألقى سيادته خطاباً تاريخياً كعادته أوضح فيه بكل صراحة وشجاعة أن العرب من المحيط إلى الخليج هم عرب. وأن هذه الحقيقة التاريخية يجب أن تولى العناية الكافية. وأن بقية العرب في المناطق الأخرى هم أيضاً عرب. (يا سلام). كان خطاباً جامعاً مانعاً أتمنى من أعماقي لو حصلت على نسخة منه لأحفظها عن ظهر قلب.

الجمعة ١٩٩٥/٦/٢٣

١ – مات اليوم عاطف الطيب. لقد تعلّمت من أفلامه أكثر مما تعلّمت من أي كتاب.

٢ – من المضحك أن أتحدث عن ارتفاع الأسعار الحالي. الأسعار تتضاعف كل يوم. لا ترتفع، بل تتضاعف يومياً.

٣ – اكتشفت قبل أيام أني قد نسيت قصة «ليلى والذئب».. اكتشفت هذه الحقيقة المرّة حينما حاولت أن أحكي الحكاية لـ «ميس» ابنتي الصغيرة. نسيت لماذا دخلت ليلى إلى الغابة ولماذا لم يأكلها الذئب هناك وكيف انتحل شخصية جدتها. وأخيراً نسيت كيف مات الذئب. وبعد أن عدت إلى (المراجع) اكتشفت أن شخصاً دخيلاً على الحكاية يظهر فجأة ويقتل الذئب في الوقت المناسب تماماً لتنتهي الحكاية. لماذا لا يظهر هذا الشخص في العراق ليخلصنا كما خلّص ليلى ذات الرداء الأحمر.

٤ – حلمت اليوم بأني أطير. أسير بخطوات سريعة واسعة تكبر وتكبر وأعلو تدريجياً لأكتشف أني أستطيع الطيران. أعلو وأهبط كما أشاء. وأخاطب صديقي (جمال البصو) – الذي اشترك معي في بطولة الحلم– وأطلب منه أن يطير معي.. وأؤكد له أنه قادر على ذلك لو أراد. لكنه يتخلف ورائي. وحينما أقف في مكان ما يأتي بهدوء ويخبرني أنه كان يصلي. استيقظت بعدها وأنا أشعر بالسعادة. لقد حلمت مرتين «قبل اليوم» بأني أطير. بعد الحلم الأول بأسابيع قليلة عدت من الأسر. وبعد الحلم الثاني بأسبوعين تسرحت «فجأة» من الجيش. فماذا سيحدث هذه المرة يا ترى؟

السبت ١٩٩٥/٧/١

في مثل هذا اليوم تماماً وقبل عامين افتتحت «معرض الأمل» محلي الواقع في سرداب تحت عمارة متواضعة. واليوم. اليوم بالذات قررت أنا وابن عمي غلق المحل. فلم يعد العمل مجدياً فيه. لا أدري ماذا سنفعل. فرص العمل تتلاشى ولا أحد من الشباب يستطيع تدبر قوت يومه مما دفع معظمهم لاستبعاد فكرة الزواج تماماً عن أذهانهم، وهذا بالضبط هو ما أدى بنا إلى اتخاذ قرار غلق المحل. فنحن نبيع غرف النوم وقد أصبحت أسعارها فلكية جداً هي الأخرى أسوةً بكل شيء في عراقنا العظيم.

كنت قد استيقظت صباح هذا اليوم متفائلاً. ومما زاد تفاؤلي سماعي لنشرة الأخبار في الراديو. كان المذيع يتحدث عن تقرير «رالف إيكيوس» واحتمال فتح الحصار خلال أسابيع. ورغم أهمية الخبر فإن المذيع لم يوله الاهتمام المطلوب، فمن المعتاد أن يصرخ المذيع ويهلل ويكبر ويشتم ويلعن بصورة مسرحية أثناء إذاعة الأخبار المهمة. هل كان بروده مفتعلاً؟ لا أدري. أما السوق فقد تبين اليوم أن سعر الذهب قد انخفض. وارتفعت أسعار المواد الغذائية بالمقابل.

أقيل اليوم وزير النفط ولم يعرف أحد السبب. ربما استعداداً للمرحلة المقبلة وصدرت بضعة مراسيم جمهورية جديدة تشمل «تعديلاً وزارياً خطراً» على ما يبدو تسلّم على إثرها الفريق الركن «حسين كامل حسين» مهام إضافية ربما استطاع حل أزمة الغاز التي يجهل سبب ظهورها أعتى جواسيس العالم، أو أزمة البنزين التي لم يستطع معهد براند التوصل إلى دوافعها وربما سيحل هذا التعديل مشكلة انقطاع التيار الكهربائي المستمر، أو انقطاع الماء المزمن في

بلاد ما بين النهرين.

مدينتنا محاصرة. محاصرة من كل الجهات ومهددة من الداخل. ما الذي ينوي هذا المجنون أن يفعله؟ ما الذي سيحدث بعد أيام. أتمنى لو أحصل على آلة الزمن لأرى مستقبل هذا البلد. مستقبلنا الذي لم يعد يبدو منه إلا الرماد.. رمادنا وانتصارات القائد.

الأحد ١٩٩٥/٧/٢٣

١ – قبل أيام أقيل وزير الدفاع الملهم «علي حسين المجيد» ابن عم القائد الشمس من منصبه وتولى «سلطان هاشم» الوزارة محله.

٢ – قبل ذلك بوقت ليس بطويل أقيل وزير الداخلية «وطبان إبراهيم الحسن» من منصبه وتولى مكانه وزير آخر لا أدري اسمه. هل اكتشف القائد أخيراً أن وزراءه حمير. لماذا احتاج إلى وقت طويل جداً ليدرك ذلك؟؟

٣ – وصل سعر الدولار إلى «١٨٢٠» ديناراً عراقياً فقط. وأسعار الطحين تواصل ارتفاعها رغم أننا في موسم الحصاد.

٤ – صدر قبل يومين عفو عام عن السجناء بشروط غريبة ومضحكة «كأن يحفظ بعض النزلاء أربع سور من القرآن الكريم ومعها مبادئ الحزب».. كأن مبادئ الحزب قد أصبحت جزءاً من السنة النبوية ومكملة لطوال السور.

٥ – يبدو أن هناك توتراً شديداً بين العراق وإيران، فقد أدلى وكيل وزارة الخارجية بتصريح مطول يهاجم فيه موقف إيران «اللا مبدئي واللا أخلاقي» الموقف الذي يحاول «إخفاء الحقائق وتشويهها»..

إن العزف على وتر الحرب العراقية الإيرانية مستمر فلا يزال تلفزيون الشباب يعرض يومياً برنامج «صور من المعركة» الذي كان يقدم لمدة سنوات الحرب يومياً. ولاتزال صور القتلى والجرحى الإيرانيين تعرض يومياً على أنظارنا.

٦ – بعد أقل من أربعين يوماً ستنتهي المهلة التي منحها السيد الرئيس للكرة الأرضية التي لا شك أنها تعاني رعباً شديداً. فعند نهاية شهر آب وفي حالة عدم تقديم مجلس الأمن فروض الطاعة للعراق فإن الرئيس العراقي سيفعل شيئاً خطراً وجدّياً. لقد وعد العالم كله بهذا. ترى ماذا سيفعل. هل سيدخل إلى الحمام.

٧ – الأحداث تتلاحق. ولا شيء يحدث. أنا غارق في مستنقع الديون حتى أذنيّ. لم يعد لديّ ما أنفقه ولا من أستدين منه. ولا سبيل لسداد الديون أو الإنفاق على البيت إلا لو حدثت هزة أرضية. متى ستحدث هذه الهزة؟

الأحد ١٩٩٥/٨/١٣

سأنتهز الفرصة وأكتب. أتمنى أن أستطيع إنهاء هذه الصفحات قبل أن ينقطع التيار الكهربائي.

لقد قامت الدنيا ولم تقعد بعد هروب (ضابط عراقي كبير) ولجوئه إلى الأردن «الضابط الكبير» هو حسين كامل. ابن عم الرئيس الشمس. وزوج ابنته ومعه أخوه «صدام كامل» مرافق الرئيس وزوج ابنته الثانية وبطل فيلم «الأيام الطويلة». ما الذي سيحدث يا ترى في العراق الآن؟ لا شك أن نتائج خطرة ستنعكس على الوضع الداخلي للبلد ومن أخطرها هو منع عرض فيلم (الأيام الطويلة).

الشعب يبتسم بشماتة. ويحس بسعادة تشوبها غصة مريرة. انتشرت الإشاعة فجأة يوم الخميس الماضي واقترنت بخبر إصابة وطبان الحسن برصاصات في ساقه. ولم أصدق ما سمعت. فقد تشبعت تماماً بالإشاعات التي تكون غالباً كاذبة. وفي اليوم الثاني تأكد الخبر رسمياً ثم أصدر الرئيس العراقي رسالته «القومية التاريخية» التي استغرب خلالها خيانة صهره. وحدثنا فيها عن قابيل ونوح وإبراهيم ومحمد سلام الله عليهم أجمعين. ولكنه لم يذكر أيوب بكلمة واحدة. واستمرت الأخبار تتزايد وتتزايد ونحن نبتسم فرحين شامتين وعاجزين عن فعل شيء. أي شيء. فمن يكون حسين كامل الذي أخذ يهدد النظام «الذي دمر العراق وأساء لمواطنيه». لقد نسي هذا المعارض البطل أنه كان قبل يومين فقط يقبل أكتاف القائد ويدعو له بطول العمر. ما الذي غيّر مبادئ هذا السياسي الفذ خلال ٤٨ ساعة. لا بد أنها لحظة فيض أو كشف. هل وصل إلى الاستنارة التي نالها (سيدهارتا) تحت شجرة الحكمة ليصيح فجأة (المهاتما حسين كامل). لقد خان قائده الذي كان خائناً لشعبه. فهو إذن خائن مزدوج وشخص تافه جداً لم يتسلق سلّم المناصب إلا لكونه «من أهل الثقة» وزوج ابنة الرئيس. ولا أشك للحظة أن تقاطع مسؤولياته «وما أكثرها» مع مسؤوليات القائد وأبنائه هو السبب الوحيد لهروبه. ورغم هروبه المفاجئ فإنه لم ينسَ للحظة أن يصطحب معه حقائبه الثقيلة التي ستعينه «وعائلته المناضلة» على تحمل وحشة الغربة.

وقد صرّح طارق عزيز اليوم أن «الخائن» كان قد أخفى أسرار ووثائق عن «رالف إيكيوس» وأن العراق الآن مستعد لتسليمها للجنة وأن العراق مستعد ومستعد.. ومستعد. حتى لنزع ورقة

التوت. وهي على أية حال قد جفت وتكسرت ولم تعد تستر شيئاً.

ترى ماذا سيحدث الآن؟ لا أحد يعلم إلا الله والراسخون في العلم.

الخميس ١٩٩٥/٨/٣١

اليوم انتهت المهلة التي منحها القائد للعالم. ولا أستطيع أن أقول إنه لم يحدث شيء في هذه الفترة، فقد حدثت أشياء كثيرة منها أنه بتاريخ ١٩٩٥/٨/٢٨ وفي تمام الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ولد عبيدة. ابني الأول. فأصبحت بذلك أباً لطفلين.

ومن الأحداث الأكثر خطورة أنه بتاريخ ١٩٩٥/٨/٢٩ أكملت دورتي الواحدة والثلاثين حول الشمس. ولم أحتفل بعيد ميلادي فلا داعي لفتح الجراح. أهديت لنفسي علبة سكائر فاخرة. ولم أستمع إلى أغنية «عدت يا يوم مولدي» ولم أحزن. ولم أفرح. ولم ولم ولم. هذا على الصعيد الخاص. أما على الصعيد العام فنحن لا نعيش أحداثاً تشبه مسرحيات بيكيت ولا روايات ماركيز. إننا نعيش أحداثاً أشد ما تكون شبهاً بأفلام (سبيلبرغ) سريعة، غريبة، ومضحكة ومؤلمة ومرعبة في آن واحد. انفرط فجأة شمل الأسرة وتحولت العصابة الحاكمة فجأةً من حربها الخارجية مع الشعب إلى تصفية حسابات داخلية. أبناء وبنات الرئيس وأصهاره وإخوته وأبناء إخوته وأبناء عمه. الإذاعات تسلط الضوء على الخلاف. لا بل تزكيها بمكر شديد. هناك معركة إعلامية صغيرة بين الأردن ومصر حول مصير حسين كامل وصدام. معركة كان يفترض أن تدور بعد سقوط النظام. الرئيس يركز على الأمن. أمنه الشخصي ويزيد من حذره «المبالغ فيه

أصلاً» ويجتمع يومياً مع القيادة العامة ومجلس قيادة الثورة ومجلس الوزراء، ورغم هذا ننزلق بسرعة رهيبة في المستنقع. ورغم هذا الكم الهائل من الأحداث والشعب ساكت ساكن. ولا أستغرب هذا. فأنا ايضاً ساكن ساكت ولا أدري ماذا أفعل.

الجمعة ١٩٩٥/٩/٨

هل سأنجح في تجاوز هذا العام بسلام؟ هذا العام بجدارة هو عام الموت. يتساقط الكثيرون فجأة بصمت أو بطريقة صاخبة ليعبروا البرزخ الضيق بين الحياة والموت، ورغم أني قد تعايشت مع هذه الفكرة وعودت نفسي على تحمّلها بصبر وإيمان، فإن الأمور بدأت تتجاوز طاقتي على الاحتمال. ويبدو «والله أعلم» أن صدام شخصياً قد أصابه التعب مثلي. فبعد خطاب الملك حسين – الذي أذيع كاملاً من إذاعتنا– أصبح حديث الإذاعات الدائم عن تغير نظام الحكم في العراق وكأنه أمر حتمي أو مسألة وقت فحسب. أمس أصدر «مجلس قيادة الثورة الموقر» إعلاناً دستورياً حدد فيه فترة الرئاسة بسبع سنوات، وأناب رئيس مجلس قيادة الثورة في حالة خلو منصب رئيس الجمهورية، وأعلن وزير الثقافة (الموقر) والذي لا أعرف اسمه لحد الآن عن – انتخابات – أو ربما – استفتاء – أو لا أدري ماذا سيجري بعد أيام، وأن المجلس الوطني سيقوم بـ: لا أدري ماذا – وأن وأن وأن. لم أنصت لكلام الوزير فلا داعي لذلك. مللنا هذه الألاعيب التي لم يعد لها طعم. لأن رئيس الجمهورية هو نفسه رئيس مجلس قيادة الثورة. وهو نفسه رئيس الوزراء وهو نفسه المهدي المنتظر أو كابتن منتخب العراق. حسب ما يقتضيه الموقف. فدولابه ممتلئ

بالملابس وهو يرتدي لكل حلة الزي الذي يناسبها. والشيء الوحيد الذي لا يستطيع تغييره هو إحساسنا نحوه. وإحساسه تجاهنا. إنه يظن بأنه نجح تماماً في استغفال ١٨ مليون شخص، وأن الأمور كانت ستسير على ما يرام لولا تدخل «الغرباء» قاتلهم الله، ولكنه ينسى أنه لولا تدخل هؤلاء الغرباء لما استطاع البقاء في السلطة أياماً معدودة.

قناة الشباب تبث الآن فيلماً بعنوان (المجرم الأخير) وبالأمس عرضت فيلم (فيفا زاباتا) أو ربما (فيفا صداما) وقبل ثلاثة أيام عرضت فيلم (الشيخ والبحر) الفيلم الذي يزعم السيد الرئيس أنه فيلمه المفضل، وأنه سيفعل ما فعله سانتياغو في الرواية... سيبقى متمسكاً بالسمكة حتى تستحيل هيكلاً عظمياً فحسب.

الأربعاء ١٩٩٥/٩/١٩

كلما نظرت إلى «عبيدة» تدور في ذهني عشرات الأسئلة: ما الذي سترى عيناه الصغيرتان. ما الذي سيحس به ما الذي سيحدث له. هل سيقرر له أن يعيش حياة مرّة وغريبة كحياتي. أم أن الأمور ستزداد سوءاً على سوء وستصبح أيامنا التعيسة هذه عصراً ذهبياً لمن سيأتي بعدنا. لا أعرف ولا أستطيع أن أخمّن.. لاسيما وأنا بحاجة ماسة لسيكارة تساعدني على تحمل أرقي المزمن. قلبت أرجاء البيت بحثاً عن واحدة وخاب أملي فمن هنا سينسى سيكارة ثمنها «خمسون ديناراً». كان سعر علبة السكائر نصف دينار عام ٩٠ و٢,٥ دينار عام ٩١ وسبعة دنانير عام ٩٢ وخمسة وعشرين عام ٩٣ ومئة عام ١٩٩٤ وألف دينار عام ٩٥ والبقية تأتي. سأتناسى التدخين. فهو على كل حال مضر للصحة ويسبب سرطان الرئة.

الجمعة ١٩٩٥/٩/١

كنت أنتظر ولكن خاب ظني. كنت أنتظر رؤية الرئيس وهو يقفز بحبل من حبال السيرك ويصرخ مثل طرزان ويهبط وسط المسرح البابلي الذي كان يقدم اليوم استعراضاً تاريخياً ضخماً عن «الملك الإله» الذي حاولت آلهة الشر أو «قوى الشر» بالمصطلحات الأكثر حداثة أن تقضي عليه، ولكنه انتصر وملأ بابل ذهباً وفضة. وكان من المنطقي أن يظهر السيد الرئيس فجأة لتكتمل بهجة الاحتفال الذي أنفقت عشرات الملايين لإقامته رغم الحصار. لكن ظني خاب ولم يظهر السيد الرئيس (لأسباب أمنية كما أظن) واكتفى بإرسال طارق عزيز وطه ياسين رمضان نيابة عنه. وقد نقل التلفزيون افتتاح المهرجان الباذخ، كما عرض قبل يومين جولة في المتحف الشخصي للسيد الرئيس، هذا المتحف الذي لا يعرف أحد أين يقع. تحتوي على المقتنيات «الشخصية» التي تتضمن عدداً هائلاً من السجاد الشرقي والأواني الصينية والخزف والأحجار الكريمة وتل من الأوسمة والنياشين «التي أسس الرئيس معملاً لإنتاجها» ويحتوي أيضاً على كل ما خفّ حمله وغلى ثمنه من التحف واللطائف الموجودة في العراق. كما احتوى المعرض على مقتنيات الرئيس الشخصية قبل توليه الرئاسة فرشاة حلاقة ومنشفة وسجادة صلاة!؟ ما الغاية من هذا البرنامج؟ تساءل الجميع!! ولكني متأكد من أن هذه التحف التي جمعتها لجان طافت أنحاء العراق قد حيرت ذهن القائد، فهو لا يستطيع استعمالها إلا إذا عاش بضعة قرون. ولا يستطيع بيعها أو تهريبها للخارج. «فقد يهرب بثمنها نائبه أو ابنه هذه المرة». ولا يستطيع أن يتغاضى عن وجودها، لذا فقد قرر فخامته عرضها

«تلفزيونياً» على أبناء شعبه الذين باعوها كما باعوا كل مقتنياتهم ليحصلوا مقابلها على النقود التي تطبع في بغداد ولا تكلف أحداً سوى ثمن الورق والحبر. وبينما كانت قناة البرنامج العام تعرض افتتاحية مهرجان بابل، كانت قناة الشباب تعرض مباراة بكرة القدم بين قطر والعراق. فقد تمكن «المجاهدون» في تلفزيون الشباب من الحصول على المباراة لتقديمها إلى الجمهور الحبيب. «هكذا قال المعلق شدراك يوسف» وكأن المجاهدين قد قاموا بتركيب سلسلة من المرايا العاكسة تنقل الصورة بواسطتها من الملاعب إلى بيوت الناس. وكأننا لا نعلم أن التقاط هذه المباراة تمت سرقته بواسطة المستقبلات من الأقمار كما تتم سرقة جميع مواد هذه القناة.

الخميس ١٩٩٥/١٠/٦

أحسست اليوم بدهشة شديدة. وقد يبدو السبب غريباً جداً، فقد قرأت اليوم قصيدة أعجبتني، وصدمت من قدرتي لحد الآن على التأثر بالشعر. هل مازالت فيّ عروق تنبض وتحس وتتذوق؟؟ القصيدة نثرية ولـ (سامي مهدي). وهذان سببان آخران كان من المفروض أن يحولا دون قراءتي أصلاً للقصيدة. فلي تحفظاتي الشديدة على قصيدة النثر أولاً.. وموقفي متشدد من الشعراء والكتّاب الرسميين كسامي مهدي. ولكن المحذور وقع وقرأت القصيدة و.. أعجبتني. لقد أفلح هذا الشاعر «الرسمي» في التحرر للحظة من قيود الرقيب الموجود في ذهنه، والرقباء الموجودين في كل مكان، وتسللت قصيدته الحزينة لتستقر على صفحة من صفحات «آفاق عربية» المجلة الثقافية التي أصبحت هزيلة للغاية، لولا ما يتسلل إليها أحياناً من مواضيع دسمة

تفلت من غباء الرقباء، «وتلك قضية أخرى».

السبت ١٤/١٠/١٩٩٥

كلام كثير كثير عن الحرية. والديمقراطية. وحقنا الانتخابي. والشرعية الدستورية. و. و. و. ورافق الكلام أغان وأناشيد وأهازيج ولافتات تملأ الشوارع وسرادق منصوبة في كلٍّ مكان. نعم نعم نعم. هذه النعم التي ألصقت «قسراً» على واجهات الدور والمحال. غداً سيحل يوم الاستفتاء العظيم. وسينتخب الشعب «بالإجماع» رئيسه الفذ ليتولى السلطة لسبع سنوات. «بعد ستة عشر عاماً من وصوله للحكم» وسيوجه الشعب بهذا الانتخاب صاروخاً موجهاً إلى رؤوس «الأعداء». ووسط هذه الزفة اختفى السؤال الذي كان مطروحاً بشدة في الشارع ما الذي سيحدث لمن يكتب (لا) وما الذي سيحدث لمن يمتنع عن المشاركة في الاستفتاء. هل سيتم فعلاً رفع بصمات جميع المشاركين في الاستفتاء. أو على الأقل من لا يستطيع إشارته في خانة «نعم» اختفت كل هذه التساؤلات بعد السيل الإعلامي الهائل الذي انصب علينا في كل مكان فظهر السؤال العراقي التقليدي الذي يطرحه كل إنسان على نفسه «هل سأستطيع أن أفعل شيئاً بمفردي. هل تجدي كلمة لا التي ربما جرّت عليّ الويل «وحدي» دون أن أستطيع تغيير نتيجة معدة سلفاً». فاليوم هو ليلة عرس الاستفتاء وغداً يوم الاستفتاء وبعد غد ستنطلق المسيرات التي تعبر عن فرح للشعب بنجاح قائده الضرورة في الاستفتاء. إن المسيرات معدة منذ أيام، وكلنا نعرف ذلك، وإن بيان فوز المرشح الوحيد ونسبة نجاحه العالية معدة سلفاً.

الساعة الآن هي الثانية عشرة مساءً تقريباً والتلفزيون ينقل انطباعات المواطنين في الشارع. كلهم يحصي الدقائق والثواني لينطلق إلى صناديق الاقتراع.. السعادة تغمر الجميع. انتهت كل المشاكل. امتلأت كل البطون.. جفت الدموع.. فغداً.. نعم غداً هو يوم الاستفتاء. الحمد لله أن الأجل امتد بي لأرى هذه الساعة....

الأحد ١٥/١٠/١٩٩٥

أنقذتنا القيادة الحكيمة اليوم وحالت دون وقوعنا في مأزق أخلاقي فقد حسمت موقفنا المتردد وأجابت عن أسئلتنا الحائرة حينما قام الموظفون المسؤولون عن الاستفتاء بملء القسيمة ووضعها في الصندوق نيابةً عن الجميع وفي معظم المراكز. هكذا جرت العملية بسلاسة وهدوء فبمجرد تأشير اسم الناخب تقوم الموظفة بوضع إشارة في خانة (النعم) ثم تطلب من الناخب وضعها في الصندوق. وهكذا هدأت ثورتنا الداخلية حينما لم يعد بإمكاننا الاختيار. ولا أدري أين ذهب العشرة آلاف مراقب وما هو رأيهم بهذه الانتخابات الـــ (تأريخية).

الساعة الآن هي الثانية عشرة والنصف ليلاً.. وقبل عشرين دقيقة ظهر الرفيق (عزت الدوري) وهو يبتسم ابتسامة عميقة ذات دلالات باطنية ثم تحدث حديثاً (شبه تاريخي) عن عداء العرب للديمقراطية والحرية ثم بدأ بإعلان النتائج التي وصلت إلى ١٠٠٪ في بعض المناطق.

الخميس ١٩/١٠/١٩٩٥

انتهى الاستفتاء وابتدأت الزفة ولم تنته. فاز السيد الرئيس بنسبة ٩٩,٩٦٪ وأكد السيد عزت إبراهيم أن الـ ٠,٠٤٪ هم عملاء مدفوع لهم الأجر، وهم أعداء الوطن والقائد وأن البيعة قد أخذت ولا بد للجميع أن يلتزم بها بغض النظر عن مصداقيتها، فالبيعة عقد صحيح ملزم حتى لو أخذت بحد السيف «هذا ما قاله هو» وفي مساء يوم الاثنين ظهر الرئيس القائد شخصياً ليؤدي اليمين الدستورية وحينما وضع يمينه على المصحف وبدأ بترديد القسم الرئاسي. للحظة.. للحظة واحدة تمنيت من أعماقي أن يبرّ السيد الرئيس بقسمه وأن يعمل لمصلحة البلد والأمة كما كان يقول. شعرت برغبة هائلة تدفعني للتفاؤل ولكنني لا أستطيع أن أدعي أنني تفاءلت. ولا أحسست بالفرح. فأنا أعرف قسوة الفرح حينما يخون. ولم تدم هذه الأوهام إلا بضع ثوان. فسرعان ما أعلن الرئيس أنه قد قدم إلى هذه القاعة ببدلته القديمة وربطة عنق بالية «لأن البلد في حالة حصار» وأنه قد ترك الانتخابات تسير بكل تلقائية دونما تدخل من الدولة. ولا من شركة إعلان استأجرها. لتلمع صورته أمام الناس. وقال ما شاء من أكاذيب واستمر يكذب ويكذب ولم أستطع سماع الخطاب حتى نهايته فقد شعرت بالاشمئزاز والغثيان. فقد برهن السيد الرئيس للمرة الألف عن تطابق مفاهيمه مع مفاهيم «دون كورليوني» فالسياسة هي أن تعرف متى تضغط على الزناد. أما الاقتصاد فهو مقامرة لا أكثر ولا أقل. وأن كل ما يحدث على السطح هو رغوة وعمليات شكلية لا تدخل في صلب الحياة السياسية الحقيقية «الزناد والمقامرة». ورغم أن الخطاب «التاريخي» قد عرض خمس مرات فإنني لم أستمع إليه

كاملاً لحد الآن. ولا أجد سبباً لذلك. السوق يتأرجح صعوداً أو نزولاً. الذهب والدولار يصعدان ويهبطان. فالبعض يؤكد أن الميزان التجاري سيتغير نحو الأحسن قريباً وأن الحصار يوشك ان ينتهي «وهذا نص كلام الرئيس» والآخرون يؤكدون ضمان استمرار الحصار سبع سنوات «هي المدة الرئاسية».

الاثنين ١٩٩٥/١٢/١١

الجو رائع جداً في الخارج. السماء زرقاء صافية والنجوم تتلألأ ببريق ساحر. وكل هذا ينذر بكارثة. فالأمطار لم تسقط لحد الآن هذا العام. والفلاحون مترددون في زراعة أراضيهم. أما من بذر أرضه فهو لا يدري بالضبط أين سينتهي به المطاف. فرغم أننا في بلاد ما بين النهرين، ورغم أننا نملك كمية هائلة من المياه العذبة، فإن الزراعة عندنا مازالت تعتمد في الغالب على المطر. ومازالت مشاريع الري «الطموحة» التي خطط لها منذ العهد الملكي قيد الدراسة وإعداد الميزانيات. «فالبلد يمر بظروف طارئة كما نعلم» ولا وقت للزراعة ولا للصناعة ولا للتجارة.

الصمت يخيم على الشارع. الدينار محافظ على سعره أمام الدولار منذ أكثر من شهر، لكن سعر الطحين قد تضاعف ولا أحد يدري لماذا.

الأمراض تنتشر بصورة مفزعة. منعت بعض الخضراوات من السوق. ولم تتخذ إجراءات جدية لمكافحة الأوبئة.

السيد الرئيس سيكون سعيداً بالمجاعة والأوبئة فهي ستثبت عدوانية الدول التي تفرض الحصار على الشعب. والدول التي

تحاصرنا سعيدة بانتشار المجاعة والأوبئة أيضاً لأنها «بتقديرها» قد تدفع الشعب للثورة ضد الطاغية. والأوبئة والجراثيم سعيدة بدورها لأنها قد وجدت بيئة خصبة يصعب عليها الحصول على نظير لها في نهاية القرن العشرين. وفي كل الأحوال سنمرض، ونجوع، ونموت ببطء. مازال العراق مصمماً على رفضه للمشروع الفرنسي الذي يسمح بتصدير جزئي للنفط. وهناك أزمة جديدة حول أجزاء صواريخ حاول العراق استيرادها «كما يزعمون». الحال يسير من سيّئ إلى أسوأ. ولم تُجْدِ شيئاً صلاة الاستسقاء التي صلاها الرفاق في الأرض التي سينشأ علَيها «جامع صدام الكبير» ولم تبلل مياه المطر صلعة «عزت إبراهيم» ولا لحية «عبد الغفار العباسي»، والغريب أن الأمطار قد سقطت بغزارة غير مألوفة في السعودية والكويت بعد هذه الصلاة مباشرةً.

أين سينتهي بنا المطاف؟!

الأحد ١٩٩٦/٨/٢٨

أنتهز فرصة وجود الكهرباء لأكتب. ورغم أنني قد اعتدت القراءة لساعات على ضوء الشموع إلا إنني لم أتعود على الكتابة في ظروف انقطاع التيار الكهربائي التي قد تستمر أكثر من ١٢ ساعة تقريباً يومياً.

انتهى الأسبوع الأول من رمضان. ورمضان هذه السنة يختلف عن كل الشهور، فالأمور في فوضى عارمة. والأخبار تسير بسرعة تقطع الأنفاس. فقبل أسبوع أرسل (طارق عزيز) مندوباً عراقياً للأمين العام برسالة كان مضمونها أن العراق مستعد لمناقشة القرار

الدولي رقم «كذا» وتلاحقت الأحداث بسرعة شديدة مما أدى إلى انهيار الأسعار في السوق وانخفض سعر الدولار من (٢٩٠٠) دينار إلى حوالي الألف دينار خلال ثلاثة أيام. وانخفضت أسعار المواد الغذائية بشكل هائل وساد الشارع هرج ومرج ولغط كبير ما بين شامت بخسارة الأغنياء وما بين مترحم على خيرات (أيام الحصار). ووسط هذه المعمعة أذاعت الـ «B. B. C» خبراً مفاده احتمال إصابة الرئيس العراقي بسرطان الدم والغدد اللمفاوية. عندها ساد الشارع فرح حقيقي وشعر الناس من أعماقهم بالامتنان للعلماء والأطباء الذين عجزوا حتى الآن عن اكتشاف علاج لهذا المرض. الأسعار تهوي ولكن الطريف أن أحداً منّا لا يملك نقوداً. فالجيوب فارغة تماماً. فقبل أيام كان من يحصل على بضعة آلاف من الدنانير يهرع فوراً إلى السوق ليشتري بها سلعة ما قبل أن ترتفع الأسعار. وكان التجار يسارعون فوراً إلى تغيير العملة بالدولار كي يحافظوا على القوة الشرائية لعملتهم وفجأةً حدث الانهيار.

الأربعاء ١٩٩٦/١/٣١

«إن صحتي على أحسن ما يرام وأنا كما يقول الأطباء «سالم مسلح» ولولا أننا في فصل الشتاء لعبرنا دجلة سباحة ذهاباً وإياباً كما نفعل أحياناً» بهذه العبارات ردّ السيد الرئيس على مزاعم «الحاقدين» في حديث بثه التلفزيون على لسان أحد المذيعين، وأكد القائد على سلامته ومتانته وصلاحيته للعمل لستين عاماً مقبلاً. و(قل موتوا بغيضكم أيها العراقيون) فأنا لن أموت حتى أدفن آخركم. ولماذا أموت لا يوجد لديّ مبرر واحد لذلك. فأنا القوي

أنا القدير. لم يصدق أحد تماماً خبر إصابة الرئيس بالسرطان. ولم نستطع تصديق تكذيب صدام له. فنحن نعيش وسط إعصار هائل من الأكاذيب المدويّة. السوق تتجه بقوة نحو الانخفاض. أصبح سعر الدولار حوالي (٥٠٠) دينار وأسعار السلع تنخفض بشكل هستيري وجيوبنا خاوية على عروشها. وأنا مدين بربع مليون دينار كانت قبل شهر واحد مبلغاً بسيطاً، ولكنها أصبحت الآن ثروة ولا أدري كيف سأتمكن من سداد هذا الدين. مشكلتي تبدو تافهة أمام مئات الأشخاص المدينين بعشرات الملايين. آلاف المشاكل تظهر يومياً ويصعب حلها والمضحك أن أحداً لم يتساءل كيف أصبحت موافقتنا على القرار «كذا» انتصاراً بعد أن كان رفضنا له موقفاً بطولياً. فقد سبق أن رفض هذا القرار قبل سنة بالإجماع من قبل المجلس الوطني. وسارت تظاهرات البعثيين «والمسيرين معهم» وقام السادة الوزراء تلفزيونياً بشرح مفصل لمساوئ هذا القرار المهين. وبين عشية وضحاها طبّل الجميع وزمر للموافقة الفجائية الغامضة التي قدمها العراق على قرار «النفط مقابل الغذاء».

لقد اتخذت قراراً أرجو ألاّ أتمكن من تنفيذه. لقد قررت ترك البلد إذا ما استمر صدام بحكمة بعد فتح الحصار. لن أبقى تحت قيادة هذا «الفارس التاريخي المنتصر» وبطل الديمقراطية والسلام. سأترك البلد وأرحل. أتمنى ألاّ يحدث هذا، وأن أبقى على أرضي، وأن أدفن حيث ولدت. ولكني لن أحتمل البقاء مع هذا التمساح العجوز بعد الآن. ويطفو السؤال الكبير أين سيذهب كل عراقي بعد كل ما حدث. لم يعد لعراقي كرامة داخل بلده فضلاً عن خارجها. هل سأدور خارج بلدي بحثاً عن عمل أرصفة غريبة ووسط أناس آخرين. أية مهانة أورثها لنا؟ وما الذي يخبئه لنا الغد؟

السبت ١٩٩٦/٢/٢٤

١ – الساعة الآن الثانية عشرة ليلاً وتلفزيون جمهورية العراق يعرض فيلم (الطريق إلى مستشفى المجانين).

1. استيقظت صباح اليوم لأجد نفسي قد نمت أمام الدفتر المفتوح والقلم قرب يدي ولم أكن قد سطرت حرفاً واحداً رغم أنني قد بقيت فترة طويلة أحدق بذهول في بياض الورقة حتى سقطت في بركة النعاس.

2. أشعر بحزن عميق. من الغريب جداً أن أشعر بهذا الحزن الآن كنت أظنني سأشعر بأي إحساس آخر. هل أحزن لمصرع حسين كامل؟ الدعيّ المتشدق والتافه الجعجاع الذي ساهم بشكل كبير في إحداث كل هذا الخراب. لن أتكلم عن يديه الملطختين بدمائنا فكل جسده، بل وكل أجسادهم قد تلطخت بدمائنا وبدماء الآخرين. لقد عاد حسين كامل بكل غباء إلى العراق قبل أيام. ووسط حيرتنا وذهولنا وتحليلاتنا المتضاربة فوجئنا بنبأ طلب «كريمتي» الرئيس للطلاق من زوجيهما وقبل أن نستوعب الصدمة. وبعد إذاعة هذا الخبر ببضع ساعات فقط فوجئنا بقتل حسين كامل ووالده وأخويه في «صولة جهادية» قام بها أبناء عمه لتطهير البلد من دنس الخائن. هل كان هروب حسين كامل وعودته مجرد تمثيلية انتهت نهاية ميلو درامية على طريقة الأفلام الهندية وخرج فيها (المخرج هذه المرة) عن النص فغيّر قليلاً في النهاية ولم يجعلها نهاية سعيدة. أم أن حسين كامل قد هرب فعلاً وتوهم للحظة أنه قادر على قيادة المعارضة وإحداث تغيير جذري في نظام الحكم وأن يتوج هو هذه المرة على عرش العراق. هل نسي المرحوم أن كل مؤهلاته أنه كان زوج ابنة الرئيس ومنفذ

أوامره. وأن هالة حسين كامل كانت تستمد نورها من ضياء الرئيس الشمس وأنه بدون الشمس فإن هالته ستختفي ولا يحل حوله إلا الظلام؟ ظلام المنفى في الخارج أو ظلام القبر في الداخل. لا يوجد ندّ لـ (فرانسيس كوبولا) في العراق. لهذا فلن تشاهد على الشاشة فيلماً كالعراب رغم أن قصة ما حدث أقسى وأمرّ من قصة هذا الفيلم بكثير. أحس بأن نهاية صدام قد اقتربت جداً. ولكنني لا أجرؤ على البوح بهذا الأمر لأحد من أصدقائي لأنهم سيسخرون مني بالتأكيد فأنا منذ خمسة أعوام أتوقع حدوث هذه النهاية التي لا أعلم إن كان العمر سيمتد بي لأراها أم لا. في مثل هذا اليوم وقبل خمسة أعوام تماماً كنت أتحدث لمراسل حربي وأنا موثق اليدين عن الخيار الوحيد الباقي أمام صدام وهو الانتحار. يومها كان الجيش العراقي يتعرض لأقسى ما يمكن أن يتعرض له جيش في العالم وكان العراق كله مفتوحاً أمام قوى التحالف وكان هذا مشهداً مناقضاً تماماً للصورة التي رسمها صدام قبل أربعين يوماً عن الحرب. وكان ماء وجهه قد أريق تماماً «إن كان لوجهه ماء» ولكنه أثبت غبائي الشديد حينما ارتدى بعد أسابيع وسام انتصاره في «أم المعارك».

أشعر بالحيرة. فأنا ومنذ زمن بعيد أسير في طريق شاق طويل، ولكنني أجهل إن كنت قد شارفت على نهايته أو كنت في وسطه أم أنني ما زلت أتعثر في بداياته الشائكة. يراودني خوف المسير في دائرة. دائرة كبيرة جداً كما كان يحدث لي في صحراء الكويت أو وسط الهور. أحس بأن طبخة هائلة تحضّر في مكان ما حولنا. وأن العراق سيكون جزءاً من هذه الطبخة. موقف الدول الغربية من إيران والأحداث في البحرين وفي قطر. واتفاقية السلام التي ستوقع

بين «إسرائيل» وسوريا. وأخيراً الملك حسين الذي يبشر بثقة بقرب وضرورة إزالة النظام العراقي. إن شيئاً ما سيحدث لا أدري ما هو. وأرجو بل أتمنى من أعماقي أن يكون أفضل مما أتوقع. سأكمل الآن مشاهدة (الطريق إلى مستشفى المجانين) فيلم السهرة لهذه الليلة.

الجمعة ١٩٩٦/٥/٢٢

الكثير يحدث. ولا شيء يحدث.

الدوامة تدور بسرعة هائلة. كل شيء يتغير ويتحرك. ولكن ليس إلى الأمام. وافق العراق قبل بضعة أيام على مشروع النفط مقابل الغذاء. ومن الواضح أن الرئيس قد وافق مرغماً على هذا المشروع. ورغم أن الرئيس ظهر يومها على الشاشة وهو يهز كتفيه من شدة استغراقه في الضحك إلا أن «الرفاق» منعوا الناس من إطلاق الرصاص في الهواء تعبيراً عن الفرح. وعلى عكس ما هو متوقع فقد أعقب توقيع الاتفاق انخفاض في سعر الدينار العراقي مقابل الدولار. يبدو أن الدولة ستغير العملة. انتشرت هذه الإشاعة بشدة سيما بعد تصريح صدر في أجهزة الإعلام يؤكد عدم تغيير العملة. لأن الناس يفترضون دائماً «وهم محقون في ذلك» أن الدولة تستخدم كل إمكانياتها للنيل منهم. ولعل موقف وتصريحات وزير التجارة الذي ظهر أمس على شاشة التلفزيون أكبر دليل على ذلك. ففي الوقت الذي سعد فيه الناس. كل الناس في العراق لتوفر المواد الغذائية تكلم السيد الوزير بضيق وقرف عن الاتفاق وصرح سيادته بأن مبلغ ٢٢٥ مليون دولار شهرياً لا تعني الكثير بالنسبة للعراقيين. وأن الدولة «قبل الحصار» كانت تصرف مبالغ أكبر من هذا الرقم بكثير من أجل «إسعاد» الشعب وسد

حاجياته الأساسية. وأن شيئاً لن يتغير سوى أن المواطنين سيكتفون في مجال الأكل والدواء وبعض الحاجات الأساسية.

ماذا سيحدث بعد ذلك. متى ستصل المواد التموينية. متى سيتدفق النفط في الأنابيب. هل أن العداء «الإيديولوجي» العراقي السوري سينتهي فعلاً كما يشاع. وماذا سيحدث للدينار العراقي. هل ستطلق عليه الدولة رصاصة الرحمة. ماذا عن الأردن وإيران وتركيا؟ وماذا عن الكويت والسعودية؟ وهل علاقة العراق بمصر ستتحسن؟ أسئلة كثيرة كثيرة تدور ولا جواب. وأجهزة الإعلام تبث الأغاني أو برقيات التأييد أو برامج مثل «قالوا في القائد» و»أيام مع القائد» و»قصائد في القائد». وتتركنا نوغل في حيرتنا. حيرتنا مع القائد.

الجمعة ١٦/٨/١٩٩٦

كيف يمكن أن يكون. التيار الكهربائي منقطعاً بمعدل قد يصل إلى ١٨ ساعة يومياً في دولة كانت تستعد لتصدير الكهرباء إلى دول الشرق الأوسط؟ والحنفيات جافة في بلاد ما بين النهرين؟ وهناك أيضاً أزمة صغيرة للوقود في الدولة التي تمتلك ثاني احتياطي استراتيجي مهم من نفط العالم؟ هذا لغز طريف وحلّه سهل. لكي تجمع هذه النقائض بمكان واحد عليك أن تسلم البلد إلى قيادة تاريخية.

السوق راكدة والأعمال بائرة ونحن ننزلق في بركة من الديون وأصبحت المشاكل هي القاعدة في جميع أنواع العمل. عاد سعر الدينار لينخفض أمام الدولار حتى وصل إلى ١٣٠٠ دينار للدولار الواحد ثم انخفض ليصل إلى ١٠٠٠ دينار للدولار قبل أيام وبعد أن وقع العراق مذكرة التفاهم ولا أدري أية مذكرة ولا أي تفاهم

ففي كل اسبوعين أو ثلاثة تقوم مفاوضات لا يعلن عنها العراق إلا القليل القليل ثم تتدخل أمريكا لعرقلة هذه المفاوضات. ثم تنتصر الإرادة العراقية ولا يحدث شيء إلا تقلبات مجنونة في سوق مجنونة. وبعد اسبوعين أو ثلاثة تحدث مفاوضات جديدة. وتحاول أمريكا (وبريطانيا أحياناً) عرقلتها وتقف فرنسا «بصلابة» مع العراق. وتنتصر إرادة الزعيم التاريخي ولا يحدث شيء أيضاً. منذ سبعة شهور ونحن ندور داخل هذه الدوامة. ولم يحصل الشعب على «معوناته الإنسانية الفورية – الخبز والدواء –» ولا صدّر العراق نفطه ولا ولا ولا.. لكن عزاء الشعب وسلواه الوحيدة هو أن الرئيس القائد قد أكمل بناء «قصر الشعب» وافتتحه بخطاب تاريخي وضح فيه مرامي الاستعمار القذر الذي أدخل نمط البناء الحديث ذا السقوف الواطئة إلى أرض العراق. وكيف استطاع هو ببصيرته النافذة أن يكتشف هذه المؤامرة الدنيئة وأن يتغلب على نتائجها الخطرة حينما أمر مهندسيه بجعل سقوف جميع قصوره عالية جداً جداً جداً. وليسقط الاستعمار وخططه الخائبة.

أحس بأن تغييراً كبيراً سيحدث قريباً. فالسيد الرئيس يتعرض كما يبدو لمحاولات اغتيال متكررة وبوتيرة متسارعة. والدولة لم يعد فيها أية جهة أو مؤسسة مدينة له بشيء.. حتى الانتهازيين والمنتفعين قد بدأوا يجاهرون بعدائه بعد أن لمسوا تفاهة وضعه وقرب نهايته. إن المشكلة الحقيقية التي تواجه العراق هي عدم وجود أي مؤسسة أو جهة أو شخص بإمكانه أن يكون قطباً يجمع حوله المعارضين بأية طريقة. وهذا هو الأسلوب الذي مكّن صدام وحزب البعث من الانفراد بالحكم كل هذه المدة. لكن شيئاً ما سيحدث قريباً.. لا أتوقع ذلك. بل أتمناه. أتمناه من أعماقي.

الثلاثاء ١٩٩٦/٩/٣

الخريف يطرق الأبواب وأوراق الأشجار بدأت تصفر، إنه الشهر المفضل لدى السيد الرئيس. ولهذا فهو دائماً يختاره ليبدأ فيه معاركه. فقد دخل الجيش العراقي يوم السبت الماضي إلى كردستان العراق ليحررها بعد أن طلب «السيد» مسعود البرزاني ذلك منه تحريرياً. ودخلت المدرعات إلى أربيل. وصالت وجالت وسط دهشتنا الشديدة واجتمع القائد المنصور بالله بقيادته الحكيمة عدة مرات وبدا أن شيئاً ما لن يحدث.. ومضت أيام ثلاثة وفاجأتنا صافرات الإنذار صباح هذا اليوم بصوتها المزعج «المألوف جداً جداً لدينا» صافرات متقطعة تعلن عن بدء غارة جوية. أو صاروخية. وأعلن الراديو بعد قليل أن بغداد قد تعرضت لقصف صاروخي كثيف وأن السيد الرئيس سيلقي (للأمة) خطاباً تاريخياً.

شعرت بألم في أمعائي... ألم يشبه ذلك الذي كنت أحسّ به حينما أنتظر تكليفي بواجب عسكري ما. ألم تعودت أن يصاحب قلقي. هل خُدع الرئيس ثانيةً. هل اتفق مع أمريكا على دخول كردستان ثم خذلته وقامت بضرب بغداد كما حدث حين دخوله للكويت. أم أنه قد اتفق مسبقاً على أن يدخل مقابل ضربة «رمزية» توجه له دفعاً للشبهات وذرّاً للرماد في العيون. احتمالان لا ثالث لهما عند جميع العراقيين. فالكل واثق بأن الرئيس العراقي موظف أو ممثل للمصالح غير العراقية داخل العراق، وأنه يسعى جاهداً لخدمة نفسه ولخدمة الآخرين على حسابنا وأنه لا يمكن أن يكون قد فكر لثانية واحدة في مصلحة هذا البلد المسكين الذي يمسك بخناقه. الرئيس العراقي الآن في أسعد حالاته. فجميع الإذاعات قد تكلمت عنه هذا

اليوم. وجميع أحزاب المعارضة في دول العالم ستؤيده وستشجب موقف أمريكا لتدخلها في شؤون العراق. وهو سعيد جداً لتأجيل مشروع النفط مقابل الدواء والغذاء. وسعيد أكثر وأكثر لأن شبكة CNN قد قامت بترجمة خطابه وبثه في أمريكا، وسعيد لأن فرنسا وروسيا قد شجبت موقف أمريكا. إنه سعيد سعيد سعيد. لأنه لم يفكر ولن يفكر لحظة واحدة بآلاف العوائل الكردية التي تشردت فور وصول الجيش إلى المدن (فمازالت ذكريات حلبچة وأم المعارك عالقة في أذهان الأكراد) ولم يفكر بمن مات من أفراد جيشنا أثناء هذه العملية. ولا بمن مات أثناء القصف الصاروخي. فهو أكبر من كل هذه التفاهات لأنه قائد تاريخي يقود وطناً تاريخياً في منعطف تاريخي حاد. ومملوء بالمطبات. ويبدو أنه قد تعوّد على القيادة بسرعة شديدة، ولكني متأكد أنه قد قاد كل هذه المسافة وبكل هذه السرعة ووسط هذه المنعطفات دون أن يحمل رخصة قيادة صادرة من أية جهة لأنه يعرف تماماً أنه لا يوجد شرطي مرور يستطيع أن يحاسبه على ذلك.

ارتفع سعر الدولار ليعادل (٢٠٢٥) ديناراً أي تضاعف تقريباً خلال أقل من ٢٤ ساعة لا أحد يعرف ماذا سيحدث غداً أو بعد ساعات. هل ستواصل أمريكا «عدوانها الغاشم» علينا أم أنها قد اكتفت بضربة تأديبية اعتاد العراق على تلقيها والانتصار عليها.

طارق عزيز كعادته يسخر من موقف أمريكا ورؤسائها «الهواة» فهو يعد نفسه وطاقم الحكم في العراق سياسيين محترفين فهو في الخدمة منذ تسعة وعشرين عاماً ورغم كل هذه الأعوام فإن العراقيين لم يسجلوا لطارق عزيز حسنة واحدة. فقد تعوّد هذا الوزير المحنك على إطفاء أية بارقة أمل أو إفشال أية حركة فيها منفعة ولو جزئية

للعراق. ثم يعقد بعد ذلك مؤتمراً صحفياً ضخماً فخماً وينفث كلماته مع دخان السيكار ويسخر من حكام العالم الهواة.

الانتخابات الأمريكية على الأبواب مرة ثانية. هذه خامس فترة رئاسية أمريكية وصدام مازال متربعاً على كرسيه بكل وقاحة. وقد حاول «بذكائه الشديد» استغلال فترة الحملات الانتخابية وانشغال الحكام الأمريكان بها لينفذ إلى الشمال، ولكنه أخطأ في حساباته كما تعود أن يفعل دائماً. ولكنه قد تلقى الضربة وهدد بالثبور وعظائم الأمور. وقرر إلغاء مناطق الحضر الجوي على الطيران العراقي.

والبقية تأتي..

الاثنين ١٩٩٦/٩/٩

أحسّ باضطراب كبير. وخوف أكبر. الأمور تتغير بسرعة هائلة. تحالف مسعود البرزاني مع السيد الرئيس. واستطاع بعد أيام أن يحقق ما عجز عن تحقيقه في ست سنوات وأحكم قبضته على الشمال بعد أن سقطت السليمانية «معقل الطالباني» هذا اليوم بيد مسعود البرزاني. وكلينتون يعلن أن أمريكا بجلالة قدرها عاجزة عن التدخل لتغيير الوضع في شمالي العراق. ودول العالم بدأت تعلن تباعاً عن عدم تأييدها للضربة الأمريكية الموجهة للعراق ودول الاتحاد الأوربي تطالب بتطبيق قرار ٩٨٦ «النفط مقابل الغذاء» العراق يتصدر تماماً نشرات الأخبار. منذ أكثر من أسبوع دخول الجيش إلى الشمال ثم الضربة ثم إعلان التحدي العراقي ثم إعلان تركيا عن رغبتها لإقامة منطقة آمنة داخل حدود العراق، وأخيراً استيلاء البرزانيين على كامل الإقليم الشمالي. كيف تم الأمر بهذه السرعة. الجواب بسيط جداً

فالفيلم يبدو قد أوشك على نهايته ونحن في الدقائق الأخيرة الثمينة منه وينبغي أن تحل كل العقد والمشاكل قبل النهاية. الأحداث تتسارع بشكل غريب أعتقد. لا بل أنا متأكد أن الحصار سيفتح قريباً. وربما قريباً جداً. وهذا الأمر قد يريحني إلى حد ما. ولكن لن يسعدني أبداً. فلن يسعدني شيء على هذه الأرض وصدّام يحكمنا. الأنكى من كل شيء ما نسمعه من العراقيين العائدين من الدول العربية عن المواطنين العرب المعجبين بشخص الرئيس والذين يرفضون تصديق أي كلام سلبي عنه. أتمنى أن يعيش هؤلاء الوطنيون المتحمسون أسبوعاً واحداً في العراق.

هل سيبقى صدام جالساً على كرسيه؟ نعم بالتأكيد. حتى تقرر أمريكا عكس ذلك. فالكل يعرف أنه لولا تدخل المخابرات المركزية لسقط صدام خلال فترة قصيرة جداً. والكل يعرف أن المخابرات المركزية قد تكلفت مرات ومرات بإبلاغه عن الثورات والانقلابات التي تعدّ ضده. أو محاولات اغتياله التي لها أول وليس لها آخر. ماذا سيحدث غداً. أتمنى ألا يحدث إلا الخير. أتمنى.

السبت ١٤/٩/١٩٩٦

حركة بارعة من الرئيس المنصور بالله أفسدت خطط الاستعمار. أعلن صدام بكل بساطة عن امتناعه عن ضرب الطائرات التي تحلّق في سماء العراق بعد أن تحركت حاملات الطائرات الأمريكية باتجاه الخليج، وبعد أن وصلت مجموعة من القاصفات إلى مطارات الكويت. هل اكتشف العالم الآن وتأكد أن الرئيس العراقي لا مصداقية له. وأن خطاباته القومية التأريخية هي مجرد «كلام عيال» لا

أكثر ولا أقل وأن استراتيجيته العليا قابلة للتبذل خلال ٢٤ ساعة. هل الأمر بهذه البساطة أم أن صدام قد أعطى ذريعة للقوات الأمريكية للتحشد في المنطقة بشكل كبير «لضرب إيران كما يعتقد الكثيرون ومنهم أنا».

وقد برر الساسة العراقيون المحنكون هذه الخطوة بأنها استجابة لوساطات الدول الصديقة روسيا، وفرنسا التي مازالت طائراتها تحلّق فوق العراق دون أن يذكر أحد ذلك على الإطلاق. متى ستنتهي هذه المهزلة؟؟

الثلاثاء ١٨/١١/١٩٩٦

خطاب تاريخي حقاً ذلك الخطاب الذي ألقاه القائد الشمس أمس بمناسبة تقليد سيادته لعدد من المقاتلين أنواط الشجاعة. وقد حرمني انقطاع التيار الكهربائي متعة مشاهدة هذا الخطاب. ولكن نتائجه الفورية ظهرت اليوم إذ ارتفع سعر الدولار أمام الدينار العراقي مما جعلنا جميعاً نتنفس الصعداء.

فقبل يومين أو ثلاثة حدث هبوط مفاجئ في سعر الدولار ليصل إلى (١٤٠٠) دينار بعد أن كان يتجاوز الـ «١٧٥٠» ديناراً مما أدى إلى وقوف جميع الأعمال التجارية وغيرها تماماً ولما كان معظم الناس يحصلون على قوتهم اليومي يوماً بيوم فقد أثر هذا الوقوف تأثيراً سلبياً وفورياً في الجميع. وقد أعيد بث الخطاب اليوم وأتيح لي شرف سماعه والاستمتاع به. الرئيس العراقي يتحدث كعادته عن تاريخ الحضارة وعن الدور التاريخي للعراقيين وعن حصار الكفار للرسول في «شعب مكة» كما قال. أهم ما في الموضوع أن الرئيس كان يتكلم

على سجيته تماماً وكان التعب واضحاً عليه. وكان يطرح سؤالاً تاريخياً وحيداً. لماذا كل هذا الحقد والقسوة ضد العراق؟ سؤال سخيف من رجل يوحي وجهه بأنه موشك على الموت. أحس بذلك لا بل أنا واثق بأن صدام سيموت يوماً ما.. ولكن بفعل الشيخوخة.

الخميس ١٩٩٦/١٢/١٢

توشك سيكارتي على الانتهاء وأنا محتار في كيفية بداية هذه الورقة.. هل أبدأ بالقول بأن النفط العراقي تدفق أخيراً لتطبيق خطة النفط مقابل الغذاء بعد سنة كاملة مريرة من الانتظار. أم أبدأ بالحديث عن الارتفاع الكبير لسعر الدولار أمام الدينار بعد هذه الحادثة. أم أتحدث عن إشاعات حول إعدام بعض الصيارفة في أنحاء العراق. أم أتحدث عن إشاعات تنتشر في كل مكان عن إسقاط العملة أو تغييرها. أم أتحدث عن الهرج العظيم والذهول الهائل الذي أصاب الناس لكل هذه الاسباب ولغيرها.

كنّا خمسة نجلس هذا اليوم لنناقش ونتوقع ما سيحدث للاقتصاد العراقي. وليس هذا ترفاً أو استعراضاً للمعلومات. فجميع العراقيين رجالاً ونساءً ومن كل الشرائح لا همَّ لهم إلا معرفة ما سيحدث لهذا البلد المفجوع الذي أصبح سفينة محملة بالأثقال وممتلئة بالثقوب وبدفة مكسورة وقلوع ممزقة وربان مجنون. لا أحد يعرف ماذا سيحدث غداً، لا بل ما سيحدث بعد ساعة واحدة. تراوح سعر الدولار من ألف دينار عراقي إلى ألف وستمئة دينار خلال عشر ساعات صعوداً وهبوطاً ولا أحد يعرف لماذا. لقد كان من المألوف سابقاً أن يرتفع سعر صرف الدولار عند إذاعة خبر سيّئ «بالنسبة

لنا») من أية إذاعة موثوقة أما ما حدث هذه المرة فقد شذّ تماماً عن كل توقع، إذ ما إن أعلن نبأ تدفق النفط في الأنابيب حتى علت «كالعادة» أصوات إطلاق الرصاص في كل مكان ومع ارتفاع دويّ الرصاص ارتفع «على غير العادة» سعر الدولار أمام الدينار واستمر الارتفاع الدراماتيكي ليصل ذروته اليوم دون سبب منطقي ثم هوى ليعود ثانيةً إلى الارتفاع ثم النكوص. كالكرة التي تتقافز على الأرض مسبباً الاضطراب الكبير في السوق.. فقد خسر عدد كبير من الناس أموالهم وكسب آخرون هذه الأموال دون أي سبب. والكل قلق، حزين، والصفقة الرابحة التي أدرتها في الساعة العاشرة والنصف صباحاً تبين لي أنها خاسرة جداً في الساعة الحادية عشرة «صباحاً أيضاً». ومن يملك القليل يخسره بسرعة شديدة. ومن يملك القليل لا يستطيع التوقف عن العمل مهما صاحب ذلك من مخاطرة. فلا بد للفم أن يأكل. والنتيجة خسارة مضمونة لكل من يعمل في أي قطاع مهني أو تجاري أو صناعي. كيف سأكمل هذه الرحلة. هل سأستطيع الاستمرار في تحمل أعبائي المادية التي تكبر يوماً بعد يوم وسط هذه العاصفة من الجنون. إلى أين تتجه بنا السفينة. لا أجد لديّ قدرة على الكتابة. أحس بكلماتي تافهة عاجزة عن وصف هول ما يجري. إذا كنت أنا الإنسان البسيط عاجز عن النوم في هذه الأيام. هل يستطيع صدام أن ينام. وكيف يستطيع أن يحكم إذا ما عجز عن النوم. ولكن لِمَ لا ينام. إنه ينام وينام. فكل ما يحدث هو ضرورة ترافق التحولات التاريخية الكبيرة ولا بد للشعب من أن يقدم بعض التضحيات. «ستة عشر عاماً من التضحيات» بل لا بد من مزيد من التضحيات حتى يتحقق «العبور الناجز» العبور إلى أين لا أحد يجرؤ على السؤال...

الجمعة ١٩٩٦/١٢/١٣

حينما كنت أكتب يومياتي مساء أمس دوّت إطلاقات نارية عديدة من اتجاهات مختلفة وبشكل مثير للانتباه. لم أستطع تعليل ذلك. لقد كان الوقت هو الحادية عشرة ليلاً تقريباً. وكانت الطاقة الكهربائية مقطوعة منذ عدة ساعات «كما هي الحال الآن» لم تطل حيرتي فقد التقى أحد الأصدقاء بأخي وأخبره أن التلفزيون قد أذاع نبأ تعرض عدي صدام حسين لمحاولة اغتيال وأنه قد أصيب بجروح طفيفة. شعرت بسعادة غامرة. يقول المسلمون عادةً «اللهم لا شماتة» ولكن الشعب العراقي قاطبة قال أمس واليوم «اللّهم شماتة» إذن فقد كان سبب إطلاق العيارات هو الفرح الذي أسكر البعض مما دفعهم لوسيلة التعبير اليتيمة عندنا وهي إطلاق الرصاص في الهواء وتملكني فرح غامر. ورجوت الله ألا يموت عدي وألا ينجو. تمنيت من أعماقي أن يصاب بعاهة جسيمة تمنعه من الحياة وتجعله مقيداً بلا أمل ينتظر الموت «اكتشفت اليوم أن هذه الأمنية هي أمنية الكل في كل مكان» ورغم بشاعة مشاعري إلا أنني لا أخجل من ذكرها. إن الألم الرهيب الطويل الذي سببه لنا صدام والقسوة الهائلة التي مارسها خلال ستة عشر عاماً من حكمه جعلت الجميع يتمنون له ميتة بطيئة بشعة. وعذاباً وإهانة توازي ما لاقاه عشرون مليون عراقي خلال هذه المدة الطويلة. وقد يقول أحدهم وما ذنب عدي المسكين؟؟. حقاً ما ذنب هذا الشاب البريء. إنه في الثانية والثلاثين من عمره «في سني تماماً» يحمل عشرات الشهادات في مختلف العلوم المدنية والعسكرية «كوالده تماماً» مدان بجريمة قتل حوكم عليها «علناً» وأدين. ومتهم بعشرات، بل مئات الجرائم التي ارتكبها «دفاعاً عن الوطن!!»

ابن القائد يهوى النمور ويصطحبها معه في جولاته في داخل بغداد. حاول أن يكون نجم العراق الشاب وحاول فرض ظله الثقيل على المجتمع. أنشأ إذاعة ومحطة تلفزيونية خاصة به محاولاً تقليد والده لكن أباه أحسّ بالمنافسة فحجّمه. تنسب إليه عشرات، بل مئات لا بل آلاف الحوادث التي يندى لها الجبين في جميع الأوساط وعلى كل المستويات. من سرقة السيارات إلى هتك الأعراض وتزوير العملة. يهوى الظهور بملابس غريبة في الأماكن العامة وهو شبح مخيف خيّم على الأوساط الرياضية حينما ترأس اللجنة الأولمبية ثم ما لبثت هذه اللجنة أن أصبحت دولة داخل الدولة فلا تتم معاملة ولا يتعين موظف مدنياً كان أم عسكرياً إلا بموافقة أو مراجعة هذه اللجنة. وهو متهم بالهجوم المسلح على عمه «وطبان» وزير الداخلية السابق. ومتهم بكونه السبب الرئيس في (مأساة – ملهاة) حسين كامل ابن عمه وزوج أخته. وهو إلى جانب كل هذا نقيب الصحفيين العراقيين ورئيس التجمع الثقافي ورئيس تحرير جريدة بابل ويكتب في كثير من الأحيان بتوقيع «أبو سرحان» وهو اسم محلي للذئب – كتابات فذة وتاريخية تثبت للجميع وبسرعة فائقة أنه مسرف في تعاطي عقارات الهلوسة. وأعتقد أنه حاصل على عدة شهادات دكتوراه وشهادة كلية القيادة وهو على ما أذكر قد أدخل تعديلاً استراتيجياً على العقيدة العسكرية للجيش العراقي. رغم أنه أصلاً خريج كلية الهندسة. وإذا لم تخنّي الذاكرة فإنه كان قد حصل على معدل ٩٩,٩٪ في امتحانات الثانوية العامة لعام ٨٢ «عام تخرجي» وكان الأول على جامعات القطر لعام ٨٦ بمعدل مشابه. مواهب ومواهب فذة تتدفق من كل مكان. لا يستطيع أي إنسان أن يرى

كل هذه المنجزات إلا أن يشعر بعظمة هذا الشاب الذي انحدر من صلب التاريخ. لذا فإن محاولة اغتياله هي محاولة لاغتيال استمرار تدفق التاريخ. واستمرار الشموخ العراقي الذي بدأه أبو التاريخ. لا أدري ماذا أقول. مشاعري مضطربة. الإذاعات الأجنبية لم تشف فضولي لمعرفة ما حدث. مازالت الأنباء متضاربة. أخشى أن تصدق الإذاعة العراقية وتكون الإصابة طفيفة. أخشى أن ينمو هذا المعتوه. وأتمنى أن تكون محاولة الاغتيال عملاً وطنياً لا ثأراً تكريتياً. لست واثقاً بعد إلا من شيء واحد أن مذبحة قد حدثت أمس واستمرت حتى اليوم وستستمر وسيذهب ضحيتها عشرات بل مئات الأبرياء ثأراً لهذه المحاولة التي ستثير في صدام شهوته المستعرة أصلاً للقتل.

السبت ١٩٩٦/١٢/٢١

يبدو أن الفرح قد خاننا ثانيةً. عدي يرفض أن يموت. فقد ظهر مرتين على شاشة التلفزيون لبضع دقائق وهو يتكلم بصعوبة. يبدو أنه مصاب إصابة خطرة، ولكنه لن يموت الآن على الأقل. إنه يرفض أن يموت لكي يزيد من غيظنا. وقد اتهم (سيادته) إيران بتدبير هذه المحاولة لاغتياله. وأعتقد أن لذلك سببين أولهما استبعاد الرأي العام في الداخل والخارج لإمكانية قيام عراقيين مدجنين بمحاولة كهذه. وثانيهما هو إظهار أهميته الشديدة التي تدفع الدول المجاورة للتخطيط لتصفيته. ولن أتكلم عن الأغاني التي أنشدت لسلامته. ولا لآلاف التهاني التي عرضها التلفزيون لسلامة «زين الشباب وشمعة صدام». ألطف ما في الموضوع هو عجز الدولة عن إلقاء القبض على الفاعلين. وقامت بدلاً من ذلك أمس بعرض شبكة جواسيس قد تم

إلقاء القبض عليها «بعد أن تابعتها أجهزة مخابراتنا بدقة أسطورية» ورغم أن الموضوع يبدو مدبراً مفبركاً وأن الشبكة قد حصلت على معلومات نقلتها السي آي أي في غاية الأهمية كأسماء آمري بعض الوحدات أو كيفية هيكلتها أو محال وجودها. وهي معلومات يكفي لكي تحصل عليها في العراق أن تسأل عنها أي سائق باص أو جندي لكي يستفيض في شرحها فلا أسرار في هذا البلد الآن.

الاثنين ١٩٩٦/١٢/٣٠

شعرت بحسد شديد يتآكلني وأنا أرى اليوم من شاشة التلفزيون القردة الموهوبة (نينا) التي استطاعت أن تكسب آلاف الدولارات ثمناً للوحاتها وهو مبلغ لم أستطع تحصيل عُشره منذ أربع سنوات. والأنكى من هذا موقف أخوتنا النقاد في النمسا، إذ أبدوا تفهماً وإعجاباً وتذوقاً للإبداع القردوي المدهش. وقد استثمر المشرفون على (تربية القرد) هذه الثروة الصغيرة في تحسين أحواله المعيشية. ولا أعتقد أن هؤلاء المشرفين قد قاموا بسرقة أو استغلال دخل القرد بوازع من ضمير. أو خشية من عقاب وبهذا تكون حقوق القردة (نينا) مصانة أكثر بكثير من حقوقي وحقوق الشعب العراقي. فمازالت الحصة التموينية «السوبر» التي ننتظر توزيعها منذ أكثر من عام أمراً بعيد المنال ويحاط بالغموض والمغالطات الإعلامية مما يولد المزيد من الاضطرابات في السوق المجنونة أصلاً.

ارتفعت أسعار بعض السلع بنسبة تزيد كثيراً على سعرها مقارنةً بالدولار، وانخفضت أخرى لأسباب مبهمة. منذ عشرة أيام وسعر الدولار يدور حول الألف وخمسين إلى الألف ومئة وخمسين ديناراً

ولم تحدث هزّات قوية ربما لانشغال «الكوادر المتقدمة في الدولة» بزفة زين الشباب التي بدأت ولم تنته لحد الآن. التلفزيون ينقل يومياً صور آلاف الأغنام المذبوحة في شوارع المنصور «أرغم أصحاب المحال على ذبحها» وبنقل برقيات التهاني التي يرسلها الجميع مرغمين متمنين لشبل القائد سرعة الشفاء. كأن صدام يحاول فرض شفاء ابنه على الله بوضعه أمام الأمر الواقع الذي يحاول خلقه في خلال الإعلام والضغط على الما حول. ورغم كل هذا فعدي مريض جداً. تقول الإشاعات إنه قد أصيب في ساقه اليسرى وبطنه وصدره. وقد ظهر اليوم على شاشة التلفزيون لبضع ثوانٍ بعينين غائرتين ووجه ممتقع رغم المكياج.

أحسّ بأن القائد الرمز يشعر برعب حقيقي هذه المرة «اللهم شماتة».

ملاحظة: قامت الدولة بفرض ضرائب جديدة متنوعة وتدل على خيال خصب وخبيث. وهذا يعني إما أن الدولة ستمتص التضخم ولن تلجأ إلى تغيير العملة. أو أنها ستحاول إيهامنا بأنها ستمتص التضخم ثم تفاجئنا بتغيير العملة. لا أحد يدري ماذا سيحدث بعد ساعة.

الجمعة ١٩٩٧/١/١٧

١ – هذه هي المرة الأولى التي أكتب فيها هذا العام. نسيت أن أكتب شيئاً ليلة رأس السنة ربما لأنني لم أتذكر أن ذلك اليوم كان نهاية عام وبداية عام جديد. وإذا كان العالم كله يحتفل بهذه المناسبة فالعراق والعراقيون غير معنيين بها إطلاقاً. فما قيمة سنة في عمر شعب

امتد تاريخه أربعة آلاف عام. بل ما قيمة سنتين أو ثلاثة أو عشرة. إن السنين والشهور بل والأيام تهم كثيراً من لا تاريخ له «كشعوب الغرب مثلاً» أما نحن فالزمن عندنا يدور حول محور دون أن يؤثر أو يتأثر. فالحصار يتآكل منذ ست سنوات. وكل سنة تمر وهو يتآكل ونحن نتآكل.. دورة، دورة، وعاماً عاماً دون أن يحدث ما يكسر رتابة هذا التآكل. وهكذا سنجد أنفسنا فجأة قد كسرنا طوق العدوان وانتصرنا على الأعداء.. كل الأعداء وربما يحدث هذا الانتصار بعد عقد من الزمان أو عقدين أو ربما قرن.. لا يهم.. فما قيمة القرون أمام شعب عريق عمره يمتد آلاف الأعوام وما قيمة جيل أو جيلين في حضارة امتدت مئات الأجيال.

٢ – قبل أسبوع أصدر السيد الرئيس عفواً عاماً عن كافة الجواسيس وعملاء المخابرات الأجنبية وجميع من سّرب معلومات تمّس أمن البلد وسيادته ووعدهم بإبقاء أموالهم التي اكتسبوها بالسحت الحرام «كما قال» في حال اتصالهم بأية جهة أمنية أو استخبارية داخل القطر وخارجه. وفاز باللذات الجسور. وهذا ما يحدث دائماً في العراق. لي جار قضى أكثر من عامين سجيناً لأنه ضبط متلبساً وهو يبيع (علكة أجنبية).. طبق عليه القانون بحذافيره وقضى مدة العقوبة وقبل أن يكملها خرج من السجن بمكرمة من السيد الرئيس. أما كان من الأسهل لهذا البقال المسكين أن يكون عميلاً للموساد حتى ينجو من العقاب. لقد عوّدنا صدام على هذه المفاجآت الظريفة فهو لا يعفو عن مذنب عادي أو مجرم بالصدفة، ولكنه يغفر للجلادين أو المنغمسين تماماً في الخيانة أو مدمني الإجرام. إنه يحترمهم من أعماقه لأنهم يذكرونه بشبابه المبكر. إن كل خارج

على القانون يحظى بإعجاب الرئيس واضع القانون وحاميه.

٣ - رفضت فرنسا اليوم أن تستقبل زين الشباب لتعالجه وهذا يعني احتمالين، أولهما أن إصابة عدي بليغة جداً والحمد لله. وثانيهما دول العالم بما فيها «الصديقة فرنسا» ترفض أن تتعامل رسمياً مع صدام. أي أن وجهه بقي محروقاً وأن الحصار لا يمكن أن يزول ونظامه باقٍ.

٤ - تمر اليوم الذكرى السنوية السادسة لبدء العدوان على العراق وبهذه المناسبة الأليمة أو السارة «لا أحد يدري بالضبط» ألقى السيد الرئيس خطاباً مهماً. ولكنه ليس خطاباً تاريخياً هذه المرة، لا بل ولا خطاب قومي، إنه خطاب كوني يستند إلى مقولة جديدة لا أدري متى تفتقت عنها موهبة القائد، فالخطاب يرتكز على المقولة الحديثة جداً والتي مفادها «أن الشياطين تسكن الخرائب وأن الملائكة تسكن السماوات حيث نور الله». وكان خطاب اليوم كله تنويعاً على هذه المقولة. لا أدري هل أن شطحات صوفية قد أصابت كاتب خطابات الرئيس. أم أن عزت إبراهيم قد قام بالاشتراك في وضعه «رغم أنه صرح مراراً أنه لا يحسن الكلام». وفي نهاية الخطاب صرخ الرئيس القائد (الله أكبر وليخسأ الخاسئون) عند هذه اللحظة أدركت أن السوق سيتحرك صعوداً وأن سعر الدولار سيرتفع. فكلما لفظ الرئيس هذه العبارة بادر التجار إلى رفع الأسعار. والأسعار هذه المرة كانت تتجه بهدوء نحو الأسفل فالكل يتوقع نزولاً ثالثاً أو انهياراً ثالثاً لسعر الدولار أمام الدينار، ولكن يبدو أن الانهيار سيتأخر أو ربما لن يحدث وهذا يعني استمرار الركود الهائل مع تضخم بسيط. المشكلة هي أننا في رمضان. وأنا ومعي معظم العراقيين لا نكاد نحصل على

ما يسد الرمق. كنت قبل هذه الفترة أكسب قوتي بالصدفة أما الآن فهذه الصدف قد تعذرت. فالناس نوعان إما مفلسون مثلي وهؤلاء لا يمكنهم أن يدخروا نقوداً لا يملكونها أو أثرياء وهؤلاء ينتظرون الهبوط ليحصلوا على السلع بعشر ثمنها «كما يأملون» وبالنتيجة توقفت حركة البيع والإنتاج تماماً إلا في مجال السلع الغذائية التي تتعرض للهزات بشكل أكبر بكثير من كل السلع. فيكفي خبر أو إشاعة صغيرة عن وصول(لوري تركي) محملة بالطحين أو السكر لتنخفض أسعار المواد الغذائية كلها وتصل إلى الحضيض وبعد أن يتبين الناس عدم صحة هذه الإشاعة يكون عدد كبير من التجار قد أفلسوا. لا أحد يدري ماذا يفعل كيف سأتمكن من تدبر أمر القوت في هذا الشهر الذي اعتدنا أن نأكل فيه أفخر المآكل وأن ننفق فيه أضعاف ما ننفقه في الشهور الاعتيادية. أشاع البعض أن الدولة ستصرف حصة تموينية إضافية هذا الشهر ويبدو أن الإشاعة كاذبة رغم أن مخازن الدولة مملوءة بالمواد الغذائية، ورغم أن النفط قد تدفق في الأنابيب بعد طول انتظار. الدولة تفرض تقييماً إعلامياً قوياً حول هذا الموضوع ربما لتمنع الشعب من التفاؤل والفرح في وقت يرقد فيه زين الشباب في المستشفى دون أن يعرف الجاني. ثلاثة أسابيع وينتهي رمضان. وتأتي بعده المأساة الكبرى «العيد».. كيف سنستقبل العيد دون ملابس أو أحذية جديدة للأطفال. دون ملابس لائقة لي ولزوجتي، دون كعك أو حلوى أو. أو. أو لا أدري لماذا تجيء الأعياد. وما فائدتها في بلد يحكمه دكتاتور.

السبت ١٩٩٧/٢/٨

١ – انتهى أمس شهر رمضان.. ولكننا اليوم لسنا في أول أيام العيد.. فليس ما يحدث حولي عيداً بأية حال. حتى الفرح الذي كنا نتكلف تمثيله في الأعياد السابقة لم تعد لدينا القدرة على اصطناعه.

٢ – لا نحس بالتيار الكهربائي فهو ينطفئ بمعدل ٥٠٪ فقط بمناسبة العيد السعيد.

٣ – من سيجيبني عن هذا السؤال الذي يؤرقني؟؟ كيف تجتمع السرعة الشديدة والبطء القاتل؟؟ كيف تتطاول الدقائق والساعات والليالي وترفض أن تنقضي في زمن تسير فيه السنون بسرعة هائلة؟؟ هل هذا اليوم الطويل الذي مرّ بي هو جزء من الأعوام الستة التي انقضت كلمح العين؟؟ مازلت أتكلم عن دخول الكويت وعن بداية الحصار وكأنما حدثت قبل أشهر ثلاثة أو أربعة. لم أعد أستطيع تقدير الوقت ولا الإحساس بسرعة مرور الزمن إلا من خلال اصطدامي بحقيقة أن ابنتي التي ولدت بعد انتهاء خدمتي العسكرية قد أصبحت في الرابعة من عمرها مثلاً.. مما يحيلني إلى حسابات أخرى منها أنني قد أصبحت في الثالثة والثلاثين ولست في الخامسة والعشرين. وأن الرواية التي قررت إكمالها خلال أشهر لم تكتمل في ست سنوات. وأن نشرها – إن نشرت – لن يتم إلا بعد عدد آخر من السنين.. خمسة أو سبعة أو ثلاثين لا أحد يدري بالضبط. ما كنت أريد إنجازه قبل سنين لم أعد أذكره الآن. ما كنت أخطط لتنفيذه نسيته جملة وتفصيلاً. لم تتبخر أحلامي فحسب لقد تسامتْ.

٤ – مرت اليوم ذكرى ثورة ٨ شباط. لم أعد أذكر أسباب تلك الثورة ولا من قتل من ولا ما حدث بعدها. ولكنني سأبقى مديناً

دائماً لهذا الحدث التاريخي لأنه يذكرني بيوم ميلاد زوجتي. شكراً لأعزائي الثوار.

السبت ١٩٩٧/٣/٢٢

النفط يتدفق منذ شهور ولم نتسلّم المعونات الإنسانية «الفورية» لحد الآن. التلفزيون يبشر المواطنين بدخول شحنة من الزيت والفاصوليا والحمص إلى البلد. ووصول باخرة محملة بالحنطة وبقرب وصول كذا وكذا ولكن أحداً لا يصدق ذلك. أو على الأدق لم يعد يأبه كثيراً لهذه المسألة التي استمرت أكثر من عام كامل بين مد وجزر. فرح وحزن أوقعت الناس فيه في كرب عظيم واضطراب هائل. توقف العمل في البلد أو كاد. الكل يشعر باللا مبالاة. وخيبة الأمل والألم إلا أقل القليل.. البعض يتحدث عن قرب قيام الجيش بالدخول إلى الشمال ثالثة أو رابعة. والتوقيت يبدو مناسباً جداً. فالجو قد طاب والربيع قد ابتدأ. واتفاقية النفط مقابل الغذاء على وشك التطبيق

السبت ١٩٩٧/٤/٦

هل سأتفاءل كعادتي ثم أصطدم «كما اعتدت أيضاً» بقسوة الأمر الواقع. ما يدعوني للتفاؤل الشديد هو موقف الدول العربية التي أجمعت على قطع علاقاتها بـ «إسرائيل» وإيقاف مباحثات السلام والتطبيع وفرض الحضر الاقتصادي عليها. موقف غريب. بل مدهش من دول تهالكت منذ سبع سنين للصلح مع «إسرائيل». وهو موقف إن صح سيعيد للعراق اعتباره. نظراً لأهميته الشديدة داخل الصف العربي وفي الصراع العربي «الإسرائيلي». قبل عشرة أيام عرض

التلفزيون برنامج الاتجاه المعاكس المسروق من قناة الجزيرة الفضائية في قطر. ورغم أن عملية مونتاج ضخمة قد أجريت عليه إلا أن ما عرض منه قد أشفى غليلي وغليل الجميع في الشارع. فقد استضاف معد البرنامج الصحفي الكويتي أحمد الجار الله الذي تلقى عشرات المكالمات المهينة التي حطّت من قدره. وأبرزت تقلب موقفه. إنه صحفي وأديب رسمي فاجأه رأي الشارع العربي الصريح فلم يجد مخرجاً إلا بتسوية عقاله مرة بعد أخرى وطوال فترة عرض البرنامج. وكان من الواضح أن هناك شعوراً عربياً قوياً بالمرارة وبالحزن العميق لما يحدث لنا في العراق. بعد هذا البرنامج بأيام حدثت القمة العربية التي أدهشتني ودفعتني إلى التفاؤل. والإغراق في التفاؤل وأنا أفعل ذلك مضطراً فلا خيار آخر أمامي. لم يبق لي إلا الأمل. أمل غامض بأشياء غائمة. فأنا على الصعيد العملي إنسان فاشل جداً.. تتسرب أيام حياتي وتذوي وأنا أتراجع بسرعة إلى الوراء مبتعداً عن كل ما كنت أحلم به. لا بل عن الحد الأدنى مما كنت أطمح إليه. قضيت أربع سنوات من عمري وأنا أحاول أن أحقق شيئاً ما في معرض الـــ (الامل) لكنني بالكاد وصلت إلى الكفاف. أتمنى لو أستطيع الهجرة إلى أي بلد في أي مكان خارج هذا الوطن المنكوب، ولكن ذلك لم يعد ضمن إمكاناتي، فالسفر خارج القطر يتطلب مبلغاً طائلاً بالقياس إلى وضعي المادي الحالي. بت لا أرغب حتى بممارسة أي عمل. فقد تلاحقت الخسارات وتراكمت عليّ الديون رغم أني لا أنفق ديناراً واحداً إلا لشراء الطعام. بعت كل ما أملك من أثاث ومتاع ولم أستطع سداد جزء بسيط من الديون التي ترتبت عليّ نتيجة هبوط الأسعار الأول والثاني. مازلت مديناً بمبلغ كبير. لم تعد لديّ

رغبة بممارسة أي عمل. فليس هناك عاقل يمارس عملاً متعباً أو خطراً وهو لا يتوقع من جرائه أي ربح مادي. وحينما أتكلم عن الربح فأنا لا أعني أكثر من حدّ الكفاف، وهذا الكفاف يتعذر يوماً فيوماً. رغم أن الأمم المتحدة قد وعدتنا قبل أكثر من عام ونصف بمعونات غذائية (طارئة). استمعت اليوم من المذياع إلى خبر لطيف فالشباب الماليزي قد قام بمظاهرات في كوالا لمبور احتجاجاً على فريق الهوكي «الإسرائيلي». وقد قامت الشرطة بتفريق المظاهرات وقد أصيب اثنان وعشرون شرطياً ومتظاهر واحد بجراح. ولو كان صدام حاكماً ماليزياً لما جرؤ أحد على التظاهر وإذا ما حدث ذلك فإن الضحايا سيكونون ألفاً وستمئة قتيل من أصل المتظاهرون الثمانمئة ولن يصاب شرطي واحد بأذى فشرطتنا لا تملك هراوات ومتاريس ودروع. بل تستخدم أسلحة الميدان الثقيلة، بل والكيماوية أحياناً ضد الشعب للقضاء على دابر الفتن وعلى من غرر بهم أعداء الوطن. ولهذا فلم تحدث مظاهرات إطلاقاً في هذا البلد الآمن..

السبت ١٩٩٧/٥/٣٠

منذ عشر دقائق وأنا أحدّق في الورقة البيضاء محاولاً تذكّر تاريخ هذا اليوم. والشهر والسنة. ولطول فترة تحديقي نسيت لَمَ أنا جالس هنا ولا ما كنت أحاول أن أتذكره، وأخيراً تذكرت أنني قد جلست للكتابة عما يحدث رغم أن ما يحدث حولي لا يستحق عناء الكتابة عنه. فما أهمية أن يكون الجيش التركي قد أرسل ثلاثين ألف جندي إلى داخل العراق وهم لا يبعدون أكثر من أربعين كيلومتراً عن مدينتي؟ أمر اعتيادي جداً وأخوتنا الأكراد قد تعودوا على هذا الوضع منذ

بضع سنين ولكن الجديد هو أن تقوم الدولة عندنا بتسليم الأكراد الفارين من الجيش التركي إلى الأتراك. أو على الأقل أن ترفض استقبال أي منهم.. والجديد أيضاً احتجاج الدول العربية الصاخب على دخول الأتراك للأرض العراقية مما أحرج دولتنا الغيورة ودفعها هي أيضاً للاحتجاج على دخول دولة أخرى لأراضيها. أنا أتكلم أكثر مما ينبغي عن هذا الموضوع لا أحد في الشارع يذكر شيئاً عنه فمنذ اليوم الأول لدخول الجيش التركي قال جميع الناس إن هناك اتفاقاً متبادلاً بين العراق وتركيا لتصفية حزب العمال من جهة تركيا ومن ثم ستخلق هذه المناورة فرصة جيدة للجيش. لكي يدخل إلى الشمال. وبعد يوم أو يومين نسي جميع الناس تماماً هذا الموضوع. حتى إن الدولة نفسها قد نسيته كما يبدو فما تذيعه نشرات الأخبار عندنا أقل مما عرف عنه في الإذاعات الأخرى. عموماً لم نعد نستطيع سماع الأخبار بشكل منتظم فالتيار الكهربائي يتقطع الآن بمعدل خمس ساعات ويأتينا لمدة ساعتين فخمس ساعات أخرى. ونحن نستغل فترة الساعتين هنا أو في مكان العمل لإنجاز أكبر ما يمكن من أعمالنا مستفيدين من مكرمة الكهرباء التي يوفرها لنا القائد الحكيم أكثر من ست ساعات يومياً وهي فترة تفيض عن حاجتنا الحقيقية فماذا نفعل بالكهرباء؟؟ وما هي فوائد الكهرباء بالقياس إلى مخاطرها الجمة! لقد مات عشرات الألوف نتيجة الصعق الكهربائي ولم يمت أحد إلا «نادراً» نتيجة انقطاع التيار الكهربائي. صحيح أننا أصبحنا لا ننام في الليل ولا نصحو في النهار. صحيح أنني لم أستطع تذكر تاريخ هذا اليوم إلا بعد تفكير عميق لأنني شبه مخدر وعاجز عن النوم ولكن كل هذا يهون في سبيل إنقاذ الأرواح البشرية من الموت صعقاً..

يجب ألاّ يموت أحد مصعوقاً في العراق، بل يجب أن يموت إمّا قتلاً أو جوعاً، وبهذا يكون لموته معنى تاريخي. ودلالات باطنية عميقة وليس أقرب إلينا من ذلك فالقائد يحرص على تحقيق الأماني وعلى توفير الفرصة التاريخية للشعب كله للموت جوعاً إذا ما استمر هو في الحكم، أو الموت قتلاً إذا ما حاول هذا الشعب المفجوع أن يرفض جوعه. الجوع يحيط بنا ويحاصرنا داخل حصارنا. أعلن التلفزيون عن تقليص الحصة الغذائية تماماً في الوقت الذي كنا نتوقع فيه الزيادة التي ننتظرها منذ سنة ونصف أو يزيد. انتهت الشهور الستة التي صدّر العراق فيها نفطه ولم نحصل بعد على المعونة الغذائية الطارئة. المخازن ملأى والشاحنات الممتلئة تدخل العراق ليل نهار ومفتشو الأمم المتحدة يجوبون الشوارع ويستفتون المواطنين ومع هذا فقد تقلصت الحصة التموينية واتجه سعر الدولار إلى الأعلى بكل شموخ ليتجاوز الألف وستمئة دينار بعد أن كان لا يزيد على ألف وأربعمئة قبل يومين اثنين. أما لماذا خفضت الحصة فلأن أمريكا – قاتلها الله – قد منعت كذا وكذا بسبب كذا وكذا. لا أحد يدري أين ذهبت نقود النفط الذي صدر خلال الشهور الستة. ولا ما جدوى كل هؤلاء المراقبين واللجان الذين يجوبون البلد.. وهل هم مراقبون فعلاً أم مجرد جواسيس نسوا أن يمارسوا عملهم العلني كمفتشين واكتفوا بالتجسس لعدم حاجتهم إلى أي غطاء. البلد مفتوح أمام الجميع أرضاً وماءً وجواً. البلد مفتوح لكل من هبّ ودب يفعل ما يشاء وإلى ما شاء ولا يستثنى من كل هذا إلا العراقيون فهم وحدهم أقنان الأرض وخدمها ولا حق لهم في خيرها. ولهذا كله أريد أن أرحل. أمضي بعيداً فلا طاقة لي لتحمل المزيد. ولا أستطيع بمفردي أن أغير

شيئاً وسط هذه العاصفة الهائلة من التخريب والفوضى. كان بلدنا قد ضربه إعصار واستمر يضربه سبع عشرة سنة. ماذا بقي من هذا البلد؟ القائد يبيع كل ما يستطيع بيعه لكل من يرغب بالشراء ولاسيما للدول الصديقة «فرنسا وروسيا» التي يحاول صدام «وللسنة السابعة» أن يكسر بهما طوق الحصار، أو هكذا يدعي.. الحديث يطول. يطول ولا يجدي. ماذا تنفع الكلمات. القلب كسير. والنفس متعبة. والجسد منهك خائر القوة. أحلم بالنوم. حتى النوم المريح أصبح حلماً في بلد تصل حرارته صيفاً إلى أكثر من خمسين درجة مئوية. وتنخفض إلى عشر درجات تحت الصفر شتاءً وتنقص مواطنيه الكهرباء صيفاً. والوقود شتاءً رغم أنه من أكبر دول العالم المصدرة للطاقة. لمن أكتب هذه الكلمات. هل سأقرؤها بعد سنين على أصدقائي في الحديقة كما كنت أفعل قبل أعوام. هل ستفلح كلماتي في نقل ما يدور حولي إلى الآخرين.

الجمعة ١٩٩٧/٨/٢٩

اليوم سأنهي عامي الثالث والثلاثين. ثم ماذا. لا أدري. الجيب فارغ جداً. لم أستطع أن أقدم لنفسي حتى علبة سكائر وأشعر بحزن عميق. ومرارة. وخوف مما سيأتي. كنت قد كتبت في هذا الدفتر لآخر مرة قبل ثلاثة أشهر ومنذ ذلك التاريخ ولحد الآن تغيرت أمور كثيرة. اشتريت معملاً صغيراً لإنتاج شيبس البطاطا. (وهي من المقبلات المرغوبة لدينا) ولما كانت لديّ تجربة سابقة في العام الماضي في هذا المجال فقد ضبطت أموري وأخليت الدور الثاني من البيت وركبت فيه مكائني الصغيرة التي اقترضت ثمنها، بالإضافة

إلى رأسمال صغير وفي خلال شهر أو يزيد قليلاً. كنت قد خسرت جميع رأس المال السائل الذي اقترضته بعد أن تحول إلى أكياس من شيبس البطاطا تكدست لديّ دون أن أتمكن من بيعها. وبعد أسبوع أو عشرة أيام كانت هذه الأكياس قد تزنخت وتلفت مما جعلني أخسر أملي الأخير. ولم أفكر باللجوء إلى الانتحار ولم أغرق أحزاني في بحر من الخمر ولم يتح لي أن أنحرف أو أتمرد أو أتذمر. فأنا قائد الأسرة. وعليّ أن أقاوم وأصرخ بالجميع مبتسماً باقتدار «إلى الأمام».

وقبل أن أصرخ هذه الصرخة عرض عليّ أحد الأصدقاء مبلغاً نقدياً كبيراً لأستثمره. وبعد دراسة لعدة مشاريع. وجدت أن المبالغ الكبيرة تعني مشاريع ضخمة. وهذه تعني خسارات ضخمة بالضرورة. ولم يعد لديّ أي استعداد لخسارة المزيد. بقيت عاطلاً عن العمل. فأن يبقى الإنسان بلا عمل خير ألف مرة من أن يعمل ويخسر. يخسر جهده وأمواله «أو أموال الآخرين» وفجأة اقترح عليّ أحدهم فكرة السفر سيما وأن الجامعة سمحت للخريجين بالحصول على شهاداتهم. «كنت ممنوعاً من حق الحصول على وثيقة تخرجي إلى ما قبل شهرين». قدمت طلباً إلى عمادة الكلية وبعد ثلاثة أسابيع تسلّمت وثائق تثبت أنني خريج كلية الآداب ولأنني ضابط مجند فقد راجعت التعبئة والإحصاء في بغداد ووجدت أن بإمكاني استحصال موافقة على سفري. تحركت بسرعة وحاولت الحصول على جواز بعد أن تبرع بعض الأقرباء والأصدقاء وقاموا بإقراضي «مرة أخرى» مبلغاً نقدياً يغطي نفقات إصدار الجواز «وهي أكثر من مرتب موظف متوسط الدخل لمدة خمسة عشر عاماً» ولما كان «قحطان وغرام» صديقاي المقربان قد حذراني من الذهاب إلى اليمن «حيث علق

كثيرون هناك لحد الآن». ولما كان بقية العراقيين قد حذروني من البقاء في الأردن. فلم يبق أمامي إلا اللجوء إلى ليبيا. ورغم أن هناك لجنة ليبية موجودة في بغداد تحاول التعاقد مع مدرسين عراقيين إلا أن الدولة تقف حائلاً بينها وبين المواطنين وتحاول أن ترسل الرفاق البعثيين فقط دون غيرهم. عموماً سأترك البلد هذا الأسبوع وأرحل لأجرب حظي في قارة أخرى. يلزمني عمل كامل لأسدد الديون التي تراكمت عليّ. ولا أدري كيف سأتمكن من إعالة أهلي وأنا هناك لا بد أن يتحمل أخي مسؤوليتهم. وكيف سيستطيع ذلك وسط هذا الركود. مازالت علاقتنا العائلية متماسكة (رغم العام السابع للحصار) ينبغي ألا أقلق بهذا الاتجاه. فلا بد من الرحيل. لأن البقاء هنا لا يعني إلا الموت. وأنا لا أرى بارقة أمل في أي شيء حولي.....

الفصل الثالث: الخروج

عمان ٢٠١٤/٤/١١

وحيداً.. مكتئباً في شقة صغيرة. والأسئلة التي أحاول تجاهلها تلاحقني بضراوة... هل كان قرار عودتي للعراق عام ٢٠٠٣ خطأً جسيماً؟؟

هل أضعت عشر سنوات من عمري وأنا أسير في اتجاه خاطئ؟

ألم يكن من المضحك أن أتوهم أن بإمكان شخص واحد «هو أنا» أن يحدث فرقاً في مسيرة مدينته التي دمرها الاحتلال وما بعد الاحتلال؟؟

أحاول الآن أن أحصي الخيارات العديدة التي تركتها وراء ظهري حينما قررت العودة... ربما كانت كل تلك الخيارات ستعزز الغاية الأساسية التي سعيت لها طوال حياتي... وهي أن أصبح كاتباً. وأن أحقق نجاحاً ملحوظاً في هذا المجال... هذا هو حلمي الذي آمنت به، وحاولت أن أكرس له وجودي كله منذ أن كنت في الثامنة من عمري...

ألم تكن هجرتي خارج العراق عام ١٩٩٧ إلى ليبيا – ورغم كل الصعوبات التي عانيتها هناك – هي أفضل أوقات حياتي ككاتب؟ إذ كتبت خلال تلك الفترة رواية وأربع مسرحيات وعدداً من القصص والمقالات؛ خلال خمس سنوات فقط..

ألم تكن إقامتي في الإمارات – والتي استمرت لعامين – من أفضل الأوقات، إذ حصدت خلالها ثلاث جوائز أدبية أظنها كانت الأهم وقتها على مستوى الدولة... وهناك شاهدت –ولأول مرة في حياتي– مسرحيتي «نديم شهريار» مطبوعة في كتاب ومعروضة في معرض الكتاب الدولي، في الشارقة وأبوظبي..

ماذا لو كنت قد أكملت طريقي بعيداً عن العراق؟ ترى أين كنت سأقف الآن؟ هل كان المطاف سينتهي بي كما انتهى بي اليوم وحيداً، كئيباً، بعيداً عن أولادي في شقة صغيرة.. وأسئلة حياتي الأساسية مازالت تلاحقني، ومازلت أبحث لها عن جواب حقيقي رغم أني الآن على أبواب خريفي الخمسين!

من يملك الإجابة عن هذه الأسئلة؟؟ وهل هي أسئلة تستحق فعلاً أن تطرح؟ هل أن أحلام الطفولة تستحق كل هذا التقديس؟ وهل يمكننا حقاً أن نتحكم بمسارات حياتنا؟ وإذا كنا قادرين على ذلك فمن يضمن لنا أننا قد اخترنا المسار الأفضل لأنفسنا؟

لا أظن أن هناك من يزعم أنه قادر على إيجاد جواب حقيقي لكل هذه الأسئلة.. ومن ظن ذلك فهو مخطئ... لَمَ لا أترك أنا أيضاً كل تلك الأسئلة وأعود إلى ما كنت قد كتبته قبل ٢٣ عاماً من الآن...

كنت قد كتبت دفاعي عن نفسي كشخص حاول جاهداً أن يحقق حلمه بأن يصبح كاتباً وفشل في ذلك... وأجدني الآن – وبعد حوالي ربع قرن– مازلت قريباً من ذات النقطة.. نقطة الانطلاق... أو ربما أبعد عنها قليلاً بحكم كوني الآن في التاسعة والأربعين من عمري وكنت وقتها في السادسة والعشرين

فحسب....

لماذا أطيل!! لأعد ثانية إلى كتاباتي.. لا أملك إلا أن أستقي معلوماتي من ذاكرتي.. ذاكرتي التي قد تنسى أحياناً حقائق مهمة.. وقد ترمم أخرى... وقد تختلق حقائق جديدة لم تحدث على أرض الواقع... سأحاول جاهداً أن أكون موضوعياً... سأحاول ذلك بشرف... لكنها... لكنها ليست إلا محاولة... محاولة فحسب.

لا أدري متى قدحت في ذهني رواية «واك» لكنني متأكد من أن ذلك حدث في الصدمة الأولى لي في ليبيا... صدمة كان لها ثلاثة عوامل تضافرت معاً وجعلتني أمام مشهد كئيب لما سيؤول إليه واقعنا العربي. كان العامل الأول هو اصطدامي بمنظومة التعليم والتربية في ليبيا – ورغم أني لم أكن أمتلك سابق خبرة في هذا المجال – وربما كانت تلك المنظومة لا تختلف عن أي نظام تربوي عربي آخر.. إلا أن بشاعة ما رأيته هزني من أعماقي.. كيف سنستقبل القرن الآتي بمنظومة كهذه!؟

كانت الصدمة الثانية وليدة سكني مع مجموعة مختلفة من المدرسين.. تقاسمنا السكن في عمارة واحدة وكنا من دول مختلفة.. وثقافات مختلفة نسبياً.. عراقيين وسوريين ومصريين وفلسطينيين... لكن ما لفت انتباهي فوراً هو تشابه واقع كل هذه الدول وانزواؤها بعيداً عن مجرى الحياة الحديثة... وتواضع أحلام جميع الزملاء وانكماش طموحاتهم وتمحورها حول أشياء تافهة... ربما لم تكن أحلامهم أحلاماً حتى... بل كانت حقوقاً يعد تحصيلها شيئاً من بديهيات الحياة.. هذا لو كانت الحياة طبيعية.. ولكن ماهي بالضبط «الحياة الطبيعية؟»

أما العامل الثالث فكان الانفتاح على عصر الميديا.. فرغم أن ليبيا

القذافي كانت دولة أمنية بامتياز.. فقد كانت تبذل جهوداً كبيرة....

....

اليوم نفسه / الساعة التاسعة مساء

كنت أكتب وأكتب.. وفجأة توقفت عن الكتابة... وتذكرت أن هناك أعمالاً مهمة جداً لا بد أن أنجزها... ذهبت لأتسوق أطعمة لا أحتاج إليها الآن... وقمت بتقليم وتقليب تربة نباتي الزينة اللتين جلبتهما للشقة فور أن سكنتها، نظفت الأرضيات، طويت كومة ملابسي، دخنت وشربت شاياً وقهوة، ثم شاياً وقهوة، رتبت أوراقي الرسمية وغير الرسمية.. لقد فعلت كل ما كان ينبغي عليّ أن أفعله خلال أسبوع لكنني كنت أتحرك وذهني مشغول بأسئلة الكتابة التي كنت أتهرب منها كما يبدو.. فأنا أتحرق شوقاً كي أكتب.. وأحاذر أن أكرر معاناة الكتابة.. هل للكتابة شيطان حقاً يحثنا على ممارستها؟ إذا كان الأمر كذلك فهل هناك ملائكة تحاول منعنا من الكتابة؟ وأيهما سينتصر؟ شيطان الكتابة أم ملاك العزوف عنها؟

منذ أن بدأت الكتابة ظهر هذا اليوم وهناك أسئلة ملحة تتوارد متلاحقة في ذهني.. هل سأستطيع إكمال كتاب بدأته قبل ربع قرن؟ هل سأتمكن من الإمساك ثانية بنفس النبرة.. نفس الإيقاع؟؟ نفس الروحية التي بدأت بها؟ ثم.... ثم هل سيكون هناك من يهتم بقراءة ما أكتب؟ وما قيمة هذا الكتاب الآن؟ هل سأتمكن من نشره؟ هل توازي أهمية نشره الآن أهميته فيما لو كان قد نشر بعد انتهاء حرب الخليج الأولى مباشرة؟

من أنا أصلاً؟؟ ومن سيهتم بمعرفة تفاصيل قصتي العابرة؟

أسئلة أسئلة... هل أن ملاك العزوف عن الكتابة ذكي إلى

هذه الدرجة التي تمكنه من ضخ كل هذه الأسئلة دفعة واحدة في رأسي؟؟ هل هو ملاك حقاً أم أنه شيطان؟ وإذا ما كان شيطاناً فهذا يعني أن معركة تدور الآن في رأسي بين الشياطين التي تحثني على العمل.. والشياطين الأخرى التي تسفه جهدي الذي أبذله في هذا العمل..

لن أصغي أكثر لصوت هذه المعركة.. وسأستمر بالكتابة لعلني أمسك بالإيقاع القديم لحكايتي التي كنت أحكيها عن حلمي القديم في أن أصبح كاتباً.. سأحاول أن أبدأ من حيث توقفت ولكنني لا أذكر تماماً ما الذي كنت قد كتبته قبل عقدين من الزمان... لذا سأتوقف الآن عن الكتابة.. سوف أقرأ مسوداتي القديمة التي اصطحبتها معي –لحسن الحظ– إلى عمان. ثم سأقوم بعدها بمحاولة إكمال هذه الحكاية..

عمان ٢/٥/٢٠١٤

فشلت للمرة المئة في قراءة مسودة الكتاب.. لم أقرأ المسودة لا بل لم أكمل ما كنت قد بدأت به قبل شهر حينما وعدت نفسي بإكمال الكتابة.. مازلت في عمان.. هارباً من كل شيء.. وحيداً.. في شقة أصغر انتقلت إليها منذ يومين فقط، بعد أن أتعبتني شقتي الأولى لاضطراري إلى التسلق صعوداً أو التماسك خشية السقوط وأنا أهبط كلما غادرت الشقة لأسير في شوارع عمان الجبلية.. كنت أنتظر بلهفة أن أنفرد بنفسي كي أكتب، وحينما حدث ذلك لم أتمكن إلا من الاستلقاء فوق السرير والنظر إلى السقف.. منذ شهر وأنا لا أفعل شيئاً سوى النظر إلى السقف.. باستثناء دورة مكثفة لتعلم اللغة

الألمانية في معهد كوته/عمان. ربما توهمت أنها قد تساعدني على تعلم شيء من الألمانية أملاً في السفر إلى هناك لإكمال دراستي في الأدب.. لكنني أدركت تماماً أن الوقت قد تأخر لاتخاذ هذه الخطوة وأن ذهني «المتقد» لم يعد متقداً كما كان.. وأن زملائي في الدورة «وهم بعمر أولادي ميس وعبيدة» اشطر مني بكثير.

أحسست بالإحباط.. لكنه ليس إحباطاً قاتلاً على أية حال إذا ما قورن بالإحباط الكبير الذي عشته وأعيشه منذ سنوات.. إحباط لا يقارن أبداً بالإحباط الذي أشعر به وأنا أستمع من بعيد لأخبار العراق.

فمياه الفرات تزحف نحو بغداد وهي تغمر مناطق ومزارع شاسعة.. الجيش يحاصر الفلوجة ومدناً أخرى في الرمادي؛ ويفترض بنا تأييد هذا الجيش الذي يقف في وجه «داعش». جيش داعش الشبح الذي ظهر فجأة من المجهول وأصبح بقدرة قادر أقوى من جيشنا المليوني.. والتقديرات تشير إلى أن عدد قوات «داعش» لا تزيد على الألف مقاتل.. أي أن النسبة داعشي واحد لكل ألف عسكري نظامي مجهز وممول من الدولة العراقية.. الانتخابات جرت منذ يومين.. وكعادة اليائسين زحف العراقيون إلى صناديق الاقتراع في محاولة يائسة جداً لتغيير بؤسهم الذي يعيشونه منذ عشر سنين.. ولكنني أعلم علم اليقين أن النتائج لم ولن تكون وليدة أصوات العراقيين.. بل محصلة تفاعل نتائج التزوير، إذ ستقوم كل كتلة سياسية ببذل أقصى جهودها لتزوير أكبر ما يمكن من نتائج، ثم ستقوم دول الجوار بترتيب الباقي وفقاً لمصالحها، ولعدد وكلائها من السياسيين العراقيين.. لم يعد لديّ بصيص أمل واحد في مجمل ما يسمى بالعملية

السياسية، إذ أنها لم تعد سوى عملية تقاسم غنائم.. وثروة شعب منكوب تنهب دون رقيب أو حسيب.. ودول جوار لا همَّ لها إلا أن تُبقي العراق نازفاً يعاني سكرات الموت.. لكنه مازال يرفض أن يموت...

كنت قد بدأت أكتب عن روايتي «واك» الرواية التي أظنها أول (دستوبيا) عربية.. وأجد الآن أن معظم ما كنت قد تخيلته من أحداث وكوابيس قد تحقق الآن. كل البؤس، والاحباطات، والكوابيس، والإرهابيين والانتحاريين الذين نرى جثثهم ولا نعرف دوافعهم أو قصصهم والذين أصبحوا حقيقة واقعة تنغص حياتنا كل يوم.

كتبت «واك» بصعوبة بالغة.. ليست صعوبة الكتابة بحدّ ذاتها.. بل صعوبة أيامي الأولى في ليبيا.. إذ كنت أعمل في التدريس دون أن أتقاضى أجراً شهرياً. كان النظام المعمول به في ليبيا وقتها هو دفع الأجور عند نهاية العام الدراسي.. ولم يكن معي ما يكفيني حتى نهاية العام، فلجأت إلى الاقتراض، وإلى فرض سياسة تقشف شديدة شملت كل شيء.. كل شيء حتى ورق الكتابة الذي كنت ألملمه من بقايا أوراق كراسات الامتحانات. كنت أخشى أن تضيع الأقلام.. كنت أراقب بقلق – ولأول مرة في حياتي – قلم الحبر الجاف «ستيدلر» وهو ينضب تدريجياً بين أصابعي. وحين انتهى العام الدراسي كنت قد أوشكت على إنهاء روايتي.. كنت أحلم كثيراً بأنني سأتمكن من إنهاء روايتي في الصيف، ثم آخذها معي إلى الأردن لأنشرها هناك. ولما كنت متفائلاً بطبعي فقد تجرأت وحلمت أيضاً بأن أحداً ما سيدفع لي مبلغاً من المال مقابل حقوق نشر هذه الرواية. وكانت حاجتي للنقود وقتها حاجة ماسة جداً.. أنهيت المسودة لأكتشف

لاحقاً وأثناء مراجعتي للنص والملفات التي سبقت الكتابة اكتشفت أن الملف الذي أعددته للشخصية الرئيسة للرواية كما تخيلتها قبل أن أشرع في الكتابة باق على حاله لم يمس.. وأن الراوي الذي اخترعته ليمهد لظهور البطل قد تمرد عليّ واحتل موقع الصدارة في النص وأزاح البطل الذي خططت لزجه في الأحداث، لكن الراوي كان يدفعه بعيداً فصلاً بعد آخر حتى نسيته تماماً، وما كنت لأتذكره لولا عودتي إلى الملفات التي كنت قد أعددتها بمواصفات كل شخصية قبل أن أبدأ بالكتابة.

ذهبت إلى عمان وأنا أحمل تحت إبطي مسودة مطبوعة ساعدني اثنان من أصدقاء الغربة على طباعتها واستنساخها. وفي عمان ذهبت إلى دور النشر «وسط البلد» باحثاً عن أكبر الناشرين الذين توهمت أنهم سيحتفلون بكتابي فور أن يقرأوا الملخص.. رفض الناشر الأول.. والثاني.. والسابع.. والعاشر.. رفضوا حتى أن يقرأوا التلخيص. كانت كلمة «رواية» كافية لأن يشيحوا بوجوههم عني. لم أيأس – وأنا لا أيأس بسهولة – فقد سبق لي أن رأيت عناوين لكتّاب عراقيين في المكتبات الأردنية والأكشاك وعلى الأرصفة. لم أيأس لكنني اكتشفت – لاحقاً – أن هؤلاء الكتاب يقومون غالباً بطباعة كتبهم على نفقتهم الخاصة ولأسباب مختلفة.. أدبية أو غير أدبية. ازدادت الصورة اكتمالاً لديّ حينما استقبلني أحد العاملين في دور النشر مبتسماً مشفقاً من جهلي – ربما كان اسمه أيوب – قال لي بهدوء: رواية؟! نحن لن ننشر رواية إلا إذا كنت أنت نجيب محفوظ أو عبدالرحمن منيف.

قلت له بخبث: لو كنت نجيب أو منيف لما فكرت في نشر كتابي لديكم.

لم يغضب وقال لي: هناك ثلاث مواضيع يمكننا نشرها الآن كي نتمكن من استرداد نقودنا وتحقيق بعض الأرباح أولها: الكتب الدينية وكتب تفسير الأحلام، وثانيها: كتب الطبخ والرشاقة والصحة، وآخرها: كتب الزواج والجنس والمشاكل العاطفية. هذا ما يمكننا نشره وبيعه الآن.. كنت أتمنى أن أساعدك أكثر لكن الواقع الآن هو هكذا..

شكرت الرجل وغادرت المكان وأنا لا أشعر بيأس شديد – فأنا بائع الأمل – وإذا كان الناشرون هنا لا يقدرون الكنز الذي أحمله تحت إبطي فهناك آخرون سيلتقطونه، وربما يحاولون التحايل عليّ كي أوافق على النشر.

وصلت زوجتي ومعها ميس وعبيدة إلى عمان بعد أن أرسلت لهم مبلغاً من المال يمكنهم من دفع الرسوم الباهظة لإصدار الجوازات وأجور السفر. رسوم كانت تعادل كل مدخراتي من عملي خلال عام.. نسيت وقتها أو تناسيت موضوع الرواية. ركبنا جميعنا الباص لنقطع الطريق البري الشاق بين الأردن وليبيا.. كانت ليبيا وقتها كالعراق خاضعة لحصار جوي.. وكان السفر براً هو الطريقة الوحيدة للسفر مروراً بمصر طبعاً.. قضينا ٣ أيام في رحلة شاقة بواسطة باص قديم مكتظ بالركاب ولا تتوفر فيه ابسط وسائل الراحة وفي ميناء العقبة ركبنا عبارة بحرية أوصلتنا إلى ميناء نويبع المصري، حيث بقينا أكثر من اثنتي عشرة ساعة تحت شمس أي منتظرين حصولنا على إذن بالمرور البري عبر الأراضي المصرية. وبعد وصول الموافقة رافقنا عسكري مصري واحتجز معه جوازات سفرنا ولم نتسلّمها إلا عند الحدود الليبية.. كنا كالسجناء في الحافلة القديمة المكتظة.... لكننا

وصلنا أخيراً إلى ليبيا.. وفي شقتي الجديدة في مدينة زليتن كنت أقسم نقودي بين مصاريف العائلة وبين أجور نسخ عدد كبير من النسخ للرواية. ثم إرسالها إلى كل دور النشر العربية التي كنت قد حصلت على عناوينها من الأغلفة الخلفية للكتب الموجودة في مكتبات مدينة زليتن. أذكر أنني كنت أقف طويلاً في كل مكتبة وأسجل في دفتر ملاحظاتي الصغير عناوين دور النشر، لأقوم بعد ذلك بمراسلتها.... تصرفت «بدهاء كبير» خشية أن أتورط في توقيع عقد جائر مع ناشر ثانوي.. ابتدأت بمراسلة أهم دور النشر وأرسلت إليها ملخصاً للرواية.. انتظرت شهوراً... ولا رد... تواضعت قليلاً وقمت بالوجبة الثانية من المراسلات لدور النشر التي ظننت أنها تمثل الخط الثاني. مرت الموجة الثانية والثالثة والخامسة – ربما –.. دون رد..

كنت أذهب يومياً إلى صندوق بريدي (زليتن ١٠٠٣) فور عودتي من المعهد وقبل ذهابي إلى البيت، لأتأكد من وصول الرسالة المنتظرة... ولم أتلق إلا رداً واحداً. كان من الدار المصرية اللبنانية –كما أتذكر الآن – كان رداً مهنياً يحتوي رفضاً ضمنياً مهذباً. ولائحة بالمواضيع التي تهتم الدار بنشرها.... ولم تكن الرواية ضمن هذه اللائحة طبعاً... لم أيأس... فأنا متفائل بطبعي..

لم تكن أيامي في العام الدراسي ١٩٩٨ /١٩٩٩تقتصر على محاولاتي الشاقة لنشر روايتي، إذ مرّت بذهني وأنا أكتب رواية «واك» أفكار لنصوص مختلفة.. سجلت بعضها لأتمكن من كتابتها لاحقاً. كانت زوجتي تراقب باهتمام وقلق تصرفاتي وانغماسي المبالغ به في الكتابة. ورغبتي الشديدة في نشر كتابي... والمصاريف التي كنت أنفقها وأنا أرسل طروداً مسجلة بعلم الوصول إلى دول بعيدة. وذات

يوم سألتني بطريقة عابرة «لِمَ لا تجرب أن تكتب مسرحية؟ سيكون أمامك فرصة مزدوجة للوصول إلى الناس. فرصة نشر كتاب، وفرصة تقديم النص كعرض مسرحي».

الأربعاء ٧ / ٥ / ٢٠١٤

في عمان... في كافيه صغيرة أمام الجامعة الأردنية اعتدت منذ أيام أن أجلس وحيداً مع دفتري محاولاً أن أكمل هذه الأوراق التي بدأتها قبل عقدين... بدأت بالكتابة وخطر الموت ماثل أمام عيني في صحراء (حفر الباطن)... والآن أعود لإكمالها بعد أن أخرجني التهديد بالقتل هائماً على وجهي وتاركاً خلفي مشروعاً كبيراً بذلت عشر سنوات شاقة من عمر يكاد يوشك أن ينتهي... أعليت بناءه وسط رماد الحرب وخرائب وطن يسعى الجميع لنهشه.. تركت (مدارس الأوائل).. «ولدي الثالث» الذي فرحت به ورعيته بعناية فائقة لم يلقها مني ولدايَّ اللذان كنت بعيداً عن طفولتهما مجبراً لفترة طويلة...

تركت العراق وتركت مشروعي وزملائي وأبنائي وخرجت وحيداً لا أحمل إلا حقيبة ملابس متوسطة... وحقيبة كتب، وكراسات صغيرة، وحاسوبي المحمول. خرجت مبتعداً عن نينوى ذات فجر... وكانت رحلتي هي الرحلة الأكثر مرارة في حياتي... فما أقسى أن تترك وحيداً بين عصابات لصوص وقتلة يتجولون بحرية في المدينة التي تحولت إلى ثكنات عسكرية تملؤها أكياس الرمل والأسلاك الشائكة والطرق المقطوعة بكتل كونكريتية صماء... ثكنة قاسية قادرة على إعاقة الحياة، لكنها لا تستطيع إيقاف أي من

أفراد العصابات الذين يتجولون بحرية. يقتلون ويبتزون... يأمرون وينهون ويحكمون المدينة علناً... أصبحنا بين فكي كماشة عصابات شرسة منفلتة.. وأجهزة أمن تملأ المدينة، ولكنها لا تحرك ساكناً لتوقف أسراب المجرمين الذين تناسلوا وتكاثروا بلمحة عين بعد أن غضت الدولة النظر عنهم. وبعد التعاون – الذي لا شك إطلاقاً في وجوده – بين المجرمين وبين الشرطة والعسكر... بدليل أن من يتصل بالأمن للإبلاغ عن تعرضه لتهديد أو ابتزاز يتلقى بعد قليل اتصالاً من الجهة التي تهدده لكي تضاعف مبلغ الابتزاز المطلوب... أو لتغير نوع التهديد كونه– قد خان الثقة – واتصل بأحد أجهزة الدولة. ودولتنا لا تنفي ذلك، والجميع يصرح كل يوم دون خجل بأن الجيش مخترق... والشرطة مخترقة.

أصبح الوضع جحيماً وغادر الموصل، بل والعراق عدد كبير من كل شرائح المجتمع الفاعلة... تجار، رجال أعمال، أطباء، أساتذة جامعة، صحفيون... وناشطون في كل المجالات... ولكي يزداد الطوق إحكاماً فإن الدولة قد فرضت قانوناً يجرم من يخضع للابتزاز... فيكون مهدداً بحكم قضائي بالسجن فترة تتراوح بين ثلاث إلى ثمانية أعوام بحجة تمويل الإرهاب... وهكذا يتم إحكام الخناق تماماً على كل من يريد أن يبني أو يخدم أو يعمل في هذا البلد... وتستمر تأنيبات المقربين مني... لماذا عدت... هل كان من المعقول أن تحاول البناء وسط مدينة تحترق... ألم تدرك منذ زمان بعيد أن الجميع قد اتفقوا على قتل العراق... بالحصار أولاً... وبقوة نار الجيش الأمريكي ثانياً... وبآلاف الجرذان التي تنهش لحم العراق الحي بصفتهم «الطبقة السياسية الجديدة»...

تلك الطبقة التي تنشغل اليوم بالتحديد بعد فرز أصوات الانتخابات التي جرت منذ أسبوع... بتكوين الكتل والتحالفات. وتبادل الأدوار بين الحلفاء والخصوم. وخشية البعض من تولي رئيس الوزراء الحالي «المالكي» منصب رئاسة الوزراء لفترة ثالثة... وآخرين يسعون للتحالف معه بعد أن كانوا بالأمس أعدى أعدائه.. وكل المواقف مأجورة أو مشبوهة في أحسن الأحوال... هم منشغلون بهذا بينما تتعرض مدن الرمادي إلى قصف مدفعي عنيف تقوم به قوات الجيش ضد «المسلحين» فتصيب مستشفى الفلوجة وتحرق أحد أجنحته. ومياه الفرات تحمل جثث الغرقى طافية فوقها وهي تزحف نحو بغداد. والناس بعشرات الألوف يهربون تاركين بيوتهم تغرق... أو تحترق. وهم محاصرون بين نيران جيش يقصف «المسلحين» ونيران «مسلحين» يقاومون الجيش بعد أن تمكن هؤلاء المسلحون من الاستيلاء على منظومة السدود والإرواء المقامة على نهر الفرات... وبدأوا يعطّشون أو يغرقون البلاد كما يحلو لهم... كيف تتوقع الحكومة منا أن نصدق هذه الأكذوبة... إنها في الحقيقة لا تتوقع منا ذلك؛ بل إنهم سيستمتعون بإرغامنا على السكوت عن كذبهم المفضوح... فالكلام ثمنه الموت... والجثث تتكدس... ولا أحد يحاسب... ولا أحد يسأل... وكثرة الجرائم وتنوعها أضاع على من يريد أن يبدأ خط الشروع... ومن أين يجب أن يبدأ...

أما أنا فعليّ أن أبدأ من حيث انتهيت بالأمس.. كنت أتحدث عن مسرحيتي الأولى التي كتبتها في ليبيا... مسرحية (الساعة)... أوحت لي زوجتي –وهي القارئ الأول لكل نتاجاتي– أن اتجاهي صوب الكتابة للمسرح قد يعزز فرص انتشاري... وكانت كلماتها

ملهمة لي، إذ يبدو أنها وجدت لي مخرجاً مؤقتاً من أزمتي التي سببتها رواية «واك»... لمَ لا أكتب مسرحية... هل كانت الفكرة مختمرة في ذهني وقتها أم أن المشهد الليبي الغريب أيام القذافي أوحى بها؟ لا أدري تماماً.. بدأت بكتابة مسرحية الساعة... بدأت بكتابة هذه المسرحية وكل ثقافتي المسرحية هي عشرات النصوص التي كنت قرأتها فيما مضى... شكسبير في أول القائمة طبعاً ثم مسرحيات أخرى متفرقة قرأتها في «الثقافة الأجنبية».. لم أكن في الحقيقة مهتماً بالمسرح، بل كنت قد بذلت كل عناياتي في قراءة الرواية ونقدها. وكنت أعد عدتي لأصبح روائياً... أما المسرح فلولا حبي لتوفيق الحكيم لما قرأت مسرحياته، ولولا أن دار الشؤون الثقافية قد نشرت (علي جناح التبريزي) لما عرفت ألفريد فرج ولما قرأت نصوصه... ولولا حبي لأنيس منصور لما عرفت بوجود كاتب اسمه «فردريش دورينمات»... دورينمات بالذات استوقفني طويلاً مع (روملوس العظيم)... و(الملاك الذي هبط في بابل)... إنه يكتب بأسلوب عابث ساخر أحبه... كيف ستكون مسرحيتي؟ لتكن بهذا الأسلوب. لم أقرر ذلك بوعي طبعاً لكن الفنتازيا تستهويني... بدأت بكتابة مسرحية الساعة وأنا أتخيل أن الرحابنة سيقدمونها على المسرح... تخيلت الممثلين ينطقون حواراتها باللهجة اللبنانية... وتمنيت لو كنت أتمكن من كتابة نصوص لأغنيات ترافق العرض.

كان الرحابنة يعششون فيَّ... ربما تعلمت من نتاجهم أكثر مما تعلمت من كتب نقد تملؤها المصطلحات ولطالما أبهرتني بساطة الأسلوب الذين يقدمون به أعقد وأعظم الصور «الثلج اجا... وراح الثلج... عشرين مرة اجا وراح الثلج... وأنا صرت أكبر... وشادي

بعدو زغير... عم يلعب عالثلج»...

كم تمنيت أن أصل إلى أسلوب سهل عميق كهذا... لم يكن لفيروز دور في مسرحيتي... لكن (جوزيف صقر، ورجا بدر، ونصري شمس الدين) كانوا من بين الشخصيات التي تخيلتها وهي تؤدي أدواراً محددة في المسرحية... وستلازمني هذه العادة في الكتابة. وسأخصص ممثلاً لكل شخصية سأكتبها فيما بعد... فذلك يجعل تخيلي للشخصية أكثر سهولة ربما... ما إن اختمرت الفكرة برأسي حتى بدأت أكتب مسرحية الساعة وفقاً لنظام كنت أتبعه وأنا أكتب رواية «واك». ثلاث جلسات في الأسبوع... كل جلسة كتابة تستغرق ساعتين، وفي كل جلسة أنجز ألفي كلمة على الأقل... وبهذه الوتيرة أكملت مسرحية الساعة وتركتها في كراسة ولم أهتم حتى بطباعتها.. قرأها بعض الأصدقاء... فأثارت إعجابهم... لكنني لا أعول كثيراً على إعجاب أصدقائي، وخاصةً من تجمعني بهم علاقات عميقة... لأني أظن أنهم يبدون إعجابهم بأي إنجاز لي محبة أو مجاملة... ومع هذا فقد شعرت ببعض الانتشاء... أحسست بأنني قد انتقمت لنفسي من مثقف السلطة بعد أن عريته في هذه المسرحية... مثقف السلطة الذي تحوّل من الولاء للحاكم إلى الولاء للجهات التي تحرك الحاكم.. كنت أكتب عن مثقف عصر العولمة... ذلك المثقف الذي يضع المزيد من العقد في الحبل بدلاً من أن يحاول حلحلتها... كانت الفكرة بسيطة جداً وغريبة في نفس الوقت... دولة ليس فيها إلا ساعة واحدة تضبط كل شؤون الحياة... والخيانة العظمى في هذه الدولة هي أن يمتلك المواطن ساعة خاصة به... وحينما تتعطل الساعة الوحيدة ويقف الناس حيارى... في تلك

اللحظة تماماً تبدأ أحداث المسرحية... وتنتهي والكل مازال يحاول أن يجد جواباً دقيقاً لسؤال بسيط جداً «كم الساعة الآن؟» وتنتهي المسرحية ولا أحد يستطيع أن يجد الجواب.

استهوتني كتابة المسرحية... رغم أني لم أنشر الساعة، لا بل ولم أحاول نشرها إلا أنني استمتعت بسهولة كتابة الحوار وتحميله كل ما أريد ببساطة... وحتى في رواية «واك» كان الحوار يحتل مساحة محترمة من النص... أذكر ملاحظة طريفة قيلت لي بعد سنوات عن «واك» «النص مفكك لكن الحوارات رائعة» وردتني هذه الجملة من دار نشر مرموقة راسلتها وأنا في الإمارات... وكان اعتذارها رقيقاً وعلقت في ذهني هذه الجملة فحسب...

كنت أسكن في مدينة زليتن... وهي مدينة ليبية ساحلية ذات طابع زراعي شرق طرابلس العاصمة... وكان عملي في معهد «الزهراء» في مكان يبعد حوالي ١٥ كم عن المدينة... ولما كنت لا أملك سيارة فقد كان علي أن أركب الميكرو باص كل يوم للوصول إلى المعهد... وكان الميكرو باص يتهادى ببطء في طريق زراعي ضيق بين بساتين تملؤها أشجار النخيل في مشهد يذكرني دائماً بوسط وجنوب العراق. ذات يوم كان الباص يسير ببطء وكان الجالس بجواري يقرأ في مجلة ثقافية ربما كان اسمها «الشاهد» وكعادة أي مثقف مفلس فقد كنت أسترق النظر إلى الصفحات التي يقرؤها جاري... وقعت عيناي على جملة صدمتني، جملة تبدأ هكذا «إن زواج المثقف العربي من السلطة قد نتج عنه....» لم أكمل الجملة... لم أتمكن من إكمالها ولم يكن هناك داع لذلك... انفجرت في ذهني فجأة فكرة كاملة... المثقف شهرزادً... السلطة شهريار... زواج المثقف من السلطة؟

كيف يتزوج شهريار من رجل؟ لا شك أن شهرزاد لم تكن امرأة... ولم تكن رجلاً أيضاً. ما الحل... المارد.... خادم المصباح...

انتابتني حالة من القشعريرة... ولدت في ذهني فكرة كاملة... وقد تكون نصاً قوياً ولكن... لكن الطريق انتهى ووصلت إلى المعهد وعليّ أن أبدأ بالتدريس... لا أدري كيف أكملت دروسي ذلك اليوم.. لم أتمكن إلا من محاولة وضع الأمور في نصابها الصحيح في ذهني، وترتيب الشخوص والأحداث... والحوارات طبعاً. هل رسمت مخططاً للنص وأنا في المعهد... لا أذكر.. ولكنني أذكر أني عدت مسرعاً للبيت... ورحت أكتب بسرعة كبيرة مشاهد كاملة من النص... كانت زوجتي قد تعودت على سلوكي... وكنت لا أستطيع أن ألبي رجاءها المتكرر «افعل ما شئت واكتب كما تريد ولكن أرجوك لا تكلم نفسك بصوت مرتفع أمام الأولاد لأنهم يخافون ذلك»... وما كنت أحب أن أكلم نفسي لكن الحوارات كانت تتدفق أحياناً بشكل مفاجئ في ذهني لتحل بعض المشاكل التي أعانيها أثناء كتابة النص... فأرددها بصوت مسموع قبل أن أهرع لكتابتها. وكنت حريصاً على أن تكون جملي قصيرة... واضحة. محدودة المعنى وسهلة اللفظ... كنت أكرر كتابة الجملة مراراً وأرددها بصوت مسموع لأني أظن أن العين تتعثر في القراءة كما يتعثر اللسان في النطق... لم أكن أهتم كثيراً ببلاغة الجملة الواحدة... كان ما يهمني حقاً هو بلاغة النص ككل... وهذا ما سيكون مأخذاً يكرره الكثيرون على مسامعي ويعدونه نقطة ضعف في أسلوبي... يقولون لي إن لغتك أقرب ما تكون إلى لغة الصحف أو الكلام العادي... ولم يكن نقدهم ليزعجني فقد قصدت أن تكون لغتي سهلة... وتعبت

لأحقق هذا الهدف. وربما كانت سهولة اللغة التي أستخدمها هي السبب الأول في لجوء عدد كبير من أساتذة وطلاب كليات الفنون للاستعانة بكتاباتي في عروضهم المسرحية

عمان ٨ / ٥ / ٢٠١٤ مقهى ع البال.

أكملت مسرحية نديم شهريار في ثلاثة أيام فقط... أكملت مسودتها الأولى... ولا أظنني قد عدلت فيها لاحقاً، بل أجريت تنقيحات أولية بسيطة ثم النهائية أثناء طباعة النص كما يحدث معي عادة... ثلاث مراحل غالباً لكل نص... كتابة سريعة ثم تعديل وتشذيب، وأخيراً تنقيح نهائي ولمسات خفيفة...

أجدني مضطراً هنا لذكر دافع قد يكون مهماً وربما كان كامناً في أعماقي. وربما كانت العبارة مجرد صاعق فجّر تلك الشحنة التي تراكمت داخلي... مثقف عراقي كبير وصاحب دار نشر في أوربا كان من رجال الإعلام في نظام صدام وقضى جلّ عمره يتكسب من خيرات النظام مقابل تلميع صورته، أو مقابل خدمات أخرى لا أعرفها، يتحول إلى معارض بارز ويصل إلى ليبيا ويحاول تجميع عدد من الكتّاب والمثقفين للعمل معه... كان اشمئزازي العميق من الموقف وصاحبه قد تراكم في نفسي كما يبدو وساعدت تلك العبارة الغامضة التي قرأتها في الميكرو باص على تحويل اشمئزازي إلى نص مسرحي... نص يدور في أجواء ألف ليلة وليلة لكنه لا يتعمق في حكاياتها... بل يعمل على الخطوط الخارجية للحكاية... شهرزاد وشهريار... ومع علمي بأن هناك أكثر من ١٠٠ عمل فني عالمي قد تناول شخصية شهرزاد وأن إضافة شيء جديد للموضوع أمر

ليس بالهين إلاّ أنني اقتحمت دون تردد، فقد كان في جعبتي سهم جديد... شهرزاد... الأنثى الخالدة... ليست أنثى ولا خالدة... إنها رجل يتحول بقوة سحرية يعثر عليها إلى امرأة جذابة... يدخل مخدع شهريار محاولاً إنقاذ محبوبته فيعشق حياة البلاط ويصبح سيفاً في يد شهريار ضد أبناء المملكة. أما شهريار... رمز الفحولة والسلطة الذكورية.. فهو ليس فحلاً ولا ذكراً حتى... إنه يقتل العذراوات كل ليلة كي لا يفضحوا سرّه الدفين... ويكشفوا لسكان المملكة أنه يعاني عجزاً جنسياً... المثقف المعارض الذي يدخل لعبة السياسة فيستحلها وينسى هدفه الأول وينشغل بجمع الغنائم.. ولكي يستمر حكم شهريار فإن شهرزاد تخترع فكرة «الحرب بلا حرب» لكي تساعد شهريار على فرض سلطة حديدية على المملكة دون رقيب أو حسيب. لكن «الحرب بلا حرب» تتحول إلى حرب حقيقية... إلى آخر النص... استخدمت إذن ألف ليلة وليلة... وهي حكايات جذبتني وأبهرتني منذ الطفولة... كنت أتمنى أن أستخدم حكاياتها وأن أقارب أجواءها الساحرة... لكنني... ومنذ طفولتي المبكرة كنت أسأل نفسي سؤالاً لم أجد لحد الآن جوابه المقنع: هل نعفو عن شهريار لأنه توقف عن قتل النساء بعد لقائه بشهرزاد... هل هذه هي فعلاً النهاية السعيدة التي يستحقها... ونستحقها نحن؟ ودم ضحاياه؟؟ هل يجوز أن يهدر؟؟ هذا السؤال القديم لم تقاربه المسرحية... ولم تقترب حتى من طرحه.

انتهيت من مسرحية نديم شهريار بسرعة إذن. رغم أن السرعة في الكتابة ليست عادة تلازمني... كتبتها خارج الجدول الزمني الذي كنت قد فرضته على نفسي وأنا أكتب «واك». وخلافاً لنص

آخر عاندني كثيراً وهو مسرحية «بروفة لسقوط بغداد» والتي كنت قد بدأت بكتابتها قبل أن تنفجر في ذهني فكرة (نديم شهريار)... ولمسرحية (بروفة) قصة أتذكر تفاصيلها جيداً... أذكر أن بعض زملائي المدرسين قد عرفوني يوماً إلى شاعر عراقي يعمل مثلي مدرساً في زليتن... كان الأستاذ (جبار الكواز) أكبر مني بعقد على الأقل وله عدة دواوين شعرية منشورة... مازلت أذكر تردده بشكل يومي منتظمٍ إلى مقهى في وسط زليتن... وحينما عدت من عمان إلى زليتن حاملاً معي خيبتي وروايتي التي لم أتمكن من نشرها... فكرت أن أذهب إليه بمسودة الرواية... وهكذا حدث. فقد التقيتهُ في مقهاه المعتاد... تبادلنا التحية وأعطيته مسودة الرواية وبعد أن تبادلنا حديثاً رسمياً قصيراً قال لي: اليوم هو الجمعة... في الجمعة القادمة نلتقي هنا ويكون لنا حديث...

انتهى اللقاء بسرعة وعدت إلى شقتي وأولادي... ظهر اليوم اللاحق كنت عائداً من المعهد متعباً أسير في طريقي إلى البيت مخترقاً سوقاً مزدحماً بعض الشيء... لمحت الأستاذ الكواز على الرصيف المقابل... شاهدني فصاح لي فوراً «لـــــك ناهض!» تسمرت في مكاني فكلمة «لَك» تستخدم في العراق للتحقير أو الاستصغار... أو للتحبب بين أصدقاء مقربين. ولم أكن صديقاً للكواز... ولم يكن لديّ أبداً صداقة مع أي أحد تسمح له بمناداتي بهذه الطريقة... عبر الرجل الشارع مبتسماً وهو يسير بسرعة ليبادرني قائلاً «لم أنم أمس إلا بعد أن أنهيت واك... أنت روائي... كيف لم أسمع بك؟». أحسست بسعادة وتغاضيت فوراً عن انزعاجي من كلمة «لَك» إذ تبين أنها في سياق مودة وإعجاب وصداقة مقبلة... شكرت الكواز على اهتمامه

الذي أسعدني فعلا، وعن شهادته لي بأنني «روائي!!» اتفقنا على لقاء آخر في نفس المقهى والتقينا لاحقاً ليعرفني إلى صديق كان قد قدم تواً من العراق.. صديق ستستمر صداقتي وتواصلي معه إلى اليوم وهو الأستاذ المترجم (باقر جاسم محمد).. كان باقر أكثر طلاقة وانبساطية من الأستاذ الكواز وسرعان ما انخرطنا في حديث سياسي كعادة كل العراقيين، مثقفين كانوا أو لم يكونوا... ولا أذكر كيف تطرق الحديث إلى (ابن العلقمي) وقصة سقوط بغداد على يد هولاكو. ردد الكواز رأياً يصف فيه ابن العلقمي بالسياسي «الواقعي» وكنت أنا- وما زلت- أكره كثيراً هذه الكلمة التي تستخدم لدينا لتبرير كل أنواع السياسات الفاشلة أو الحماقات التي تصب ضد مصالحنا... فالواقعية لدينا هي التبرير الوحيد لكل الهزائم والتراجعات أو التحولات المفاجئة غير المبررة لدى السياسيين... تحدث الكواز حديث العارف عن سقوط بغداد وأسبابه... وكنت أستمع استماع الجاهل للحديث، فلم يكن لديّ إلا فكرة غائمة عن الموضوع... ليست أكثر من المعلومات التي كنا قد درسناها في المدرسة قبل عقود... لكن شيئاً في داخلي لم يقتنع بالأمر... رفضت الفكرة، ورحت أبحث عن تبرير لرفضي... قادتني قدماي إلى مكتبة زليتن الرئيسية الموجودة قرب ضريح «سيدي عبد السلام الأسمر» وكانت مكتبة غنية بالمراجع التاريخية... قضيت أياماً وأنا أقرأ وأقرأ.. ثم أقرأ وأدوّن الملاحظات... وقد هالني فعلاً ما قرأته. وبرز في ذهني سؤال حقيقي مرير «هل تجوز خيانة حاكم أحمق؟ وما نتيجة ذلك؟» لا أدري متى ولا كيف بدأت أكتب بروفة لسقوط بغداد... كل ما أذكره هو أن البداية لم تتأخر كثيراً عن لقائي بالأساتذة في نهاية عام

١٩٩٨.. وقبل أن أفكر بكتابة نديم شهريار بكل تأكيد... كنت قد بدأت النص بداية صاخبة... بدأته بعبارة:

عز الدين – خيانة خيانة

ابن العلقمي – من خان من؟ ولماذا حدث كل هذا؟

كان عدد شخصيات المسرحية لا يزيد على ست شخصيات: المعتصم، وابن العلقمي، وهولاكو، والراقصة عرفة. وهذه الشخصيات كان لها ذكر في المراجع التي قرأتها... واخترعت شخصين هما عز الدين والحارس لأستطيع أن أكمل النص بشكل معقول... كانت مسرحية تاريخية في ثلاثة فصول... الفصل الأول يكتشف فيه عز الدين أن ابن العلقمي يتصل بالمغول ويراسل هولاكو وسيدور بينهما حوار صاخب حول هذا الموضوع... الفصل الثاني هو لقاء الخليفة بابن العلقمي، إذ نكتشف أن الخليفة كان عارفاً بالمراسلات بين وزيره وبين أعدائه... ومن ثم سيطلب منه أن يراسلهم باسمه وأن يدعوهم للتفاوض... أما الفصل الثالث فكان يصور دخول هولاكو إلى بلاط الخليفة العباسي... وانتزاع عرشه... كتبت المسرحية بأسلوب تاريخي.. ومن المضحك المبكي الآن هو أنني خلال قراءتي في مكتبة «عبد السلام الأسمر» لكتب التاريخ القديمة تعرفت لأول مرة في حياتي على مصطلحين جديدين هما «الروافض والنواصب» وهما مصطلحان تحقيريان يستخدمهما السنة والشيعة ضد بعضهما بعضاً... وجدت أنه من الـــــ «طريف» أن أستخدم هذين المصطلحين في سياق النص لأضفي طابعاً تاريخياً على لغة الحوار التي ستتحدث بها الشخصيات... ولم يدر بخلدي، لا ولا حتى في أحلامي أن الأيام ستدور... وأن كتب التاريخ ستفتح

وأن هذه المصطلحات القذرة ستصبح جزءاً من مفردات حياتنا اليومية في العراق...

أنهيت الفصول الثلاثة وحاولت أن أكثف الحوار... ومِلت قليلاً لاستخدام لغة فخمة تليق بتاريخنا الـــ«مجيد». أكملت المسرحية... وأقفلت الدفاتر... وتركتها ولم أعد لقراءتها... فلم يكن هذا النص هو ما أريد كتابته... ولم يكن الجهد الذي بذلته فيه قابلاً للتجاهل... احترت كثيراً... فقد قلت ولم أقل... لذا آثرت الانتظار...

٩ / ٥ / ٢٠١٤

اليوم هو الجمعة... وأنا أكتب قبل انتصاف الليل بقليل.. لم أغادر الشقة هذا اليوم... ولم أفعل شيئاً سوى الاستماع لنشرات الأخبار... تم تطويق الفلوجة وسلطت عليها نيران المدافع والدبابات... صور الجيش وهو يزحف بدباباته وآلياته الثقيلة تذكرني بالحرب العراقية الإيرانية والبرنامج الشهير وقتها «صور من المعركة» إلاّ أن المعركة اليوم تدور داخل المدن... وضد المدنيين... وصور أخرى عن مدينة أبو غريب التي غمرها السيل القادم من الفرات ليصل ارتفاعه إلى أكثر من متر وليدخل الماء الشوارع والبيوت وحديث عن نزوح ثلاثة عشر ألف عائلة خوفاً من الغرق... أخبار أخرى عن مفاوضات مع «بعض الشيوخ في المنطقة « وتعويضات قيمتها مليار دولار سيقبضها هؤلاء الشيوخ ثم تتم لملمة القضية وننساها فور أن تفتح لنا الحكومة مأساة جديدة في مكان آخر... ما زلت أحاول أن أفهم أبعاد مأساة أخرى حدثت قبل سنين وتم إسدال الستار عليها.. «حادثة الزركة» حيث قتل مئات المدنيين دون سبب واضح... ودون إعلان نتائج

للتحقيق... وكانوا حشداً ذاهباً لزيارة أحد المراقد الشيعية المقدسة في أحد المواسم الدينية... وحادثة جسر الشهداء الذي قتل فيه ألف عراقي... تذكرته اليوم حين سمعت أخباراً عن قصف جسر المفتول في الرمادي وهو مكتظ بالعائلات التي تهرب من نيران الجيش... فنتازيا دامية... خارج كل مألوف... فنتازيا دامية نشاهدها كل لحظة، حتى ألفنا نحن وأطفالنا مشهد الجثث المتناثرة هنا وهناك... هذا المشهد اليومي الذي تنقله إلينا كل وسائل الإعلام المحلية... أو نراه بأعيننا أحياناً ونحن نعبر شوارع الـ «وطن».. المالكي يخوض حرباً بلا حرب... يخترع الأعداء عدواً يلي الآخر... ويحرك الجيش ليهدم المنازل على رؤوس الناس.. فلعل القذائف المنهمرة تفلح في قتل شبح ما.. وبروفات سقوط بغداد... لم تنته... أعود لمسرحيتي... بروفة... تلك المسرحية التي آلمتني وأنا أبدأ بكتابتها... وعاندتني وأنا أحاول إكمالها... وأبكتني وانا أحاول تنقيحها أثناء طباعتها... كنت قد أكملت الفصول الثلاثة للمسرحية لكنني لم أكن قد قلت ما أريد قوله... بقي النص يحفر في داخلي... جنين لم يكتمل... ولم أستطع إجهاضه... وذات ليلة وبينما أنا مستغرق في نومي رأيت حلماً أيقظني فجأة... حلمت بأن إحدى الطالبات اللاتي يدرسن في المعهد «وربما كان اسمها رقية» حلمت بها وهي تردد الحوار الذي يقوله هولاكو في المسرحية... كانت تلك الطالبة سمراء ممتلئة القوام حادة الطبع كثيرة المزاح... وكنت أبذل جهداً للسيطرة عليها أثناء الدروس... لا أذكر ماذا كانت تقول في الحلم... لكنها كانت (هولاكو).. نهضت فجأة... أجفلت زوجتي وسألتني خائفة: ما بك... سأكتب قلت لها وأنا أغادر السرير بسرعة... اطمأنت وعادت

إلى نومها لأنها كانت قد ألفت نزواتي... كتبت الفكرة بسرعة لم أتوقف حتى ظهرت الشمس... وضعت مخططاً جديداً للمسرحية، إذ قسمت الفصول الثلاث إلى ٦ مشاهد. مشهدين في كل فصل... المشهد الأول هو النص التاريخي... المشهد الثاني سيوضح لنا أن ما شاهدناه كان مسرحية تقدمها طالبات عن سقوط بغداد... أربع طالبات برفقتهن رجل واحد... هو المؤلف والمخرج... وسيمثل أدواراً صغيرة في العرض... وهو من سيكون محوراً للنقاش بين جيلين... جيل يعرف ولا يجروء رغم أنه يرغب... وجيل يرغب ولا يعرف... وهو مستعد للتضحية في سبيل التغيير... أكملت تخطيط المشاهد ثم غادرت إلى عملي. ولا شك أنني قد خرجت كثيراً عن مواضيع المحاضرات التي كنت ألقيها فقد كنت مرهقاً نصف نائم... لكنني كنت سعيداً للغاية فقد وجدت حلاً لمشكلة نص أرقني... وأظنني سأبقى مديناً لذلك الحلم... ولرقية... فلولاهما لتركت واحدة من أكثر المسرحيات التي أعتز بكتابتها.. لم يسلمني النص نفسه بسهولة... فقد أعدت مراجعة وتنقيح هذه المسرحية مراراً... وقمت بتغيير العبارات التي يرددها البطل في آخر المسرحية أكثر من مرة... كنت أريد إكمال النص. لكنه كان يؤلمني فأتجنبه... تماماً كما يحدث معي وأنا أحاول إكمال هذا الكتاب أذكر الآن لحظة مرت بي وهزتني وأنا أحاول إكمال مسودة بروفة... كنت وعائلتي قد انتقلنا من شقتنا الصغيرة في مدينة زليتن واستأجرت بيتاً بحديقة شاسعة قرب المعهد ووسط مزارع النخيل... كان بيتاً صغيراً فيه صالة شاسعة كنت أستخدمها وأولادي كملعب مسقف نهاراً... وكانت مكتبي ليلاً... إذ كنت أذرع الصالة الطويلة ذهاباً وإياباً وأنا

أدخن وأردد حوارات النص. وذات ليلة؛ وكان الوقت قد قارب الفجر برزت زوجتي أمامي فجأة ونظرت إليّ طويلاً ثم قالت «إلى متى ستبقى تعاني كل هذا.. لقد كتبت وحاولت وحاولت... لِمَ لا تترك الموضوع... ليس بالضرورة أن تكون كاتبا.. لِمَ لا ترحم نفسك قليلاً؟» يبدو أنني كنت في وضع يثير الشفقة أتخيلني بشعر منكوش وعيون متورمة وهالات دخان السيكار الليبي (هانيبال) ذي الرائحة النفاذة والتي تملأ الصالة رغم اتساعها.. صدمتني كلماتها وكأنها أيقظتني من وهم طويل... فعلاً... من قال إن ما فعلته سيأتي بثمرة ما... ما قيمة ما كتبت... ولماذا أكتب؟ لِمَ لم أيأس بعد؟؟ وإلى متى سأعاني؟ ولماذا؟ لم أكن أملك جواباً عن كل هذه الأسئلة... أطفأت السيكار ونور الصالة وعدت إلى غرفتي محاولاً أن أنام... ولا أظنني قد فعلت فقد بقيت تلك الأسئلة تدور في ذهني.. منذ ذلك اليوم.. وحتى الآن.

الأحد ١١ / ٥ / ٢٠١٤

صباحاً... قرأت للمسرحي العراقي الكبير فلاح شاكر على جداره على الفيس بوك ما يلي «كتبت عن الفرار من العسكرية... وفي أقل من ساعة جاءني أكثر من ثلاثين إعجاباً وتعليقاً... كتبت عن إبادة الفلوجة... كأني أكتب لأشباح... هل أصدقائي يخجلون عن القول؟ أو لديهم مصالح في السكوت عن المجزرة؟ كلنا كتبنا عن صبرا وشاتيلا... الآن المذبحة أكبر.... إلخ». وإذا كان الأستاذ فلاح سعيداً أمس بكثرة من صرح عن بطولاته أمس في الهرب من الخدمة الإلزامية فلم يكن حرياً به أن يستغرب هروب هؤلاء من

اتخاذ موقف واضح بشأن ما يجري في الفلوجة... وما يجري في الفلوجة ملتبس وغامض والمواقف قد اختلطت كما علق البعض على استحياء... لكن الحقيقة واضحة جلية فرئيس الوزراء يصرح في أحاديث تلفزيونية مسجلة... وقد قصد أن تكون الأحاديث مسجلة «أن الحرب بين أنصار يزيد وأنصار الحسين ما زالت مستمرة». والشمري وزير العدل يرفع وصف الآخذ بالثأر!!! شعاراً لحملته الانتخابية... الحكومة غاصت وتغوص في مستنقع فساد فاحت رائحته وهي تبحث عن مخرج وليس هناك مخرج أفضل من حرب ذات صبغة طائفية في فترة الانتخابات... ويجب ألاّ ننسى طبعاً الفوائد الهائلة للحروب في التغطية على كل أشكال النهب والسرقة وإهدار ثروة البلاد... كم كلفة الأشهر الأربعة التي قضاها الجيش وهو يحارب «الدواعش» في الأنبار؟ كم كلفة مقتل كل داعشي؟ إحدى النائبات في البرلمان العراقي صرحت اليوم بأن حوالي خمسين ألف عائلة تم تهجيرها في عموم محافظة الأنبار. وأن أكثر من أربعين قرية قد غرقت بالكامل بمياه الفرات. لست بصدد سرد الأرقام ولا توثيق كل الجرائم والمهازل التي ترتكبها الطبقة الحاكمة بثقة عالية بالنفس وبرأس مرتفع ودون حساب لأي مساءلة... حادثة أخرى وقعت في قرية جنوب الموصل اليوم... مأساة أم مهزلة؟ وكيف؟ ومن يتحمل المسؤولية... رغم أني بعيد أو ربما لأنني بعيد عن العراق فأنا أحرص في أي وقت على متابعة الأخبار. لكن ما حدث جنوب الموصل في قرية اسمها «عين الجحش» وذكرته كل القنوات العراقية أثار استغرابي، رغم أنني لم أعد أدهش من شيء يحدث في العراق كما يفترض... الخبر قصير جداً... (اختطاف وإعدام عشرين جندياً

من موقعهم في مكان قرب جنوب الموصل)... من لديه القدرة على اختطاف عشرين جندياً!!! إن اختطاف عشرين تلميذاً في الابتدائية أمر جلل ولا يمكن أن يحدث بسهولة، أو يمر دون ملاحظة.. فكيف باختطاف عشرين جندياً مسلحاً... درسنا في الكلية العسكرية أن عدد المهاجمين يجب أن يكون ثلاثة أضعاف عدد المدافعين، أي أنه يفترض أن يهجم ستون شخصاً ويباغتوا الجنود العشرين كي يتمكنوا من خطفهم ثم إعدامهم... كيف يتحرك ستون شخصاً في بلد كله متاريس وأكياس رمل وأسلاك شائكة دون أن يكتشفهم أحد؟ إنهم بحاجة إلى ثماني سيارات على الأقل لنقلهم؟ كيف لم يكتشف الضحايا ذلك. وكيف تم تجريدهم من سلاحهم ونقلهم... أليست لديهم أجهزة اتصال؟ أليست هناك قوة إسناد تمكنت من إسعافهم أو ملاحقة قاتليهم... هل كان الجنود العشرون دون ضابط يقودهم... لماذا لم يذكر ذلك... عشرات الأسئلة تتوارد إلى ذهني الآن... ولا جواب مقنع... كأننا لا نتحدث عن جنود مدربين مسلحين وهم في أقصى درجات التأهب لأن الوضع ساخن... سيتم نسيان هذه الحادثة بسرعة وسط دوامات الأحداث المتلاحقة.. لكن الحقيقة الباقية والمؤلمة هي أن عشرين شاباً عراقياً تم اغتيالهم بعد أن زجتهم القيادة في موقف لا يستطيعون الفكاك منه لتستخدم هذه الحادثة كجزء من سلسلة الأحداث التي تبرر للحاكم استخدام مزيد من القوة... وستكون جثث هؤلاء الشباب المغدورين رسالة كراهية وحقد لا يُنسى يُغذي الصراع الطائفي المطلوب من قبل الطبقة الحاكمة لكي يتمكنوا من الاستمرار في مشروعهم الدنس. كيفما التفت لا أرى إلا الخراب الذي يعصف بالعراق على يد مجموعة من

الحمقى الذين تم دعمهم لإكمال المهمة التي أعلن (جورج بوش) من حاملة الطائرات أنها أنجزت... ولم يكن صادقاً... وانسحب بوش وجنوده، وأوكلا المهمة القذرة إلى هؤلاء القذرين. وهم جادون في إكمالها. جادون تماماً في تدمير العراق...

الأربعاء ١٤ / ٥ / ٢٠١٤

أكتب فجراً... لم أستيقظ بنشاط وأنهض لأدوّن الكلمات لأنني لم أنم بعد... أنا قلق... قلق لأنني أتابع الأخبار.. عشر سيارات تنفجر اليوم في مناطق مختلفة من بغداد والناطق الرسمي باسم وزارة الدفاع يقول إن هذه التفجيرات دليل قاطع على اندحار الإرهابيين وإفلاسهم!!!

ولم أجد إعراباً مناسباً لهذه الجملة... مسكين... ماذا يستطيع أن يقول غير ما قال؟ أنا قلق أيضاً لأنني سأسافر مساء الغد إلى تركيا في رحلة لم تكن في حساباتي... عرض عمل مفاجئ... لا أعرف بعد هل سيناسبني ذلك العمل أم لا... لست متفائلاً، لكنني سأجرب... فأنا شبه تائه... عملي الذي بذلت فيه جهد عشر سنوات يتلاشى... لن أستطيع الاستمرار فيه... لأنني لن أتمكن من البقاء في الموصل... ولا في العراق... وعليّ أن أبحث عن «بداية جديدة»... ـ يصادف أن تكون عبارة «بداية جديدة» اسماً لأحد مسرحياتي.. هل هي حقّاً مجرد مصادفة؟ ـ .. ليس من السهل أن أبدأ من جديد وأنا على مشارف الخمسين لكن الضرورة اقتضت ذلك... وعليّ أن أحاول... أنا قلق ومنزعج لأنني لن أتمكن من الكتابة بانتظام كما كنت قد خططت. كنت قد وضعت جدولاً قسمت فيه المادة التي سأكتبها وفقاً للأيام

التي تبقت لي في عمان... كان يفترض أن أغادر عمان راجعاً – متخفياً – إلى الموصل في يوم ٦/٣ وكنت أتوهم أنني سأتمكن من إنهاء المسودة الأولى لهذا الكتاب خلال الأسبوعين المتبقيين لي... لكن الجدول تغير... لا بد لي من إيجاد عمل بدخل معلوم كي أتمكن من مواصلة الحياة... وسأكون مضطراً لتأجيل الكتابة... لكنني لن أؤجلها طويلاً هذه المرة... الأفكار مختمرة في ذهني... أعرف ما أريد أن أقول... وكيف سأقوله.. أريد أن أكتب بكل بساطة... أريد أن ينسى القارئ أنه يقرأ... أتمنى أن يشعر وكأنني أتحدث إليه مباشرة... لا وقت ولا مزاج لديّ لتكنيك معقد... أو للغة بليغة فخمة قد تبدو مضحكة وسط هذه المهزلة... أنا قلق الآن... لكنني أكتب... وما دمت أكتب فلأحاول أن أكمل حكايتي... «آمادو».. آمادو هي أكثر مسرحية قدمتني للناس. نص من أحب النصوص إلى قلبي وهو نص فرضه شكل كتابته عليّ... وقد كانت بذرته الأولى مغروسة في داخلي منذ عام ١٩٧٥ وأنا ما زلت طفلاً في المرحلة الابتدائية... كم هو غريب ما يحدث في النفس البشرية... وكم هو غريب عالم الذكريات... أذكر تماماً ذلك اليوم الذي دخل فيه معلمنا «عبد الله أفندي» كما كنا نسميه... وكان معلماً وسيماً أنيقاً قصير القامة حاد الذكاء والطبع... قال: سمعتم الأخبار أمس... سمعتم الخبر عن الجندي الياباني الذي عثروا عليه في الغابة وهو لا يعلم أن الحرب العالمية قد انتهت منذ ثلاثين عاماً؟ «ثلاثون عاماً كاملة» كنا قد سمعنا الخبر ولم نأبه له... لكن صدمة «عبد الله أفندي» وهو يرويه لنا تركت في نفسي انطباعاً مختلفاً... ثم تلاشى الانطباع يوماً فيوماً أو ظننت أنه تلاشى... وذات يوم من أيامي الليبية وكنت قد انتهيت

من كتابة إحدى مسودات بروفة «وما أكثر ما كتبت من مسودات» ذلك اليوم وأنا في استراحة «محارب» كنت أشاهد قناة الجزيرة في العام الثاني أو الثالث من بداية بثها، وكانت تقدم برنامجاً وثائقياً عن الحرب العالمية الثانية... انتهى بلقطات عن الجندي الياباني الذي «لم يعلم» بانتهاء الحرب... وخسر ثلاثين عاماً من عمره وحيداً يرتدي بدلة الحرب... تابعت المشاهد وروحي تريد أن تعوي... أحسست بألم الجندي... وألم كل الجنود الذين نسيهم قادتهم في الغابات أو في أزقة المدن يتسكعون بعكازات متآكلة باحثين عن لقمة يسدون بها رمقهم... كم كان يؤلمني أن أرى منظر أحد جنودي السابقين ممن كانوا يتفانون في جهودهم غير آبهين للمخاطر الجسيمة التي كانت ترافق كل خطوة يخطونها... كم كان يؤلمني أن أراهم يمارسون مهناً مذلة بعد أن تسرحوا من الخدمة الإلزامية... وكان يغيظني أن أرى الهاربين والمتخلفين والمتحايلين على القانون وهم أفضل حالاً ممن خدم والتزم وضحى... كلهم آمادو... وأنا.. أنا بطريقة ما آمادو أيضاً...

صدمتني المشاهد التي أعادت لي صدمة طفولتي الأولى حين استمعت لقصة هذا الجندي أول مرة... وبدأ شيء ما يتآكلني... آمادو... اخترت الاسم مبكراً... وبدأت أبحث عن مدخل لهذا النص... ظننت أن القصة موجودة... قريبة سهلة المنال وليس عليّ إلاّ أن أقشرها.. لكنني كنت واهماً... كنت واهماً للغاية دوّنت ملاحظاتي لرواية ضخمة لم أكملها لحد الآن... رواية أجيال ثلاثة تبدأ بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وتنتهي بعد قرن... كنت قد خططت لأن تكون الرواية في ٤٥ فصلاً رسمت خطاً زمنياً

للأحداث... وزعت الفصول على الخط... كتبت الفصل الأول... ثم الثاني ولكنني لم أتمكن من الاستمرار... قمت بكتابة فصول متفرقة غطت معظم الخط... الرواية ضخمة في ثلاث مراحل أو أجزاء... كتبت الأحداث التي أتوقع أن تناسب هذه المرحلة أو تلك... وفجأة وصلت إلى الفصل الأخير الذي تجلى لي كاملاً فكتبته في جلسة واحدة... ما زلت أحتفظ بأربعة دفاتر تحوي أكثر من عشرين فصلاً من (الأوديسة العربية) هذه الرواية التي لم أكملها ولا أحب أن أتحدث الآن عن تفاصيلها... لكنني أظن أو أتمنى أن تأخذ مكانها اللائق. مكانة تناسب الجهد والألم اللذين بذلا في سبيل إنجازها... جلبت معي مسودات هذه الرواية إلى عمان... وهي تقبع بهدوء في حقيبتي... لكنني لم أمسسها ولم أقلب صفحاتها لأنني أعلم أن إكمالها سيتطلب مني تفرغاً لمدة لا تقل عن ستة أشهر... وقد يمتد الوقت لسنة أو أكثر... وهو وقت غير متاح لي الآن على الإطلاق...

كان العام الدراسي ١٩٩٩–٢٠٠٠ من أجمل السنوات في حياتي... كانت زوجتي قد حظيت بعقد عمل لمدة سنة معي في معهد الزهراء... وكنا نسكن البيت ذا الحديقة الكبيرة المجاور للمعهد... استمتعنا بصحبة عوائل عراقية وليبية... وفي الشرفة المطلة على الحديقة شاهدت الدموع في عيني زوجتي وهي تبكي فرحاً لرؤيتها (ميس) وهي تغادر بوابة البيت الكبيرة، مرتدية ملابس المدرسة، ذاهبة إلى يومها المدرسي الأول، برفقة عدد من البنات الليبيات... في ذلك البيت استقبلت وعائلتي الألفية الثالثة... راقبنا الاحتفالات حول العالم على شاشة التلفاز... وكانت تحدونا أمنيات غامضة بحياة أفضل... لنا.. ولأولادنا... غير أن سعادتي

العائلية لم تدم طويلاً فقد اضطررت إلى ترك هذا المنزل بعد أن انتقل مالكه للعمل في زليتن – وكان يعمل في مدينة أخرى – فاحتاج إليه ليسكنه. لم أكن قادراً على العودة للسكن في شقة صغيرة... ولم أجد بيتاً مناسباً، فاستأجرت بيتاً آخر مجاوراً لكنه كان موحشاً يقطر كآبة... شعر الأولاد بالفرق الكبير... ولا أدري من همس خلسة في أذن زوجتي بأن هذا البيت مسكون بروح شريرة... فأصابها قلق شديد وبالغت في الحرص على الأولاد ومتابعتهما... كان بيتاً سيئ البنيان وبحاجة إلى بعض اللمسات لا أكثر ولا أقل... لكن الغربة والوحشة وهمسات الجار دفعت زوجتي لتهمس في أذني ذات يوم قائلة «هل ستحزن لو طلبت منك أن أعود أنا والأولاد إلى العراق؟» لم أكن سعيداً طبعاً بهذا الطلب... لكنني لم أكن مرتاحاً وأنا أراهم يعانون معي... وما أن انتهت عطلة الصيف حتى كنت أودعهم في مطار طرابلس... وكان برفقتهم صديقي (د. حيدر الساعدي) الذي كان ذاهباً إلى عمان ليجلب عائلته وليكرر تجربتي – إلا أن المطاف انتهى به لاحقاً في السويد.

ومع بداية العام الدراسي ٢٠٠٠/٢٠٠١ عدت وحيداً ثانية... انتقلت للسكن في مبنى غريب مع صديقي غيث... كان مكاناً شاسع المساحة... مرتفع الأسوار فيه بناية صغيرة تحتوي على غرف إدارة صغيرة ومطبخ شاسع... وفي إحدى تلك الغرف أقمت وغيث في ملعب (كشافة زليتن)... لم يكن مكاناً معداً للسكن أصلاً... لكنه كان مكاناً شبه متروك... هادئاً للغاية، وحول الساحة الضخمة أشجار صنوبر عملاقة مملوءة بأعشاش الطيور... بشكل ما كان هذا المكان مثالياً لي، إذ يوفر لي الوحدة، والهدوء... وفسحة أستطيع

استغلالها للمشي والتأمل... وكان غيث شريكي في السكن شاباً دمثاً يمكن التعايش معه بسهولة... وكان يعيش على أمل واحد هو أن يهاجر إلى أوربا... وكان لا يجرؤ أبداً على أن يقوم بأي خطوة في هذا الاتجاه... ويشعر بغيظ شديد كلما نجح أحد أصدقائنا في عبور المتوسط والعيش هناك... وعن صاحبي غيث سأكتب لاحقاً قصة من أقرب القصص إلى نفسي...

فجر الجمعة... مطار علياء الدولي... ١٦ / ٥ / ٢٠١٤

سأغادر عمان إلى إسطنبول...

سأغادر عمان وأخشى ما أخشاه هو أن ينقطع الدفق الذي انتابني للكتابة... تركت شقتي الصغيرة في عمان وودعت شجرة الـ (انكي دنيا) المثمرة التي كانت تنتصب أمام نافذة غرفتي، حيث وضعت طاولة الكتابة لأتمتع برؤية تلك الشجرة الأنيقة وثمارها الذهبية التي لم أتذوقها... كنت دائماً أتأمل تلك الشجرة قبل أن أشرع بالكتابة.. واليوم... ألقيت نظرة وداع أخيرة على تلك الشجرة وأنا أغادرها شاعراً بالامتنان تجاهها. كنت أحب الزهور... وما زلت... لكنني الآن أصبحت أعشق الأشجار... أحس بأنها هي حقاً واهبة الحياة... ليس لهذا السبب تحديداً، ولكني لا أجد تفسيراً منطقياً لهذا الشغف الذي بدأ معي قبل أربع أو خمس سنوات... إذ تملكني حلم غريب هو أن أشتري قطعة أرض كبيرة وأملأها بأشجار صنوبر أو أي أشجار أخرى لها القابلية على النمو والديمومة... ثم تطور حلمي وتمنيت أن يمتلئ هذا المكان بالطيور... والأطفال وأن يكون وقفاً ومتاحاً لكل الناس. ثم تطور حلمي أكثر وأكثر وأصبحت أتمنى أن أدفن في

هذه الغابة الجميلة حيث تحلق الطيور ويضحك الأطفال.. لنحلم ونحلم... لا ضير في ذلك... ما دمنا لا نستطيع أن نعيش حياتنا الحقيقية.

توقفت أمس عن الكتابة مع بداية عام ٢٠٠٠/٢٠٠١.. حينما ودعت أولادي وعدت للسكن مع أحد الأصدقاء... كنت قد انتهيت من كتابة عدة مسودات لـــ «بروفة» لكن النص لم يكتمل... ولن أتوقف أبداً عن تنقيحه كلما قرأته حتى انتقلت إلى الإمارات في نهاية عام ٢٠٠٢...

وكنت قد وضعت هيكلاً لمسرحية آمادو وتوقفت أمام معضلات كثيرة واجهتني وانا أعالج هذه الشخصية التي أردت أن أحملها أكبر قدر ممكن من مآسي الحرب واحتمالاتها العنيفة. كنت أريد آمادو نقياً، وقاسياً، ذكياً، وساذجاً، ومسحوقاً معاً... وكانت درايتي بالنفس البشرية تمنعني من خلق شخصية مفتعلة كهذه... ضحية وجلاد وشهيد في ثوب واحد... تركت النص ولم أترك الكتابة... انتابتني حمى القصص القصيرة فكتبت عدداً منها... وجه ضاحك... المحترم جداً... شمروخ... لحظة وعي... حكاية مسرحية فيلم فنتازي طويل... وقصة غيث التي أشرت إليها سابقاً... لم أكتب القصص متتالية... وكنت أشعر أثناء كتابتي لهذه القصص بأنني أخون روايتي التي كتبت منها عشرين فصلاً كما أذكر ثم تركتها معللاً نفسي بضرورة إجراء الكثير من البحوث في العلوم الإنسانية وبعض العلوم البحتة قبل أن أكملها... وذريعة الحصول على المعلومات وضرورة إجراء بحث تفصيلي «أحاول دائماً التهرب منه» عيب يلازمني وهو ذريعة محترمة للتهرب من الكتابة ومعاناتها. أما

القصص القصيرة... فرغم أنها «قصيرة» إلا أنها نوع خطر من الكتابة في تقديري... فإذا كانت الرواية أو المسرحية معركة يجوز فيها الكرّ والفرّ... التصعيد والتهدئة والتفاوض.. فإن القصة خلاف لذلك... إنها تشبه قناص يملك رصاصة واحدة... وفرصة محدودة لإطلاقها... فإذا ما أخطأ انكشف وكانت نهايته... وفعلاً لا يملك كاتب القصة القصيرة – وما زلت مصمماً على أن هذا الجنس من أجمل وأصعب أنواع الكتابة – لا يملك كاتبها فرصة أن يفلت منه القارئ لحظة واحدة. وربما كان هذا هو السبب الحقيقي وراء ندرة الأعلام في مجال القصة القصيرة رغم كثرة من حاول كتابتها... يوسف إدريس ونجيب محفوظ في مصر... والتكرلي في العراق... ثم الغيطاني ولا أذكر قصصاً مميزة لآخرين... ومعياري في جمال القصيرة هو مدى قوة ارتسامها في ذاكرتي... فبعض قصص تشيخوف وساروريان وبو ما زالت ماثلة أمامي رغم أني قد قرأتها منذ عقود... وكذلك قصص إدريس ومحفوظ والتكرلي.... كتبت قصصي هذه خلال عامين... ولم أفكر بإرسال أي منها إلى مجلة أو صحيفة أدبية... رغم أنني كنت أتابع باستمرار صحيفة «أخبار الأدب» المصرية... وأذكر أنني نشرت فيها مقالين في اشتباك أدبي مجاله «فقه اللغة» وليس النصوص الإبداعية مع كاتب ومترجم مصري هو الأستاذ «بيومي قنديل» ونشرت صحيفة أخبار الأدب ردي كاملاً على مقاله الأول وهو رد استغرق صفحة كاملة من الصحيفة... ثم ردي الثاني عليه في صفحة أخرى كاملة... وكان نزاعنا حول نوع الشعر العامي يبدأ بكلمة «شوباش» وتوهم الأستاذ قنديل أنها كلمة من أصل (قبطي) لأنه لم يجد لها أصلاً عربياً... وكانت فرصة لي لاستعراض عضلاتي مع

ملاكم أخطأ وجرته قدمه خطوة واحدة خارج ملعبه وكان رده على مقالي ذو طابع إيديولوجي بحت، إذ يبدو أنه قد أدرك خطأه فحاول جر المعركة إلى ميدان آخر... لكنني واصلت هجومي ووضحت استراتيجيته وفشله في الدفاع عن طرحه... كتبت المقالات للتسلية... وللتجربة... هل سأستطيع النشر في دورية عربية محترمة... وكان الرد إيجابياً وضحكنا أنا والأصدقاء في ليبيا من المقالات التي كانت تنضح بالسخرية... ولا أدري إن كنت أحتفظ بنسخة من الصحف في مكتبتي أم أنها ضاعت ضمن ما ضاع بسبب أسفاري الكثيرة ومكتباتي التي تفرقت بين الدول والمنازل المختلفة التي سكنتها.. وأنا لا أهتم كثيراً بالاحتفاظ بما ينشر لي أو عني رغم أنني كنت أود ذلك... ويفاجئني أحياناً بعض الباحثين الشباب الآن بدراسات أو مقالات عني أو لي كانت قد نشرت ونسيتها أو لم أعلم بها وقد عثروا عليها هم أثناء كتابتهم عن أحد أعمالي...

لم يبق الكثير على موعد إقلاع طائرتي... سأكتفي بهذه الصفحات القليلة اليوم وأصعد إلى الطائرة... سأذهب وكلي خشية من أن تغير رحلتي الاضطرارية إلى تركيا مزاج الكتابة العالي الذي استمتعت به في عمان... أم لعلّي أعثر على شجرة جديدة أمام نافذة جديدة... من يدري؟؟

الاثنين ١٩ / ٥ / ٢٠١٤

عدت أول أمس إلى بيتي... وصلت الموصل قادماً من أورفا التركية ليلاً... وما إن اقتربت من البيت حتى فاجأت سيارتنا مفرزة عسكرية تقوم بغلق الشارع وإعادة السيارات القادمة –ومعها

سيارتنا– إلى الخلف... ليس هذا جديداً عليّ ولكنه تطلب منا أن ندور في جولة استغرقت نصف ساعة إضافية وكان قد بقي دقائق لأصل باب داري... وما إن ترجلت من السيارة حتى دوت أصوات ثلاث قذائف أو متفجرات قوية... أعقبتها زخات رصاص... عبوات انفجرت بالتلاحق أو قذائف هاون أو صواريخ جراد لا أدري تماماً، لكنني كنت سعيداً بعودتي لبيتي ورؤية ميس وعبيدة وأمهما بعد غياب دام خمسين يوماً. بقيت في أورفا ٢٤ ساعة تقريباً قضيت معظم الوقت مع أشخاص من مدينتي ينوون فتح مدرسة خاصة هناك... وكنت قد استغربت من اختيار المكان لعدم وجود عراقيين هناك، لكنني التقيت أيضاً بعدد من السوريين الهاربين من جحيم المعارك مع عوائلهم... تجنبت تماماً أن أسألهم عن المأساة التي عاشوها والتي دفعتهم وعوائلهم للهرب مشياً على أقدامهم صوب المجهول... لكن الأحاديث تشعبت وتداخلت وشفّت عن ألم كبير عاشه ويعيشه السوريون مثلنا تماماً... التقيت برجل قانون وقاضٍ ورجل أعمال ووسط حديث اختلطت مرارته ببعض المزاح قلت لهم «أنتم من صدّر إلينا البعث وكل مآسيه» قال أحدهم «نعم... نعرف ذلك ونعتذر عنه» البعث السوري كالبعث العراقي... حزب سلطة دكتاتوري يقلد النمط الستاليني تقليداً أعمى رغم أن الظروف العامة التي تسمح لهذا النوع من الآليات في الحكم قد اندثرت منذ عام ١٩٨٩ حينما انهار الأنموذج الأكبر لها وأعني «الاتحاد السوفييتي» إلاّ أن الدكتاتوريات العربية تتصرف وكأنها لا علم لها بما حدث... ربما لأن منطقتنا بأكملها تعيش خارج سياق التاريخ وتحاول أن تختط لنفسها مساراً مختلفاً عن بقية الدول... وأكثر ما يدهشني،

بل ويضحكني أحياناً هو قيام الجماعات الحاكمة في العراق الآن بالاحتذاء بنفس النمط الستاليني أو البعثي رغم عجزها عن لعب هذا الدور الذي انقرض أصلاً في العالم أو كاد... وأجدني أردد سؤال ليدل هارت الخالد «لماذا لا نتعلم من التاريخ؟».

الثلاثاء ٢٠ / ٥ / ٢٠١٤ الواحدة والنصف فجراً

قبل ساعات تم إعلان نتائج الانتخابات بعد أكثر من عشرين يوماً على إجرائها... وكما هو متوقع تماماً فقد فاز الحاكم الحالي نوري المالكي بأغلبية ساحقة... ووسط اتهامات روتينية بالتزوير تبادلها كل القوائم والمرشحين بعد كل انتخابات سؤال بسيط... كيف يفوز بمئات الألوف من الأصوات رجل كانت صوره تحرق وتمزق في كل المدن قبل الانتخابات بأيام... رجل قاد البلاد إلى الإفلاس والفوضى وحوْل ما تبقى من بُنى تحتية إلى خراب وأوصل العراق إلى شفير الحرب الأهلية... رجل وقف بجدية عالية وبصدق افتراضي مقنع جداً ليتحدث عن الانتخابات وإرادة الشعب و.. و.. و.. و.. ولولا أنني أعيش في العراق وسط تلال الخرائب والحرية المصادرة والأمن الذي بتنا نحلم به... لولا ذلك كله لصدقت كل كلمة يقولها... ولولا أنني أعلم ويعلم كل العراقيين أن هذا الرجل وطاقمه قد بدد نصف تريليون دولار على الأقل خلال ثماني سنوات دون أن نرى أية ثمرة.. لصدقته... لم أحس بخيبة أمل بعد إعلان النتائج... فقد كنت أتوقع التزوير... كل القوائم وكل المرشحين يحاولون التزوير بعد أن أصبح عرفاً سياسياً مقبولاً... وضحية هذه الحملة الشعواء هم المرشحون الصغار الذين لا يملكون قدرة عالية على التزوير لافتقارهم

لأدواته التي تمولها المليارات المختلسة من ميزانيات الوزارات والنقود التي تتدفق من خلف الحدود... يرشح عدد كبير من الناس... يذوب الصغار... ويبقى الكبار كباراً بفضل قوتهم التي تتضاعف مئات المرات وهم على كراسي الحكم... مفوضية الانتخابات استغرقت عشرين يوماً لتفصل نتائج تناسب مقاس الحاكم وحزبه. وسيلجأ بعض المرشحين للقضاء... وهذا لن يقلق الحاكم... فلم يحدث أن خسر الحاكم قضية واحدة منذ أن جلس على كرسيه لحد الآن... لم تفاجئني نتائج الانتخابات... لم تفاجئني، بل زادت من حدة اشمئزازي من المهزلة التي تدور أمامنا رغم أنوفنا.. ودون أن يترك أمامنا أي خيار للتغيير الحقيقي أو لمحاولة إصلاح بعض الضرر الذي يفتك بالبلد... ودون حياء يذهب رئيس (مجلس القضاء الأعلى) إلى إيران ليتلقى الأوامر أو ليحاول أخذ المزيد من الدعم... ودون حياء تعلن أمريكا التي زجتنا في هذا الجحيم أن الانتخابات جرت بشكل مقبول. والناس من حولي مثلي تماماً يزدادون يأساً على يأس. ما أشبه طبقة السياسيين التي تجثم فوق صدرنا ببطل قصتي «المحترم جداً» ذلك المثقف الأنيق اللبق الذي يركب سيارة أجرة لتوصله إلى «مركز التخطيط الاستراتيجي» لتنتهي القصة بسائق السيارة واقفاً أمام ضابط الشرطة وهو لا يستطيع تقديم الشكوى ضد السارق الـ «محترم جداً» لأن الضابط يحذره من أن السارق قد يكون فعلاً أحد «المحترمين جداً» في الدولة، وهذا سيجعله يخسر ما هو أكثر من سيارته. وليخبره أيضاً بعدم وجود أي مركز للتخطيط الاستراتيجي في المدينة، بل في الدولة كلها.. كتبت هذه القصة في فترة استراحتي من كتابة المسرحيات، المسرحيات التي بدأ الشك يراودني حول

إمكانية نشرها أو تقديمها أيضاً... نشر قصة قصيرة في مجلة أو صحيفة أمر سهل بكثير لكن نسيانها أو عدم الاهتمام بها سيكون أمراً سهلاً أيضاً فلا تخلو مجلة من قصة قصيرة... قد يقرؤها أحد ما، وربما تمرّ دون قراءة.. أما قصة «حكاية مسرحية فيلم فنتازي» بعنوانها الممل الملتبس فقد كانت تتناول نفس الشخصية من زاوية أخرى.. مدينة يحلم كل شبابها بإنتاج فيلم... وممول يأتي عارضاً خدماته ليكتشف الجميع تدريجياً أنهم قد تعرضوا لخدعة حقيرة أجبرتهم على التنازل عن كرامتهم وجردتهم من دار السينما العامة الموجودة في المدينة دون أن يدركوا الورطة التي وقعوا فيها... وأنهم قد خسروا كل ما يملكون وجُرّدوا حتى من أحلامهم وأُجبروا على البقاء متفرجين مرغمين على مشاهدة مسرحية مملة لا تنتهي...

أما قصة شمروخ فهي لا تحمل طابعاً سياسياً مباشراً، إذ إن أبطالها ثلاثة... شاعر ومثقف حقيقي لا يملك ثمن حذاء جديد، ومثقف مزيف يركب المرسيدس، ومثقف تابع وظيفته تلميع صورة المزيف.. لطالما أثار النوع الثالث اشمئزازي... لا سيما وأنا أراهم يتناسلون من حولي. فبعد أن تلاشى الحزب الواحد وخسر هؤلاء المثقفون دورهم كأبواق رسمية أخذوا يبحثون بجد عن أحزاب صغيرة أو شخصيات تملك أرصدة ضخمة ليؤسسوا جرائد أو فضائيات محاولين الاستمرار في تأدية أدوارهم كأبواق حيناً أو نايات حيناً آخر... أو صفارات إنذار تعوي إذا اقتضى الأمر ذلك.

السبت ٧ / ٦ / ٢٠١٤

الساعة الآن هي الثالثة فجراً استيقظت صباح الأمس مفزوعاً

على هدير مدافع تدوي من مكان قريب. لم أصعد إلى سطح المنزل لأستطلع... منعتني زخات رصاص كانت تصاحب دوي المدافع. بقيت في المنزل – وانا أصلاً لا أغادر المنزل منذ عودتي إلى العراق – واستمرت الأصوات ترتفع حيناً وتخفت حيناً... اتصلت بأصدقائي ليخبروني أن «ميليشيات داعش» قد هاجمت أحياء مختلفة في المدينة بعد أن نجحت في سرقة سيارات «الجيش العراقي» واستخدمتها للوصول إلى نقاط تجمّع الشرطة ثم اقتحمت هذه النقاط وأوقعت كثيراً من القتلى... فهمت بعدها أن أصوات المدافع كانت تنطلق من وحدة عسكرية قريبة من بيتي لتصيب بيوتاً في أحياء متفرقة من المدينة... أي أن وحدات الجيش تطلق نيران المدافع من الثكنات صوب أحياء مأهولة... قبل قليل كنت أتصفح الصور على الإنترنت... جثث المدنيين مقطعة الأوصال في الشوارع نتيجة هذا القصف لأحياء سكنية... أما ميليشيات داعش والتي قدرت القوات الأمنية عددها بأربعمئة فرد فهي لا تزال تحتل أحياء سكنية يقدر عدد سكانها بمئات الآلاف... لا يمكنني أن أصف ما يحدث إلا بالمهزلة... أربعمئة شخص يهاجمون مدينة سكانها أكثر من مليونين ونصف المليون نسمة.. يهاجمون المدينة فجراً بسيارات عادية مع أن كل شوارع المدينة وساحاتها ممسوكة من قبل قوات الجيش والشرطة في مواضع محكمة بأكياس الرمل والأسلاك الشائكة ولا ينقصها إلا حقول الألغام لتصبح المدينة بأكملها جزءاً من ساحة أمامية لمعركة... قوات الجيش والشرطة في المدينة يزيد عددها على خمسين ألف رجل، ومع هذا فإنهم لا يملكون الجرأة على مواجهة أربعمئة مرتزق لا أحد يعرف تماماً من أين جاءوا، رغم أننا نعرف جميعاً من هو المستفيد الوحيد من وجودهم... بالمناسبة نتائج الانتخابات لم يتم تصديقها

لحد الآن رغم مرور أربعين يوماً على إجراء الانتخابات... ومازال هناك رابحون سيخسرون... وخاسرون سيربحون... ولاتزال معركة الجيش في الأنبار مستمرة دون حسم للشهر الخامس، وقد وصل عدد النازحين من المحافظة إلى أكثر من سبعين ألف عائلة...

أنا لا أغادر البيت... لقد حبست نفسي بين الجدران آملاً أن لا يشعر من هددوني بوجودي... أنا منقطع عن العمل منذ سفري ولحد الآن... حاولت أن أستغل وقتي بالكتابة... كتبت قليلاً في عمان، لكنني توقفت عن ذلك بعد عودتي بيومين أو ثلاثة.. فرغم أني حبيس بيتي إلاّ أن كل ما حولي يشغلني عن الاستمرار... لست في المزاج المناسب للعمل... ولولا بشاعة ما رأيت اليوم... والغليان الذي يعتمل في صدري... وإحساسي القاتل بأنني أقف مكتوف الأيادي وأنا أرى مدينتي تستباح ولا أستطيع أن أحرك ساكناً... لولا ذلك كله لما كتبت حرفاً واحداً... ليس هذا هو إحساسي أنا فقط... إنه شعور عام لدى جميع من اتصلت بهم اليوم... كنت قد تحدثت مراراً في كل اجتماع عام حضرته عن ضرورة إيجاد وسيلة ما تمكننا نحن المواطنين العاديين من القيام بدور ما في لحظات الخطر الذي يصيب المدينة... وكان اقتراحي يلاقي استحساناً من الجميع لكن أحداً ما لم يضعه موضع التنفيذ... وها قد حدث ما كنت أخشاه.. فيلم قصير شاهدته على الإنترنت قبل قليل جعلني أرغب بالصراخ... طفل دون الثالثة من عمره يجلس على الرصيف وحوله تتناثر بقايا أجساد نساء وبنات صغار... يجلس صامتاً ورأسه بين كتفيه... يقترب أحد المارة ليحمله ويركض به إلى مكان ما وينتهي الفيلم... والأشلاء... الذهول... العجز... إنه العراق... كل العراق...

الثلاثاء ١٠ / ٦ / ٢٠١٤

الساعة الثانية والنصف فجراً والتليفون لم يتوقف عن الرنين وشبكة الإنترنت متوقفة عن العمل... وحظر التجوال مستمر رسمياً إلاّ أن الشوارع – ولأول مرة منذ سنين بعيدة – ملأى بالسيارات التي تسير ليلاً وهي تحمل العوائل النازحة من مدينة الموصل هرباً إلى أي مكان خارجها بعد أن تمكنت قوات داعش بتعدادها الذي لا يزيد على بضع مئات من المقاتلين... تمكنت تلك القوة من اجتياح كامل الجزء الأيمن من المدينة والوصول إلى مبنى المحافظة واحتلاله واحتلال عدد لا أعرفه من المنشآت الحكومية ثم تمكنت هذه القوات من عبور الجسور الخمسة التي تربط جزئي المدينة الأيمن والأيسر، وتتحرك هذه القوات الآن لتقترب من بيتي الواقع قرب مقر الفرقة العسكرية الثانية وقائدها الذي أنا واثق بأنه قد هرب منذ ساعات بعد أن سحب قواته أو فرقها تاركاً المدينة نهباً لحفنة مسلحين... لا هو أوقف المهاجمين ولا هو قد سمح للناس بصدهم... هذه هي المرة الثانية التي يتم فيها إحراق مبنى المحافظة في عهد (أثيل النجيفي)... المرة الأولى عام ٢٠١٠ حينما تقدمت قوات الجيش وسط حشد من المتظاهرين وكسرت سيارات (الهمر) المصفحة أبواب المحافظة وسمحت لحفنة من الغوغاء بالدخول إلى مبنى المحافظة لإحراقها... وهذه المرة كانت العملية أوسع بكثير، إذ تطلّب الوصول إلى مبنى المحافظة إحراق نصف المدينة لحد الآن... وإحراق النصف الثاني جارٍ على قدم وساق... وكل هذا كي يتمكن السيد رئيس الوزراء من تجديد ولايته للمرة الثالثة... قناة التلفزيون العراقية الرسمية ترفع على زاويتها شعار «تصفية الحساب» وقادة الجيش وعشرات

الآلاف من الجنود الذين كانوا يدوسون على كرامة المدينة لم يحركوا ساكناً وكأن المعارك تحدث في دولة أخرى... هذا إذا استثنينا قذائف المدفعية التي تطلقها قوات الجيش باتجاه الأحياء السكنية. وقد نتج عن هذا القصف الأعمى مجازر لأناس كانوا يهرعون في الشوارع هرباً بأرواحهم أو آخرين تهدمت بيوتهم فوق رؤوسهم... أبيدت عوائل بأكملها من جراء هذا القصف... نحن إذن بين نارين... نار جماعات همجية مرتزقة هاجمت المدينة...

انتهى قبل قليل أفضل قلم استعملته للكتابة منذ سنوات... أستخدم الآن قلماً آخر وأحس بأنني لن أكتب بنفس الاندفاع... فالقلم يتعثر قليلاً فوق الورقة...

كنت أقول قبل سطور إننا بين نارين نار المرتزقة ونيران جيش احتل المدينة لسنوات وأذلها لكنه لم يقم بأي إجراء للدفاع عنها... الخراب الذي ألحقه جيش المالكي بالموصل أكبر بكثير من الخراب الذي حلّ جراء الاحتلال الأمريكي... أو حتى سنوات الحصار الثلاث عشرة.. وهو اليوم يسحب جيشه بعد أن أمن دخول قوات المرتزقة وتأكد من تمّكنهم داخل المدينة... ساعدهم على ذلك بالقصف المستمر للأحياء السكنية... وبحظر التجوال الذي فرضه على المدينة وشل حركتها رغم سماحه للمرتزقة بالحركة بحرية كبيرة... الكهرباء عادت قبل قليل وقناة الشرقية تعرض بعض الأخبار عن المدينة ومحلل عسكري عبقري يحلل بشكل علمي سبب اندحار خمسين ألف مقاتل نظامي أمام أربعمئة مقاتل مرتزق... وتبقى المبررات غير مقنعة حتى لطفل في الثامنة من عمره... لكن الدولة لا تهتم... وتحليلات العباقرة والخبراء ليست إلا ورقة توت صغيرة تضعها الحكومة وستبدو رداء

كاملاً أمام محبيها أو المنتفعين منها... المضحك المبكي هو أن المالكي يدعو إلى مؤتمر للمصالحة الوطنية... ولا أدري كم هو رقم هذا المؤتمر وسط سيل المؤتمرات التي تعقد بعد كل أزمة... وينتهي المؤتمر وتتفاقم الأزمة... المآذن الآن تؤذن لصلاة الفجر... هل يهرع جميع الأطراف للصلاة قبل أن يعودوا ليستأنفوا عملهم في قتل بعضهم بعضاً؟! سأنهي الكتابة الآن وأذهب لأعد حقيبة طوارئ صغيرة أجمع فيها وثائقي وأوراقي الرسمية فقد يجبروني على ترك المنزل في أي لحظة... ولا أدري هل أحمل معي دفتري أم أترك مسودتي مرة أخرى لتضيع... هل سأتمكن من الالتزام بالعهد الذي قطعته على نفسي بإكمال هذا الكتاب قبل عيد ميلادي الخمسين؟؟ من يدري؟!

الأحد ١٥ / ٦ / ٢٠١٤

الواحدة فجراً...

أغداً ألقاك؟ يا خوف فؤادي من غدي..

منذ الصباح وأنا مسمّر أمام التلفزيون... أتابع الأخبار والتحليلات لعلّي أفقه شيئاً مما يجري حولي... وأنظر إلى السقف... لا أدري مجموع الساعات التي نظرت فيها إلى السقف في الأيام الماضية... وقبل قليل وبينما أنا أقفز من فضائية إلى أخرى لاهثاً وراء المزيد من الأخبار صادفتني أم كلثوم وهي تقول:

«أغداً ألقاك؟ يا خوف فؤادي من غدي». تركت الريموت كونترول... نسيت الأخبار وبقيت أستمع للأغنية الطويلة... يا خوف فؤادي من غدي.. دوى بعدها صوت قنبلة ضخمة... ربما ألقتها طائرة مسيّرة أو عمودية فوق مقر الفرقة العسكرية القريب من

بيتي... أربعة أيام مضت وأنا لم أكتب... ربما لأنني وعائلتي أوشكنا أن نترك بيتنا لنلحق بركب العوائل النازحة إلى إقليم كردستان... لكنني قررت البقاء في البيت... تعبت من الرحلات العبثية الكثيرة التي قمت بها... هذه المرة عليّ أن أحمل فوق أكتافي عائلتي الصغيرة والكبيرة.. هل عليّ أن أرحل بهم إلى الإقليم لأستقر في خيمة بلاستيكية في درجات حرارة تزيد على ٤٣ درجة ظهراً... هل عليّ أن أقف في طابور طويل لأحصل على زجاجات الماء... أو أن أتدافع مع الجموع لأحصل على مغرفة طعام... هل سأكون لاجئاً كاللاجئين الذين كنا نراهم في أغنيات فيروز التي تغنيها عن «زهرة المدائن؟» الموت في البيت أرحم من كل هذا...

الموقف في العراق أصبح أكثر فنتازية... انهار الجيش بأكمله في الموصل وصلاح الدين وكركوك واقتربت المجموعات المسلحة بسرعة شديدة من بغداد ثم توقفت... رئيس الوزراء نوري المالكي خرج علينا بكلمة قصيرة قال فيها: إن مؤامرة قد أحيكت ضد الجيش... وإن هناك طرفاً أطلق إشاعة... وأن تلك الإشاعة أدت إلى انهيار الوحدات في أيام قلائل مما كبد الجيش خسارة معدات قيمتها ٢٠ مليار دولار... ربما كانت هذه أغلى إشاعة في التاريخ... المالكي كعادته أخبرنا أنه يعرف من أطلق تلك الإشاعة... وما هي تلك الإشاعة... لكنه قال إنه لن يخبرنا بهذه المعلومات – ربما لأننا ما زلنا صغاراً وهو ينتظر أن نكبر وننضج لكي يخبرنا بها –...

الحكومة لا تزال تستخف بعقولنا... لا ألومها على ذلك بل ألوم «المثقفين» الذين مازالوا يروّجون لها... قبل ثلاثة أيام كتب أحد أصدقائي «المثقفين» جملة قصيرة عن انسحاب الجيش من الموصل

ونشرها على جداره في الفيس بوك... علقت تحتها واصفاً شعوري تجاه جندي حاف كان يدور في المدينة بحثاً عن ملابس مدنية وحذاء وسائلاً الناس عن الطريق إلى «أربيل» وهو يسلك اتجاهاً مضاداً لتلك المدينة.. بدأت تعليقي بعبارة «أبكاني منظر الجندي وهو... إلخ» فوجئت بتعليق قاس وساخر من صديقي «المثقف» بعثت له فوراً رسالة شخصية أقول له فيها «أنت في تونس وأنا داخل المدينة التي تشهد المعارك هل تريد أن تعرف بعض التفاصيل من الأرض». فاجأني ثانية بجواب سخيف.. تركته وأنا مصدوم... استرجعت بعض ما كان قد رواه لي عن نفسه... يفترض أنه يساري من حي شعبي ببغداد، ترك العراق في أوائل العشرينيات من عمره ولجأ إلى سويسرا، تزوج من عجوز سويسرية وأدى كامل التزاماته معها وفقاً لاتفاق أبرماه بينهما فحصل على الجنسية السويسرية... كنت التقيته في أبوظبي في وقت كنت أحوج ما أكون فيه إلى إنسان أحدثه، إذ كان العراق على أبواب الحرب التي أدت إلى الاحتلال الأمريكي وكان يقف أمام الخليج متألماً كالسياب ويشكو لي ألم حرمانه من رؤية أهله بسبب الدكتاتور الذي جثم على صدر العراق وحرمه هو من أبسط حقوقه كإنسان... كنت أحس بتعاطف كبير معه، إذ كنت أشعر شخصياً بشوق عارم لعائلتي رغم أنني لم أفترق عنهم إلا شهوراً وقتها... وبعد الاحتلال سافر صاحبي لأكثر من شهر ولما التقيته بعد العودة وسألته عن أمه وأخوانه و.. و.. اكتشفت أنه قد رحل باتجاه المغرب «لأنها رخيصة والجو فيها جميل» كما أخبرني... والعراق؟ سألته... قال لي سأزوره في إجازة أخرى... لم يصدمني سوء تصرفه معي، بل صدمني غبائي الشديد وثقتي التي أضعها في

غير موضعها... إنه نموذج المناضل الذي أصبح مناضلاً لسبب واحد هو هروبه من الخدمة العسكرية الإلزامية... وإذا كان هذا البائس قد أصبح كاتباً فحسب فإن الهاربين الآخرين أصبحوا قادة سياسيين ورؤساء وزارات وحكومات وشغلوا مناصب مهمة واحتسبت لهم فترة هروبهم خدمة «جهادية» استحقوا من جرائها رواتب تقاعدية ضخمة في الوقت الذي حرم فيه ٥٠٠ ضابط عراقي برتبة لواء من تقاعدهم لأنهم خدموا «النظام السابق».. هذا بالإضافة لآلاف من الضباط الأصغر رتباً... رغم أنهم أفنوا حياتهم في أصعب وظيفة يمارسها إنسان...

هدوء الليل قد يقطعه بعد قليل صوت قذيفة أخرى... المدينة فارغة إلا من بضع مئات من المسلحين المنتشرين في المناطق الحيوية... تجولت اليوم في جزء من المدينة.. الشوارع شبه خالية من السيارات إلا أن ما لفت نظري وأسعدني هو اختفاء كثير من الكتل الكونكريتية الكبيرة التي كانت تسد معظم الشوارع الرئيسية. ولفات الأسلاك الشائكة وأكياس الرمل الدفاعية... لقد حوّل الجيش المدينة إلى موقع عسكري دفاعي حقيقي لسنوات مما أعاق حياتنا اليومية... معظم الشوارع كانت مغلقة، ولكل حي سكني مدخل واحد هو نفسه غالباً المخرج... إنه أسلوب «باب الحارة» الذي طبقته قوات المالكي للسيطرة على المواطنين... وقد نجحوا في ذلك... منعوا الناس من الحركة والحياة... لكنهم فشلوا في الدفاع عن المدينة وانهارت تلك القوة الغاشمة بشكل مخز لأنها انهارت من القمة... القمة الفاسدة.. هرب القادة كما توقعت تماماً... وبقي صغار الجنود يدورون وحدهم لا يعرفون ما العمل... ولكي تكمل أركان المهزلة فإن

الاتهامات ومن أعلى المستويات في الدولة تكال الآن ضد محافظ المدينة «أثيل النجيفي» هذا الرجل الذي بح صوته وهو يصرخ: إنّ قادة الجيش في المدينة مرتشون وغير مهنيين ويرفضون تقديم أي معلومات عن «خططهم الأمنية» له، علماً أنه المسؤول عن لجنة الأمن في المحافظة... اجتمع ليلة السقوط بقائد العمليات في الموصل ومعه قائد القوات البرية العراقية وقائد آخر لا أعرف من هو ولا ما هو... وطمأنه الثلاثة بأن كل شيء على ما يرام... لكنهم ركبوا الطائرة وتركوا جنودهم بعد ساعة واحدة من هذا الاجتماع. وزير الدفاع وكالةً «سعدون الدليمي» وهو ويا للعجب وزير الثقافة أيضاً... لم يدل بتصريح واحد... لم ينطق بكلمة ربما لأنه لا يفهم شيئاً لا عن الدفاع ولا عن الثقافة... وميزته الرئيسة هي أنه «مطيع» للسيد رئيس الوزراء. إنه ليس من أهل الثقة «فهو سني وليس من حزب الدعوة» وليس من أهل الخبرة «وقد أثبت لنا ذلك بجلاء» لكنه من أهل الطاعة... ومعظم وزرائنا الآن هم من أهل الطاعة... وهذا ما أوصلنا إلى ما وصلنا إليه الآن... مازالت الكلمات والنغمات في أذني... أغداً ألقاك... أيها الأمل أجبني... أغداً ألقاك؟ ما أبعد هذا الغد..... ويا خوف فؤادي من غدي.

الاثنين ١٦ / ٦ / ٢٠١٤

أكتب ظهراً... في الليل تشغلني الأخبار... وزيارات الجيران والأصدقاء القريبين الذين يجتمعون أحياناً في بيتي وكلهم يسألني عن آخر التطورات في الموقف أو عن توقعاتي لما سيحدث غداً أو بعد غد... أحاول طمأنة الجميع رغم أني خائف... ليس بيدي حل ما...

الحكومة تدق طبول الحرب... والمرجعية الشيعية استجابت لهذه الدقات وأعلنت عن حملة تطوع للدفاع عن «المراقد المقدسة».. نفس الذريعة التي اندلعت بسببها حرب ٢٠٠٦ والتي دامت ثلاث سنوات، هل يموت الآلاف أو عشرات الآلاف دفاعاً عن قبر أو قبرين لشخصين ماتا قبل أكثر من عشرة قرون... ولو كان أئمة الشيعة الاثنا عشر أحياء لرفضوا جميعاً هذا التحشيد... وطالبوا بتنحية المالكي عن كرسي الحكم ومحاكمته عن الدماء التي سفكها والثروات الهائلة التي تسبب في إهدارها... وكرامة العراق الذي أهدرته أجهزته القمعية وسياسته الحمقاء... أنظر بحزن إلى شباب الشيعة الذين يتطوعون «للدفاع» عن مدنهم ضد شباب السنة... المالكي يضرب الشعب بالشعب ويثير الزوابع والمشاكل كي يحتفظ بكرسيه بأي ثمن... لقد وعدنا بذلك... ووفى بوعده..

لا أريد الحديث عن السياسة... كنت أريد أن أكمل قصتي مع الكتابة، إلا أن ما حولي يجبرني على عدم السير في خط مستقيم والوصول مباشرة إلى هدفي... أمس واليوم وقبلها... أتذكر بإلحاح مسرحيتي «نديم شهريار»... شهريار الذي حاصرته المشاكل بسبب فساده وسوء تصرفه فاقترحت عليه شهرزاد أن يشن حرباً... ولما أخبرها بعجز جيشه ودولته عن دخول حرب ما... وعن عدم وجود عدو أو تهديد مباشر لدولته اقترحت شهرزاد أن تكون حربه حرباً دون حرب... وفعلاً يقود شهريار حرباً دون حرب... لكنها تتحول إلى حرب حقيقية... ثم يفقد السيطرة على الأمور كلها... ما يحدث حولنا مشابه لذلك تماماً... ثلاثمئة ألف شخص تركوا الموصل لحد الآن على أقل تقدير في نزوح جماعي باتجاه إقليم كردستان... والبقية

يحاولون الخروج تجنباً لمجزرة ستقوم بها الدولة بأذرعها المتعددة... الجيش والميليشيات... والقوات الخاصة الإيرانية التي هبت لتساعد العراق على حفظ أمنه واستقراره... ما يحدث حولنا الآن وهنا ما هو إلا ثمن باهظ يدفعه كل العراقيين كي يتمكن المالكي من تجديد حكومته لأربع سنين قادمة... هل سيتفكك العراق إلى ثلاث دويلات كما أراد السيد «بايدن» منذ سنوات... كان هذا المقترح مرفوضاً بشدة وقتها... أما الآن فهو حل يرحب به معظم العراقيين إلّا أنه لم يعد يناسب إيران، لأن دولة سنية صغيرة تقوم في شمال وغرب العراق ستكسر الهلال الشيعي أو منطقة النفوذ الإيرانية التي امتدت من إيران لتشمل العراق وسوريا ولبنان... وقد صدرت تصريحات إيرانية رسمية متعددة عن أن حدود إيران تمتد حتى لبنان... ولا أظن أن كسر هذا الهلال بدويلة سنية صغيرة سيكون أمراً ترضاه إيران بسهولة... لا أريد أن أكتب في السياسة... لا أريد ذلك... أريد أن أكمل كتابي فحسب....

اليوم نفسه قبل منتصف الليل بقليل...

انقطعت عن الكتابة عصراً فقد زارني صديقي الكاتب «فارس السردار».. جاءني ماشياً بسبب عدم توفر الوقود... تبادلنا أحاديث عامة ثم قال لي بأسى «هل ستتوقف بيبونة؟» لم أكن قد نسيت «بيبونة» لكنني كنت أحاول أن أتناساها. مجلة أطفال كافحنا لإصدارها أنا ومجموعة من الكتّاب دون أن تكون لدينا إلا الحماسة، والدافع الوطني، وإمكانيات بسيطة للغاية... طلال حسن وأنا والسردار وكتّاب آخرون استطعنا أن نقنع المحافظ بضرورة إصدار هذه المجلة... كان لطلال حسن تجارب عديدة في إصدار مجلات أطفال

إلا أن كل هذه التجارب لم تستطع تجاوز عقدة العدد الأول... ثم تتوقف دون صدور العدد الثاني... كان متحمساً وخائفاً في الوقت نفسه وكان مصمماً على طباعة ألف نسخة فحسب لأنه يخشى عدم قدرتنا على التوزيع... صدر العدد الأول مع بداية العام الدراسي... طبعنا ألفي نسخة... وفوجئت يوماً بطلال حسن يخبرني أن (مفيد الجزائري) قد طلب ألف نسخة من المجلة لأنه أعجب بمواضيعها وإخراجها وطباعتها... ثم اتصلت بي سيدة تطلب رقماً مماثلاً... و.. و.. و.. و... كان بإمكاننا إذن أن نوزع وببساطة أكثر من ثلاثة آلاف نسخة مضمونة البيع... وكنت قد طلبت من المحافظ ومجلس المحافظة ومديرية تربية نينوى مراراً وتكراراً إصدار دورية تثقيفية لأطفالنا تساهم في تثقيفهم بشكل ما بدلاً من الاكتفاء بالمناهج الرسمية البائسة... وتكرر طلبي عاماً بعد عام حتى انفجرت يوماً ما في اجتماع حضره عدد من التربويين والمهتمين والمسؤولين... كان الاجتماع الذي يفترض به أن يدرس واقع الطفل في المدينة يتحدث بلغة رسمية ولا يمس المشاكل التي في العمق... وطرحت خلاله المشاكل التقليدية المتعلقة برداءة الأبنية المدرسية والأثاث المدرسي وما إلى ذلك... وقبل نهاية الجلسة طلبت الإذن بالكلام لأتحدث عن الجيل العراقي الجديد... الناشئة الذين لا يحبون بلدهم لأنه لم يمنحهم لحظة سعادة واحدة منذ ولادتهم ولحد الآن... وعن رغبة أغلبية هذا الجيل بترك الموصل والعراق والسفر إلى أي مكان آخر متاح... بدا طرحي غريباً وسط هذا الحضور. لم يكن أحد منهم يحب أن يسمع هذه الكلمات رغم أنهم جميعاً يعرفون أنها حقيقية... وأن روح المواطنة أمر مكتسب وليس سمة وراثية تحملها جينات الإنسان...

اقترحت مجموعة إجراءات تفرز روح المواطنة وتعلي شأن العمل الطوعي الجماعي... وسلسلة برامج ترفيهية تثقيفية... ومجلة أطفال ويبدو أن أثيل النجيفي محافظ الموصل قد تأثر بكلامي فقرر تخصيص مبلغ بسيط لإصدار المجلة فكانت (بيبونة) صدر منها عددان ودفعنا العدد الثالث إلى المطبعة لكنني لم أره لحد الآن... واليوم جاءني فارس السردار وهو يخشى توقف المجلة عن الصدور... رغم أنه يعمل فيها مثلي دون مقابل... لكنني حاولت إقناعه بأن المجلة ستدوم ما دمنا وما دامت المدينة لأنها تسد نقصاً حقيقياً في الساحة...

استمعت معه إلى تسجيل لمسرحية «جوف الحوت»، كنت قد أعددته بصوتي وسجلته في استوديو صغير قبل أربعة أعوام ووضع الموسيقى صديقاي الموسيقيان (نبيل الأطرقجي ومحمد محمود) كنا قد أكملنا التسجيل أثناء المظاهرات التي اندلعت في العراق. حملت نسخاً من المسرحية التي تحكي قصة نينوى وحروبها إلى كل الإذاعات المحلية الموجودة في المدينة لكنني لا أظن أن إذاعة ما قد قامت ببثها لحد الآن... أذكر الآن تماماً حين قفزت تاركاً كتاب «الإنسان ورموزه» لـ «يونغ» وصعدت راكضاً إلى غرفتي لأرسم في دفتر ملاحظاتي سمكة يقرفص داخلها إنسان... قدحة ذهن لم أشأ أن أفوتها... كنت وقتها أكتب رسالة الماجستير عن «المونودراما» وكان كتاب «يونغ» أحد مصادري... لم أكتب المسرحية حينها... أجلت الموضوع لشهور حتى وجدت فسحة من وقت وكتبت النص خلال أيام قليلة بعد أن كنت قد قرأت بعض ما وجدته في القرآن والعهد القديم عن «يونس / يونان» وقصته مع الحوت... استخدمت القصة الدينية كإطار عام جداً ووظفتها لكتابة مسرحية ممثل واحد «مونودراما»

وأظن أنني تمكنت خلال هذا النص من تجاوز المشكلات التقليدية التي يقع فيها كتاب المونودراما... تلك المشاكل التي كنت أبحثها وأنا أكتب رسالة الماجستير عن ذات الموضوع... واستطعت بذلك تجاوز مخاوفي غير المبررة فيما يتعلق بقدرتي على كتابة المسرحية وأنا أقوم في ذات الوقت بإعداد دراسة نقدية عن نفس الموضوع... النقد قد يقتل الإبداع... وقد يحدث هذا مع آخرين... أما معي فأظن أن فترة عودتي للدراسة «٢٠٠٧/٢٠١٠» كانت فترة متعبة... إلا أنها كانت مثمرة، إذ كتبت خلالها عدداً من النصوص المختلفة «قصص ورواية ومسرحيات» وسأتحدث لاحقاً عنها بالتفصيل لو أمهلني القصف... أعود إلى جوف الحوت... استمعها فارس بإمعان شديد... قال لي لاحقاً... كأنك تصف ما يحدث لنينوى اليوم بالتفصيل... كأنك كتبتها الآن... قلت له بأسى... هذا لأن مآسينا تتكرر باستمرار يا صديقي ولا يسمح لنا أن نتعظ منها...

بعد ذلك ستفوز هذه المسرحية بجائزة الفجيرة للمونودراما، وبعد أن قمت بنشرها على النت في موقع «مسرحيون» قدمت مراراً في دول عديدة: المغرب، مصر، سوريا، العراق... إلخ. بعلمي أحياناً ودون علمي أحياناً أخرى كالعادة... والآن يراودني هاجس حقيقي... أن أتمكن من تقديم هذا النص بنفسي على خشبة المسرح...

لا توجد كهرباء في المدينة منذ يومين... وهذا يعني انقطاع الماء أيضاً... أنا أكتب مستخدماً لمبة نفطية تذكرني رائحة الكيروسين بأيام الخدمة العسكرية... حينما كانت هذه اللمبة هي الوسيلة الوحيدة للإضاءة في الملاجئ العسكرية المدفونة تحت الأرض... متى يأتي النور؟

فجر الجمعة ٢٠ / ٦ / ٢٠١٤

الآن... الكهرباء الوطنية تزورنا... انتهزت فرصة وجود الكهرباء ليلاً لأكتب... الكهرباء تأتينا بمعدل ساعة أو ساعة ونصف يومياً وفي أوقات متباينة... الماء أيضاً يأتينا يوماً وينقطع أياماً.. انتهزت قبل قليل وجود الماء فقمت بإرواء الحديقة... وانتهزت الآن وجود النور لأكتب... فأنا منذ يومين أحاول أن أجد فرصة مناسبة للكتابة، لكن حرارة الصيف اللاهبة وانعدام أي وسيلة تكييف جعلت الكلمات تسيح في مخي ودفعتني إلى حالة فكرية رخوة... المدينة هادئة تماماً لولا أخبار عن نسف تمثالين أحدهما للشاعر أبي تمام والآخر للموسيقي والفيلسوف عثمان الموصلي. لم أتحقق بعد من صحة الأخبار، لكن الأمر غير مستبعد... كأن المسلحين قد طبقوا كافة حدود الدين ووفروا للناس كل احتياجاتهم ولم يبق أمامهم إلا إزالة هذه المظاهر «الوثنية» من مدينتنا... أما على صعيد العراق فالقناة التلفزيونية الحكومية وعشرات القنوات المؤيدة للحاكم تبث أخبار التحشيد الشعبي. أتمنى ألا تستدعي الضرورة وصول أي من هؤلاء الشباب إلى أي مكان اشتباك... لأن القادة لن يأبهوا حتى لو أبيدوا جميعاً... ربما دفعوا لعوائلهم مبلغاً رمزياً وينتهي الأمر... استمعت إلى خطاب أوباما حول العراق... ولم يقل الرئيس الأمريكي كلاماً مباشراً، لكن الخطاب كان يحمل إشارات واضحة إلى رغبة أمريكا في تنحي المالكي... وهذا هو الحل الأمثل في نظري.. تشكيل حكومة طوارئ مؤقتة، وحلحلة الأزمة تدريجياً، وإزالة هذا التحشيد المتبادل، وخلق جيش وقوات أمن حقيقيين يتمكنان من الحفاظ على أمن وسلامة الأرض والناس... أحاديث كثيرة عن التقسيم... لا أظن أن ذلك

سيحدث... ولا أتمناه... وإذا ما حدث فسأكرس ما تبقى من عمري لأحاربه... أنظر يومياً بأسى إلى حشود المتطوعين الذين لبوا بصدق نداء مرجعيتهم دون أن يعرفوا تماماً ماذا سيحل بهم.. صورهم تعود بي إلى أيام خدمتي العسكرية... أول أيام خدمتي كضابط في لواء ٧٠٥ والذي كان وقتها معسكراً في خانقين... وصلت إلى مقر الفوج الثاني في اللواء ليلاً... بعد ساعة واحدة كنت قد اشتبكت في حديث ثقافي مع ضابط آخر أقدم مني بأربع دورات على الأقل هو «علي حميد عودة» كان عودة شاباً واسع الثقافة قوي الشخصية مرحاً ومتديناً.. وكان أول صديق لي من مدينة «الثورة / صدام / الصدر» اكتشفت في اليوم الثاني أن السرية التي سأقودها تتشكل في غالبها من جنود مستجدين تم تسويقهم من هذه المنطقة بالذات... وكأي ضابط جديد مارست دور العسكري المنضبط الشرس وأحكمت قبضتي على الجنود وتصرفت معهم بنذالة عسكرية تم تدريبنا عليها لعام ونصف في الكلية العسكرية... وفي اليوم الثالث أو الرابع لي في الخدمة وبينما أنا أوجه عقوبة جماعية لجنود السرية أحسست فجأة بتفاهة ما أقوم به... شعرت بالخجل من نفسي لأنني أدركت أنني قد تقولبت بالطريقة التي يراد مني أن أكونها... أفقت من نشوة القوة الزائفة ونظرت إلى عيون جنودي الصغار حليقي الرؤوس... نظرت إليهم كبشر... لا كحشد من الجنود... وبدأت معهم صفحة جديدة... ولا أشك أن تأثير علي حميد عودة كان مباشراً عليّ... كان قد شارك في عدد كبير من المعارك وقد أصيب أكثر من مرة... التصقت به ولم يبخل عليّ بنصائح قصيرة موجزة تمثل عصارة خبرته... وقد انعكس احترامي له على نظراتي إلى «شباب

مدينة الصدر» الذين كانوا يمثلون أغلب الجنود في سريتي... ورغم أن معظم هؤلاء كانوا أميين أو شبه أميين إلا أن معظمهم كان يحفظ عشرات، بل مئات من أبيات الشعر الشعبي «بدأت وقتها بالتعرف إلى الشعر الشعبي العراقي وأحببته».. كانوا شباباً حاضري البديهة مرحين متعاونين... وأذكر حادثة وقعت خلال الشهر الأول لي في هذا اللواء كنت أسير ليلاً عائداً إلى غرفتي فسمعت صراخاً عالياً... كان (ضابط أمن الفوج) يضرب أحد هؤلاء الجنود بعصا... لم أعرف السبب لكنني قفزت ووقفت على الفور بينه وبين الجندي وقلت له «كفى... اتركه» دفعني وحاول معاودة ضرب الجندي... أمسكت به بقوة من رسغيه وأنا أقف أمامه تماماً وأنظر في عينيه وقلت له بصرامة «لا تستقوي على جندي مستجد» في تلك اللحظة تماماً أدركت أنني قد أوقعت نفسي في ورطة كبيرة... فأنا قد اشتبكت مع ضابط أمن الفوج... وهو أقدم رتبة وأعلى منصباً، لكنني صرخت بالجندي أن ينصرف... فهرب راكضاً... أرخيت قبضتي وتركت رسغي زميلي وذهبت إلى غرفتي وأنا أشعر بقلق شديد... توقعت أن تتخذ ضدي في الغد إجراءات رسمية وأن يتم تشكيل مجلس تحقيق... إلا أن الموضوع انتهى ولم يثره ضابط الأمن أبداً... وحينما وقعنا في الأسر استسلم جميع ضباط الفوج وهم بكامل زيهم العسكري «الممزق» ما عدا ذلك الضابط... فقد كان هو الوحيد الذي كان يجلس بيننا بملابسه الداخلية فقط رغم برد الشتاء.. إذ إنه خاف أن يستسلم... وخاف أن يقاتل... وخاف أن ينتحر.. نزع بدلته ورتبه وبقي في موضعه حتى تم أسره وهو بهذا الشكل المخزي...

لا أدري من أين تنبثق الذكريات... ولا لماذا... أحاول أن أكتب

بسرعة فقد تنقطع الكهرباء في أي لحظة... وفي ليبيا التقيت بعدد آخر من سكان الأحياء الشعبية في بغداد «الثورة.. الدولة.. الحرية» وكان بعضهم غاية في الرجولة والنبل... قضينا سنوات معاً ومازلت على اتصال ببعضهم لحد الآن... لذا فإنني وأثناء عملي في جريدة عراقيون بعد عودتي إلى العراق عام ٢٠٠٤ وحينما شنت قوات الاحتلال مع بعض وحدات الأمن العراقي هجوماً على مدينة «الصدر» قررت أن أخرج عدداً خاصاً عن هذه المدينة رغم اعتراض بعض زملائي في الجريدة... فقد رأى بعضهم أنني أعلي شأن عصابات مسلحة تشيع الفوضى وتقتل الـ «سنّة» في بغداد. صدر عدد الجريدة كما أردت أنا مع يقيني أن جزءاً مما قاله الزملاء صحيح.. إلا أنني موقن بأن الحكومة قادرة على حل مشاكل مدينة الصدر... وتحولها إلى مدينة عصرية تتوفر فيها الخدمات اللائقة وتوفر لسكانها «وهم بالملايين» حياة كريمة... عندها نستطيع أن نقول إن لدينا حكومة حقيقية تهتم بأبنائها... ليس أبناء مدينة الصدر... ففي كل مدينة عراقية مدينة مشابهة تستحق من الدولة كامل الرعاية بدلاً من نظرة الاستعلاء أو التجاهل في أحسن حال... وإذا كان بعض سكان مدن الصفيح التي امتلأ بها العراق قد اتخذ من الجريمة – على تعدد أشكالها – وسيلة للعيش فذلك ليس ذنبه، بل ذنبنا جميعاً لأن «كل هيئة اجتماعية تحتوي المجرمين الذين تستحقهم» كما يقول (دوركهايم)...

فجر السبت ٢١ / ٦ / ٢٠١٤

لا شيء يحدث في الموصل... المدينة فارغة تقريباً من أية قوة... لا الدولة ولا المسلحين... الماء متوفر ولا كهرباء... وقود السيارات

شحيح جداً ودرجات الحرارة تواصل الصعود لتتجاوز ٤٥°مئوية... وأنا نصف نائم لكنني لا أستطيع النوم... ولا الاستيقاظ... الجو قاتل وبيوتنا صناديق تم تصميمها دون الأخذ بالاعتبار غياب الكهرباء وأشكال الطاقة الأخرى... لذا فالجو لا يحتمل... مما يدفعني إلى حالة الخدر... منذ نصف ساعة وأنا مستلقٍ أحاول أن أقرر فيما إذا كنت سأواصل الكتابة أم أعود إلى القراءة... أقرأ الآن في مقدمة ابن خلدون، والتاريخ من باطن الأرض لبهنام أبو الصوف، وما وراء الخير والشر لنيتشه.. لا أدري لماذا أقرأ دائماً ثلاث كتب معاً... عادة غريبة لازمتني منذ عقود... ولا بد أن تكون المواضيع متباينة... قررت أخيراً أن أكتب... فرغم أن القراءة متعة والكتابة عذاب إلا أنني أحرص الآن على الوقت فلا أدري كم بقي لي منه.. ولا كيف ستكون الظروف. غداً سأحاول العودة إلى الخط الزمني الذي أحاول

- دون جدوى - ألا أحيد عنه... فالظروف ترغمني على تركه... كنت أتحدث عن عدد من القصص القصيرة التي كتبتها شتاء عام ٢٠٠١... حملت هذه القصص معي وأنا عائد إلى العراق في إجازة بعد غيبة دامت ٤ سنوات، طرت من مطار طرابلس إلى دمشق... ومنها إلى حلب ثم وصلت إلى الحدود العراقية في سيارة أجرة... وقبل أن أدخل إلى العراق تسمرت قدماي وانتابني رعب حقيقي... هل أعود بقدمي إلى داخل المصيدة... نظام صدام مازال يحكم... ومأساة الحصار مستمرة... وما خرجت بحثاً عنه لم أجده وبصعوبة بالغة حزمت أمري واجتزت المسافة الفاصلة بين نقطتي الحدود... لأعود ثانية إلى الموصل وأجتمع بعائلتي وألتقي بأبي الذي كان المرض قد هدّه. كان يفترض بي أن أقضي شهراً واحداً

في العراق وبعد أسبوعين ذهبت إلى بغداد لأؤشر مغادرتي في دائرة التعبئة والإحصاء لكوني ضابطاً مجنداً ففوجئت بهم يحيلوني إلى دائرة الاستخبارات في الكاظمية... وهناك تعقدت معاملة خروجي وطالت وتشعبت... قضيت ما تبقى من إجازتي وأنا أتنقل بين الموصل وبغداد، لكن جهودي فشلت وتأخرت عن موعد سفري... وصدر جدول جديد بخدمة الضباط الاحتياط يتضمن الدورة «٣٩» وهكذا صدقت مخاوفي وأغلق أمامي باب العودة إلى ليبيا أو مغادرة العراق ما لم أنْه خدمة الاحتياط وأمدها شهران... تم تسويقي ولبست بدلتي العسكَرية في بداية شهر «١٠» ٢٠٠١ وخدمت في منطقة الخازر. كان تجحفلنا أمام قوات البيشمركة... يفصلنا عنهم نهر الخازر فقط.. ثم انتقل اللواء إلى الشيخان وهناك لم يكن بيني وبين قوات البيشمركة إلا بضع مئات من الأمتار... كان الجيش في حالة مزرية... جنوداً وضباطاً... واكتشفت أن من بقي في الخدمة ممن شاركوا في الحرب العراقية الإيرانية أو حرب الخليج الثانية لا يزيدون على عشرة في المئة من الموجودين حولي في الفوج... إذ كان أغلبهم جنوداً مكلفين صغاراً وحتى الضباط كان معظمهم شباباً عديمي الخبرة حتى رتبة نقيب أو رائد... وفي الشيخان قمت بإكمال قصة «لحظة وعي» وهي قصة قدحت في ذهني وأنا عائد يوماً ما في سيارة أجرة متهالكة تقطع الطريق الطويل بين بنغازي وزليتن... قصة إنسان غفا لحظات في سيارة أجرة ليصحو ليجد أنه إنسان آخر... إنسان أكثر تعاسة بكثير مما كان يظن... كتبت القصة وأنا أظن أنني أكتب قصة طريفة ساخرة... لكن ثابت وطارق أخبراني أنها قصة تقطر كآبة... فوجئت حقاً برأيهما... لكن تواتر هذا الرأي من قبل

الجميع أقنعني بأنني لا أحسن أحياناً بوصف نتاجاتي...

أكملت الخدمة وأكملت أوراقي وغادرت العراق براً لأصل إلى عمان يوم ١ / ١ / ٢٠٠٢. وصلت عمان ليلاً وكان يجللها الثلج، عاهدت نفسي ألا أعود إلى العراق إلا بعد أن يتغير فيه نظام الحكم... لن أكرر غلطتي ثانية بعد أن خسرت تذكرة العودة من سوريا إلى ليبيا بسبب تأخري وتعذر الاتصال هاتفياً أو بأي وسيلة أخرى لتأجيل الرحلة. طرت من عمان إلى طرابلس... ومع الأيام الأولى لعام ٢٠٠٢ وصلت إلى زليتن ليلاً... صباح اليوم الثاني ذهبت إلى معهد الزهراء، حيث كنت أعمل ففوجئت بمدير المعهد يخبرني أنه قد قطع علاقتي بالعمل لغيبتي الطويلة خارج البلاد... زودني «بطلب حاجة» إلى مديرية التربية في المدينة، إذ إن مكاني كان لا يزال شاغراً وكان الرجل يكن لي وداً واحتراماً... وحينما راجعت دائرة التربية أخبروني أن عودتي للعمل مستحيلة... طالبتهم بمكافأة نهاية الخدمة ومستحقات ومخصصات أخرى متراكمة لأربع سنين فأجابني موظف الحسابات ببرود «أنت فسخت العقد بتغيبك.. وهكذا لم تعد لك أية مستحقات» عدت إلى سكني مع صديقي غيث وأنا في غاية الإحباط.. أنا هنا غريب وقد خسرت عملي ومدخراتي وليس أمامي فرصة إلا أن أبحث عن عمل حر في بلد يعاني البطالة والكساد والنظام الاقتصادي فيه غاية في الغرابة... ما الحل إذن؟ لم يكن أمامي إلا حل واحد... قلت لغيث «وهو قد اعتاد نزواتي إلى حد ما» قلت له: لا أريد مقاطعة ولا مضايقة... لأنني سأكتب... قلت ذلك وفعلته... أغلقت باب البيت ولم أستقبل أحداً... وكان غيث يسير على أطراف أصابعه «بمبالغة ساخرة» إذا ما اضطر للدخول

إلى غرفتي بحثاً عن شيء ما... كان لديّ قصاصات وملاحظات قد دوّنتها قبل سفري استعداداً لكتابة رواية... نثرتها أمامي وبدأت أكتب بسرعة... كتبت وكياني كله منهمك في الكتابة... كأنها مخرجي الوحيد من المأزق الذي أنا فيه.. كنت أنزف عذاباً مع كل كلمة أكتبها... أكملت المسودة... أعدت كتابتها ثانية وثالثة فاكتمل النص ذات مساء.. قصة طويلة أو رواية قصيرة... احترت في تسميتها... انتهيت من المبيضة وقت الغروب وكانت السماء تمطر بغزارة... وضعت الدفتر تحت سترتي وغادرت البيت لأول مرة منذ أيام متجهاً صوب شقة الأستاذ «باقر جاسم» استقبلني بودّ وأعطاني منشفة لأجفف شعري الذي تتقاطر منه المياه كان يجلس وملء منضدته دفاتر وأوراق امتحانيه يقوم بتصحيحها... دفعت إليه النص وطلبت منه أن يقرأه.. وعدني بقراءته فور أن ينتهي من عمله «يومان أو ثلاثة لا أكثر» قال لي بلطف فقلت له جازماً «الآن»...

كلما تذكرت ذلك الموقف خجلت من نفسي... يبدو أن «أبو سامر» قد انتبه لوضعي النفسي المزري فارتدى نظارته وفتح الكراسة وبدأ يقرأ فوراً...

الثلاثاء ٢٤ / ٦ / ٢٠١٤

جلست على مقعد ما واستمر «أبو سامر» يقرأ حتى نسي أو تناسى وجودي... كنت أدخن وأنا أراقب انفعالاته... أحسست بأنه قد اندمج تماماً مع النص وبين فترة وأخرى كان يمسح بطرف يشماغه – وكان يرتدي ثوباً عربياً ويلف يشماغاً حول رقبته – كان يمسح أثر دمعة تهرب من عينيه... أنهى قراءة النص وأغلق المخطوطة

قائلاً «نص مدهش» نظرت إليه طويلاً محاولاً أن أعرف فيما إذا كان الرجل يجاملني أو أنه جاد في كلامه... لكنه بدأ فوراً حديثاً عن النص وعن التكنيك الجديد المستخدم وعن وعن وعن... أحسست براحة كبيرة... فقد اجتاز النص الاختبار الأول بنجاح بعد أن قرأه كاتب ومترجم ومتذوق للأدب... نظر إلى غلاف المخطوطة واعترض على الاسم الذي كنت قد أطلقته على الرواية وقتها «التحولات» قال لي... الرواية تحمل اسمها... ليكن اسمها «إذا اقترب الزمان» وكانت هذه الجملة واردة في مشهد من مشاهد الرواية الفنتازية التي كتبتها... تلك الرواية التي أوحى لي بها في البداية صديقي الطبيب «حيدر الساعدي» حينما عدنا ذات مساء من شاطئ البحر ويبدو أن الشمس كانت قد أثرت فيه أو أنه كان قد تناول دواء ما فبدأ يتكلم بطريقة لافتة للنظر منتقلاً بأحاديثه من موضوع إلى آخر بسرعة وطيش دون أن يكون هناك علاقة واضحة بين المواضيع... كأنه كان في جلسة عند طبيب نفسي يتحدث حديثاً حراً مملوءاً بالتداعيات... بعد ذهابه أخرجت دفتر ملاحظاتي ودونت فيه عدداً من السطور وبعض المشاهد التي سترد في الرواية... واخترت لها عنواناً ابتدائياً هو «تحولات»... لكنني لم أبدأ الكتابة الفعلية إلا بعد عودتي من العراق. رغم أنني وطوال مكوثي في العراق كنت أقلب هذا النص في ذهني واستعددت له بقراءة عدد من الكتب التي تتحدث عن الأحلام. كتب تراثية قديمة كتفسير الأحلام لابن سيرين والنابلسي... وكتب معاصرة مثل كتاب أبواب العقل الموصدة لعلي كمال وكتاب اللغة المنسية لأريك فروم... لطالما شدني عالم الأحلام... كنت أحب تأويلها والبحث – أحياناً – عن إشارات ما من خلالها...

وكانت رواية «إذا اقترب الزمان» حلماً متصلاً طويلاً يجد فيه البطل نفسه وهو يتحول من إنسان يحاول أن يحرر أوراقاً لمشهد مرعب يراه... يتحول من كاتب إلى قلم ومن قلم إلى لافتة في مظاهرة ومن لافتة إلى مقاتل ثم إلى بندقية ثم إلى رصاصة تنطلق من فوهة بندقية لتصيبه هو ذاته، إذ يكون هو الجندي المعادي الذي استهدفته الرصاصة التي كانها... كان النص رغم ترابطه الشديد... مقسماً إلى ما يشبه المراحل الثلاثة التي أكتب عنها دائماً وبنفس التعاقب الحرب / الحصار / الهجرة... هذه الفصول الثلاثة التي تتعاقب على حياة العراق منذ أكثر من أربعة عقود... وهي فصول عشتها شخصياً بشكل متكرر... وتستمر التحولات حتى نهاية النص الذي حرصت بعد إكماله على تنقيطه بطريقة معينة تتناسب حتى مع تنفس القارئ... أو هكذا ظننت... ولا ينتهي النص إلا والبطل قد انقسم على ذاته ليصبح سمكتين تنهش أحداهما الأخرى..

«كنت أنهش وأنهش...

وكان الدم....

كان الدم ينبثق من حولي أحمر قانياً...

ثم يتلاشى...

يتلاشى...

يتلاشى................».

بهذه الصورة التي مازال بدني يقشعر منها كلما قرأتها وقارنتها.بما يحدث لنا الآن/ وهنا... أكملت النص الحلم. وكانت لديّ مشكلة كبيرة لم أتمكن من حلها إلا بعد أن أنهيت الكتابة وهي مشكلة مقدمة

الرواية... أو المشهد الافتتاحي... نقلت هذا المشهد من واقعي آنذاك... بدأت النص برجل أتخم معدته بعشاء رخيص وثقيل... ويتمدد فوق سريره وهو ينظر إلى صورة طفليه البعيدين وهما يلوحان له... في حضنه كتاب عن الأحلام... يقرأ فيه ويتساءل ببلادة... لماذا لم أعد أحلم... أين ذهبت أحلامي.... إلخ. وما إن يغفو حتى يجد نفسه وسط الكابوس الطويل الذي هو متن الرواية...

بعد أيام كان عدد من الأصدقاء قد قرأ النص... وكانت كل الآراء تقريباً تعبر عن إعجاب كبير بغرابته وبساطته معاً... يهمني كثيراً أن أكتب شيئاً مفهوماً... وأكون سعيداً للغاية لو كانت هذه الكتابة بأسلوب جديد أو مميز. ولم أكن قد قرأت وقتها... شيئاً يقترب من فكرة روايتي القصيرة... ولم أقرأ شيئاً مماثلاً لحد الآن. وللأسف فإن هذه الرواية لم تر طريقها للنشر حتى الساعة في كتاب ورقي... وربما كان السبب هو حجمها المحيّر فلو طبعتها في كتاب مستقل فربما لن يزيد عدد صفحاتها عن ٥٠ أو ٦٠ صفحة فقط... إنه نص مكتوب كي يقرأ في جلسة واحدة... أمس تكلم معي صديقي القديم الكاتب والمترجم يحيى صديق عبر الهاتف... هاتفني كي يطمئن عن أوضاعي لكن حديثنا طال... وتطرق – بالصدفة – إلى هذه الرواية بالذات... وهو معجب بها ويستغرب عدم اهتمامي بنشرها... الموضوع محيّر فعلاً... لقد حاولت أن أدرج هذا النص ضمن كتاب يحوي قصصي القصيرة، بالإضافة لهذا النص لكنني لم أتمكن من نشر الكتاب... أو ربما لم أسع جدياً لنشره لأني لم أجد فرصة مناسبة لنشره وتوزيعه بطريقة لائقة... وتصادفني نفس مشكلة طول النص المحيّر مع رواية «أنيس في بلاد العجائب» والتي كتبتها في عام ٢٠٠٨، إذ

إنها أيضاً رواية قصيرة... وهو حجم غير مألوف في الأدب العربي رغم أن بعض اجمل الروايات التي قرأتها هي بذات الحجم تقريباً مثل (الأمير الصغير لأنطون دي سانت اكزوسبري وحكاية النورس جوناثان ليفنكستون لريتشاد باخ... ومزرعة الحيوان لجورج أورويل).

أنهيت الرواية وأنا ما أزال عاطلاً عن العمل... وبصدفة غريبة وبينما أنا في مكتب صديق عراقي يعمل في مجال الإعلانات وكان رساماً مثقفاً وعازفاً وهارباً من الوطن مثلي... كنت ذات مساء في مكتب «عقيل العراقي» ولا أعرف بقية اسمه. التقيت هناك بالصدفة بموظف ليبي لا أعرف طبيعة عمله، لكنه كان قد زار معهدنا مرة أو اثنتين... تبادلنا حديث مجاملات عادياً قصيراً ولما سألني عن المعهد أجبته بأنني موقوف عن العمل وأحاول العودة للعراق... فوجئ بالأمر وطلب مني أن ألتحق بعملي صباح اليوم الثاني... أدهشني كلامه ولما سألته عن كيفية عودتي ومن سيجدد عقدي الملغى فوجئت بأنه هو بالذات الموظف المسؤول عن شؤون المدرسين المغتربين في زليتن وعدة مدن أخرى... صباح اليوم الثاني زرته في مكتبه في مدينة (الخمس) فحرر لي كتاباً رسمياً يعيدني إلى عملي مبرراً انقطاعي بأنه كان اضطرارياً لالتحاقي بالخدمة العسكرية الإلزامية... والأغرب أنه أوصى بصرف رواتبي للشهور التي انقطعت فيها عن العمل وكأنني كنت أخدم في الجيش الليبي... أخذت الكتاب وعدت إلى زليتن لأمارس عملي السابق وسط ترحيب زملائي وطالباتي... لكنني كنت قد اتخذت قراراً قطعياً بترك ليبيا والعودة إلى العراق... أحسست بأن عائلتي بحاجة إليّ... وأحسست أيضاً بأن العراق

مقبل على مرحلة صعبة ولا بد لي أن أكون موجوداً هناك خلال تلك المرحلة... كانت الأنباء تتوالى عن نوايا أمريكية غامضة أولاً ثم بدأت تتضح يوماً وراء يوم كانت أمريكا تريد «تحرير العراق؟؟!!».

كنت مستمراً في العمل على آمادو... لكن كل ما كتبته لم يكن كافياً أو معبراً عما أريد قوله... كان خلق تلك الشخصية التي أريد أن أقول الكثير من خلالها شبه مستحيل لأنها شخصية ممتلئة بتناقضات غير منطقية... وفجأة لمعت في ذهني فكرة جديدة... لماذا تكون لآمادو قصة واحدة... لمَ لا تكون له أكثر من قصة!!! أكثر من قصة ولكن بنفس الإطار الخارجي للحدث الكبير وهو العثور على جندي بعد ٣٠ سنة... ما إن برقت هذه الفكرة في ذهني حتى ولدت معها فوراً شخصية الراوي الذي يرتدي قناع مسرح الـ «نو» الياباني وهو سيقدم لكل فصل من فصول المسرحية... وسيكون لكل فصل قصة جديدة مرّ بها آمادو... ليس الشخص ذاته... ليست الأحداث ذاتها... ما يتشابه هو الإطار الخارجي فحسب... وعلى الفور بدأت بالحكاية الأولى... الإنسان البسيط معلم المدرسة الذي تمّ زجّه في حرب طاحنة بعد أن تم حقنه بالشعارات الكبرى... ثم تخلى الجميع عنه وبقي منسياً فوق سطح جزيرة صغيرة، بعد أن لسعت العقارب زملاءه وبقي هو وحيداً... اشتغلت على هذا الفصل وسلّمت لي الشخصية نفسها بسرعة... كتبت وكتبت ونقحت وبيضت... كأنني أكتب عملاً مستقلاً... وانتهيت فعلاً من الفصل الأول... مازلت أتذكر الساعات الطويلة التي كنت أسير فيها حافياً فوق رمال الملعب الكبير المهجور الذي أسكن قربه وأنا أردد جمل الحوار جملة جملة بصوت مرتفع... لأقوم لاحقاً بتنقيح أي عبارة

أتلكأ في ترديدها... كان الفصل الأول مسرحية كاملة... إلا أنها بالنسبة لي مسرحية لا تقول إلا جزءاً مما أريد قوله فحسب... بدأت بالفصل الثاني آمادو «العسكري المحترف» الذي يرفض الانسحاب دون أمر واضح من قائده مما يضطره لقتل زملائه الذين استنتجوا أن الحرب قد انتهت وأن بقاءهم وحيدين فوق الجزيرة أمر لم يعد له معنى... آمادو هنا قوي صارم... شخصية تختلف تماماً عن الشخصية الأولى... أكملت فصلين وبقي الفصل الثالث معانداً؛ فالشخصية فيه مدورة ممتلئة بمشاعر متناقضة شخصية لم أتمكن من سبر غورها واكتشافها بسهولة... انقضى ما تبقى من العام الدراسي ٢٠٠٢ بسرعة كبيرة وكنت أعكف على إكمال معاملة استقالتي وهي إجراءات طويلة يفرضها روتين ليبي قاتل... كنت أنتقل بين زليتن وطرابلس بكثرة... وفي إحدى رحلاتي لمعت بذهني فكرة قصة قصيرة جديدة هي قصة «غيث».

كان غيث قد رافقني طوال السنوات الخمس التي قضيتها في ليبيا... كان زميلي في محل عملي... وكنا معاً لثلاثة أعوام، لذا فقد حاول جاهداً أن يثنيني عن فكرة العودة إلى العراق. لم يكن يحب البقاء في ليبيا... ولا فكرة العودة إلى العراق ولا هو استطاع أن يجازف و»يعبر» إلى أوربا كما كان يحلم دائماً. ولما فشل في أن يثنيني عن الرجوع نظر إليّ مرة وقال لي بيأس: اكتب شيئاً عني إذن.... سأكتب... قلت له... وكان وعداً قطعته له... ولنفسي... وكان ورطة في ذات الوقت، ورطة لم أعرف كيف سأتخلص منها... وفي الطريق بين طرابلس وزليتن... وبينما أنا منغلق عن العالم ومبحر داخل أوجاعي لمعت في ذهني قصة رجلين يحاولان الهروب دون

جدوى... كانت الأحداث تدور داخل سيارة... أحد الشخصيتين يحاول إشعال سيكارة والثاني يمنعه... كانت هذه هي رابع قصة لي تدور أحداثها داخل سيارة بعد المحترم جداً ولحظة وعي وشمروخ.. كتبت الفكرة بسرعة... لكن كتابة الفكرة شيء، وكتابة قصة جيدة شيء مختلف تماماً... أذكر جيداً كم أتعبتني هذه القصة... صغتها جملة جملة.. أعدت كتابة حواراتها مراراً وتكراراً.. كنت أريد حواراً عادياً وغير عادي في ذات الوقت... عبارات يمكن قراءتها بسهولة شديدة لكنها تترك أثراً تراكمياً عميقاً كلما أوغل القارئ في النص.. «تصرفت بنذالة تلقائية كأي محترف للغربة ترك رجولته عند حدود بلده» هذه العبارة مثلاً استغرقت مني أسبوعاً من المحاولات المتكررة والمقاربات المختلفة لتصل إلى مستوى البساطة والعمق الذي يقنعني.

أمس وفي حديثي الهاتفي مع صديقي يحيى أشار أيضاً إلى هذه القصة... قال لي إنه حينما بدأ في قراءتها تساءل في نفسه عن إمكانية تطوير حبكة قصة تدور في مكان مغلق بين شخصين جالسين يتبادلان حديثاً عادياً عن التدخين... أخبرني أنه لم يكن يستطيع أن يتنبأ إطلاقاً بتطور الحدث بالطريقة التي كتبتها فيما بعد لاقت هذه القصة استحسان كل الأصدقاء في زليتن... وعلى رأسهم غيث شخصياً... وكنت قد أطلقت اسمه على القصة... وكان أحد أبطال القصة يحمل بعض سماته... مدخن يائس ساخر يحاول الوصول دون جدوى إلى أوربا... سأشارك بهذه القصة لاحقاً في مسابقة إماراتية لتفوز بالجائزة الثانية «بعد حجب الجائزة الأولى» وأخبرني الأديب محمد المزروعي وقتها «وقد كان عضواً في لجنة التحكيم»

أخبرني أن القصة أثارت إشكالية لدى المحكمين... إذ عدّها قسم منهم قصة تقليدية لا تضيف جديداً إلى شكل القصة العربية... بينما رأى آخرون أنها قصة ممتازة.. وسيختارها الدكتور «صالح هويدي» ضمن كتاب «العبور إلى أزمنة التيه... مختارات من الأدب العراقي المعاصر»، ويضعها مع نصوص لكتّاب عراقيين كبار... وستقوم الدكتورة «آلاء فخري» بترجمتها إلى الفرنسية لتنشر في موقع أدبي يهتم بأدب الشعوب الناطقة بغير الفرنسية... وستتصل أكثر من مرة لتبلغني إعجاب القائمين على الموقع بهذه القصة... وعن رغبتهم بترجمة نصوص أخرى لي... وبالفعل قامت السيدة «الفخري» بترجمة قصتين هما «المعطف الرمادي وفوبيا» وهما قصتان كتبتهما بعد عام ٢٠٠٦ وأنا في العراق أثناء الحرب الطائفية والاحتلال الأمريكي...

الساعة الآن الثالثة فجراً... لم أستطع أن أكيف نفسي للكتابة كل يوم... كل ما حولي حزين... أحاول أن أتفرغ قليلاً لولديّ «ميس وعبيدة» إذ لاحظت أنهما مصابان بكآبة شديدة... لاسيما وأن هذه الحرب قد حدثت وكلاهما في خضم امتحانات فاصلة.. ميس أدت جزءاً من امتحانات نهاية الكورس الأخير من دراستها الجامعية... كان قد بقي لها ثلاثة امتحانات تؤديها خلال عشرة أيام ثم تتخرج وتنهي دراستها الجامعية... عبيدة في الصف السادس العلمي، أدى امتحانات البكالوريا التي استعد لها بجهد وقلق كبيرين طوال العام الدراسي الماضي... بقي له خمسة امتحانات ويكمل دراسته ما قبل الجامعية... لكن الحرب فاجأته أيضاً... وهو في دوامة لأنه يخشى أن ينسى كل ما درسه وأن تضيع كل جهوده بسبب الظروف...

«متى سيقصفوننا؟» سؤال يتكرر على ألسنتهم يومياً... ولا أملك جواباً... أكتفي بابتسامة مرة... قدمت لهما بالأمس كتاب د. بهنام أبو الصوف «التاريخ من باطن الأرض» طلبت منهما أن يقرآ الكتاب وأن يركزا على إنسان النيا ندرتال الذي عاش في العراق قبل ٤٠ ألف سنة في كهف شانيدار قرب أربيل... لقد اكتشف المنقبون... زهوراً متفحمة كان هذا الإنسان يضعها قرب رؤوس الموتى... واليوم تملأ الجثث شوارع مدينتنا دون أن تجد من يدفنها... ترى من سيضع زهرة قرب رأسك في العراق؟

الأربعاء ٢٥ / ٦ / ٢٠١٤

كان يوماً كئيباً للغاية... المالكي يرفض تماماً فكرة تشكيل حكومة إنقاذ وطني أو فكرة تخليه عن السلطة ويتمسك بالدستور وبالعملية السياسية؟! إيران ترسل إمدادات ومعدات عسكرية لدعم المالكي وآلاف المتطوعين الإيرانيين يقفون على حدود العراق بانتظار إشارة مرجعياتهم وكلهم مستعد للموت في سبيل حماية الـ «مراقد المقدسة» في العراق... الطائرات السورية تقصف مدناً غرب العراق... المسلحون يتمكنون من إكمال سيطرتهم على مصفى بيجي أكبر مصافي النفط في العراق... اشتباكات بين المسلحين والقوات الكردية في الحمدانية ومناطق أخرى شمال الموصل... أنباء عن معارك بين الفصائل المسلحة التي اجتاحت الموصل وسبب الخلاف هو تقسيم الغنائم والمعدات العسكرية التي حصل عليها المسلحون... داعش تهدم كل التماثيل الموجودة في الموصل وتنسف مراقد قديمة يتبرك بها العامة... يوم كئيب... كئيب جداً...

السبت ٢٨ / ٦ / ٢٠١٤ الرابعة عصراً

درجات الحرارة الآن هي أكثر من ٤٥°في الظل... لا كهرباء... ولا صوت طائرات حربية تحلق في سماء الموصل... بعض الطائرات قصفت المدينة فجر اليوم.. والمالكي يعلن عن قرب النصر وأنه تمكن من تشكيل وتدريب وتسليح الجيش الرديف... وأخبار عن خطة أمنية جديدة لإنشاء سور حول بغداد... إما أن مستشاري المالكي مازالوا يضحكون عليه... وبشدة... أو أنه مازال يضحك على الشعب... أي نحن... وبشدة أيضاً... إذا كان يتمكن من إعداد جيش خلال عشرة أيام فماذا كان يفعل إذن خلال السنوات الثماني الماضية؟ أما سور بغداد أو الخنادق التي تحفرها الدولة أحياناً حول بعض المدن فيبدو أنه وقادته قد استمدوا هذا الحل من كتب التاريخ... يريدون أن يعيدونا إلى غزوة الخندق وحصار خيبر... ألم يخبره أحد أن هذا الأسلوب في الدفاع قد انقرض منذ قرنين أو أكثر... منذ أن طورت الجيوش المدافع ثم اخترعت الدبابات والطائرات وأصبحت القوة النارية للجيوش لا قوة أجساد المقاتلين هي من تحسم نتائج المعركة... رغم أن كل القوة النارية التي امتلكها في الموصل لم تحقق له شيئاً وتحولت فوهات المدافع التي تركها جيشه... تحولت تلك الفوهات لتصب نارها على قطعاته بعد أن تركها الجنود دون أن يسحبوها أو يدمروها على الأقل... أنا شبه واثق الآن من أن سقوط الموصل السريع كان جزءاً من صفقة لتسليح داعش، إذ امتلكت خلال أيام كمية هائلة من الأسلحة والذخيرة... كمية لا يمكن تجهيزها سراً إلا خلال شهور أو أعوام ربما... وبمبالغ طائلة.

غداً سيكون أول أيام رمضان... سيكون علينا أن نصوم وسط

كل هذه الفوضى وهذا الرعب... قد يتذكرنا البعض ويدعون لنا بالسلامة أو بتغير الحال... تماماً كما كنا نفعل في العام الماضي حينما كنا نتناول إفطارنا ونلمح خبراً عابراً عن أخوتنا السوريين... لا أحد يملك حلاً واضحاً لمشكلتنا كما يبدو... هناك طبقة طفيلية فاسدة جاءت أو ظهرت من الداخل برفقة الاحتلال الأمريكي... وهي طبقة تتداول السلطة فيما بينها وكأنها قدر إلهي مسلط فوق رؤوسنا... وأي معاداة لأي من هذه الوجوه الفاسدة هو معاداة للديمقراطية والدستور والعملية السياسية و.. و.. و... العالم حولنا مشغول ببطولة كأس العالم التي أقيمت في البرازيل... لم أتابع شيئاً عن هذا الموضوع باستثناء خبر واحد أعجبني وهو قيام أحد اللاعبين بـ «عض» لاعب من فريق آخر... ضحكت كثيراً من الخبر الذي يصور الانحطاط الذي وصل إليه العالم في كل شيء... فكل شيء مسموح في سبيل الفوز وقشرة الأخلاق الرقيقة تلاشت تدريجياً في عصر أصبح يمجد القبح والصفاقة والبذاءة في القول والفعل...

الأحد ٢٩ / ٦ / ٢٠١٤

تم إعلان الخلافة الإسلامية... سأنام الليلة وأنا في دولة الخلافة... خليفتنا هو «أبو بكر البغدادي»... لا أعرفه ولا أعرف تماماً ماذا يريد... لكن يتوجب عليّ منذ الآن السمع والطاعة...

الجمعة ١٨ / ٧ / ٢٠١٤

أنا مرهق... مرهق... ويائس...

العشب يذبل... الشجيرات عطشى... ولا ينمو الآن في حديقتي إلا الأدغال التي يبدو أن العطش ينعشها... منذ عشرين يوماً وأنا أقضي معظم وقتي محاولاً توفير الماء والكهرباء لبيتي في صيف لاهب.. درجات الحرارة تقارب الخمسين... لا أستطيع النوم... ولا الاستيقاظ... شهر رمضان غريب جداً هذه السنة... أحاول جاهداً أن أتناسى كل الأخطار المحدقة بالمدينة التي تعيش الآن دون سلطة حقيقية... رغم إعلان «الخلافة» فيها، إذ لا توجد في المدينة إلا قوة صغيرة لا تزيد على ألف شخص بأية حال... والدولة بعيدة بعيدة... تكتفي بإرسال بعض الطائرات لقصف بعض المواقع في بعض الأحيان... وهي تركز على محطات توليد الكهرباء أو محطات ضخ المياه... وعلينا نحن أن نتدبر أمورنا لاحقاً... البرلمان العراقي عقد جلسة... فاشلة... وحدد موعداً بعيداً للجلسة الثانية إلا أن الضغط الدولي أجبر نوابنا على تقديم الموعد البعيد واستبداله بآخر أقرب... وقد تم انتخاب أحد أعضاء الحزب الإسلامي رئيساً للبرلمان وممثلاً للـ «سنة» في العراق... وأخشى أن تستمر هذه المهزلة المؤذية دورة برلمانية جديدة... السيد المنتخب شخص لا موقف له ككل قيادات الحزب الإسلامي... يتحدث كثيراً ولا يقول شيئاً... ويوجد ضده عدد كبير من ملفات الإرهاب بعضها عرض على القضاء وبعضها ينتظر... إنه من نفس الطبقة المشؤومة التي ابتلينا بها وكأنها قدر إغريقي لن يفارقنا... أود أن أكتب... أن أستمر في حكايتي، لكنني مرهق... مرهق... ويائس...

السبت ١٩ / ٧ / ٢٠١٤

يا للعار... يا للعار... تم تهجير المسيحيين من الموصل... أمس صدر لهم إنذار باختيار حل من أربعة... الإسلام أو الجزية أو الهجرة أو... القتل. خرجوا تاركين بيوتهم وأملاكهم باتجاه الشمال... لتستوقفهم سيطرات دولة الـ «خلافة» وتسرق ما يحملون معهم من نقود أو مصوغات... لقد أصبحوا غنيمة للـ «مجاهدين» سبق هذا التهجير تهجير للأقليات الأخرى... لكن أثر ذلك كان أقل على سكان مدينة الموصل لأن بقية الأقليات لا تسكن داخل المدينة. هم غالباً ريفيون اختلطت هجرتهم بهجرة أبناء الموصل في بداية النزوح الأكبر... أما المسيحيون فقد كان لتهجيرهم وقع أشد... فهم أناس مسالمون يجاوروننا في السكن والعمل في كل أحياء المدينة... لم أتصل بأحد من الأصدقاء إلا وأخبرني بأنه يشعر بالعار والمهانة لهذا السلوك البشع... في الحقيقة أنا لم أستغرب ذلك إطلاقاً، بل وأنتظر المزيد من الإجراءات الـ «الدينية» من دولتنا الجديدة... ستتدهور الأمور بشكل أسرع وأبشع ما لم يقم «أحد ما بفعل شيء ما»... من هو هذا الأحد؟ وما الذي سيفعله بالضبط؟ لا أدري... كل ما أعرفه هو أن عدد المسلحين في المدينة قليل قليل... وأنهم يستمدون قوتهم من تلاشي قوة الدولة... وعدم وجود جهة ما في المدينة تحاول ردعهم... السياسيون في بغداد مازالوا يحسبون النقاط التي حصلت عليها كل كتلة برلمانية كي يتنازعوا المناصب فيما بينهم... والجيش يشتبك مع الـ «مسلحين» على أطراف تكريت والأنبار وديالى في معركة كوميدية، إذ لا تناظر إطلاقاً بين جيش أنفقت المليارات لتسليحه وتجهيزه وتدريبه... وبضعة آلاف من المقاتلين غير النظاميين الذين

استطاعوا على حين غرة هزيمة الجيش ودفعه عن ثلث أراضي العراق في أيام... وهو يقاتل يائساً منذ أسابيع لاستعادة بضعة كيلومترات ينجح في استردادها يوماً ويخسرها في اليوم الثاني... ليس هذا مفاجئاً لي على الإطلاق إذا كان وزير الدفاع يشتري منصبه بعشرة ملايين دولار وتنتشر الفضيحة ولا أحد يحرك ساكناً... ثم تنتقل عدوى شراء المناصب من الأعلى إلى الأسفل لتصل إلى مستوى آمري الأفواج... ما هي عقيدة القائد الذي يدفع الملايين لشراء منصبه؟ وما هو دافعه لشراء المنصب؟ هل هو الدفاع عن الأرض والناس؟ أم هو استثمار ينتظر منه أن يحقق عائداً أكبر؟ كل صفقات الأسلحة كانت مثاراً لشبهات كبيرة... تلك التي عقدت منذ سنوات وصولاً إلى ما يعقد الآن من صفقات «سريعة وملحة» منذ صفقة الأسلحة الأوكرانية والصفقة الروسية مروراً بصفقات دروع المشاة المقلدة والعتاد الفاسد وصولاً إلى صفقات رصاص الكلاشنكوف الإيراني الذي تشتريه الدولة الآن بأضعاف سعره... ولا يدفع ثمن هذا الفساد إلا المقاتل البسيط في ساحة المعركة... أو المواطن المدني الذي لاحول له ولا قوة.. الطائرات مازالت تقصف... شاهدت اليوم على إحدى القنوات صور البراميل المتفجرة التي تلقيها الطائرات على الفلوجة «وبعضها لم ينفجر» أما الموصل «والحق يجب أن يقال» فلم تقصف بالبراميل لحد الآن «ربما لأن المدينة خارج مدى طائرات الهليكوبتر» ما نُقصف به نحن هو صواريخ تطلقها الطائرات المسيرة وقد تأكدت بذلك بعد أن روى لي صديقي «توفيق شريف» حادثة قصف الطائرات لبيته في حي الكندي، وأكد لي أن بيته قد قصف بصاروخ وليس ببرميل... الأخبار أيضاً تتحدث عن المتطوعين

الإيرانيين الذين قتل بعضهم وهم يدافعون عن «المراقد المقدسة» في العراق... ويقدر عددهم بخمسة آلاف مقاتل انتشروا مع الميليشيات التي شكلتها الدولة... نحن بين نارين إذن... مجاهدين سنة تجمعوا من أقطار الأرض وجاؤوا ليعلنوا دولة الخلافة... ويعلمونا الدين الحق... والأدب ربما... وميليشيات أخرى تجمعها الدولة «دفاعاً عن المراقد المقدسة» وتحوي مقاتلين عراقيين وإيرانيين وباكستانيين ولبنانيين ربما... إنه استكمال للمشهد السوري... وربما مازال المالكي يحلم بولاية ثالثة مادام بشار الأسد قد نجح في حصوله على ولاية ثالثة رغم كل الجرائم التي ارتكبها بحق السوريين.

الظلام دامس حولي... انقطع التيار الكهربائي... قد أكمل في أي يوم آخر...

الثلاثاء ٢٢ / ٧ / ٢٠١٤

الساعة السادسة صباحاً...

حينما أكون منهمكاً في عمل ما... تتقافز في ذهني فوراً أشياء أخرى... تكون جميلة أحياناً... أحاول جاهداً أن أكمل كتابي هذا في أقصر وقت ممكن لأنني لم أعد أضمن الظروف التي تحيط بي... لكن أفكاراً أخرى تقاطعني... أمامي على المنضدة قصتان لم أنجزهما منذ سنوات... (عصفور أمل) و(لا تقلق يا لقلق)... أشتهي كل يوم أن أترك ما بيدي وأتفرغ لإحداهما... لكنني لا أفعل... ومنذ ساعة برقت في ذهني فكرة جديدة... ليست مسرحية ولا قصة ولا رواية... إنها فكرة سيناريو لمسلسل تلفزيوني عن العراق... أحاول دائماً أن أقوم بعملية فلاش باك بحثاً عن المؤثر الذي قدح

في ذهني فكرة ما... أستطيع أن أشخص الآن ثلاثة عوامل آخرها الفيلم الذي كنت أشاهده قبل ساعة... ليس الفيلم، بل أسلوب الراوي والكيفية التي تم استخدامه فيها... لماذا لا أدخل راويين على المسلسل أحدهما بطل ما والثاني سيكون جهاز التلفزيون في الصالة... التلفزيون لدى العراقيين ليس مجرد جهاز للتسلية... بل هو شخصية متسلطة تسببت في تغيير مصائر عدد هائل من العراقيين... العنصر الثاني الذي حرك فيَّ الهاجس هو أنني شاهدت اليوم على قناة الشرقية برنامجاً تتحدث فيه باحثة ما عن الدراما العراقية... عن تفاهتها وعدم مساسها بالواقع ولجوء الكتّاب إلى أسلوب التهريج المبتذل المسف أو المبالغات أو التقليد... وعن عدم وجود مسلسل واحد يقترب فيه من واقعنا... وبعد قليل شاهدت برنامجاً على قناة العراقية يتحاور فيه آخرون وهم يصفون الذروة العالية التي وصلت إليها الدراما العراقية... وكيف أنها تفوقت كمّاً ونوعاً وبدأت تنافس الأعمال الفنية العربية... هذا التناقض بين الرأيين حركني ربما... العنصر الثالث... وربما كان العامل الأهم أنني ومنذ أيام أقرأ كتاباً لماركيز عن ورشة عمل لكتابة السيناريو.. أعجبتني فكرة الورشة، لكنني لم أر نصاً مميزاً... أعتقد أن معظم الأعمال التلفزيونية الآن تتم كتابتها بطريقة مماثلة... إلا أن الأعمال الأصيلة تولد في ذهن كاتب واحد... كاتب لا يسمح للآخرين بالتلاعب بشخصياته أو الأفكار الأساسية التي يريد طرحها... ربما ناقشها لاحقاً وعدلها، ولكن بعد الانتهاء من المسودة على الأقل... فكرة المسلسل الذي ستبدأ أحداثه عام ١٩٥٦ أي في السنة التي دخل فيها التلفزيون إلى العراق... لا بد أن تكون العائلة التي سأحكي قصتها عائلة

ثرية إذن... أو عائلة موظف مهم... فقليل من الناس آنذاك كانوا يمتلكون القدرة على شراء هذا الجهاز... وقد مرَّ بذهني أن يبدأ الراوي النص ليحكي أحداثاً سبقت ولادته... «إذ إنني أفضل أن يولد البطل في الستينات» ولكن الراوي الثاني «التلفزيون» سيملأ هذا الفراغ مع مزج لذكريات البطل «ذكريات ما قبل الولادة» تتداخل مع ما يظهر على التلفزيون... قد يبدو كلامي مربكاً بعض الشيء... وهذا مقصود لأنني أتمنى أن أكتب عملاً كوميدياً... لكنها كوميديا تتضمن موقفاً تراجيدياً حقيقياً في كل حلقة... ولا شيء أكثر من التراجيديا في العراق... على الشاشة ستظهر بعض ملامح العهد الملكي... ثم حلقة أخرى عن ثورة ١٤ تموز وانقسام الأسرة تجاهها... ثم ثورة الشواف ومحاكمات المهداوي والشرخ العميق في الأسرة... ثم ثورة ٦٣ وإعدام قاسم أمام الشاشة... ثم ثم ثم... إنه مسلسل أجيال... أحافظ فيه على الجياد الثلاثة التي أحب أن أضعها في نير واحد «الأحداث والشخصيات والأفكار»... لا أحب أن أرجح عنصراً على عنصر... أظن أن أي نص أدبي حقيقي لا بد أن يتضمن قدراً كبيراً من هذه العناصر وإلا اختل توازنه... الأفكار وحدها جافة مملة... الشخصيات الجميلة التي نخلقها سرعان ما يلفها النسيان مهما كانت براقة ما لم ترتبط بأحداث وأفكار مهمة. والأحداث وحدها لن تكون إلا مغامرة مشوقة لا عمق لها ما لم يؤطرها فكر حقيقي وتجسدها شخصيات عميقة... هذا هو درسي الذي تعلمته من دوستويفسكي... ما يزعجني حقاً هو أسلوب الكتابة للتلفزيون... أعني تكنيك كتابة النص على الورق المقسم إلى خانات وتقسيم العمل إلى مشاهد قصيرة... فرغم أني قد كتبت

سيناريوهات لأربعة أفلام قصيرة... إلا أنني لم أتمرس على هذا النوع من الكتابة... ولم تر تلك السيناريوهات النور لحد الآن رغم أنها أثارت اهتمام أكثر من مخرج... وكنت أتمنى أن أرى أحدها على الأقل «وهو سيناريو فيلم صورة رئاسية» كنت أتمنى أن أراه على الشاشة هذه السنة تحديداً... ولكن... من يدري فلعل الفرص أفضل غداً ولعلني أتجاوز مشكلتي التقليدية مشكلة الترويج لأعمالي...

الأربعاء ٢٣ / ٧ / ٢٠١٤

أحس بأننا نتحرك... نتحرك إلى الخلف... وبسرعة فائقة...

اضطررت هذا اليوم للذهاب إلى نت كافيه قرب الجامعة... فخدمات النت لا تصل الآن إلى البيوت غالباً. ذهبت لقراءة بريدي وبينما أنا منهمك في كتابة بعض الرسائل أحسست بأن المكان قد ازدحم.. نظرت فوجدت حولي سبعة أو ثمانية من «المسلحين» لم يكونوا عدوانيين... كانوا «مثلي» يحاولون الاتصال بأحد ما في مكان بعيد... شباب من بلدان مختلفة... استرقت السمع فوجدت أحدهم يتحدث عبر هاتفه بالفرنسية... كأنه كان يجري لقاءً صحفياً ما. وكان آخر يتحدث عبر النت بلغة لم أميزها... ليست الإنكليزية ولا الفرنسية ولا الكردية أو التركية أو الفارسية... فأنا أعرف كلمات من هذه اللغات وأميز بسهولة إيقاعها... كان يتحدث لغة آسيوية... لم أر وجهه فقد كان يجلس بكابينة مجاورة لي... أما الآخرون... فقد راقبتهم ولم أميز في ملامحهم شيئاً أعادني إلى الماضي والتراث بقدر ما أحسست بهم يقلدون رامبو أو جيفارا أو أبطال الأفلام الأمريكية في طريقة توشحهم للأسلحة وفي حركاتهم وحتى خصلات شعورهم

المرسلة على أكتافهم. تمنيت لو أنني أتمكن من إجراء حديث مع أحدهم، لكنني ترددت ثم تخليت عن الفكرة وغادرت المكان... لم أشعر بالخوف منهم لكنني تساءلت... أليس أمامهم مستقبل أفضل في مكان آخر... أليس أمامنا مستقبل أفضل بدونهم... كيف تحول هؤلاء الشباب إلى ما هم عليه الآن... سؤال يبدو أن أحداً لا يريد طرحه. كأنهم أشرار السينما... يقتلون لأنهم أشرار وحسب ما الذي يدفع شاباً لتكبد المشاق والسفر من فرنسا أو أستراليا والتسلل إلى جحيم العراق ليقاتل أو ليفجر نفسه وسط حشد من المارة الأبرياء في سوق شعبي؟؟ الجواب سهل «غسيل دماغ» لكنني لا أعد هذه الكلمات جواباً للسؤال... السؤال مازال مطروحاً... وبقوة... إنه سؤال مهم... سؤال قاتل...

الخميس ٢٤ / ٧ / ٢٠١٤

الساعة ٦ صباحاً

لم أنم لحد الآن... حاولت وحاولت... لكنني فشلت لأن خفقات أجنحة الديك تصطخب داخل رأسي... «ديك الحكاية»... قصة ديك الحكاية ارتبطت لديّ بخوفي القديم من حقول الألغام التي تعايشت معها طويلاً ولم آلفها أبداً... اللغم غدار... وسيلة حقيرة من وسائل الحرب... خطوة واحدة خاطئة ليجد المرء نفسه مبتور الساق إذا كان محظوظاً... أو ميتاً ما لم يكن... لا أدري أين قرأت قبل بضع سنوات تقريراً يفيد أن ١٦٪ من الألغام المزروعة على كوكبنا موجودة في العراق... اقشعر بدني من هذه الحقيقة التي عشت على حافتها سنوات... لديّ كثير من القصص الشخصية عن الألغام

لكنني أذكر الآن ثلاثة منها... الأولى وسط أرض متروكة شاسعة على الحدود العراقية الإيرانية قرب مخفر (عين العبد) الحدودي... كنت أجرب بندقية قنص «داراكانوف» واحاول تعديل منظارها مستخدماً ثلاثة أحجار بطارية صغيرة كأهداف وضعتها أمام صخرة بيضاء كبيرة... أطلقت ثلاث رصاصات فأصبت أهدافي الصغيرة الثلاث... سرت منتشياً لأتفقدها فوجدت الصخرة قد تحطمت... ولم أنتبه إلا بعد ربع ساعة إلى ثلاث خطوط نيران غير متوازية تمتد لمسافة طويلة ليرسم كل منها مساراً طويلاً مشتعلاً يمتد خلال حقل شاسع للألغام.. «حقل كان يفصل بيننا وبين القوات الإيرانية»... كان ذلك في نهاية ربيع عام ١٩٩٠ وكان العشب قد أصبح هشيماً ولا شك أنني قد استخدمت إطلاقات مذنبة تسببت بإشعال الحقل عرضاً.. وشيئاً فشيئاً امتد الحريق ليشمل مساحة شاسعة من الحقل المترامي... وبدأت الألغام الصغيرة بالاحتراق بين آونة وأخرى... شعرت بقلق شديد تلك الليلة.. فها أنذا أتسبب في إشعال حقل ألغام بأكمله... توقعت أن أتعرض لمساءلة ما أو أن يقوم أحد ما بالتحقيق أو إصلاح الحقل أو إلغائه.. لكن الأيام مرت دون أن يلحظ أحد شيئاً كما يبدو... وأنا سعيد الآن لأني أتلفت مئات من الألغام...

القصة الثانية ألعن قليلاً كما أظن... كنا نقوم بتمرين إجمالي لتعزيز وحدة يفترض أنها كانت تتعرض لهجوم افتراضي. تحرك فوجنا بأكمله ليلاً ليعزز فوجاً من لواء آخر في مكان لم نخدم فيه من قبل... كانت مدة التمرين ٢٤ ساعة فقط، نصل في الثامنة ليلاً وننسحب في الوقت نفسه من نفس الليلة التالية... وصلت ليلاً لكنني فوجئت حينما استيقظت فجراً بأننا كنا نسير ليلة أمس

وسط حقل شاسع من الألغام في قاطع «مندلي» وسط العراق... وقد كان ظلام الليل حاجباً للهول الذي كنا نسير خلاله بسيارات عسكرية كبيرة متهالكة لم يعد فيها أي عامل من عوامل الأمان... حاولت أن أتفقد جنودي فاكتشفت أنهم موزعون على رقعة كبيرة من الأرض... سرت مسافات طويلة وسط أرض صخرية متموجة وانا أتفقدهم جميعاً وأؤكد عليهم أن يتخذوا الحذر الشديد وسط حقول الهول.. تعبت من السير ولما حاولت العودة إلى مقر السرية التي كانت تبعد عن مكاني أكثر من ساعة مشياً على الأقدام اقترح أحد الجنود المقيمين في المكان «ما زلت أذكر أن اسمه فرهاد» اقترح فرهاد أن أسلك طريقاً مختصرة.. رحبت باقتراحه. لكنه أردف: إن الطريق المختصرة تمر بحقل ألغام... ولما لاحظ ترددي سألني بخبث «هل تخاف من الألغام؟». كانت من تلك اللحظات التي يحاول فيها الجنود اصطياد ضعف الضباط... تماسكت وقلت له بلا مبالاة مفتعلة: «أنا لا أخشى شيئاً». كنت أكذب بالطبع لكنني ندمت على كذبتي بعد لحظات... إذ عرفت لماذا كان الطريق مختصراً فهو يمر بقطع على حافة تل صخري مرتفع... وكان عليّ – وأنا أرتدي تجهيزاتي العسكرية – أن أسير ملتصقاً بجانب التل الصخري فوق شريط صغير لا يكاد يتسع لقدمي ثم أنحدر لمسافة لا يقل ارتفاعها عن بناية من عشرة طوابق... ومن سيسقط منا سيجد نفسه وسط حقل الألغام في الأسفل. وربما فوق أحد الألغام... تبعت بحذر دليلي الخبيث «فرهاد» وتبعني مخابر السرية «غاوي» وهو يحمل على ظهره جهاز اللاسلكي الكبير... كنا ننزل السفح بحذر خطوة خطوة... أنا وغاوي... أما فرهاد فكان يتحرك برشاقة عنز جبلي...

وصلنا إلى أسفل التل حيث سيبدأ حقل الألغام.. توقف فرهاد قليلاً ليوضح لي أننا سنجتاز ثغرة ليس فيها إلا أربعة ألغام فقط... شعرت بالارتياح... لكن عيوني جحظت حين أخبرني أن الألغام الأربعة هي من نوع (فالمارا)... اللغم المنشاري القافز... ولو كنت أعلم ذلك قبل أن أنزل التل الصخري لما نزلت... ولما همني كل ما سيقوله عني الجنود... فألغام الفالمارا من أحقر أنواع الألغام لأنها لا تقفز نصف متر قبل أن تنفلق وتطلق رشقة من الشظايا فحسب... بل هي ألغام ترتبط من مركزها بمجموعة أسلاك كشبكة العنكبوت... ويكفي أن يمس أي أحد أيّاً من هذه الأسلاك كي يعمل صاعق اللغم فيقفز وينفجر... كان هناك أربعة ألغام... وستة أقدام أي أن هناك ٢٤ احتمالاً للتفجير فيما لو كان اللغم عادياً... أما كونه لغماً قافزاً فإن هذا يضاعف الاحتمالات عشر مرات على الأقل... كانت المسافة مختصرة حقاً لكنني ما زلت أذكرها وأنا أحصي أنفاسي وأراقب أقدام فرهاد والذي يسبقني وخطواتي ثم خطوات المخابر الذي يتبعني... كأن الزمن توقف... وكأن الدقائق أصبحت سنوات... اجتزنا الممر وانا أحاول يائساً أن أبدو متماسكاً... وما إن وصلنا حافة الحقل بسلام إلا واطلقت سيلاً من التوبيخات على رأس فرهاد... ذلك الجندي الذي لم ألتقه في حياتي إلا تلك المرة... طلبت منه أن يعود إلى مكانه سالكاً الدرب الطويل وألا يعاود المرور من الحقل ثانية... لم يكن من جنودي، بل كان من جنود الفوج الذي كنا نزوره... لم ألتق به لاحقاً... وما زلت أحفظ اسمه ويبدو أنني لن أنساه...

القصة الثالثة لي مع الألغام أقصر... وأكثر قسوة... إنها قصة الرعاة الذين نفد منهم العشب فكانوا يغافلوننا ويدفعون قطعانهم

إلى حافات حقول الألغام بحثاً عما تبقى من الغذاء... انتبهت يوماً إلى صوت انفجار... أرسلت جنديين ليستطلعا الخبر ليعودا بعد قليل ويخبرانني بأسى بأن أحد الرعاة من الأطفال قد تسلل إلى حقل وراء تلة بعيدة وأن لغماً قد انفجر به وأرداه قتيلاً.. بعد قليل جاء عدد من أفراد قبيلة الطفل وتسللوا وأخرجوا جثته محاولين جهدهم أن يتجنبونا لأننا كنا قد منعناهم مرة بعد مرة من الاقتراب من الحقول... أحسست بألم يعتصر قلبي على طفولة لم يشأ حظها العاثر أن تنشأ وسط هذا الخراب فحسب... بل كان قدرها الانطفاء مبكراً... ولم يكن هناك أي فائدة من محاسبة أهل الطفل... فقد كانوا يعانون جميعاً عناء وشظف العيش لألف سبب... ومثل خلية إرهابية نائمة... نامت هذه القصة في أعماقي... لكنها كانت تخزني بين مرة وأخرى... حتى قفزت أمامي ذات يوم وأصبح واضحاً لديّ بأنني لم أعد أستطيع تجاهلها... حدث ذلك في عام ٢٠٠٢ في زليتن وأنا أفتح صندوق بريدي ١٠٠٣... تذكرت الصبي الذي لم أره... وتألمت... عدت إلى البيت وأنا أحاول طوال الطريق أن أجد بداية مناسبة للقصة.. كنت أحاول أن أبدأها بشخص يقلب دفاتر يومياته ثم يقف أمام صفحة فارغة وسط الدفتر يقرأ تاريخ اليوم ويقول لنفسه... ما قيمة اليوميات إذا كنا نعجز عن كتابة أهم الأحداث التي تمر بنا، ونتجنب حتى الإشارة إليها؟... بدأت أشعر الآن بنعاس شديد... قد أكمل غداً.

الخميس الساعة ١١ ليلاً ٢٤ / ٧ / ٢٠١٤

تم عصر اليوم تفجير جامع النبي يونس... أهل الموصل جميعاً

مازالوا يعانون الذهول لهول هذه الصدمة غير المتوقعة... في مدينتي مئات الجوامع والمساجد والمزارات... إلا أن أهم رمزين في المدينة على الإطلاق هما الجامع النوري أو الجامع الكبير كما يسمونه وهو جامع يشتهر بمئذنته الشاهقة المنحنية انحناء برج بيزا.. وعمره يتجاوز القرون الثمانية... بناه نور الدين زنكي في عهد الحروب الصليبية. وبقي من يومها ولحد الآن مركزاً دينياً رئيساً في المدينة ثم تحولت منارته لتصبح شعاراً لمدينة الموصل ومن منبره قبل ثلاثة أسابيع أعلنت دولة الخلافة الإسلامية في حركة فاجأ فيها الدواعش المصلين الذين جاؤوا لصلاة الجمعة كعادتهم حينما برز شخص غريب يرتدي السواد محاط بحماية مسلحة يرتقي منبره ويعلن في الناس أنه قد ولّي عليهم وهو ليس بأفضلهم ويسأل الله تعالى أن يعينه على هذا الابتلاء... وقبل أن يفيق الناس من صدمتهم كان الخليفة الغريب قد غادر ولم نره ثانية لحد الآن. ولم نسمع منه... أو عنه... ومع ذلك يفترض بنا السمع والطاعة له. أما جامع النبي يونس فهو لا يقع في المدينة القديمة... بل يشمخ فوق أعلى تلة في الساحل الأيسر لنهر دجلة وسط التوسع العمراني الذي شهدته المدينة في القرن الأخير... يقبع فوق تلة أثرية كانت قصراً لأحد الملوك الآشوريين... جامع وآثار مسيحية... وقصر آشوري... مرّ به كل الرحالة العرب وغيرهم.. عمره لا يقل عن ٧٠٠ سنة... ورغم أن من المشكوك فيه تاريخياً وجود قبر لأحد ما في ذلك الضريح «فلا أحد يعرف تماماً أين دفن يونس أو يونان كما يطلق عليه في العهد القديم» إلا أن هذا المقام كان يعد رمزاً للنبي يونس حامي نينوى... وكان جميع الموصليين يعتقدون أن مدينتهم محروسة بجاه (يونس ذي النون صاحب

الحوت)... لقد سمعت هذه العبارة آلاف المرات آخرها قبل أيام وأنا أمر بسيارة أجرة قرب المقام... قال لي السائق العجوز... لن نخاف ونحن في حمى النبي يونس... ورغم أني لا أؤمن إطلاقاً بأي من هذه المعتقدات إلا أنني أحسست اليوم بجرح في الصميم... بإهانة بالغة وعجز كبير... كل ما لدينا ينسف بالديناميت... وبسرعة... الدواعش بدأوا بهدم المراقد والمزارات والأبنية التراثية بوتيرة متسارعة... وطائرات المالكي تقصف أهدافاً «منتقاة» يومياً هي ليست إلا مستشفيات أو منشآت للبنى التحتية للمدينة... هذا اليوم قصفوا أحد المستشفيات أيضاً بصواريخ من طائرة مسيّرة لقد وقعنا بين نارين... ميليشيات قذرة تسلقت كراسي الحكم وخربت العراق باسم حماية «الدستور» والعملية السياسية... ونهبت بأسرع وقت وأكبر كمية كل ثروات البلد... وعصابات غريبة تجمعت من أقطار الأرض وقدمت الحكومة إليهم مدينتنا على طبق من فضة وهم يعيثون الآن في المدينة نسفاً وتقتيلاً... أنا لم أزر هذا الجامع إلا مرة واحدة في حياتي.. وقفت في فنائه لأشاهد الموصل بشقيها تنفرش أمام ناظري... لأشاهد النسوة اللائي يزرن المقام ملتمسات ذرية صالحة وناذرات أن يكون اسم المولود يونس... والعجائز اللائي يحملن أحلامهن وأمانيهن التي لم تتحقق لعقود طويلة علّ الفرج يأتيهن يوماً ما... ذهبت لألتمس خطوات أجدادي «يعقوب الرمضاني وأبيه يوسف» اللذين كانا قبل عقود خطيبين في هذا الجامع... ومن قصة هذا النبي استوحيت مسرحيتي «جوف الحوت».. وقد حلمت دائماً أن تقدم يوماً على أحد المصاطب المتدرجة التي تصعد تباعاً قبل الوصول إلى بوابته... كأنه مبنيّ فوق زقورة سومرية.... يا ذا

النون... لقد كان الحوت أحنّ عليك بكثير من البشر... لعلك تردد الآن ما قلته في جوف الحوت.

لا أستطيع أن أكمل الكتابة... ما زلت أبكي غيظاً لأنني لا أدري ما العمل... يونس... وداعاً.

السبت ٢٦ / ٧ / ٢٠١٤

قصة ديك الحكاية لم تكتمل في ليبيا عام ٢٠٠٢ كما ظننت... لم أقتنع أبداً بكل البدايات التي توصلت إليها... وربما أقنعت نفسي بذلك كي أتجنب ألم كتابتها... حاولت أن أتركها، لكنها لم تتركني... في يوم ما وأنا أسير في أحد شوارع أبوظبي عام ٢٠٠٤ خلف «ليوا سنتر» في شارع حمدان... برزت القصة فجأة من أعماقي... كان الاحتلال الأمريكي قد وقع على العراق منذ شهور وكانت خياراتي صعبة... البقاء بعيداً عن العراق الذي يذبح كل يوم... أو العودة ومحاولة فعل شيء ما في بلدي الذي يحترق... سرت في نفس الشارع جيئة وذهاباً وأنا أحاول أن أجد طريقة أو مفتاحاً للولوج إلى هذه القصة المريرة التي ترفض أن تفارقني... لا أذكر إن كانت هناك مصاطب في الشارع، وإن وجدت فلا شك أنني قد دخنت كثيراً وأنا أجلس فوق أحدها... دخنت وفكرت وسرت ورجعت... دون جدوى. في اليوم الثاني... وفي غرفة التدخين النائية في المدرسة العلمية الدولية، حيث كنت أعمل سقط المطر فجأة... كنت وحيداً أقف أمام الشباك والألم يعتصرني وفجأة قدحت في ذهني جملة ظننت أنها ستكون بداية القصة «سأروي قصتي للمطر... أو ربما كانت الجملة لن أروي هذه القصة إلا للمطر» بدأت أحبك خيوط القصة بالشكل الآتي

«رجل يقف أمام النافذة والذكريات تتدفق من رأسه» لم يكن هناك ديك... ولا مريض... قصة الحقل والقدم المبتورة فحسب... عدت إلى البيت محاولاً كتابة النص... إلا أنني قلبت الأمر مراراً وتكراراً في ذهني فلم أقتنع به... ويوماً بعد آخر تركت الموضوع بأكمله... وتركني... ليهاجمني ثالثة وأنا في العراق عام ٢٠٠٧ وسط المذابح التي كانت تحدث يومها في شوارع المدينة. تذكرت صديقي المثقف الفلسطيني «عبد الله» الذي كان مصاباً بحالة كآبة ثنائية الأقطاب... وقد رافقته مرة إلى عيادة الدكتور غالب نزال في شارع حمدان في أبوظبي... انتظرته خارج العيادة فترة قصيرة ومضينا بعدها دون أن أدخل العيادة. تجلت القصة في ذهني بشكل جديد... مريض نفسي مصاب بفوبيا غريبة... إنه يتوقع في كل لحظة أن يهاجمه ديك... وهو ينتظر دوره في عيادة طبيب نفسي هو «مراد نزال» في أحد شوارع أبوظبي والهواجس تتآكله... ثم يفرّ من العيادة فجأة بعد أن يتخيل أن الطبيب قد يكون هو الديك... لينتهي الجزء الأول من القصة كما تخيلتها قبل أن أبدأ بكتابتها... حاولت وحاولت... دون جدوى فأنا لم أدخل عيادة هذا الطبيب... ولا أستطيع الكتابة عن مكان لا أعرفه... ويوماً ما أرسلت رسالة إلكترونية إلى صديقة مقيمة في أبوظبي ألتمس منها أن تزور عيادة الطبيب المذكور ووصفت لها العنوان رجوتها أن تصف لي غرفة الانتظار في العيادة وبعد فترة قصيرة وصلني منها وصف دقيق مع مخطط للمكان مما أزاح عن صدري ثقلاً وهمياً أو قيداً فرضته على نفسي... لم أستفد من الوصف إلا لون الجدران... ولوحة كانت معلقة على الحائط... ومريض ومريضة كانا في الانتظار... وضفت هذه العناصر بشكل

دقيق ودالٍّ في النص... والآن أتساءل دائماً هل ذهبت تلك الصديقة إلى العيادة فعلاً أم أنها تخيلت المكان ووصفته لي؟ لا أدري... ولم يعد ذلك مهماً.. أين اللغم والمأساة إذن؟ وما علاقة ذلك كله بقصتي الأصلية التي أردت كتابتها عن الطفل واللغم؟ قصة ديك الحكاية غريبة في شكلها تماماً... فهي قصتان كاملتان مختلفتان في الزمان والمكان والمشترك الوحيد بينهما هو البطل... والنص يحمل اسم «ديك الحكاية» ثم يبدأ بعنوان فرعي هو «١ ديك» وأروي قصة كاملة للرجل الخائف من الديك في عيادة الطبيب وتنتهي القصة تماماً.. ثم أبدأ بعنوان فرعي آخر «٢ الحكاية» وهنا سيروي ذلك الراوي حكاية عن فتاة صغيرة تقود قطيع أغنام وتدخل خطأ إلى حقل ألغام وتبتر قدمها... ويكون الراوي وقتها ضابطاً يخدم في المكان... وهو طوال القصة يطرح على نفسه سؤالاً مغلوطاً ولا يجد له جواباً «هل كان عليّ أن أحمي نفسي... أم أحمي جنودي... أم كان عليّ أن أحمي حقل الألغام» وحينما تكتمل القصة الثانية «الحكاية» فإنها تمنح القصة الأولى «الديك» معنى مختلفاً تماماً.. إنها قصة مركبة أحجية من جزأين... ولا مجال الآن لسردها، إذ لا بد من قراءة النص كاملاً لتتوضح جمالياته كلها... أما عبارة البداية فكانت أخيراً «لا... لا لن أروي هذه القصة لأحد.. فمن سيصدقني... من سيصدق معتوهاً يظن أن ديكاً يطارده في كل مكان» كتبت القصة كلها في جلسة واحدة... لم تستغرق مني ساعة... تركتها ليومين أو ثلاثة ثم أعدت كتابتها على الحاسوب.. راجعت الإملاء والقواعد «فرغم عملي لفترة طويلة كمدرس لغة إلا أن كتاباتي لا تسلم من الأخطاء» وأنا أدقق نصوصي وأصحح وأحذف كل عبارة

أو وصف أو كلمة أو حرف عطف زائد... وكلما زاد اشتغالي على النص كلما صغر حجمه... بالإضافة إلى عملية حذف «كان» التي أستخدمها بكثافة وقد تعلمت ألا أراقب نفسي وأنا أكتب النص الكتابة الأولى وأترك هذه التنقيحات والتشذيبات والـ «كانات» إلى مرحلة لاحقة.... اكتمل النص وأرسلته إلى موقع أدبي أعجبني هو موقع «الناقد العراقي» للدكتور (حسين سرمك حسن). وسرعان ما وصلتني منه رسالة طلب فيها صورتي الشخصية وشيئاً من سيرتي الذاتية... ونشر النص ثم نشر لاحقاً رواية «إذا اقترب الزمان» في الموقع نفسه... ولا أدري كم شخصاً قد اطلع على النص ولم أتلق إلا عدداً قليلاً من التعليقات عليها، لكن ذلك لا يغير حقيقة سعادتي الكبيرة بكتابة هذه القصة... فما إن كتبتها حتى شعرت براحة شديدة... وهمٍّ انزاح عن صدري... فقد كانت هذه الحكاية توشك حقاً أن تخنقني...

الثلاثاء ٢٩ / ٧ / ٢٠١٤

أكتب بعد أن بزغ الضوء... الساعة الآن تتجاوز الخامسة صباحاً... كانت ليلة طويلة... أمس هو أول أيام عيد الفطر. عيد لم يحمل أي مظهر من مظاهر العيد رغم أننا جميعاً حاولنا تصنع الفرح دون جدوى. أنا الآن وحيد في المنزل بعد أن غادرت زوجتي وأولادي البيت مساءً حينما تناقل الناس خبر اشتباكات ستحصل في المنطقة التي أسكنها «وهي على حافة المدينة الشمالية قرب مجموعة بساتين».. قررت في البداية ألا أسمح لهم بالمغادرة لكنني تراجعت عن قراري... فقد تحدث فعلاً اشتباكات ويعلقون في المكان أرسلتهم

إلى بيت خالهم وكانوا آخر عائلة تغادر الحي في العاشرة مساء.... تجولت بين البيوت الفارغة اكتشفت أن أحد الجيران قد بقي وحيداً مثلي بعد أن أرسل أولاده إلى مكان ما تحدثنا قليلاً ثم بدأ إطلاق النار فجأة... كان هناك هدير طائرات مسيّرة، وكان هناك من يطلق عليها النار كما أظن من مدافع مضادة للطائرات. ركضنا أنا وجاري كل إلى بيته وبقيت أسمع دويّ القصف لساعتين أو أقل ثم انتهى كل شيء... انتهزت فرصة خلو حيّنا من الناس وعبأت خزانات المياه ورويت حديقتي العطشى منذ سبعة أيام في جو تموز اللاهب. كنت أريد أن أنتهز هذه الفرصة للكتابة، لكنني لم أحبذ فكرة استخدام لمبة الكاز فأنا أكرهها ورائحتها تعيدني فوراً إلى جو الخنادق والحرب... أما الآن وقد انبثق الضياء فقد بدأت أشعر بنعاس شديد!! لا يوجد حل سهل كما يبدو، لكنني سأحاول بكل جهودي الالتزام بالموعد الذي فرضته على نفسي وهو أن أكمل هذا الكتاب قبل عيد ميلادي الخمسين.. أي بعد شهر واحد تماماً. ترى هل سأتمكن من تحقيق ذلك؟

الجمعة ١ / ٨ / ٢٠١٤

الساعة ٣ صباحاً

أنظر إلى ورقة من الأوراق التي كتبت فيها المواضيع التي يجب عليّ أن أستكمل سردها ليكتمل الكتاب والمواضيع المتبقية هي:

١ – الفصل الأخير من آمادو بعد وصولي إلى الإمارات ٢٠٠٢.

٢ – لقائي بقاسم محمد ومشاركتي بمسابقة أدبية وفوز نديم شهريار بالجائزة.

٣ – تسلّم الجائزة ومقالتي التي شاركت فيها أثناء الندوة الأدبية.

٤ – منتدى القصة في أبوظبي وولوجي إلى الوسط الأدبي في الإمارات من خلاله.

٥ – العودة إلى العراق والعمل بالصحافة.

٦ – تأسيس مدارس الأوائل.

٧ – مسرحية بداية جديدة وتجربة في التأليف المسرحي المرتجل.

٨ – قصة حقيرة والمعطف الرمادي.

٩ – مسرحية حكاية هووو ودراسة الماجستير وكتابة أطروحة عن بعض أعمالي.

١٠ – رواية أنيس في بلاد العجائب.

١١ – مسرحية جوف الحوت وبرنامجي التلفزيوني «كتاب» .

١٢ – فوز مسرحية جوف الحوت في مسابقة الفجيرة للمونودراما ولقائي بمسرحيين عرب وأجانب.

١٣ – ستيف كارير يعرض مسرحية بداية جديدة في لكسمبورغ.

١٤ – مسرحية فكرة.

١٥ – آمادو تقدم باللغة الألمانية في لكسمبورغ.

١٦ – مسرحية «الصخور السوداء».

هذه هي المواضيع التي يفترض لي أن أكتب عنها لأكمل هذا الكتاب في الموعد الذي حددته لنفسي... وأنا أنوي اختصار الوقت وكتابة موضوع واحد كل يوم على أقل تقدير، وهكذا يكون بإمكاني أن أختصر السبعة عشر يوماً إلى أسبوعين ربما ما لم يطرأ جديد يشغلني

عن الكتابة... قررت أن أختصر الحديث عن الأحداث اليومية التي أعيشها الآن لأنها تتكرر... قصف واغتيالات وتهديم وتخريب متكرر يومياً ولا حلّ في الأفق... ونحن ما زلنا في نفس المعاناة اليومية بحثاً عن الماء والكهرباء والوقود... والحياة شبه متوقفة في المدينة... لن أتطرق إلى الوضع الراهن ما لم يجدّ جديد على المستوى الخاص أو العام. سأكتب موضوعاً كل يوم إذن رغم أن ما أذكره عن هذه المواضيع ليس متساوياً في الغزارة... وقد يستغرق بعضها نصف صفحة لا أكثر... لا أستطيع تقدير ذلك الآن... فعليّ أن أكتب... أن أفتح ذهني للذكريات وتداعياتها وسأرى الحصيلة.. لاحقاً لن أكتب بالتسلسل التاريخي للأحداث... أريد أن أبدأ اليوم في الحديث عن مدارس الأوائل... حديث حاولت أن أتجاهله منذ شهور لكنه يحفر في نفسي... هذا الشهر بالذات... شهر تموز / يوليو لم تدفع مدارس الأوائل رواتب المدرسين والعاملين فيها لأول مرة منذ تأسيسها عام ٢٠٠٥ بقي موظفونا بدون رواتب رغم أن العيد تصادف هذا الشهر.. لم ندفع للحراس والعمال.. لم ندفع رواتب مئة وسبعين موظفاً.. مئة وسبعين أسرة بلا دخل هذا الشهر... كم آلمني ذلك.. أشاهد حلماً أوشك أن يتحقق... ثم يتحطم فجأة.. وبقسوة.

حينما عدت إلى العراق عام ٢٠٠٤ عملت لشهور بالصحافة ثم تركتها لأقوم بتأسيس أول مدرسة أهلية في مدينتي فور سماح وزارة التربية بإنشاء مدارس خاصة. كان هذا أحد أحلامي... فإذا كان طلاب مدارسنا لا يقرؤون فعلينا أن ننشئ مدارس تعوّد الأطفال على القراءة. إذا كان الجيل الجديد غير مثقف فإن مسؤولية المدارس الاهتمام والتركيز على إنتاج جيل مثقف. إذا كانت نصوصي بلا

قراء... فلأصبر قليلاً وأخلق لي جيلاً من القراء. ومادامت كل الحلول تبدأ من المدرسة... فلمَ لا أؤسس مدرسة؟؟ أحلام كبيرة راودتني وأنا أعمل على تأسيس هذه المدرسة... لم أكن أريد جعلها مكاناً لتلقين الطلاب معلومات تمكنهم من اجتياز الامتحانات، بل حاولت خلق بيئة نظيفة تعلّم الأطفال كيف يجتازون الحياة بأسرها... وبتصميم وعناد، وبفكر مغاير لكل ما هو سائد، تمكنت من إقناع بعض المستثمرين بتمويلي بمبلغ لم يكن يزيد في البداية على ٦٠ ألف دولار... ووسط حرب أهلية قاسية... وأشخاص يتحفظون كثيراً من المدارس الخاصة لأنها جديدة فتحت مدارس الأوائل الأهلية أبوابها في فيلا كانت تشغلها القنصلية التركية سابقاً. قضيت أشهر الصيف وأنا أختار كادراً للعمل معي... وقد صممت منذ البداية على أن يكون كل أفراد الكادر من عديمي الخبرة في التدريس... وقد استغرب الجميع تصميمي على هذا الاختيار الغريب، لكنني كنت أنظر أبعد. فالخبرة السابقة فيها إيجابيات لكن سلبياتها أكثر في تقديري... لأنها خبرة تم اكتسابها في بيئة تربوية مهلهلة تفتقد للرؤية السليمة دربت ٣٠ متقدمة للعمل... واخترت منهن ١٥ معلمة كان عدد الموظفين الإجمالي في المدرسة ثمانية عشر شخصاً... فتحنا أبواب المدرسة لنستقبل في يومها الدراسي الأول سبعة طلاب فقط نصفهم تقريباً هم من أبناء المنتسبين للمدرسة... لن أنسى ذلك اليوم أبداً... إذ دخلت غرفة المعاونة(بيداء الصفار) ورأيتها تبكي... كانت تجلس مع المعلمات الصامتات في جو يخيم عليه يأس وكآبة... قالت لي: بعد كل الجهد الذي بذلناه طوال الصيف فإن أحداً لم يأتِ... وبعد أيام ستغلق المدرسة أبوابها وينتهي كل شيء.. أجبتها بثقة وبرود: إذا

بقيت حياً... وما لم يحدث زلزال في المدينة... فإن قبول الطلاب في هذه المدرسة سيكون بالوساطات.. ليذهب كل إلى عمله، والتزموا بالتوقيتات حتى لو كان في كل صف تلميذ واحد غيرت كلماتي الجو قليلاً ومنحت الكادر بعض الثقة... وبعد ثلاث سنوات فقط... حدث ما توقعته وأكثر. وذكرت الجميع بكلماتي يوماً فقالوا... نحن لم ننسَ تلك الكلمات التي بدت يومها ضرباً من الخيال... كان هناك مجموعة من المثقفين قد مدّوا لي يد العون وساهموا بجهد كبير في تدريب الكادر (عبد الكريم سليم ومارب المولى وثائر الساعاتي) وآخرون وقد كنت أختار المتدربات بعناية كبيرة وكان الكادر بأكمله من النساء وكنت أفضل أن تكون المدرسة أمّاً وفي عمر يتراوح بين الثلاثين والأربعين... لقد عملت طويلاً مع النساء وأدرك تماماً قوتهن وجدارتهن والإخلاص الكبير الذي يبدينه في حال عملهن في مكان محترم يقدم لهن الفرصة التي يستحققنها... ويتعامل مع الجميع على أساس الجدارة في جو يسوده التعاون. كان نصب أعيننا هدف مشترك واضح هو «المقاومة» كان العراق وقتها ينوء تحت ثقلين. الاحتلال الأمريكي والحرب الأهلية التي نتجت عنه. عملنا في ظروف صعبة للغاية.. تعرضت المدرسة لتفجيرات عرضية أو مقصودة أكثر من ١٥ مرة... تحطمت النوافذ والأبواب وتطايرت الرفوف أكثر من مرة... أحياناً بسبب موقع المدرسة على شارع مهم قرب جامعة الموصل، وهو طريق للأرتال العسكرية الأمريكية. وأحياناً أخرى كانت المدرسة بذاتها هي الهدف المقصود... لكننا واصلنا العمل بروح قتالية حقيقية. وصل عدد الطلاب في نهاية العام الأول إلى بضع وأربعين طالباً وطالبة... ثم أكثر من سبعين في العام

الثاني وهو العام الذي دخل طلابنا فيه الامتحانات الوزارية العامة، وحققوا نتائج طيبة. وعلى الفور هبّ الناس لتسجيل أولادهم في المدرسة فامتلأت المقاعد المتاحة وأصبح عدد المتقدمين أكبر بكثير من قدرتنا على الاستيعاب، مما دفعنا لتأجير مبنى مجاور كملحق للمدرسة، لكنه لم يكن كافياً لسد الحاجة. كان شعار المدرسة المعلن «ليكن التعليم ممتعاً» وكان هدفي «وقد أوضحته دائماً في كل اجتماعاتي مع الكادر» كان هدفي بسيطاً هو أن نمنح التلاميذ أكبر كمية من الذكريات السعيدة... لأن الطفولة السعيدة ينتج عنها غالباً حياة متوازنة... كانت «الذكريات السعيدة» أثمن ما نقدمه لطفل يعيش وسط معارك تدور قرب بيته ومدرسته... وسط الحرائق والدم والخراب... كانت الذكريات السعيدة بذرة أمل حاولت زرعها في نفوس الأطفال رغم كل القسوة والمعاناة التي يمرون بها يومياً... لم أنتخب الطلاب.. قبلتهم من كل الشرائح مع أن الأغلب كانوا أبناء أساتذة أو مدرسين أو موظفين من الطبقة الوسطى... وهي تحديداً الطبقة التي استهدفتها منذ بداية العمل... كنت أحاول جاهداً أن أطبق شعار المدرسة.. لجأت – رغم كل المخاطر – إلى تنظيم جدول رحلات علمية وترفيهية... اهتممت كثيراً بدروس الفنون والرياضة وكانت ذروة عملنا تتجلى في الحفل السنوي الذي كنت أصمم على إقامته كل عام رغم كل المخاطر والبؤس الذي كنا نعيشه، إذ كنا نقدم كل حفل فقرات جديدة ممتعة ومشغولة بحرفية.. إذ إنني بدأت أجمع ضمن كادر العمل عدداً من الفنانين في أكثر من مجال... وكان منهم قد ترك بصمة أو أثراً في نفوس التلاميذ وفي تشكيل كيان المدرسة ككل.. تطورت المدرسة الابتدائية فألحق بها ثانوية للبنين...

وأخرى للبنات وقد قاتلت طويلاً لأحصل على قطعة أرض كي نتمكن من بناء مدرسة الأحلام لكن الدولة كانت غير مبالية بالأمر بينما واجهني بعض المديرين العامين في دوائر مهمة بحرب شعواء.. وكلما تمكنت من الوصول إلى أرض حكومية تصلح لبناء المدرسة حجبوها فوراً وخصصوها لمشروع آخر... كأنما كان هناك تفاهم سري بين البلدية ودائرة الاستثمار وقائمقامية الموصل، بالإضافة طبعاً إلى مديرية تربية نينوى التي حاربتني في البداية كوني دخيلاً على الوسط التربوي المحلي، ولكون عملي المميز قد عرّى تخلّفهم... وبعد أن يئست من الدولة وبسبب نجاح المدرسة اقتصادياً لجأ شركائي إلى شراء قطعة أرض مساحتها ثلاثين ألف متر تقريباً على تلة تشرف على المدينة... اشترينا الأرض في ذروة الاقتتال الطائفي، واستحصلنا على الموافقات الرسمية لتشييد المدرسة من كل الوزارات المعنية «وعددها ١٣ وزارة» ما عدا وزارة واحدة اعترضت على المشروع وهي «وزارة التربية!!».. كان من العجيب أن تعترض تربية نينوى على بناء مدرسة في مدينة تعيش أزمة خانقة في المباني المدرسية وقد وصل عدد الطلاب داخل الصفوف إلى ٧٠ طالباً داخل المدينة وأكثر من ١٠٠ طالب في مدارس الضواحي والقرى... تربية نينوى التي لم تكف يوماً عن البكاء بسبب نقص المدارس تعارض بناء مدرسة نموذجية بمواصفات دولية. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، إذ فوجئت يوماً باستدعائي هاتفياً ولم يذكر أحد الأسباب... وفي بغداد تم التحقيق معي بشأن «أنشطتي المشبوهة!!».. حقق معي أحد العاملين في الشؤون القانونية في مديرية التعليم الأهلي. كان رجل قانون بغدادياً محنكاً أمطرني بأسئلة غير مباشرة واستمر معي

على هذا المنوال أكثر من ساعة ونصف... مللت من التحقيق فقلت له... أستاذ ادخل في صلب الموضوع وسأجيبك بكل صراحة فليس لديّ ما أخفيه... نظر إليّ طويلاً ثم ضحك وأخرج من درج مكتبه شكوى مقدمة ضدي من السيدة «مديرة تربية نينوى» وهي تتحدث عن شخص مريب يدير مدرسة ذات نشاطات غريبة... قلت للرجل باختصار ووضوح: أنتم وافقتم على أن أقيم مدرسة في فيلا محورة فهل لديكم مانع من بناء مدرسة نموذجية على أرض اشتريناها بمالنا وبتمويلنا الشخصي... هل هناك قانون ما يمنع ذلك... على الفور أغلق الرجل أوراقه وابتسم قائلاً : بل نحن نتمنى ذلك... ولهذا السبب بالتحديد أنشأنا مديرية التعليم الأهلي... يبدو أن هناك من يكرهك في الموصل «قلت له» إنهم لا يعرفونني لكي يكرهوني «قال لي بهدوء: إنهم يكرهون النجاح.. ومن الآن فصاعداً أرجو أن تتصل بي كلما واجهتك مشكلة في الموصل»... عدت إلى مدينتي وأنا أشعر بألم شديد... فقد تركت الدنيا كلها ورجعت وسط حرب طاحنة لأساهم بطريقتي في المقاومة والبناء والأغبياء من حولي يحاولون جاهدين هدمي وعرقلة جهودي.

ما زلت أذكر بعض المواقف الـــ «طريـــفـــة!!» التي مررنا بها في البداية... أذكر تماماً أنني كنت أجمع الطلاب في بهو داخلي وأنظمهم في صفوف ويشرعون بقراءة الأناشيد الوطنية بحماس كلما أبلغتنا الأجهزة الأمنية عن وجود قنبلة قريبة أو سيارة مفخخة سيفجرونها قرب المبنى... لم يكن لديّ حيلة أخرى... إذ لا يمكنني إخراج التلاميذ من البوابة، فقد يحدث التفجير في أي لحظة... ولا يمكنني إبقاؤهم في الصفوف، فقد تصيبهم الشظايا، أو قد يتناثر

عليهم الزجاج ويؤذيهم... يبدؤون بالإنشاد وأردد معهم لأرفع حماسهم... ننشد معاً، وقلوبنا ترتجف، وآذاننا تتلصص منتظرة صوت التفجير... وما إن ينتهي الانفجار وأطمئن على الجميع حتى يدخلوا إلى الصفوف مع معلماتهم ليكملوا الدروس... كم تكررت هذه الممارسة... لكن أقساها حدث مرة وأنا خارج المبنى... اتصلت بي المعاونة فزعة لتخبرني أن هناك قنبلة مزروعة وسط الشارع أمام باب المدرسة تماماً... هرعت راكضاً إلى المدرسة لكن رجال الأمن منعوني من الاقتراب. كان معي صديقي الكاتب (عبد الكريم الزيباري) وهو ضابط سابق وقد توسلهم أن يسمحوا له بتفكيك القنبلة... لكنهم أخبرونا أن أحداً ما في مكان قريب يحمل هاتفاً خلوياً ويراقب المكان وسيفجر القنبلة فور اقتراب أحد ما منها... حاولت المستحيل كي أدخل بأي وسيلة.. حاولت الاقتراب من الشوارع الجانبية أو الالتفاف من الخلف ولكني فشلت. وكنت أسمع صوت الصغار من الداخل وهم يغنون برعب «موطني موطني....». قام بعض أفراد الجيش بإمطار العبوة المتفجرة بوابل من الرصاص حتى انفجرت. دخلت راكضاً لأطمئن على الجميع... وكانوا بخير... وقد سرقت هذا الموقف وحورته قليلاً ليصبح نهاية روايتي التي سأكتبها لاحقاً «أنيس في بلاد العجائب».

وبعد تسع سنوات من عمل ومثابرة متواصلة تمكنت من خلق كادر مميز يزيد عددهم الآن على مئة وستين مدرّسة ومدرساً، وأصبح عدد التلاميذ والطلاب أكثر من ألف طالب، وقد تمكنّا من بناء ثانوية البنين منذ ثلاث سنوات ونجحت في استقطاب العدد المطلوب من الطلاب والذين تخرجت أول دفعة منهم في العام الماضي وأصبح

معظمهم في كليات محترمة داخل العراق وخارجه... أما الابتدائية فهي تحرز نسبة نجاح مئة في المئة منذ أعوام... وهي المدرسة الابتدائية الأولى في محافظة يزيد فيها عدد المدارس على ألف ومئتي مدرسة... وقد أكملنا تقريباً بنايتها الجديدة بسعة ست وثلاثين قاعة دراسية واثنتي عشرة قاعة أخرى للمعامل والمختبرات والأنشطة الفنية والمكتبات. وكان من المفترض افتتاحها بعد شهر واحد من هذا اليوم... لكن الزلزال الذي هزّ المدينة غيّر الموقف كله... ونزوح الناس إلى أماكن أخرى، والشلل الذي أصاب حياتنا أوقف العجلة الدائرة... وبعد أن كنت أقضي معظم نهاري في شهر تموز / يوليو أعتذر من الأصدقاء والمسؤولين والأقرباء عن إمكانية قبول أبنائهم بسبب اكتمال العدد المقرر... لم يرن هاتفي هذا الشهر إلا مرتين فقط... ولم يتقدم للتسجيل أحد... وأنا أذهب الآن إلى المدارس كي أزود الطلاب المنقولين خارجاً بالأوراق الرسمية التي يحتاجون إليها لاستكمال انتقالهم إلى داخل العراق أو خارجه... وهكذا انهار حلم كان قد تحول إلى واقع ملموس بعد تعب وسهر وكفاح... ليعود ثانية فيصبح خيالاً... سأبتعد مرغماً عن زملاء يربو عددهم على مئة وخمسين مدرساً ومدرّسة شاركتهم رحلة كفاح طويل في ظرف خارج عن المألوف.. وسأبتعد مرغماً عن أكثر من ألف تلميذ وطالب وطالبة كنت أعدهم جميعاً أولاداً حقيقيين لي.. وكنت أتمنى أن يمهلني القدر سنوات لأراهم شباباً يبنون الموصل بالطريقة التي حلمنا بها جميعاً لفترة طويلة. اتصل بي أكثر من شخص وجهة ليعرضوا عليّ تأسيس مدرسة عراقية جديدة خارج العراق... عروض قد تبدو مغرية... قد تكون حبل نجاة يخرجني مما أنا فيه الآن... ما زلت أفكر في الموضوع... ولولا خوفي على (ميس وعبيدة) لرفضت

فوراً ودون تردد... لكنني إذا ما سمحت لنفسي يوماً بالمجازفة بحياتي، فإن من الصعب على أب أن يجازف بحياة أولاده. ولاسيما وأن الشائعات تنتشر كالنار في الهشيم حولنا يومياً. وهناك إشاعة تتواتر عن قيام «دولة الخلافة» بتجنيد الشباب من أبناء المدينة للقتال في صفوفهم. وهذا يدفعني للتفكير بالرحيل بعيداً عن هذا المكان، حتى يقوم أحد ما بفعل شيء ما لتغيير هذا الواقع المرّ.... داخلياً... أحس بهدوء... وأتوقع أن الحل لن يتأخر... وأن مفتاحه الوحيد هو تشكيل حكومة جديدة دون المالكي وزمرته السخيفة من اللصوص والقتلة والمهرجين...

هل أبقى؟ أم أغادر؟ ذلك هو السؤال الذي أطرحه على نفسي ألف مرة يومياً... وما زلت محتاراً...

السبت ٢/آب/ ٢٠١٤

الساعة الثالثة صباحاً.

قررت دولة الخلافة اليوم منع بيع السكائر في الموصل... لديّ اثنتان وعشرون علبة.. وكيس تبغ واحد للـ (بايب)... في العادة أدخن أقل من علبة ونصف يومياً، أما بعد إعلان الدولة فأنا أدخن بإفراط... هل يمكنني الكتابة بعيداً عن دخان السيكارة؟ لا أدري... لقد جربت ذلك وأنا أكتب في الكويت عام ١٩٩١ إذ كنت أحياناً أقضي ساعات وأنا أبحث عن أعقاب السكائر التي رميتها قبل نفاد السكائر مني... يبدو أن التاريخ يعيد نفسه معي باستمرار... قد أتمكن غداً من الحصول على تبغ للبايب فذلك أسهل من الحصول على علب السكائر...

٨/٢

في مثل هذا اليوم دخل قسمٍ من الجيش العراقي إلى الكويت لتبدأ مأساة الكويتيين والعراقيين معاً.... انتهت مأساتهم بعد شهور... وبقيت مأساتنا تتضاعف حتى وصلنا إلى ما وصلنا إليه اليوم لا أريد أن أستطرد أكثر... فالتداعيات إذا بدأت لن تنتهي... لِمَ لا أعود إلى قصتي الأصلية...

صيف ٢٠٠٢.

كنت أقضي أيامي الأخيرة في ليبيا وقد قررت الرجوع إلى العراق... كانت القوات الأمريكية قد بدأت في تحشدها... وما إن تحركت الفرقة الأمريكية ١٠١ حتى أيقنت أن الحرب واقعة لا محالة... لم أكن أتحمل فكرة حدوث حرب وأنا بعيد عن عائلتي... أكملت أوراقي وأوشكت على حجز التذكرة للعودة إلى العراق... كنت أتصل بأهلي هاتفياً كلما أتيح لي ذلك. فالهواتف المحمولة لم يكن مسموحاً بها، والهواتف العادية كانت نادرة في ليبيا. وكان علينا الذهاب إلى مكاتب تخضع لمراقبة الدولة وإجراء المكالمات منها بعد تسجيل أسمائنا ووقت ومكان الاتصال. اتصلت مرة بالعائلة وكلمني أبي – رحمه الله – ولما علم بقرار رجوعي رفض ذلك رفضاً قاطعاً... وطلب مني البقاء بعيداً مهما حدث ما زلت أذكر عبارته حرفياً «في الحرب الماضية تم أسرك... وفي هذه الحرب ستقتل... ابق بعيداً» لا أدري كم بقيت حائراً ولا كم كيلو متراً قطعت وأنا أسير جيئة وذهاباً فوق رمل الملعب. حتى اتخذت يوماً قرار السفر إلى الإمارات... لم يكن الأمر سهلاً بالنسبة لي، لكن صديقي (جمال

البصو) المقيم هناك سهّل لي الأمر كثيراً... وفي نهاية شهر تشرين الأول / أكتوبر طرت من طرابلس إلى عمان... ومنها إلى أبوظبي ليلاً. كان جمال في استقبالي... تبادلنا التحية وحمل حقيبتي وغادرنا الصالة.. وما إن وضعت قدمي خارجها حتى لفح وجهي هواء ساخن رطب، تراجعت، لكني فوجئت بيد جمال خلف ظهري تدفعني إلى الأمام... قال ساخراً «مرحباً بك في الإمارات»... قضيت الليلة في شقته مع عائلته تحدثنا طويلاً وانطلقت صباحاً في رحلة مضنية بحثاً عن عمل... كلما تذكرت تلك الأيام أشعر بانقباض في معدتي... فما أقسى أن تعرض نفسك على الآخرين.

كنت قد وصلت إلى الإمارات متأخراً ثلاثة أشهر عن الموعد المناسب للحصول على عقد عمل في التدريس... وكلما مرّ الوقت، قلّت هذه الفرصة أكثر وأكثر... بقيت أسبوعاً في أبوظبي ثم انتقلت إلى الشارقة... وكنت أنتقل بينها وبين دبي وأقدم أوراقي في كل المدارس الأهلية التي أمكنني الوصول إليها ولكن دون جدوى... تعلّمت أن أشتري الجرائد وأقلب الصفحات الخاصة بالتوظيف... دون جدوى أيضاً... لو كنت حلاقاً أو طاهياً لحصلت على عمل في اليوم الثاني فحسب، لكنني للأسف لست كذلك.

خطر لي أن أبحث عن فرصة عمل في جريدة ما كمدقق لغوي... لم أكن أعرف أحداً لكنني ذهبت بالصدفة إلى مقر اتحاد كتّاب وأدباء الإمارات في الشارقة. حضرت قراءة قصصية وشاركت في النقاش وتعرفت إلى عدة أشخاص. وربما كان الأستاذ نواف يونس هو من أخبرني أن «جمعة اللامي» القاص العراقي يعمل في صحيفة الاتحاد... وأنه قد يساعدني في الحصول على عمل ما. لا أدري كيف

حصلت على رقم الأستاذ جمعة اللامي فاتصلت به يوماً وطلبت منه تحديد موعد للقائه وشرحت له موضوعي بشكل عام. تحدث إليّ الرجل بدماثة وحدد موعداً قريباً... وقبل ذهابي اتصلت به فطلب تأجيل الموعد لأن ضيوفاً من خارج الإمارات قد زاروه... ووعدني بأن يتصل هو بي ليحدد موعداً جديداً. انتظرت ذلك الاتصال أياماً طويلة لكنه لم يتصل... ولم أعاود أنا الاتصال. أحسست بمهانة مريرة وأقسمت بداخلي ألا أكرر هذه الفعلة أبداً... وحينما التقيت صدفة بالرجل في معرض كتاب أبوظبي ٢٠٠٤ لم أبادره بالسلام ولا بالحديث خلافاً لعادتي في التعارف المباشر مع كل العراقيين حينما أكون خارج البلد. ظننت أن الرجل تجاهلني أو أنه أراد التخلص مني فحسب... ضحكت من نفسي لاحقاً حينما أخبرني بعض أصدقائه أن الرجل دمث وفي غاية الطيبة، لكنه كثير النسيان فحسب... وفاجأني (اللامي) منذ سنتين حينما طلب مني برسالة إلكترونية رقم هاتفي «وأنا في العراق» كان قد قرأ قصة ديك الحكاية وأعجب بها واتصل بي ليعبر عن إعجابه بالنص... أخبرته بأني أعرفه وقد تكلمنا عبر الهاتف منذ سنوات... لكنه لم يكن يذكر الموضوع بالطبع. وبعد خمسة أسابيع صعبة في الإمارات أوشكت نقودي على النفاد وفي اليوم الذي قررت فيه العودة إلى العراق اتصل بي جمال من أبوظبي وأخبرني ان أول مدرسة قدمت فيها أوراقي تطلبني للمقابلة. وكان قد أعطاهم رقم هاتفه لأننا زرناهم فور وصولي وكنت يومها دون هاتف... وبعد مقابلة قصيرة مضحكة حصلت على العمل... وفي اليوم الثاني استأجرت شقة صغيرة بالمشاركة مع أحد الأشخاص... كان مهندساً لبنانياً من طرابلس... مثقف يهوى الطبخ... ضايقني

احتلاله للمطبخ أول أيام رمضان... لكنني لم أكن مضطراً للطبخ، إذ تناولت الفطور مع عائلة جمال... أما بقية الأيام فقد كان المهندس كمال يقوم هو بالطبخ لشخصين (له ولي)... ورفض أن أساعده في عمله. ويبدو أنه كان يطمح أن يكون طباخاً لكن الأيام قادته بعيداً عن حلمه... ويوماً ما زار المهندس كمال مهندس فلسطيني اسمه عبد الله البوريني أخبرني أنه يحمل شهادة الماجستير في تخطيط المدن. لكنه كان شاعراً رقيقاً وإنساناً حساساً عالي الثقافة... سرعان ما أخبرته بأنني كاتب... زارني بعد يوم أو اثنين وقرأت له الفصلين اللذين كنت قد أكملتهما من آمادو فوجئ الرجل بالمسرحية، وأذكر أنه قال لي أنت قد أنجزت نصاً مهماً وأجمل ما فيه هو قدرتك على اصطياد هذا الموضوع الغريب ولما أخبرته أن النص غير مكتمل ألح عليّ بضرورة إكماله... أظن أن كلماته حفزتني لكنني بقيت حائراً... فمازال مفتاح الشخصية الثالثة ضائعاً... وفي ليلة ٢٠٠٢/١٢/١ كنت مستلقياً في فراشي وكانت الجوامع القريبة تردد آيات من القرآن والأدعية الدينية «إذ كانت ليلة القدر» نهضت فجأة وفتحت كراسة وبدأت أكتب الفصل الثالث من آمادو... الشخصية الثالثة أكثر تدويراً، والعمل عليها أصعب... البطل هذه المرة ليس معلماً بسيطاً ساقته الظروف مرغماً إلى ميدان المعركة، ولا عسكرياً محترفاً يؤدي واجبه بصرامة... بل هو فلاح آمن بالأفكار الكبيرة التي زرعوها في رأسه... وقاتل كحيوان كاسر دفاعاً عن «مجد الوطن» ثم يترك وحيداً فيقرر تكريس حياته للانتقام من أعدائه. ليكتشف تدريجياً أنه لا يختلف عن الأعداء بشيء... كلهم وحوش كاسرة جردتهم حكوماتهم من إنسانيتهم ووضعتهم وجهاً لوجه كي يأكل أحدهم

الآخر. ويسجل آمادو الفلاح احتجاجاً على هذه الهمجية بطعن نفسه أمام الصحفيين. كتبت الفصل كاملاً دون توقف... بالسرعة التي يقتضيها جرّ القلم على الأوراق. كأنما كان هناك من يمليني ما أكتب... تركت القلم وقلبي يبكي... فأخيراً مات آمادو... هل تأخرت عن الدوام في اليوم الثاني؟ أم أنني قد قضيت اليوم وأنا لا أعي ما أقول؟؟ بقيت بعدها لأيام وأنا أحس بخواء كبير... أنا أشعر بألم بعد نهاية كل عمل أكمله. أحس بأن مكاناً ما في روحي قد تجوفت... وأن عليّ أن أحتمل أوجاعي حتى يمتلئ هذا الفراغ.

الأحد ٢٠١٤/٨/٣

الساعة الثالثة والنصف فجراً.

لا جديد اليوم على ساحة الأحداث في المدينة... أسمع الآن هدير الطائرات المسيّرة تدوّي في السماء... فكرت في النزول إلى الطابق الأرضي والكتابة هناك، لكنني غيرت رأيي حينما تذكرت قبل قليل دويّ انفجارات كبيرة، وهذا يعني أن القصف انتهى وأن الطائرات التي تحلّق الآن هي طائرات استطلاع تقوم بالتصوير فحسب... وما أخشاه حقاً أن ينفد وقود المولد الصغير وتنقطع الكهرباء عني... فلأكتب بسرعة إذن.

في رحلة بحثي عن العمل في الإمارات انتقلت بين أبوظبي والعين وعجمان ودبي والشارقة... وأنا أسير يومياً دون هدف بعد أن أدركت أنني قد ارتكبت غلطة كبيرة بقدومي إلى الإمارات في هذا الوقت من العام... صادفني يوماً ما مبنى جميل وسط المدينة «معهد المسرح» أو اسم من هذا القبيل... دخلت وكلي ثقة باستحالة

حصولي على عمل في مثل هذا المعهد فأنا لا أحمل مؤهلاً مسرحياً وليس لي أي نشاط مسرحي معروف. كان المكان شبه خالٍ... ولما سألت موظف الاستعلامات عن كيفية تقديمي لطلب وظيفة في المكان نظر إليّ بحيرة ثم قال «هل تحب أن تقابل المدير... أنت عراقي؟ هو أيضاً عراقي؟» ولِمَ لا أقابل المدير؟ قلت لنفسي، وصعدت إلى الطابق الثاني وسط سكون المكان الثقيل... دخلت إلى الغرفة التي وصفها لي رجل الاستعلامات لأجد نفسي أمام (قاسم محمد) المخرج والكاتب والممثل العراقي الذي أكن له احتراماً كبيراً رغم أنني لم أره إلا من خلال التلفزيون... قدمت له نفسي وسلّمت عليه بحرارة ملحوظة كما يبدو لأنه قال لي مستغرباً «هل تعرفني؟» ولما أجبته بالإيجاب وعددت له بعض مسرحياته الشهيرة قال لي بأسى «قليل من جيلكم يعرفني» لم أطل الحديث وحدثته عن رغبتي في العمل والمؤهل الدراسي الذي أحمله فقال لي: «هذا المعهد قيد التأسيس الآن ولا طلاب فيه، لذا فلا فرصة لك هنا» لم يفاجئني الأمر ولم يخب ظني لأني كنت من البداية أدرك استحالة الأمر. نهضت وهممت بالمغادرة وقبل أن أخرج تذكرت أني أحمل في حقيبة يدي نسخة من مسرحية بروفة لسقوط بغداد كنت قد انتهيت من تنقيحها وطباعتها في الشارقة في شقة أحد الأصدقاء... التفت إليه قائلاً «لديّ طلب آخر إذا اتسع وقتك يا أستاذ» رفع حاجبيه متسائلاً فأخرجت نسخة من «بروفة» وقدمتها له قائلاً «يهمني جداً أن أستمع لرأيك في مسرحيتي هذه لو أتيح لك وقت لقراءتها» أخذ النص بلا تردد وهو يقول «طبعاً... سأقرؤها خلال أيام»... ودعته وخرجت وبعد يومين أو ثلاثة وجدت نفسي قرب المعهد ثانية. ترددت في الدخول... ثم

دخلت وأنا شبه واثق بأن الرجل لم يقرأ النص، لكنني فوجئت به يقف مبتسماً لرؤيتي ويصافحني بحرارة ويسألني عن أحوالي و.. و.. و.. و. لم أحتمل كثيراً فسألته «هل قرأت بروفة؟» «طبعاً» قال لي ثم أردف «أنت من الموصل؟ مع أي فرقة كنت تعمل وكيف لم يسبق لي أن التقيتك؟» ولما أخبرته بأنني لم أعمل مع أي فرقة... وبأنني لم أدخل المسرح في حياتي إلا مرتين أو ثلاثاً قال لي «مستحيل... أنت تتقن اللعبة المسرحية... نص مميز للغاية «أجبته بغباء» هذه ليست أفضل كتاباتي» رد عليّ جازماً أبداً لا تقل ذلك عن هذا النص.. كنت أقرأ بمتعة في البداية، لكنني وقفت على قدمي حينما اكتشفت أن من يقوم بالأدوار التاريخية هنّ طالبات... هذه مسرحية ممتازة «غمرتني سعادة بالغة. فهذه أول مرة في حياتي أسمع رأياً نقدياً عن أحد أعمالي من قبل مسرحي مختص محترف ومحترم أيضاً. فرق كبير بين إعجاب أصدقائي بكتاباتي... وبين تقييم متخصص لا يعرفني». تحدث الرجل عن المسرح الصيني وعن قيام الرجال بأدوار النساء وتنبأ بصعوبة عرض هذه المسرحية لأنها تتطلب قيام أربع ممثلات شابات بالأدوار. والأدوار مركبة وصعبة... وقد صدقت نبوءته فلم تعرض هذه المسرحية إلا مرتين... الأولى في مسقط وعرض منها الجزء التاريخي فحسب، والثانية في مصر بعد أن تم تمصيرها من قبل إحدى فرق الهواة وقدمت على مسرح الصاوي بعد أن تم تغييرها إلى اللهجة المصرية عام ٢٠٠٨ كما أذكر. ولم تقدم بروفة إطلاقاً بشكل كامل... رغم أنها من أكثر مسرحياتي قراءة على النت. وقبل أن أغادر مكتب الفنان قاسم محمد قال لي «اسمع هناك مسابقة للتأليف المسرحي ويجب أن تشارك فيها». ولما أخبرته عن عدم رغبتي في

خوض هذه التجربة وتحفظي على موضوع المسابقات، «إذ كنت قبلها قد شاركت برواية «واك» في مسابقة أخرى ولم تفز مما أزعجني كثيراً»... قال لي جازماً «ستشارك أنت مثقف عراقي... والبلد الآن في محنة... وعلينا أن نبذل كل جهودنا لنقدم أفضل صورة عن البلد». أخبرته أن موعد المسابقة قد انتهى قبل أيام... فقال لي لا بأس في ذلك... اذهب إلى دائرة الثقافة والإعلام غداً وسأتصل بهم كي يقبلوا مشاركتك. صباح اليوم الثاني استقبلني الأستاذ (عبد الفتاح صبري) مرحباً وتسلّم مني نسخاً من مسرحية «نديم شهريار». ثم نسيت موضوع المسابقة تماماً بعد اندماجي في العمل؛ لأستيقظ صباح أحد أيام شهر آذار على هاتف لحوح... أجبت المتكلم وأنا نصف نائم... قال:

– الأستاذ ناهض الرمضاني

– أجل

– أحببت أن أهنئك

– من المتكلم؟

– دائرة الثقافة الشارقة

– خيراً

– فزت بالجائزة الثانية لمسابقة الشارقة للإبداع على مسرحيتك (نديم شهريار)

– شكراً

أغلقت الهاتف وعدت للنوم... كنت يومها لا أعرف كيف أو متى أنام فقد كنت لا أفارق التلفزيون. الحشد الأمريكي كان

قد اكتمل وأصبح الهجوم على العراق وشيكاً للغاية... أيام أو ساعات... الهواجس لا تفارقني ليلاً أو نهاراً... كنت في حالة نفسية بائسة لا يمكن أن تغيرها حقيقة فوزي بأي جائزة... الفرحة التي انتظرتها عقوداً تأتي في الساعات التي يهدد فيها الدمار وطني ومدينتي وعائلتي وأولادي... ولا شك أن من اتصل بي فوجئ ببرودة ردي والطريقة السمجة التي عاملته بها. ولولا إلحاح الأستاذ قاسم محمد لما شاركت في المسابقة... وهي حماقة أنقذني منها... إذ شاركت بعدها في مسابقة التأليف المسرحي في الإمارات بمسرحية (بروفة لسقوط بغداد)... وطُلب من المشاركين الحضور إلى المسرح ذهبت وأنا لا أعرف إن كنت سأفوز بشيء أم لا... فأنا لا أعرف مستوى النصوص المشاركة الأخرى... كانت لجنة التحكيم مكونة من من مسرحيين إماراتيين فقط، وأظن أن رئيس اللجنة كان «أ. عمر غباش» وكان المرحوم قاسم محمد وزوجته ومخرج شاب هو قاسم زيدان كانوا هم العراقيين الوحيدين الحاضرين في القاعة. ولما بدأ إعلان النتائج قدمت جائزة تقديرية للأستاذ(نواف يونس) ثم حجبت الجائزة الثالثة... وحجبت الجائزة الثانية... للفرق الكبير بين النص الفائز بالجائزة الأولى وبقية النصوص كما قال المحكمون... وحينما قال المقدم «الجائزة الأولى» نهضت واقفاً على الفور... فقد كنت واثقاً من الفوز هذه المرة... وفعلاً فازت مسرحية بروفة بالجائزة... لكن الخبر مرّ في الصحافة مرور الكرام لأن عدداً كبيراً من محرري الصفحات الثقافية كانوا مشاركين في المسابقة وقد صدمهم فوز شخص مغمور مثلي. فحاولوا تجاهل الخبر وسأشارك أيضاً في مسابقة إماراتية للقصة القصيرة بقصة «غيث» وستفوز بالجائزة الثانية... وقد طالبني صديقي غيث بنصف قيمة الجائزة كونه بطل القصة «ولم

يحصل مني على شيء». وهكذا حصلت على ثلاث جوائز أدبية هي الأهم في الإمارات كما أظن وقتها خلال عامي ٢٠٠٣–٢٠٠٤ ثم سأشارك في عام ٢٠١٠ – وأنا في العراق – بمسابقة الفجيرة للمونودراما. وستفوز مسرحيتي «جوف الحوت» بالجائزة الثالثة... رغم أن الأستاذ (أسعد فضة) و(الدكتور عبد العزيز السريع)... أخبراني، كلّ على حدة، بأن مسرحية جوف الحوت قد أثارت جدلاً كبيراً بين أعضاء اللجنة، وأنها ربما كانت تستحق ما هو أفضل. وكانت الجائزة الأولى قد ذهبت إلى الفنان العراقي (فيصل جواد) الذي يعمل في نفس الجهة المنظمة للمسابقة. ولم يفاجئني الأمر... فللمسابقات العربية ظروفها وملابساتها... وأنا أضحك دائماً كلما تذكرت مشاركتي في مسابقة للتأليف المسرحي على مستوى جامعة الموصل وشارك فيها خمس كتاب فقط... ولم تفز مسرحيتي «آمادو» بأي جائزة، وذهبت جائزة التأليف إلى أحد منظمي المسابقة أيضاً... الجوائز الأدبية العربية مهمة... لكنها غير مجدية لحد الآن فهي تطلق كاتباً أو نصاً لكنه لا يجد بيئة تمكنه من الاستمرار ولا يمكن استثمار فوزه. وربما كانت جائزة البوكر للرواية العربية – إذا جاز اعتبارها جائزة عربية – هي الاستثناء الوحيد من هذه القاعدة لحد الآن... لأن طلباً فورياً يحدث على الرواية الفائزة... وعلى بقية كتب المؤلف... وهذا في تقديري هو الهدف الأصلي لفكرة المسابقات الأدبية، وأعني تعريف القارئ بكتاب يستحق القراءة. وأنا أستغرب كثيراً حين أحضر حفلاً أو مهرجاناً مسرحياً... وتقدم فيه نصوص لم تكن من بين النصوص الفائزة في المسابقات. بل يكون نصاً قد «أعده» مخرج ما تاركاً وراءه كل النصوص التي حكم النقاد بجودتها.

الاثنين ٢٠١٤/٨/٤

الساعة ١٢ ظهراً

أمس حققت إنجازاً كبيراً... فقد استطعت أن أنام ليلاً وهو أمر لم يحدث معي منذ أربعة أشهر على الأقل فأنا لا أستطيع النوم عادة ًإلا بعد الساعة السابعة أو الثامنة صباحاً وبعد صراع طويل مرير مع المخدة... قضيت اليومين السابقين دون نوم لأجد نفسي أمس وفي الساعة الحادية عشرة ليلاً صريع النوم...

الدواعش يتقدمون... احتلوا مدينة زمار وأحاطوا بمدينة سنجار وأرجعوا القوات الكردية «البيشمركة» إلى الوراء وتمكنوا من السيطرة تقريباً على الأنبوب الاستراتيجي لتصدير النفط... حركاتهم محسوبة بدقة شديدة. والانسحابات العسكرية أمام هذه التحركات تثير ألف سؤال وسؤال. أنا واثق تماماً بأن هناك من يخطط للطرفين وأنهما يلعبان الأدوار بدقة فحسب ويتم من خلال ذلك رسم حدود الأقاليم التي سيكونها العراق بعد انتهاء هذه الأزمة وكل أنواع السلع تشح الآن في الأسواق أكثر وأكثر. والحياة تصبح خانقة. لا وقود ولا كهرباء. ولا أي احتياج يومي مهم. درجات الحرارة مازالت ٤٥° مئوية.. الحياة مشلولة ونحن ننتظر. ننتظر الآن تشكيل الحكومة ولا تزال كتلة دولة القانون متمسكة بمرشحها الأوحد «نوري المالكي» فهو كما يقولون الوحيد القادر على إخراج العراق من هذه الأزمة... وهم يتناسون أن سياساته هي من أوقعت العراق في هذه الأزمة... في اليوم الذي قام فيه الجيش بإطلاق النار على المعتصمين السلميين في الحويجة وقتل منهم المئات أدركت فوراً أن مأساة كبيرة ستحدث... فقد أيقن الجميع أن آخر أوراق التوت

الديمقراطية العراقية الجديدة قد سقطت وإلى الأبد... وأعاد الكرة في الأنبار وفض الاعتصامات بنفس الطريقة بزعم وجود «معامل تفخيخ سيارات» داخل مناطق الاعتصام. وهو ادّعاء سخيف جداً، إذ لا يعقل أن يفخخ أحد شيئاً ما وسط حشود تتظاهر أمام وسائل الإعلام تاركاً كل المخابئ الآمنة الممكنة. لكن أحداً لم يكن يجروء على أن يكذب ادعاءات القائد العام ولا طاقمه العسكري والإعلامي رغم فجاجة أكاذيبهم. أما (الدكتور جواد المالكي) كما كنا نعرفه قبل عام ٢٠٠٦، فقد برز فجأة عام ٢٠٠٦ كمرشح تسوية بعد أن فشل التحالف الوطني الشيعي في اختيار مرشح آخر. إنه «زعيم الصدفة».. تبين عند ترديده القسم أنه ليس دكتوراً وأن اسمه نوري وليس جواد. زعيم الصدفة هذا أمسك بالكرسي بأسنانه وتم تجديد ولايته ثانية عام ٢٠١٠ بقرار من المحكمة الاتحادية وسرق فوز الدكتور إياد علاوي بتواطؤ أمريكي إيراني. وهو الآن مصمم على التمسك بالكرسي حتى آخر عراقي... رغم أني أظن أن فرصه تقل ساعة بعد ساعة رغم آلاف الأكاذيب التي تبثها عشرات الفضائيات التي يمولها هو وبطانته بالأموال المسروقة من ثروة العراق... ومع أن حكومته الآن هي حكومة تصريف أعمال، وأن البرلمان السابق والحالي لم يصادق على ميزانية الدولة لعام ٢٠١٤ إلاّ أن الحكومة تنهب المليارات وبسرعة بادعاءات مختلفة. مليارات ترصد لمعونة النازحين. وأخرى للتسليح. وأخرى لخلق ميليشيات جديدة... وكل أوجه الاتفاق غير النظامية هذه تفتح أبواباً واسعة لنهب الأموال. فقد تكون هذه هي الفرصة الأخيرة لهم لتحقيق ذلك. الدواعش أيضاً لا يتوانون عن إظهار قوتهم وإجرامهم... حدثني أخي أحمد

أمس عن فيلم بثوه على اليوتيوب يظهرهم فيه وهم يعدمون «ببساطة وتلقائية» مئات الشباب في قاعدة سبايكر بإطلاقة في الرأس وإلقاء الشاب بعدها في النهر بكل –برود ومهنية– وهم يقتحمون الآن أي بيت يشاؤون في الموصل ويعتقلون أو يعدمون من يشاؤون دون إثارة لفظ أو ضجيج وبعيداً عن وسائل الإعلام... ودون وجود أي قوة تحاول ردعهم باستثناء عمليات محدودة جداً لاقتناص بعضهم. وهي عمليات فردية لا تغير الواقع على الأرض. أما القصف الجوي فهو لا يزال شبه أعمى... أمس قصفت الطائرات منزل أستاذ جامعي فقتل هو وزوجته وأطفاله الأربعة. وفي اليوم الذي سبقه قصفت الطائرات معمل النسيج فأصابت منزلاً مجاوراً قتل فيه ثمانية أشخاص... وكل يوم يحمل المزيد من المفاجآت... لن أضيع الوقت أكثر ولأعد إلى موضوعي الرئيس...

الثلاثاء ٢٠١٤/٨/٥

الساعة الحادية عشرة ليلاً

نمت أمس متأخراً كالعادة. أيقظني الأولاد صباحاً لأجدهم بملابس الخروج وحقيبة الطوارئ الصغيرة معلقة في كتف عبيدة... انتبهت لصوت القصف... مدافع هاون وأصوات رشاشات مقاومة للطائرات. طلبت من الجميع المغادرة وقررت البقاء وحدي في المنزل كالمرة السابقة... إلا أن زوجتي صممت على البقاء معي هذه المرة، وذهب الأولاد إلى بيت أحد الأقرباء في منطقة آمنة. ويحلو لي أن أضع خطين تحت كلمة «آمنة» لأنني أدرك تماماً أنه لا يوجد مكان آمن حولي وهنا... لكنني لم أشأ احتجازهم معي في البيت ضد

إرادتهم فمن يدري ما قد يحدث... والاشتباكات قريبة جداً من بيتنا فعلاً وسكان الحي كلهم غادروا وبقيت أنا وزوجتي وحيدين في الحي منذ الصباح ولحد الآن... سقطت قذائف هاون هنا وهناك، لكنها لم تكن قريبة من البيت. واستمرت رشقات الرصاص تنهمر بين الحين والآخر من الرشاشات الأحادية. التي أصبحت هي سلاح الصولة لدى الدواعش بعد تركيبها فوق سطح سيارة بيك أب رباعية الدفع... كأنها دبابة صغيرة تستطيع السير بسرعة مئة وأربعين كيلومتراً في الساعة. في الحقيقة هذا سلاح بعيد المدى مصمم أصلاً لمقاومة الطائرات التي تحلق على ارتفاع منخفض وكان تسليحنا منه هو نوع «ديمتروف عيار ١٤,٥ ملم» والرشاشات التي شاهدتها في الشوارع نفس النوع أو شيء مقارب له ربما. لصوت هذه الرشاشة دويّ هائل أعتقد أن الرعب الذي يخلقه الصوت هو المقصود من استخدامها في المدن. لأن شوارع المدن لا تحتاج إلى رشاشة بهذه الضخامة ورشاشة (الـ بي كي سي المتوسطة عيار ٧,٦) ملم كافية تماماً وتزيد وهي أسهل في الاستخدام وعتادها أخف بكثير وأسهل في التجهيز والنقل. لكن الدويّ الذي تخلفه هذه الرشاشة يجبر الناس على الاختباء فوراً حتى لو لم تكن النيران قريبة منهم أو مصوبة باتجاههم. يذكرني صوت هذه الرشاشة بقصة حدثت معي نهاية عام ١٩٩١ وبعد عودتي من الأسر نقلت إلى مدينة العمارة وفي قرية صغيرة هناك بين الميمونة والرفاعي كنت أقود فصيلاً صغيراً من الجنود، وكان واجبنا هو حماية مرقد الشيخ المتصوف «أحمد الرفاعي». هناك سكنت ولأول وآخر مرة خلال خدمتي في غرفة مبنية بناء نظامياً وفيها لمبة كهرباء، كانت غرفة لمبنى حكومي أو شيء

من هذا القبيل وكان لدينا جيران مدنيون... كان الجنود قد حفروا مواضعهم على مسافة عشرين أو ثلاثين متراً فقط من صف البيوت المجاور لمقري. كانت الانتفاضة الشعبانية قد انتهت قبل فترة قليلة ولكن الوضع ما زال متأزماً... وكان السلاح قليلاً لدى الجيش، إذ تسرب أكثره إلى المدنيين بعد الهزيمة في الكويت. كنا نعمل جاهدين على شراء الأسلحة من الناس. لنتسلح بها أولاً، ولنأمن استخدامها ضدنا ثانياً.

عصر يوم ما فوجئت بعشرات السيارات المدنية المحملة بالأشخاص تقترب.. تقدم مني رجل ريفي أعرفه وأحترمه... ما زلت أذكر أن اسمه هو «أبو فرحان» كان شيخ قرية مجاورة... سلم عليّ وأخبرني أن اليوم هو عرس ابنه الكبير «فرحان» وأنهم جاؤوا من قريته لأخذ العروس التي تسكن أحد البيوت التي تجاور مقري. دعاني إلى وليمة الزفاف وهنأته بزفاف ولده واعتذرت عن حضور العرس... لم ينصرف ولمحته يتردد في طلب شيء مني... ولما سألته قال محرجاً (نحن عشائر... وكل هؤلاء الشباب الذين تراهم في السيارات يحملون أسلحتهم معهم الآن.. وأنا أطلب إذنك بإطلاق النار في الهواء فهذا جزء من تقاليدنا كما تعلم). كنت أعلم بالطبع ولع العراقيين بإطلاق النار في الأفراح والمآتم، ولكن الأمر كان محرجاً لي. فقد ينقل أحد الجنود الموقف – بأمانة – إلى ضباط الاستخبارات وسأكون في موقف لا أحسد عليه.. رفضت طبعاً أن يخرج مئة شاب أو أكثر ببنادقهم يطلقون الرصاص وأنا لا أملك إلا عشرين جندياً تقريباً. علماً أن واجبنا الأصلي في القرية كان التفتيش عن الأسلحة ومصادرتها... تركني الرجل منكسراً وتحدث مع بعض الشباب.

أدركت صعوبة الموقف... فأنا أعرف حماسة الشباب وحماقتهم في الأعراس. عاد أبو فرحان محرجاً وقال «أرجوك... ستحدث مشكلة كبيرة... اسمح لنا بالرمي فأنا لا أستطيع السيطرة على كل هؤلاء الشباب الذين يريدون أن يتباهوا بأنفسهم وأسلحتهم في هذا العرس» لم أكن أستطيع الموافقة... ولم أكن أستطيع الرفض أيضاً. فلو نشبت مشكلة ما ونحن وسط هذا الحشد المسلح الذي يفوقنا عدداً أربع أو خمسة أضعاف لانتهينا فوراً. عندها خطرت لي فكرة... قلت للرجل... بلغ الشباب نيابة عني بأننا سنقوم بـ (الواجب) ونطلق الرصاص في الهواء فور خروج العروس وحتى ركوبها سيارة الزفاف... ثم بإمكانكم أن تفعلوا ما تشاؤون حينما تبتعدون بسياراتكم عنا وتصلون إلى الطريق العام... رحب الرجل بالحل وانطفأت نظرات الغضب في عيون الريفيين الشباب الذين كانوا قد أحاطوا بي تماماً... هرع كثير منهم إلى السيارات... وهمست في أذن عريف الفصيل فتسلق التلة الصغيرة وجلس خلف مقعد الرشاش الرباعي «ديمتروف» وما إن خرجت العروس تحيطها الزغاريد والأهازيج حتى لوحت بعصاي القصيرة للعريف... فضغط بقدمه على دواسة الرمي وبدأت الرشاشة الثقيلة تطلق النار باتجاه السماء من مواسيرها الأربع معاً محدثة دوياً هائلاً مفاجئاً لا يمكن مقارنته بصوت أي سلاح ناري عادي... وبلمح البصر انطفأت الزغاريد والأهازيج وارتفع صراخ الاطفال وركض الرجال ممسكين بغترهم وعقلهم وجرجرت النسوة العروس ليحشرنها في سيارة الزفاف وانطلق الموكب بسرعة قصوى ولم يفكر أحد من الجميع بإطلاق رصاصة واحدة حتى وصلوا إلى قرية العريس...

وبعد ساعتين زارني أخو العريس بسيارته وأنزل منها صينية هائلة عليها نصف خروف مشوي موضوع فوق تل من الرز... قلت له ممازحاً «لعلنا لم نقصر معكم في الرمي» فضحك طويلاً وقال «والله لم نعرف كيف وصلنا إلى بيوتنا..». كلما تذكرت هذه الحادثة أستغرب تصرفي الطائش... فبعد حرب الكويت نفرت نفسي من كل أنواع الأسلحة... وقضيت ما تبقى من خدمتي وأنا أحاول ألا أحمل معي بندقية أو مسدساً، وكنت أكتفي بعصا التبختر القصيرة تحت إبطي. لكن زواج «فرحان» كان استثناء... وربما كان هو الزواج الوحيد الذي زغردت فيه «الديمتروف» بدلاً من البنادق... لماذا أكتب الآن قصة مرحة!! لا أدري... الطائرات المسيّرة تحلّق هذه اللحظة فوق المدينة... وأنا وزوجتي وحيدين في حي مهجور مظلم. ولا أعرف ما سيحدث هذه الليلة.. عسى أن تسكت الرشاشات ومدافع الهاون التي حولنا... وعسى أن تنقضي هذه الليلة على خير.

الأربعاء ٢٠١٤/٨/٦

الساعة الحادية عشرة ليلاً...

«إذا لم يتم الالتزام بالدستور فستفتح أبواب الجحيم في العراق». هكذا خاطبنا السيد رئيس الوزراء اليوم في آخر خطاب رسمي له في منصبه لهذه الدورة. وقد يبدو كلامه منطقياً وقانونياً لولا أن جميع العراقيين يعرفون أن السيد رئيس الوزراء قد ركل دستورنا الركيك بقدمه ألف مرة منذ تسلّمه منصبه بطريقة «غير دستورية» ولحد اليوم... والتفسير الدقيق لجملته له معنى واحد... أعطوني السلطة للمرة الثالثة وإلا فإنكم ستدفعون الثمن غالياً. وبعد ساعات انفجرت

في بغداد ست سيارات مفخخة في مناطق مختلفة من العاصمة ومات نتيجة التفجيرات أكثر من ثلاثين عراقياً وجرح أكثر من مئة... وعلى الفور ربط كثير من المحللين والكتّاب تهديد السيد رئيس الوزراء بالتفجيرات... أما صباح هذا اليوم فقد أطلقت طائرة ما صاروخين على سجن «الأحداث» فمات ستون سجيناً وهرب آخرون... هذا السجن هو المكان الوحيد الذي تعتقل فيه داعش معارضيها منذ استيلائها على الموصل... القناة العراقية الرسمية نقلت الخبر كالآتي (نجاح ٣٠٠ معتقل لدى قوات داعش بالهروب من الأسر بعد توجيه طائرة عراقية ضربة دقيقة للسجن مكنت السجناء من الهروب)... كأننا أمام مشهد من فيلم «المهمة مستحيلة» لتوم كروز، حيث يرتبط إطلاق صاروخ الطائرة بقيام رجل باختراق منظومة المراقبة الحديثة ثم يتم تهريب السجناء في نفس توقيت الضربة وسط ذهول قوات العدو... هذا ما يريدوننا أن نتخيله، بينما نحن نرى بأعيننا الطائرات وهي تلقي أحمالها كيفما اتفق... عاش من عاش ومات من مات. أما قتل السجناء فهو أمر مخزٍ بات شائعاً منذ سقوط الموصل... فما إن دخل الدواعش الموصلَ حتى اقتحموا سجن بادوش الكبير وأخذوا السجناء إلى التحقيق لدى قاضٍ «شرعي» وتم إعدام عدد منهم لأسباب طائفية أو سياسية... وانتقلت العدوى إلى الحكومة التي تكرر قتل السجناء في السجون الخاضعة لسيطرتها. بدأ الأمر في سجن مكافحة الإرهاب في الموصل في منطقة الدندان، إذ ألقى حراس السجن الرمانات اليدوية على إحدى القاعتين الرئيستين للسجن مما أدى إلى قتل كل النزلاء في القاعة وعددهم اثنان وخمسون، أما القاعة الثانية فقد أحس السجناء بالخطر وسدوا النوافذ بكل ما وقع تحت

أيديهم مما عرقل إلقاء الرمانات عليهم لا سيما وأن انسحاب الحرس كان سريعاً وتحت ضغط نيران الدواعش... ثم في ديالى والحلة و.. و.. و.. و... والأغرب هو ادعاء الدولة أن ميليشيات مجهولة تهاجم المواكب التي تنقل السجناء في مناطق خاضعة بالكامل لسيطرة الدولة دون معرفة هوية هذه الميليشيات ودون أن تقوم القوات المصاحبة للسجناء برد فعل تجاههم ودون أن يجرؤ أحد على السؤال البديهي «إذا كان هؤلاء السجناء إرهابيون فلماذا يقوم إرهابيون آخرون بقتلهم بدلاً من تحريرهم؟»... لست بصدد توثيق هذه الجرائم فهناك من عمل ويعمل على ذلك... لكن بدني يقشعر كلما سمعت عن وقوع أي من هذه الاغتيالات الخسيسة... إذ يحق لكل إنسان مهما كان عتيداً في الإجرام أو مهما كانت التهم الموجهة إليه... يحق له فرصة في محاكمة عادلة... أو عادية... أو متحاملة قليلاً... أما أن يعدم موقوف بسبب اضطرار الحرس إلى الهروب فهو أمر لا يمكنني أبداً أن أقبله.... لكن القتل والقتل المضاد... وتفخيخ جثث القتلى... وقطع الرؤوس وقلع العيون... وبقر الأجساد بالمثاقب الكهربائية أمور أصبحت عادية في ظل العراق الجديد... فمنذ عام ٢٠٠٦ وفي فترة رئاسة السيد الجعفري انتشرت هذه الممارسات في شوارع العراق بعد أن كنا نسمع عنها داخل معتقلات صدام... لم يعد مخفياً أو نخبوياً يقتصر على عدد من الجلادين في مواقع معينة... بل أصبح سلوكاً شعبياً معلناً ويومياً أيضاً... وكان الضحية دائماً لهذه السلوكيات هو المواطن العراقي العادي ممن لا يملك مسدساً ولا ساطوراً... ويوماً بعد يوم... انتشرت الجثث المعروفة والمجهولة في الشوارع... وأصبحنا أحياناً نمر وسط منطقة مزدحمة ثم «نتخطى»

جثة ملقاة هنا أو هناك ونكتفي بإشاحة النظر عنها... لكنني لم أتمكن من اعتياد الأمر أبداً ، وما زال يثير القشعريرة في بدني... يوماً ما كنت أقود سيارتي قرب تقاطع «حي المثنى» في الموصل وبينما أنا أقترب من الإشارة الضوئية شاهدت جثة شاب وقدميه ملتويتين بوضعية غريبة... كان نحيلاً وقد تمزق بنطاله الأزرق عند الركبة... والغبار يغطي شعره ووجهه... كان ملقى هناك منذ يومين كما علمت لاحقاً... كم هزني ذلك الموقف... عدت إلى البيت ولم آكل شيئاً ولم أتمكن من النوم... فتحت أوراقي وكتبت «قصة حقيرة» كان ذلك في خريف عام ٢٠٠٧ كما أذكر... ولدت القصة مرة واحدة... لم تكن قصة مبتكرة على أية حال قدر ما كانت وصفاً للواقعة التي مررت بها... وبعد أن هدأت نفسي قليلاً قمت بطباعة النص وعرضته على أستاذي د. عمر الطالب... التقيته بعد أيام وسألته عن القصة فزم شفتيه قائلاً... «هذه ليست قصة» أما صديقي المثقف الموصلي الكبير مأمون الطالب... فقد قال بعد أن قرأ النص... «هذا ليس نصك... ليس قلمك» كنت قد أرسلت النص إلى أصدقاء آخرين خارج الموصل ممن أثق برأيهم ولا أذكر ما تلقيته من ردود إلا أنني فوجئت بالنص منشوراً باسمي على أحد مواقع النت... وقد لاقى النص قدراً كبيراً من التعليقات الإيجابية... لكنني لم أكن مقتنعاً وآمنت أن الموضوع يستحق أن أعمل عليه أكثر وأكثر... وبعد شهور وفي شتاء عام ٢٠٠٨ وبجلسة واحدة كتبت قصة «المعطف الرمادي» كانت «قصة حقيرة» تتحدث عن شخص مصدوم لرؤية جثة في الشارع ويروي إحساسه بالصدمة لصديقه... أما الموظف الرمادي فقد كان بطل القصة هو ضحية عملية الاغتيال... القصة

مروية من وجهة نظره... وأجد من المناسب هنا أن أورد النصين معاً للمقارنة بين أسلوبين هما الأسلوب الواقعي والأسلوب الفنتازي. تناولت بهما ثيمة واحدة... وقد أحب د. عمر ومأمون النص الثاني ولم يربطاه أبداً بالقصة الأولى رغم تأكيدي لهما لاحقاً على ذلك... بينما بقي عدد كبير من الأصدقاء والقراء معجبين بالنص الأول ربما لأنهم قد صدموا بمشاهد الجثث كما صدم البطل.

قصة حقيرة

لا أدري لماذا تظّنون دائماً أن كتابة قصة قصيرة أمر سهل؟!

سألته بانزعاج ضاعف ارتباكه. أحسست ببعض الخجل. كان قد عاد إلى العراق منذ وقت قريب، وتصادف أن التقيته مرة أو اثنتين. وقبل قليل دخل المقهى مرتبكاً متلفتاً حوله وهو يبتسم ابتسامة بلهاء وعيناه ترمشان بسرعة. وما إن رآني حتى سارع للجلوس بجواري قائلاً:

فرصة طيبة أن التقيتك اليوم.. كنت أبحث عن.. أريدك أن.. أريد منك أن تكتب لي.. قصة.

كان يتحدث هامساً وهو يتلفت ناظراً حوله متفحصاً المكان والأشخاص بوجل.

أتظنني كاتب عرائض؟ الكاتب الحقيقي يستلهم موضوعاته من أحاسيسه الخاصة. من ذاته. ولا يكتب شيئاً عند الطلب.

لا تنزعج هكذا.. أنا آسف. أنا في الحقيقة لم أكن..

أحسست ثانية بالخجل. يبدو أنني قد أصبحت ضيق الصدر ولم أعد أتحلى بأي قدر من الكياسة. ابتسمت قائلاً:

– ربما كانت لديك حكاية ما. لعلك تريدني أن اكتب عن تجاربك ونجاحاتك في الخارج. أرجو أن تعلم أن القصة القصيرة كما أفهمها أنا شيء مختلف. إنها لحظة. لحظة واحدة أو موقف واحد يعبر عن أشياء كثيرة أكبر.

نجاحي في الـ..! لا يا أستاذي. إنه موقف واحد. موقف شاهدته قبل قليل ولم أعرف كيف أتصرف حياله. وما إن رأيتك هنا حتى هرعت إليك لعلك تقوم بشيء ما.

بدأت تشوقني. تكلم.. فقد أغيّر رأيي وأكتب لك.

لقد شاهدت رجلاً مقتولاً. «قال لي بهمس»:

قتيل في الشارع؟

نعم.

لعله اقترب من رتل أمريكي فأمطروه بالرصاص؟

لا أظن.

ميليشيات؟ شرطة؟ ملثمين؟

لا. لا. والله لا أدري. يبدو أن لديك أيضاً الكثير من الحكايات.

أنا؟ ربما.. ففي كل مكان هنا طائرات تقصف، وسيارات تتفجر، وأسلحة تقذف نيرانها صوبنا. لدينا هنا كل وسائل القتل. ما الذي شاهدته أنت بالضبط؟

كان معصوب العينين. وقد ربطت يداه إلى الخلف. كنت أسير في طريق عام. على رصيف مزدحم. شاهدته بسرعة، بطرف عيني، ولم أجرؤ على الالتفات إليه ثانية. وكان جميع المارة يفعلون مثلي. ربما كان شاباً صغيراً أو رجلاً ضئيل القامة. لم أحقق النظر.

لكنني أذكر جيداً أنه كان يرتدي قميصاً قطنياً وبنطالاً أزرق ممزقاً عند الركبة. وقد برزت منه عظمة ساقه. مررت بسرعة. حبست أنفاسي كي لا أشم رائحة الـ... مررت بسرعة كالجميع. لم أتوقف. لم أتصل بسيارة الإسعاف. لم أتصل بالشرطة. هرولت مبتعداً. هرولت مبتعداً كالجميع.. قال وبدأ ينشج بصوت خافت. مسح عينيه بمنديله وتلفت حوله ثم همس لي:

ما هذا الذي يجري! هناك جسد إنسان ملقى على الأرض والكل يتجاوزه وكأنه غير موجود. وأنا.. أنا أيضاً فعلت مثلهم. تجاوزته راكضاً... لا بل إنني لم أجرؤ على الالتفات إليه ثانية. سرنا جميعاً وكأن كل شيء حولنا على ما يرام. أمامنا.. على الرصيف، جثة إنسان.. إنسان. ونحن نهرب.. نهرب ولا نجرؤ حتى على الالتفات والنظر إليه.

عاوده النشيج ثانية. حاول أن يتماسك. لا شك أنني كنت مثله قبل ثلاث سنوات حينما رأيت أول جثة على الرصيف.

– هل ستكتب؟ سألني بحزم مفاجئ.

– عن ماذا؟!

– أليس في هذا الموقف معنى ما؟ أليس هذا الموضوع صالحاً للكتابة عنه؟

– لا، طبعاً.. عن أي موقف حقير تريدني أن أكتب؟ وماذا تطلب مني أن أوثق؟ أوثق لوحشيتنا؟ أم جبننا؟ أم لرغبتنا المخزية في أن يكون ذلك الملقى على الرصيف آثماً بأية جريمة. أية جريمة مهما

كانت كي نبرئ أنفسنا من مصير كمصيره. ونعفي أنفسنا من واجب تغطيته بورق الصحف أو الاتصال بالشرطة أو الإسعاف لإخلائه. تكون كاذباً لو أخبرتني بأنك لم تحس بهذا الإحساس؛ وأنك ظننت أنه من المستحيل أن يكون جسدك أنت ملقى في نفس المكان. تظن أنك لم ترتكب خطأ ما. ولا بد أنه فعل. وهو يستحق ما جرى له.. ألم تفكر هكذا؟ ألم تتمنّ ذلك؟

– لا أدري!

– بل تدري.. أتريدني أن أكتب؟؟ ماذا أكتب؟ ولمن؟ من سيريد القراءة عن جثة ملقاة وسط الشارع؟ من يعيشون هنا قد ألفوا المنظر وليس فيه ما يثيرهم. لا، بل إنهم يتمنون مسحه من ذاكرتهم بأية وسيلة. ومن لا يعيش هنا سيظن أنني أفتعل موقفاً ميلودرامياً رخيصاً لاستدرار الدموع. وحتى لو حاولت الكتابة فبأي أسلوب سأتناول موضوعاً كهذا؟

– تفتعل موقفاً؟! وتبحث عن أسلوب؟! هناك رجل ميت. ميت وقد ألقيت جثته على قارعة الطريق وحشد الناس يتفرق عند المرور به ثم يعود ليجتمع، والكل يواصل طريقه. أتجد هذا طبيعياً! أليس في هذا ما يستحق الكتابة؟

– أتظن أن الكتابة أمر سهل؟ إن قتل إنسان أسهل بكثير من الكتابة عنه. ألم تدرك ذلك بعد؟

– لقد فهمت.. فهمت تماماً.. وسأحاول أن أنسى. سأنساه كما نسينا مئات الآلاف الذين سبقوه. ولكن.. ألا تظن أن هناك طريقة ما لـ...

– من المؤكد أنه ... والله لا أدري ... لا أدري ....

الموصل ٢٠٠٧/١٠/٢١

المعطف الرمادي

النقطة ب لا تبعد عن النقطة أ إلا أقل من خمسمئة متر. ومع هذا فإن الخروج من النقطة أ والوصول إلى النقطة ب أصبح مجازفة حقيقية هذه الأيام. وقد اتخذت جميع الاحتياطات المطلوبة. أنا أسير على الرصيف.. سأكون آمناً من خطر السيارات الغامضة المسرعة دائماً. ومن دوريات الشرطة الطائشة ودبابات الأمريكان النزقة. ومع أني أسير على الرصيف إلا أنني ألازم الحذر الشديد. أراقب موضع خطواتي وأتجنب أية حفرة قد تكون مخبأً لعبوة وأبتعد عن أية علبة كارتونية فارغة أو صفيحة معدنية مهملة. وأدور بعيداً عن براميل القمامة. من يعرف ماذا يوجد داخل هذه الأشياء! أسير على الرصيف لكني أراقب الشارع بطرف عيني وأذناي تصيخان السمع لكل صوت غريب. عليّ أن أكون حذراً وأن أستكمل جميع الاحتياطات. لم أكتف بطلب نقلي من محل عملي. لقد حصلت على إجازة طويلة دون مرتب من دائرتي الجديدة. أصبح العمل خطراً للغاية هذه الأيام. تصرف باستقامة وستُغضب منك العشرات. تصرف بطريقة أخرى وقد تغضب المئات! الإجازة الطويلة أنهكتني.. لكنها ضرورية. عليّ أن أكون حذراً. حذراً للغاية. بيتي الجديد أصغر من بيتي السابق. رطب قليلاً لكنه أكثر أمناً، إذ لا أحد يعرفني في هذا الحي. سيصعب عليهم تحديد انتمائي. لحسن حظي أن اسمي محايد ولا يفصح عن شيء. وأنا حذر في سلوكي. حذر للغاية. أتصرف مع الجميع بدماثة، ولكني لا أتجاوز في علاقتي معهم حدّ التحية العابرة والمجاملات العادية. قد يكونون جيراناً طيبين. وقد لا يكونون! ربما

كانوا جميعاً حذرين مني الآن. وهذا يدفعني لمزيد من الحذر. الذهاب إلى جامع الحي خطر جداً. وعدم الذهاب إليه أخطر. والحذر يدفعني لعدم الدخول للجامع؛ مع تواجدي أحياناً قرب البوابة للسلام على المصلين بعد نهاية الصلاة. الحذر يقتضي ذلك. ويقتضي أن أظهر دائماً بهيئة محايدة. شعري متوسط الطول مهندم باعتدال، ولكني قد انكشه قليلاً إذا اقتضت الظروف. ذقني حليقة. ذقني حليقة، لكنني مازلت متمسكاً بشاربي. ليس اعتزازاً برجولتي فحسب، بل لأنه يمنحني مظهراً محايداً. شاربي محايد أيضاً.. فهو ليس شارباً كثّاً يستفز الآخرين كشوارب الـ... وليس شارباً حليقاً كشارب الـ... كما أنه ليس شارباً خفيفاً جداً كالـ... وملابسي. ملابسي اخترتها بعناية شديدة. بدلة رمادية مقلمة تشبه بدلات آلاف الموظفين. حذائي الأسود نظيف إلى حد ما، لكنني امتنعت عن تلميعه، إذ لا شيء يجذب الأنظار أكثر من بريق حذاء أسود. لماذا ينبغي أن يكون الحذاء نظيفاً دائماً؟ سألطخه قليلاً توخياً للحذر. تركت حقيبتي الجلدية الثمينة وتعودت أن أحمل أوراقي في محفظة بلاستيكية رخيصة. الحقائب الجلدية قد تثير التساؤلات والفضول وحب الاستطلاع. ما الداعي أصلاً لحمل حقيبة ثمينة إذا ما كنت تنوي الوصول إلى النقطة ب. حتى ساعة يدي لم أنس أمرها. استبدلتها بساعة رقمية رخيصة. هل يكفي هذا كله؟ لا، طبعاً. فلن تكتمل تحوطاتي إلا بهذا المعطف الرمادي. صحيح أن لونه قد بهت قليلاً إلا أن هذا هو عين المطلوب. معطف رمادي رخيص يتجاوز الركبتين. أتذكر دائماً أن أحني قامتي قليلاً وأنا أمشي بهدوء واضعاً يديّ في جيوب المعطف الرمادي. لن أثير تساؤل أحد وأنا على هذه الهيئة. خطوات.. خطوات فقط

وأصل إلى النقطة ب.. بقال المحلة. سأنهي مشواري بسرعة لأعود إلى النقطة أ.. أعني بيتي.. ولكن عليّ أولاً أن أجتاز الشارع.

من هؤلاء!! ما هذا الصوت!

.... انبطح....... انبطح فلم يعد لك ملاذ إلا الأرض.... انبطح..... فلن تحميك الآن إلاّ السماء. أنت وحدك.... أنت وحدك فانبطح ودس جسدك في التراب. الرصاصات تتلاحق... ليغص جسدك كله في الأرض. انبطح.... انبطح ولا تتلفت.. ولا تتساءل. لا تنظر.. فقد تراهم.. وقد يرونك وأنت تراهم فتصبح بالضرورة هدفاً لهم.. لا تلتفت. لا تنظر. لا.... انبطح.. انبطح وحسب...

ها قد انقطع صوت الرصاص. انتظر قليلاً ولا داعي للحركة الآن. أنت قريب.. قريب جداً من النقطة ب. انهض الآن وأكمل ما جئت من أجله. ها قد بدأ طريق العودة إلى النقطة أ. ستسلك نفس الطريق رجوعاً. لا تسر منتصباً. ولا تسرع في خطاك. اعبر الشارع ولا تنظر أبداً إلى هناك. لا تنظر.. واصل السير فحسب ولا تنسَ أن تنحني. واصل السير ولا تفكر. ما جدوى التفكير؟ هل بإمكانك أن تغيّر شيئاً ما.! أمامك طريق لتقطعه.. عليك أن تصل إلى النقطة أ. كن حذراً.. كن حذرا وواصل المسير. لا ترفع رأسك. لا تنتصب. لا تتساءل. لا تلتفت. لا...

لم يلتفت. ولو كان قد التفت لشاهد بركة دماء تحيط برجل ذي شارب محايد يرتدي بدلة رمادية مخططة وساعة رقمية مزيفة، وحذاؤه الأسود موحل وقد تناثرت أوراقه من محفظة رخيصة.

وعلى الرصيف المقابل سار المعطف الرمادي الفارغ.. سار وحده

منكمشاً واضعاً يديه في جيوبه.. ورغم كل الثقوب الموجودة في ظهره، استمر المعطف يسير بحذر شديد لعله يصل سالماً إلى نقطة ما......

الموصل ٢٠٠٨/٢/٢٣

الخميس ٢٠١٤/٨/٧

الساعة الثالثة والنصف فجراً...

رصيدي المتبقي من علب الدخان هو أربع عشرة علبة فقط... ساعتان مضت وأنا أتقلب محاولاً النوم دون جدوى، وكلما تذكرت أن سكائري ستنفد ازدادت شراهتي إلى التدخين... وأردت أن أسرع في الكتابة قبل نفاد السكائر... دولة الخلافة تتوسع باتجاه كردستان... فقبل ساعات اتصل بي أصدقاء وأخبروني أن الدواعش احتلوا منطقتي مخمور والكوير، بالإضافة إلى مدينة تلكيف المسيحية المجاورة للموصل. الطرق نحو خارج المدينة تغلق طريقاً بعد آخر والطوق أصبح محكماً حولنا تماماً... عليّ أن أسرع في إنهاء هذا الكتاب وطباعته وإرساله بالبريد الإلكتروني إلى مكان ما كي أتمكن من الاحتفاظ بالملف بعيداً عن «هنا».. فلو أردت السفر فلن أتمكن من أخذ المسودات، وإذا ما فتش أحد بيتي فلن تعجبه كلماتي سأعطر كفيّ إذاً ولأحاول أن أسرع بالكتابة أكثر وأكثر...

قبل عدة صفحات كنت أتحدث عن حياتي وعملي في الإمارات لعامين دراسيين هما ٢٠٠٢ / ٢٠٠٣ و٢٠٠٣ / ٢٠٠٤. لم تكن البداية سهلة على الإطلاق؛ فبعد الدوامة المضنية التي مررت بها وأنا أبحث عن عمل بدأت التدريس في المدارس العلمية الدولية في

أبوظبي – وكانت المدارس تدرس المنهجين الإماراتي والبريطاني.... واستلمت طلاب المرحلة الأخيرة للنظام البريطاني دون أن يكون لديّ أي سابق معرفة بهذا النظام... فرحت كثيراً حينما اكتشفت أن عليّ تعليم الطلاب فنون الكتابة وأن هذا المنهج يركز على تعليم الطلاب كيفية استخدام اللغة قراءة وكتابة أكثر بكثير من تركيزه على القواعد اللغوية كما هو الحال في معظم المناهج العربية التي قد يحصل فيها طالب متفوق على علامة كاملة في النحو دون أن يكون قادراً على كتابة رسالة عادية لصديق... أسعدني المنهج لكنني صدمت صدمة بالغة بالطلاب والطالبات داخل قاعة الدرس... ففضلاً عن جهل الطلاب المطبق بالعربية، إذ إنهم يدرسون كل الدروس بالإنكليزية ما عدا درسي التربية الإسلامية واللغة العربية طبعاً... فضلاً عن ذلك فهم يتكلمون في بيوتهم لغة (هندو إنكليزية) مع الخادمات... وهم ممنوعون من استخدام العربية داخل المدرسة... أما حديثهم مع أولياء أمورهم في البيت فيفترض أنه كان بإحدى اللهجات العربية العامية «خليجي، مصري، شامي أو لهجة مغاربية» ثم اكتشفت لاحقاً أنهم نادراً ما تتاح لهم فرصة الحديث مع الأهل... لانشغال الأهل بدوامة الحياة السريعة ككل من يعيش في الإمارات.

الأنكى من ذلك هو أنني فوجئت– ومنذ الدرس الأول– بالطلاب والطالبات يتصرفون كما لو كان الصف حديقة حيوانات فتحت أقفاصها فاختلط الدب بالقرد بوحيد القرن بالأرنب... لم يكن هناك أي ضابط لسلوكهم... استغربت الموقف وحاولت السيطرة عليهم دون جدوى... كانوا يجلسون أو يقفون فوق الطاولات ويتحركون جيئة أو ذهاباً ويكلمون بعضهم بصوت مرتفع..

وحينما كنت أحاول الكتابة على السبورة أفاجأ بطلاب وطالبات قد افترشوا الأرض وأسندوا ظهورهم إلى الجدار وهم يتظاهرون بكتابة الدرس... ومقارنة بتاريخي الطويل في ضبط الجموع... في الجيش أو في معهد الزهراء في ليبيا – حيث كانت تتم الاستعانة بي فوراً لحل أي إشكال جماعي في المدرسة – مقارنة بهذا التاريخ فإن ما حدث معي وحولي في الأيام الأولى في المدرسة العلمية الدولية لم يكن إلاّ مهزلة.. كان المدير وبعض الأساتذة قد حذروني من نهر التلاميذ أو ضربهم أو جرح مشاعر أي منهم... بدأت أشعر بالانزعاج كلما رن الجرس واضطررت للدخول إلى قاعة الدرس... لم يدم الأمر طويلاً... أسبوع أو أقل ثم بدأت الامتحانات الفصلية... وأنا دقيق دقة سويسرية في موضوع الامتحانات. كنت أراقب الممتحنين في إحدى القاعات مع إحدى المدرسات... وما إن بدأ الطلاب بالإجابة وأنا أتفقدهم حتى علق أحدهم تعليقاً «مضحكاً» حينما مررت بقربه... ودون أن أعي صفعته بظهر يدي لأفاجأ بالمسكين يميل بقوة ليصطدم رأسه بالجدار محدثاً صوتاً أخرس الجميع... نهض طالب آخر وهو يصرخ متحدياً «الضرب ممنوع» ركضت إليه فجلس فجأة واضعاً رأسه بين كفيه بخوف مما جعل أعصابي تبرد فتمالكت نفسي على الفور وحاولت العودة والقيام بعملي بهدوء... توقع جميع الزملاء حدوث مشكلة كبيرة تنتهي بفصلي من العمل... ولم أكن آبه كثيراً لذلك، إذ لا يمكنني العمل في مكان يفتقد فيه الاحترام إلاّ أن الأمر مرّ بسلام: أخبرني «مؤمن» الطالب الذي صفعته – بعد أن أصبحنا أصدقاء – أخبرني أن والديه قد هدداه بعقوبة شديدة إذا ما تكرر استدعاؤهم إلى المدرسة لسبب يتعلق بسلوكه فاضطر لإخفاء

الأمر عنهم فكان ضحية مشاغبته هو وزملائه. وهكذا انتهت الأزمة بسلام... ويوماً بعد يوم بدأت أنسج علاقة إيجابية مع هؤلاء الطلاب والطالبات الذين كانوا قد قاربوا سن الشباب. وبعد شهر تقريباً كان معظمهم قد أصبحوا أصدقائي. حدثوني لاحقاً عن سبب سلوكهم الغريب معي... إذ كانت إدارة المدرسة قد فصلت مدرس اللغة العربية السابق لسبب ما... وكانوا متعلقين به وأقسموا على «تطفيش» أي مدرس آخر حتى ترضخ الإدارة لرغبتهم. أصبحت صديقهم إذن... ولكني احتجت إلى شهرين آخرين لأبدأ في زجهم في عالم القراءة... قراءة نصوص عربية... فكم كنت أشعر بالغيظ حينما كنت ألمح في أيديهم روايات وكتباً إنكليزية فقط... حولت دروسي إلى دروس ثقافة عامة، إذ هالني يوماً ما وأنا أسأل طلاب أحد الصفوف– وكان في القاعة أكثر من عشرة طلاب مصريين– سألتهم عن أول رئيس جمهورية حكم مصر بعد الملك فاروق «وهو سؤال كنت أحب دائماً أن أداعب به زملائي المصريين» ففوجئت بطالب أو اثنين يقولون لي «أنور السادات» بينما بقي الآخرون عاجزين عن تقديم أي إجابة، كنت أتوقع أن يجيب معظمهم ذاكرين «جمال عبد الناصر» لأصحح لهم إجابتهم وأحدثهم قليلاً عن «محمد نجيب» الذي حكم عامين بعد الثورة... تبين لي أن معظمهم لا يعرف شيئاً لا عن نجيب ولا عن جمال ولا ولا ولا... قال لي أحدهم... «احنا تولدنا وحسني مبارك هو الريس» وكان كلامه أعمق مما قصد بكثير. حينما حدثتهم عن الأدب العربي كنت أعلمهم التاريخ العربي... ورجعت إلى الشعوب التي سكنت المنطقة قبل الإسلام كانت السبورة ملأى دائماً بالخرائط والأسهم في درس «الأدب العربي» لكنهم لم يتشجعوا

على القراءة حقاً إلا حينما جهزت المكتبة بمجموعة كبيرة من كتب الأدب وقصص الأطفال بعد أن كانت معظم الكتب فيها باللغة الإنكليزية... فاجأني أن الكتاب الأكثر تداولاً بينهم والذي كان غائباً دوماً عن رفوف المكتبة بسبب الاستعارة هو كتاب «ألف ليلة وليلة» الذي اشتريته من معرض أبوظبي للكتاب. لذا لجأت إلى شراء مجاميع أخرى من الكتاب المطبوع «طبعة منقحة جداً» وبأربعة أجزاء ومكتوب بلغة سليمة بسيطة... بدأت أنجح معهم خطوة فخطوة... تماماً مثل «سيدني بواتيه» في فيلم «إلى أستاذي العزيز مع التحية»... أما العام الثاني فكان أسهل بكثير... إذ إن سمعتي كمدرس جيد ترسخت لدى الطلاب لاسيما بعد أن حقق جميع الطلاب الذين قمت بتدريسهم درجات جيدة في الامتحان الرسمي النهائي وعلى الفور اكتسبت عداء بقية مدرسي اللغة العربية... لكنني كنت ولا أزال لا أبالي كثيراً بعداوات من هذا القبيل...

أنهيت العام الدراسي الأول وعدت في مطلع شهر ٧ عام ٢٠٠٣ إلى العراق الجديد... العراق المحتل... لم تكن حركة الطيران قد بدأت، لذا فإني قد سافرت إلى سوريا ومنها إلى العراق... ورغم أني أتابع الأخبار يومياً فإن رؤية دبابة أمريكية في التلفاز شيء... ورؤيتها في شوارع الموصل شيء مختلف تماماً... في تلك الإجازة تحديداً كان الاحتلال في شهوره الأولى... وكان عدد كبير من العراقيين قد تنفسوا الصعداء لخلاصهم من نظام الحكم القديم... لم يكن الجنود الأمريكان يتصرفون بحذر... شاهدت بعضهم واقفاً ينتظر دوره للحصول على «بيتزا» في المطاعم... وآخرين جالسين في أحد المقاهي يدخنون «الشيشة» ومشاهد أخرى كهذه... كنت

أشعر بغضب يخالطه شعور بالاشمئزاز ورغبة عارمة بالصراخ كنت أحس بالعار وكأني المسؤول الوحيد عن كل ما يحدث. انتهزت فرصة وجودي في عراق بلا رقابة بعد عقود من رقابة حكومية أو ذاتية وقمت بطباعة ألف نسخة من مسرحيتي «بروفة لسقوط بغداد» كانت طبعة زهيدة التكلفة وأذكر أني قمت شخصياً وبمساعدة أخي الصغير بطباعة غلاف الكتاب بواسطة السلك سكرين... وكان غلافاً بسيطاً جميلاً صممه صديقي الفنان (إسماعيل حمو). حصلت على النسخ الألف بكلفة بسيطة... كان الكتاب قد كتب قبل سنوات... وها هي ذي بغداد تسقط ثانية ولنفس الأسباب... ظننت أن الكتاب سيلقى رواجاً ما... حاولت إرسال نسخ منه إلى كل الجهات العراقية التي ظننت أنها قد تهتم بالأمر... أرسلت نسخاً منه لكل الجرائد المحلية التي كانت قد تكاثرت بشكل غريب... فبعد احتكار الدولة للصحافة انفلت الوضع فجأة وظهرت عشرات، بل مئات الصحف التي لم يدم صدور بعضها إلا أعداداً محدودة بينما توقفت مجموعة كبيرة منها بعد العدد الأول فحسب... ووسط هذه الفوضى... وبغياب أي موزع أو ناشر في المدينة انتهزت يوماً ما فرصة لاحت لي حينما علمت أن المسرحيين الموصليين سيجتمعون في قاعة كلية الفنون... ذهبت إلى الاجتماع دون دعوة... وتم انتخاب المرحوم (شفاء العمري) لمنصب ما... وبعد انتهاء اللقاء كنت أقف قرب الباب لأوزع على الجميع «وكلهم لا يعرفني» نسخاً من مسرحيتي الجديدة. قمت بعدها بطباعة آمادو، ولكني كنت أكثر تواضعاً هذه المرة، إذ اكتفيت بطباعة مئة نسخة منها فحسب ولم يبق لديّ منها الآن أي نسخة للأسف... بينما ما زلت أحتفظ بمئات من

نسخ «بروفة» إذ لم أعرف – ويبدو أنني لن أعرف – كيف أصرّفها وأكتفي بإهدائها لمن يطلبها من الأصحاب. عدت بعد نهاية الإجازة إلى أبوظبي... حاملاً معي بعض نسخ مسرحياتي لأهديها إلى الأصدقاء في أبوظبي... لاسيما بعد أن بدأت أرتاد مقر اتحاد كتّاب وأدباء الإمارات في «الخالدية»، حيث تعرفت إلى عدد من المهتمين بالأدب واستمعت واستمتعت أحياناً... ببعض الندوات أو اللقاءات التي كانت تنظم فيه... ويوماً ما اقترحت على الأديب والرسام (محمد المزروعي) أن أقرأ بعض قصصي القصيرة في قاعة الاتحاد ففوجئت به وبالصديق السوري (فرحان ريدان) يقترحان عليّ أن أشاركهما في تأسيس منتدى للقصة القصيرة... وقد كان ذلك... كان الوقت الذي قضيته في منتدى القصة من أجمل الأوقات التي قضيتها في الإمارات... هناك فقط كنت أحسن بأنني أنا نفسي... أقوم بالعمل الذي أحب... كان نشاطنا عبارة عن ورشات عمل نحاول خلالها إنتاج قصص قصيرة. وأسبوعاً بعد آخر تزايد الحضور رجالاً ونساءً حتى تجاوز العدد ثلاثين مشتركاً... وكان بعض الشباب والشابات يفاجئوننا بتطور سريع جداً في كتاباتهم. أخذت الأمر بجدية كبيرة... وأسعدني أنه أثمر كتّاباً وكاتبات لهم أسماؤهم الآن في الإمارات. وذات يوم التقيت بالقاص العراقي (وارد بدر سالم) الذي كان يعمل صحفياً في إحدى المجلات... حدثته عن المنتدى ودعوته لزيارتنا... اعتذر أسبوعاً بعد آخر. وحينما حضر يوماً ما قال لي قبل بداية الجلسة (سأبقى لربع ساعة وأرحل).. كان قد وعدني بتغطية صحفية للنشاط، لكنني شاهدته جالساً على مقعده بعد انتهاء الحوارات قال لي لاحقاً (حقاً لم أكن أتخيل وجود نشاط كهذا هنا في

أبوظبي) ولا أدري إن كان قد كتب لاحقاً عن المنتدى أم لا!!

كان العام الثاني لي في الإمارات غريباً جداً.. أحسست بأنني قد بدأت أنشطر إلى شخصين... أحدهما يحقق نجاحاً ما في مجال يحبه... إذ فزت عام ٢٠٠٤ بجائزتين أدبيتين وبدأ اسمي يظهر في الصحف وكان أصدقائي «الطلاب» يعلقون المقالات التي تتحدث عني أو اللقاءات التي تجرى معي في لوحة إعلانات المدرسة مما يزيد من سخط زملائي المدرسين... وكان الشخص الثاني في داخلي يؤنبني كل لحظة، ولا يغفل عن ذلك نهاراً وليلاً... فها أنذا هارب بعيداً أعيش بسلام وأسعد بنجاح شخصي وأهلي ومدينتي وعراقي يعانون مهانة احتلال أهوج جاء ليحطم كل شيء.. أحسست بالأمر يتفاقم حتى بدأت أميز بين الصوتين اللذين يتكلمان في رأسي... ثم ظهر صوت ثالث يسخر من الاثنين معاً... صوت ينتقدني بسخرية مرة في كل مجاملة أو موقف أمرّ به... ازدادت حساسيتي وأصبحت مرهقاً فهرعت إلى الحل الوحيد المتاح أمامي وهو الــــ «مــــول».. إذ اكتشفت أنني كلما تأزمت أهرع إلى أي مول لأضيع وسط دوامات المعروضات وأقضي وقتاً طويلاً بين الناس والأشياء دون تفكير... بدأت أشتري – في الغالب– أشياء لا أحتاج إليها... ويوماً ما صرخ الناقد الساخر في رأسي وكنت أدفع أمامي عربة مملوءة بالأشياء.. صرخ قائلاً «انظر إلى محتويات العربة جيداً وخذ منها ما تحتاج إليه فقط» وقفت وتأملت الأشياء.. قلبتها جميعها ولم أجد فيها أي شيء أحتاج إليه فعلاً.. صرخ الصوت بداخلي (إنه الخلاص بالسلعة) كانت هذه العبارة مقتبسة من كتاب «الفردوس الأرضي» للمرحوم عبد الوهاب المسيري.. كنت أحفظها منذ زمن بعيد. وها

هو أحد أجزائي يكررها على مسمعي... تركت العربة وخرجت خاوي الكفين... وبدأت أراقب سلوكي أكثر، وأقاوم الدخول إلى المولات المغرية التي كلما كانت أكبر كان الإنسان في داخلها أصغر. سأوظف هذا الموقف في قصة ديك الحكاية... وسأوظفه أيضاً في مسرحيتي «فكرة» وسأنصح الصديقة «لميس فارس» وهي من أصدقاء منتدى القصة حينما أشكلت عليها نهاية روايتها «حكايات ميرة» أن تختار للنهاية مكاناً مغايراً للمكان الذي سردت فيه معظم النص «أبوظبي في الثمانينيات» واقترحت عليها أن تكون النهاية في مول كبير... وأخذت باقتراحي ووضعت بطلة روايتها أمام السلالم الكهربائية الضخمة لمول مزدحم في مشهد ختامي بارع ودال.

ورغم نشاطي الأدبي «الظاهري» في الإمارات... ورغم احترام الناس لعملي ومعاملتي «ككاتب» إلا أنني وحدي كنت أدرك الحقيقة المرة وهي أني سأعجز تماماً عن الكتابة في هذا المكان. كان هذا شيئاً غريباً للغاية في تقديري... إذ إنني أنجزت الكثير في ليبيا رغم بساطة المكان وصعوبة ظروف الحياة... اعتدت على الكتابة فأصبحت جزءاً من حياتي اليومية. لا أظن أن يوماً واحداً قضيته في ليبيا إلا وكنت قد كتبت شيئاً أو فكرت بكتابة شيء... أما في الإمارات فلم يكن ذلك ممكناً... أحسست بالعقم.. بخواء رهيب... عانيت من هذا الإحساس... الذي خلق في نفسي إحساساً عميقاً بالتشظي. وكان الاحتلال يلازم تفكيري ليلاً ونهاراً، لذا لم أتردد طويلاً وقررت العودة إلى الوطن وسط دهشة زملائي في العمل... وأصدقائي في الإمارات... وأهلي في العراق... أذكر جيداً مدير المدرسة الذي نظر إليّ بإشفاق وقال لي «لا تلغي تأشيرة العمل... أنا أعلم أنك

ستعود قريباً... فمعظم العراقيين يهربون تاركين البلد الآن اذهب وسوف تعود...».

وبالفعل بقيت أوراق إقامتي مدة طويلة رغم أني كنت في العراق.. ثم أرسلت جوازي مع صديق لألغي الإقامة بشكل أصولي. وهكذا وفي مطلع شهر تموز... وبعد حفل وداع مؤثر أقامه لي أصدقاء منتدى القصة عدت إلى العراق وأنا مصمم على أن أفعل شيئاً ما... عدت إلى العراق وفي ذهني قضية واحدة كنت أعلم تماماً أنها تفوق إمكانياتي بكثير، لكنني لم أستطع تجاهلها عدت إلى العراق وأنا مصمم على أن أفعل شيئاً واحداً لا غير «المقاومة».

الجمعة ٨/٨/٢٠١٤

الساعة الثالثة صباحاً.

حينما كنت في أبوظبي كنت أحلم يومياً بعودتي إلى العراق كي أشارك فوراً في حركة المقاومة المسلحة التي كانت أول ملامحها قد بدأت تظهر بعد شهور من هدوء كان سببه الصدمة الكبيرة التي أصابت العراقيين نتيجة الاجتياح السهل للعراق... وأمل غامض كان يداعب أحلامهم بحياة أفضل يعيشونها بعد زوال النظام «الدكتاتوري».

أسمع الآن قصف طائرة مسيّرة... ألقت صاروخاً قريباً وأنتظر أن تلقي الثاني... سأواصل الكتابة وسأعرف غداً أين سقطت الصواريخ وماذا دمرت... كنت أتحدث عن بدايات ظهور المقاومة في العراق... ربما تخيلت، أو حلمت، أو توهمت، أن جبهة عراقية متماسكة ستبدأ بمقاومة الاحتلال عسكرياً... كانت الفضائيات

تذيع أنباء متفرقة عن أعمال قنص أو تفجير يقوم بها عراقيون ضد الجيش الأمريكي المحتل. وما إن وصلت إلى الموصل حتى بدأت أسأل بصورة مباشرة أو غير مباشرة عن هؤلاء المقاومين... لم أجد جواباً واحداً... كان هناك إجابات مختلفة متعددة... ولكي أتمكن من الاحتكاك بالموضوع بشكل كامل وافقت على طلب الصديق «أثيل النجيفي» بالعمل في جريدته «عراقيون». لم يكن أثيل صديقاً بالمعنى الحرفي... كان زميل دراسة لي في كلية القانون المسائية التي تركتها لأسافر إلى ليبيا... كان بيننا احترام متبادل فهو فضلاً عن كونه رجل أعمال بارزاً، فقد كان مثقفاً غزير الاطلاع على الموصل والعراق وتاريخه وواقعه... وقد أدركت فور أن تعرفت إليه أن الرجل «وهو مهندس» يقوم بدراسة القانون.. أدركت أنه يطمح ويستعد للعب دور سياسي ما... لذا لم أتفاجأ إطلاقاً بتقدمه لخوض غمار العمل السياسي فور تغيّر النظام. عملت في جريدة «عراقيون» الأسبوعية بشرطين: الأول أن أعمل دون مقابل مادي... والثاني هو أن تكون فترة عملي وقتية، وأن يكون من حقي ترك العمل بعد إعداد كادر مناسب وإضافة كادر جديد إلى الجريدة... ربما أغضبت بعملي صديقي د. عمار الصفار والأستاذ بشار القليجي اللذين كانا قد أصدرا الجريدة منذ عددها الأول... كنت محرجاً منهما. ويوماً ما اختليت بعمار وقلت له بجدية كاملة «صدقني... أنا سأعمل لفترة محدودة... ودون أجر كما تعلم... لديّ أهداف سأحققها قريباً... وأرحل».

كان العمل في الجريدة فرصة لي لأحتك بكل الشرائح الفعالة الموجودة على الساحة... لاسيما وأن الجريدة لم تكن تحمل طابعاً

مميزاً ومقولباً... لم تكن جريدة حزبية أو تمثل تياراً سياسياً بعينه قدر ما كانت جريدة وطنية تهدف إلى بث روح الصمود والمقاومة... كنت أقوم بمهام رئيس التحرير. جندت واستكتبت عدداً من الشباب... كنت أكلفهم مهام محددة ثم أراجع كتاباتهم وأعدلها وأحذف منها... وأعيد الصياغة كي يكون الموضوع مقبولاً وخلال الأشهر الأربعة التي عملت فيها في الصحيفة كنت أوقن يوماً بعد يوم أن طريق المقاومة المسلحة ليس طريقي... فهناك ملايين العراقيين القادرين على حمل البنادق، ولكنهم لم يجتمعوا في جبهة موحدة... ولم يكن هناك تيار سياسي واضح التنظيم من خلال فصائل المقاومة... وسرعان ما بدأت عمليات دمج الفصائل بالإكراه أو التصفيات الجسدية تشيع بين الفصائل... ولم أكن على استعداد أبداً للعمل مع فصيل لا أعرف من يقوده... ولا إلى أين يقوده... ولم أكن أبداً على استعداد لمحاربة عراقيين من فصيل آخر مهما كان الاختلاف بيننا.. فكرت في العمل الفردي «القنص»... أضحك من نفسي الآن كلما تذكرت حماسي لهذه الفكرة... ماذا لو نفذتها ونجحت في اقتناص خمسة أو عشرة جنود أمريكان... كم كان ذلك سيغير في المعركة على الأرض!! سأعترف هنا بأنني قد نظرت طويلاً إلى كل جندي من جنود الاحتلال وحاولت أن أراه كإنسان... لم أر إلا القليل منهم على شاكلة «رامبو» كان معظمهم شباباً أو شابات وجدوا أنفسهم في أرض غريبة وهم يحاولون أن يقوموا «بواجبهم المقدس دفاعاً عن وطنهم» من يستحق رصاصة في الرأس ليس هؤلاء... بل من يجلس بعيداً آمناً وراء مكتبه وأرسلهم ليحقق مصالحه ومصالح الشركات التي أوصلته إلى كرسي الحكم...

هؤلاء ليس إلا وقود حرب تماماً كما كنت أنا في حرب الكويت... كلما رأيت جندياً أو مقاتلاً نقمت على من أرسله للمعركة وهو آمن في موقعه. حتى الدواعش الشباب الذين التقيت بهم قبل أسابيع في النت كافيه لم أر فيهم المجرمين الذين يرعبونني قدر ما رأيت فيهم الحماقة التي سمحت لهم أن يزجوا بأنفسهم في حرب لا علاقة لهم بها وضد جهة لا تعاديهم.. حرب قد يظن بعضهم أنها مقدسة وأن خوضها هو أقصر طريق يوصلهم إلى الجنة... إنهم أدوات... بيادق شطرنج لا أكثر... أتذكر الآن مسرحية «اشتباك» أول مسرحية كتبتها.. لا شك أنني قد كتبت عنها في الجزء الأول من الكتاب ذلك الجزء الذي لم أقرأه منذ كتبته... أتذكر المشهد الذي يلتقي فيه محاربان قتلا بعضهما... يقفان عاريين في البرزخ وكل منهما يسأل الآخر: لماذا قتلتني وأنا لا أعرفك؟

السبت ٢٠١٤/٨/٩

الساعة الرابعة فجراً...

ما لفت نظري حقاً بعد الاحتلال لم يكن كثرة الصحف والفضائيات وانفلات عملية النشر... بل ضياع زمرة كاملة من الـ «مثقفين» الذين طالما ضحكت عليهم في داخلي وهم يهيمون على وجوههم بحثاً عن راع... فبعد انخراطهم المباشر أو الضمني في ماكينة دعاية هائلة تضخ باتجاه واحد، وجدوا أنفسهم فجأة بلا أية قيود فأحسوا بالضياع... أنا لا أتكلم هنا عن المثقفين من ذوي الأنياب الزرقاء الذين صنعوا لأنفسهم فوراً مكاناً في العهد الجديد وتسلقوا ليصل بعضهم إلى البرلمان مثل الأستاذ (علي الشلاه) – وهو أنموذج

طريف للمثقف المرتزق ويستحق دراسة معمقة – تلك المجموعة التي عملت مع صدام وعدي والمالكي بنفس الهمة والكفاءة.. بل أتحدث عن الأغلبية. عامة المثقفين.. حضرت أكثر من لقاء أو اجتماع ضم كثيراً من مثقفي الـ «نخبة» وكانت معظم طروحاتهم هي عملية بحث عن سيد جديد... ولم يأخذوا كلامي بجدية في كل مرة كنت أقول لهم فيها إننا نحن بحدّ ذاتنا قوة قادرة وعلينا أن نكون سادة أنفسنا، وأن نحاول خلق واقع ثقافي جديد يتصل بالناس. وقد نكون قادرين على تحقيق تأثير ما... حينما كنت أقول كلاماً كهذا كانوا يصغون لي حتى النهاية... ثم يعودون ليستأنفوا كلامهم من حيث انتهى وكأنني لم أتفوّه بكلمة. لم تفاجئني مواقف المثقفين... فجلّ كتاباتي تدور عنهم لأنني أؤمن تماماً أن مأساة الواقع العربي الراهن ليست بسبب الصراعات الدولية ولا بسبب الثروات الطبيعية فحسب... لأنني ألغي جزءاً كبيراً من مسؤولية هذا التردي المستمر للواقع العربي ككل على عاتق الطبقة المثقفة التي لم تنتج مشروعاً أو حتى ملامح مشروع عربي مقبول منذ نصف قرن أو أكثر.

الاثنين ٢٠١٤/٨/١١

الساعة الواحدة صباحاً...

قبل قليل أعلن دولة السيد (رئيس الوزراء) أن فخامة السيد (رئيس الجمهورية) قد خرق الدستور مرتين... وأن واجبه (هو) كرئيس للوزراء، صيانة الدستور، والعملية السياسية، ومحاربة الدواعش، ودواعش السياسة وأنه سيفعل المستحيل للمحافظة على سلامة الدستور والعملية السياسية «أي بقاءه هو شخصياً على رأس

الحكومة وللدورة الثالثة»... أخبار عن تحركات قطعات عسكرية تحيط بالمنطقة الخضراء في بغداد... وقوات أخرى تحاصر القصر الجمهوري مقر السيد (فؤاد معصوم) وأخبار أخرى عن تكليف الائتلاف الوطني للسيد (حيدر العبادي) بمهمة تشكيل الحكومة... وأنباء أخرى عن غضب طارق نجم مدير مكتب المالكي وذهابه إلى لندن بعد أن «زعل» على المالكي الذي رفض أن يكلفه بتشكيل الحكومة... رغم كل الضمانات التي قدمتها كل الجهات للمالكي بعدم ملاحقة جرائمه قانونياً فيما يتعلق بالاختلاسات أو قضايا حقوق الإنسان إلا أنه كما يبدو لا يثق بأي ضمانة أو أي جهة ضامنة... ولو كنت مكانه أنا أيضاً لما أمنت الملاحقة، نظراً لحجم الكوارث التي ارتكبها المالكي وزمرته بحق الأرض والثروة والإنسان في العراق... منذ ٤ أشهر أجريت الانتخابات ولحد الآن لم تستطع الطبقة السياسية ولا البرلمان تكليف شخص لتشكيل الحكومة... نظام انتخابي غريب ونظام برلماني أغرب... لقد زودتنا أمريكا بدستور لا يعمل وسمحت بتعديله بطريقة لا يمكن أن تتحقق.. دستور تم «سلقه» في ثلاثة أشهر... ومنذ عشر سنوات لم يتمكن أحد من تعديل سطر واحد فيه رغم أن كل الأطراف السياسية، وعلى رأسها المالكي شخصياً تصرخ كل يوم بأن الدستور مملوء بالألغام... لكن كل الأطراف التي يمكنها تعديل الدستور لا ترغب بذلك لأنه سيحرمها فوراً من الامتيازات الهائلة التي تنعم بها.. ثم سيعرضها للمساءلة... اليوم أجريت الانتخابات الرئاسية في تركيا... وبعد أربع أو خمس ساعات من إغلاق الصناديق تم إعلان النتائج... أضحك كلما أتذكر الأسابيع والشهور التي تمر لدينا ومفوضية الانتخابات تعلن

أنها مستمرة في عمليات العدّ والفرز والتدقيق... لو زرعوا حنطة لأنبتت سنابل واخضرت واصفرت وحصدت قبل إعلان نتائج الانتخابات لدينا. والغريب أن كثيراً من الفائزين يخسرون حتى بعد إعلان فوزهم... ويفوز من كان خاسراً، وذلك حسب ما تقتضيه مصالح الكتل والنافذين ومقتضيات الأصوات وأعدادها... فالعملية السياسية كما يصرح سياسيون دائماً هي لعبة أرقام... والمالكي قد صرح قبل الانتخابات بعبارته الشهيرة «ما نعطيها»... أي أنه لن يسلم الكرسي وقد بذل كل جهوده بكل الطرق المشروعة وغيرها كي يبقى. وهو اليوم يقول إنه سيرفع دعوى قضائية ضد رئيس الجمهورية لخرقه الدستور... ولما كان السيد «رفعت المحمود» رئيس مجلس القضاء الأعلى في الجيب الخلفي لبنطلون رئيس الوزراء منذ أعوام طويلة... فهذا يعني أن المالكي سيكسب الدعوى التي سيرفعها... تماماً كما كسب الدعاوى الأخرى دون استثناء... هو الآن بالذات يريد أن يحافظ على دستور قد قام بركله في كل يوم من أيام حكمه... المالكي يتمسك بالكرسي بجنون... إذ إنه يعلم تماماً حجم الأهوال التي ستنكشف فور تركه للحكم، حيث نجح هو وكل أفراد حكومته في تجنب الوقوف أمام البرلمان للمساءلة طوال فترة حكمه... تسانده بذلك كتلته «الأكبر» في البرلمان... ولا أنسى يوم فشل التصويت على استدعاء وزير الرياضة والشباب وهو متهم بعدد كبير من قضايا الفساد... حينما لم يحصل المطالبون بالاستدعاء على العدد الكافي من الأصوات قفز الأعضاء الفاسدون في البرلمان وهم يهتفون ويصفقون وزغردت بعض النائبات كما أذكر وكأنهن في عرس لم يقف أي عسكري فاشل أمام البرلمان رغم مئات الانتهاكات

والاختلاسات وصفقات الأسلحة الفاسدة التي بدأت مع بداية تسليح الجيش ولم يتوقف الفساد لحد الآن... وأظن أننا الدولة الوحيدة في العالم التي لا تقدم كشوفات إغلاق الميزانية السنوية للبرلمان أو لأي جهة... فنحن بدون حسابات ختامية لكل موازنات الدولة منذ عشر سنوات. أرقام صادرات النفط ليست دقيقة... وحجم تهريب النفط ليس معروفاً... إننا بلد ينهب ثم يقتل أفراده للتغطية على هذه السرقة الجائرة... وإذا ما تحرك الشارع أثيرت الفتنة تلو الأخرى... والأزمة بعد الأزمة... من أول انتفاضة حدثت في البصرة قبل أعوام وصولاً إلى السماح لبضع مئات من الأفراد باحتلال ثاني أكبر مدينة في العراق والاستيلاء على أسلحة أربع فرق عسكرية لا يقل تعداد أفرادها عن ستين ألف رجل. وقدرت الحكومة خسائر الأسلحة والأعتدة بأحد عشر مليار دولار... والمالكي ما زال يطالب بفرصته لـ «إعادة البناء» لكنه يريد المزيد من الصلاحيات كي يتمكن من ذلك... فالعيب ليس فيه، بل في شركائه وإذا ما حصل على مدة رئاسة جديدة بصلاحيات أوسع فإن أنهار اللبن والعسل ستتدفق في العراق...

منذ أسابيع وأنا ألتقي بأشخاص من مختلف الشرائح... وكلهم ليس لديهم إلا همّ واحد هو إيجاد وسيلة للخروج من العراق... هذا ما يحلم به المثقف والأمي... أستاذ الجامعة، والطبيب، وميكانيكي السيارات وعامل البناء، وبائع الخضروات... الكل لا يحلم إلا بأن يجد وسيلة ما للنفاذ بجلده مصطحباً معه أولاده... أين نجد مكاناً يتسع لثلاثين مليون عراقي؟! أنا متوتر... حزين... أشعر بالكراهية لنفسي...

أين المفرّ؟؟؟

الثلاثاء ١٢/آب/ ٢٠١٤

الساعة الثانية صباحاً...

أنا حامي الدستور... أنا رئيس الكتلة الأكبر... أنا قائد حزب الدعوة. أنا المرشح الدستوري لرئاسة الوزراء... صرخ المالكي اليوم يائساً بعد أن تم رسمياً تكليف رفيقه في الحزب (حيدر العبادي) بمهمة تشكيل الوزارة... ووقف الرئيس الـ «سابق» وبعض أفراد كتلته وحزبه في مكان ما... وبمشهد سيئ الإخراج ردد كلماته ودعا القوات المسلحة إلى الاستمرار في المقاومة... لا سيما بعد أن لاحظ سيل برقيات التهنئة التي انصبت فوراً على الـ (عبادي) من زعماء دول العالم... المالكي لا يريد ترك القصر الجمهوري لأي سبب... هناك توقعات بأن يحاول استخدام جزء من القوات المسلحة أو الميليشيات أو جمع مؤيديه للتظاهر أملاً منه في «صيانة الدستور»... لا أريد أن أتحدث عنه أكثر.. قضى ثماني سنوات حاكماً للعراق... وأنفق سبعمئة مليار دولار ولم يترك وراءه بناية أو جسراً أو متحفاً أو أي أثر يذكر... كان هاجسه الرئيس هو الأمن كما يزعم... وترك البلاد ونصفها خارج سيطرة الحكومة... فشل ذريع في كل المجالات... ما أضحكني حقاً اليوم هو موقف العاملين في القناة الفضائية العراقية الرسمية... موقف المثقف الحائر بين سيدين... سيد لم يفقد سلطته تماماً... وسيد آخر لم يمسك بعد عصا السلطة. المذيعون يتكلمون بحذر شديد... يراقبون كلماتهم ويصححون العبارات لأنفسهم وهم يحاورون ضيوفهم... مأزق حقيقي... لكنهم امتلكوا الشجاعة قبل نهاية اليوم وسمعت أحدهم يقول (السيد رئيس الوزراء المنتهية مدته) وأضحكني ذلك... منذ يومين

وأنا أراقب التلفزيون مرتاحاً كأنني نسيت الدواعش... ونسيت أن مدينتي محتلة من قبلهم ومحاصرة من قبل أعدائهم... وأن الطائرات تصورنا ليل نهار وأنها قد تبدأ بقصفنا عما قريب... نسيت ذلك كله وأنا أراقب لحظة انقلاب الأحوال وتغير المواقف. احترمت فؤاد معصوم... وأرجو أن يكون العبادي مفتاحاً لحل مشاكل العراق أو بعضاً منها... فرغم أنني كنت أكره كل الطبقة السياسية الحالية إلا أن سيرته التي سمعتها اليوم لأول مرة تبدو مطمئنة ومبشرة بخير... سأتفاءل... سأتفاءل.....

لِمَ لا أعود الآن إلى حكايتي القديمة... لم يبق لديّ إلا ثماني علب سكائر، ولهذا عليّ أن أسرع وأسرع في الكتابة... كان عملي القصير في صحيفة «عراقيون» مفيداً للغاية... فقد قدمتني للكتّاب والأدباء في مدينتي... وكثير منهم لم يسمع باسمي سابقاً... كنت أكتب عموداً أسبوعياً اسمه «كرسي على رصيف الأحداث» كان العمود حوارية بين شخصين يجلسان في مقهى ما وكثيراً ما ابتعد العمود عن الواقع ليحلق في سماء الفنتازيا التي كنت أضطر أحياناً للجوء إليها لأنني لم أقدر على تصوير واقع أغرب من الخيال إلا بهذه الطريقة... وكان كل يوم جديد يمضي وأنا في هذا العمل تزيد قناعتي رسوخاً بأنني لا يمكن أن أتخذ الكتابة مهنة في جو كهذا... وفي نهاية عام ٢٠٠٤ أرسل الجيش الأمريكي من يطلب رئيس التحرير لمقابلته في أحد المعسكرات الأمريكية التي كانت تحتل أحد قصور صدام... ذهب صديقي المحامي (ثابت عبد الستار) لمقابلتهم... عرضوا على الجريدة إعلانات بقيمة ألفي دولار أسبوعياً... أي بكلفة إصدار الجريدة التي كانت تطبع أسبوعياً ألف نسخة ولا أظنها

كانت تبيع مئة عدد منها ويوزع الباقي مجاناً... رفض ثابت العرض فقد كانت الجريدة مكرسة للخط المناهض للاحتلال... وبعد أسبوع أو أقل أحيطت بناية الجريدة بالمسلحين الـ «إسلاميين» وأجروا لقاء – لم أحضره – مع العاملين في الجريدة وأعطوهم توصيات صارمة بنوعية المقالات التي يجب أن تكتب لتمجيد «الزرقاوي» وأسامة بن لادن... وما يجب أن ينشر وما يجب حجبه... كان من دخل لإبلاغنا شباب ريفيون مسلحون... وكان آخرون بانتظارهم خارجاً... كانت المدينة قبلها بأيام قد سقطت بيد المسلحين... سقطت مخافر الشرطة وامتلأت الموصل خلال ساعات بجماعات مسلحة لا يعلم أحد كيف ظهرت... وأصبح السير في شارع الجامعة ظهراً مجازفة كبيرة... عندها عرفت أن ساعة تركي للعمل قد حانت... تم نقل مقر الجريدة الرئيس إلى بغداد وبقي مكتب صغير يعمل في الموصل في مكان سري... وتولى الصديق «بهجت درسون» رئاسة التحرير كما أذكر لفترة ما... وبقيت أنشر أحياناً مقالات في «عراقيون» وهكذا انتهت قصتي مع الصحافة قبل أن تبدأ... وهي تجربة لم أعوّل عليها إطلاقاً منذ اليوم الأول... فمن كان قد اطلع على صحف يومية تصدر بمئة وعشرين صفحة من القطع الكبير لا يمكن أن يقنع بإصدار مجلة أسبوعية باثنتي عشرة صفحة فقط... وحتى لو كانت الصحيفة بإمكانات كبيرة فإن الجو العام لم يكن يتيح الكتابة بالحد الأدنى من الحرية... وحتى لو كانت الحرية متاحة وبابها مفتوحاً على مصراعيه... فإن أي صحيفة عراقية ما كانت قادرة على إحداث أي فرق أو تأثير إيجابي وسط عاصفة الفوضى التي كانت تضرب البلاد... وما زالت آثارها السلبية باقية إلى اليوم.

تركت العمل في الصحيفة وعدت إلى القراءة في البيت... لم أكتب شيئاً مهماً كما أذكر... كان قد بقي لديّ قليل من المال الذي أدخرته في الإمارات، لكنني كنت أتوقع أن تهدأ الأمور... وينفتح سوق العمل في العراق... وهو سوق واعد ومتعطش لكل شيء... كان عملي في الصحافة قد ألغى فكرة أخرى راودتني في الإمارات... فكرة تشكيل فريق صغير لتصوير أفلام أو برامج وثائقية قصيرة... كان هذا الأمر شبه مستحيل وقتها في العراق فتناسيته... ويوماً ما وأنا أمام التلفاز لمحت في شريط الأخبار نبأ صدور قانون التعليم الأهلي، وهكذا قررت أن أبدأ هذا المشروع الذي حلمت به وخططت له مذ كنت في ليبيا. وهكذا بدأت الخطوة الأولى في تأسيس مجموعة مدارس (الأوائل).. ورغم أن عملي في تأسيس المدارس كان يستغرق وقتي كله تقريباً ويستهلك طاقتي فإنني ثابرت على محاولة نشر مسرحياتي... كنت أبحث عن المسرحيين العراقيين عبر النت وأرسل لهم النصوص مع رسالة تعريفية بي... قرأ لي البعض وتبادلنا الآراء والنقاشات... لكن القراءة شيء وإنتاج المسرحية شيء آخر... فوجئت يوماً بمسرحي عراقي مقيم في هولندا وهو الفنان «حازم كمال الدين» يطلب مني المشاركة في تجربة مسرحية غريبة «عرض مسرحي عبر النت» ولما كنت أبحث عن أي فرصة لأقول بعض ما لديّ فقد وافقت... جمع كمال الدين عدداً من المسرحيين العراقيين والهولنديين والألمان بمناسبة العام الثالث على احتلال العراق وكنت أنا فرداً من هذه المجموعة... وشاركني صديقي القديم (يحيى صديق) التجربة، إذ قام بترجمة أحد نصوصي إلى الإنكليزية «وهو مونودراما بداية جديدة» وقدمه أحد الممثلين الهولنديين على

خشبة مسرح في أمستردام في وقت كان حازم كمال الدين وبيتر فيرهس... يقومان بالاتصال بفنانين عراقيين أو أجانب عبر النت ليعرض نتاجهم أو اللقاء معهم على شاشة كبيرة موجودة في المسرح... كان لديّ فقرة أخرى هي ارتجال نص يقابلني فيه كاتب آخر ألماني الجنسية «كان الأمر مفاجأة لي»... كان هو يتقمص شخصية طيار أمريكي سقط في الموصل وهو ينزف ويلتقي بمواطن عراقي «والذي هو أنا» وجملة بجملة كنا نرتجل الكتابة محاولين خلق موقف درامي... وهكذا اكتملت مسرحية أخرى شاركني فيها كاتب لم ألتقه «إذ كانت المحادثة كتابة فقط» وليس لديّ نسخة من النص ولا أعرف ماذا كتبت وقتها ولم أطلع على كامل العرض لصعوبة تحميله على الإنترنت آنذاك... - والآن نحن بلا نت إطلاقاً يا للسعادة -. يومها اضطررنا أنا ويحيى للمبيت في مقر شركة لأحد الأصدقاء فلم يكن النت متاحاً في البيوت حتى تلك الساعة... كانت أمسية مميزة لم يبق لي منها إلا «بداية جديدة» تلك المونودراما القصيرة التي سأحملها معي هي، وآمادو، وحكاية هووو. كان يحيى قد ترجم حكاية هووو أيضاً، أما الصديق (د. ستار زويني) فقد سبق له ترجمة آمادو... حملت النصوص الثلاث المترجمة إلى الفجيرة عام ٢٠١٠ بعد فوزي بجائزة تلك المسابقة... كان معي أيضاً كتاب «سبع مسرحيات» وهو طبعة محدودة لمسرحياتي طبعتها على نفقتي وحملت معي ثلاثين أو أربعين نسخة منها كما أذكر بالإضافة إلى المسرحيات المترجمة... وخلال لقاءاتي المتعددة مع الكتّاب والعاملين في المسرح أهديت النسخ العربية كلها لفنانين عرب من المغرب إلى سوريا آملاً أن يقرأ أحدهم شيئاً من النصوص وأعتقد أن أحداً لم

يقرأ.. إذ إنني لم أتلق رد فعل ما لحد الآن... وكان معي عشر أو اثنتا عشرة نسخة من المسرحيات الثلاثة المترجمة وزعتها على من لفت نظري من الكتّاب أو الممثلين الأجانب... كان ثلاثة أو أربعة ممن قرأ النصوص المترجمة يسألونني في دهشة... كيف لم يقدم أحد هذه المسرحيات... أذكر أنني ضحكت كثيراً من صديق يوناني كان قد فاز بجائزة عن مسرحيته وهو مسرحي وروائي قال لي ببرود «تقول إنك كتبت هذا النص منذ سنوات بعيدة... ولم تقدمه لأحد... اسمح لي أن أقول لك بأنك أحمق». لم يكن بإمكاني إطلاقاً أن أشرح له كل الملابسات التي منعتني وتمنعني من الوصول إلى الناس... أذكر أن روائية من أوكرانيا وممثلة أمريكية من أصل آسيوي ناقشتاني طويلاً في آمادو أيضاً بعد أن كان النص قد أبهرهما... في مثل تلك المواقف أحس بفخر وألم معاً... أحس بأنني قد أنجزت شيئاً مهماً... وأحس بأنني أيضاً قد ضيعت فرصة تلو الأخرى... أما «ستيف كارير» وهو فنان مسرحي من لكسمبورغ فقد كان قد قدم في المهرجان عملاً طويلاً هو «جسدي في تسعة أجزاء» هذا العمل أثار لغطاً ونقاشات طويلة بينه وبين النقاد والجمهور. سلّمت عليه بعد العرض وقدمت له نسخة من المسرحيات الثلاث المترجمة... شكرني بلطف ولم ألتق به ثانية حتى آخر يوم في المهرجان... وفاجأني بعد شهور وهو يطلب مني برسالة إلكترونية أن أسمح له بعرض مسرحية «بداية جديدة» تبادلنا لاحقاً أحاديث تليفونية... علمت بعدها أنه قد قدم هذه المسرحية في لكسمبورغ أولاً ثم في جولة شملت ست دول أخرى في أوربا وإفريقيا وكان العرض الأخير للمسرحية في فيتنام... وحينما التقيته لاحقاً قال لي «بعد كل عرض وحينما كانت الأنوار تضاء

كنت أرى الجمهور إما صامتين من الدهشة... أو يمسحون الدموع عن أعينهم تأثراً بالمسرحية». ولما سألته عما لفت انتباهه لتلك المسرحية قال لي «بساطتها الشديدة في عرض الكثير من الأحداث والأفكار الكبيرة»... لم أقل له كم إن تلك البساطة تتعبني لأصل إليها... ولم أقل له أن تلك البساطة هي المأخذ الكبير لدى أصدقائي على نصوصي... ولم أقل له إنني لم أنشر تلك المسرحية باللغة العربية... وإنها مخطوطة حبيسة دفتر ما... حكى لي ستيف قصته مع نصوصي... قال لي إنه قدم مسرحية (جسدي في تسعة أجزاء) في الفجيرة وغادرها عائداً إلى لكسمبورغ في نفس الليلة... وإنه قد تصفح نسخ المسرحيات التي أعطيتها له وهو في قاعة الترانزيت في مطار دبي... فلم يتمكن من التوقف عن القراءة حتى أكمل المسرحيات الثلاثة... وإنه قد أقسم ليلتها على أن يقدم هذه النصوص الثلاث على المسرح... وفعلاً وفى بثلثي وعده... فقد قدم مسرحية «بداية» في جولة كما ذكرت، وسرق بعض مشاهد «حكاية هووو» وضمنها في عرضه المسرحي... ثم قدم آمادو باللغة الألمانية عام «٢٠١٢» في لكسمبورغ وحضرت جزءاً من البروفات ثم العرض الافتتاحي... وقالت لي المخرجة «آن سيمون» وهي من قامت بإخراج العملين أنها تجلس مع ستيف وأفراد الفرقة ويتخيلون كيف سيخرجون مسرحية «حكاية هووو» فور أن يتوفر لديهم التمويل المناسب... «ستون ممثلاً وممثلة» قالت آن... ولما قلت لها إن النص «وهو نص صامت» مكتوب ليمثله ممثل واحد واثنا عشر فرداً من الكومبارس أجاب ستيف وآن معاً «ستون ممثلاً لا أقل»... لم يحدث هذا لحد الآن، لكنني أصبحت مثلهما... أحلم بأن أرى حكاية

هووو في إنتاج ضخم يقدمه محترفون على مستوى رفيع في الأداء والإخراج... لكنني لم أخبرهما أبداً قصة كتابتي لهذه المسرحية... خشيت أن يغيّرا رأيهما فيها لو علما بالطريقة التي كتبت فيها النص أو الوقت الذي استغرقته الكتابة... أذكر تماماً أنني وخلال إعدادي لأطروحة الماجستير كنت قد استعرت من الأستاذ طلال حسن أعداداً من مجلة «الحياة المسرحية» وتصادف أني قرأت مقالاً في إحداها عن التمثيل الصامت في المسرح الحديث... كان المقال ينتقد خلو هذه المسرحيات من المضامين... وأنها رقصات أو تعابير جسدية أكثر مما هي أعمال درامية... بقيت الفكرة تدور في رأسي كان شتاء بارداً جليدياً وكان وقود التدفئة نادراً، والكهرباء تقطع عنا في تمام الثانية عشرة ليلاً وكعادتي كنت يقظاً بسكون كامل وأنا ملتف بدثاري... والمقالة تحفز في نفسي... لا أدري لماذا تذكرت رسوم الكتابة الهيروغليفية... تخيلت أنها وحدات منفصلة تعطي باتصالها بتسلسل معين معنى كاملاً رغم أنها مجرد رسوم وليست كلمات... لِمَ لا يكون المسرح الصامت هكذا؟ لِمَ لا أكتب مسرحية صامتة تروي قصة كبيرة وعميقة أيضاً؟ قفزت من سريري ووضعت فوق رأسي مصباحاً كمصباح عمال المناجم كنت أستخدمه كثيراً وقتها تلفلفت بعباءتي الصوفية السوداء وأوشكت أن أشعل سيكارة وأنا أهمّ بالكتابة... لكنني فوجئت بأنني لا أملك إلا سيكارة أخيرة... مشكلة حقيقية إذن. قررت أن أكتب ملاحظات عن النص في قصاصة ورق أرتب فيه الأحداث التي سأكتبها... ثم أدخن سيكارتي الأخيرة... وأنااااام.... لكنني لم أفعل ذلك... بقيت السيكارة غير مشتعلة بين أصابعي وأنا أنهي كتابة القصاصة التي وضعتها أمامي ثم

بدأت فوراً بتحويل الملاحظات الصغيرة المكتوبة على القصاصة إلى مشاهد يفضي أحدها إلى الآخر... البطل هووو يقضم التفاحة.. البطل يصطاد طائراً... هووو يكتشف الزراعة... هووو يتعلم معنى الملكية ونزاع الحدود... كتبت بحماسة وسرعة شديدتين وأنا أختلس النظر إلى السيكارة بين حين وآخر آملاً أن أنتهي بسرعة من كتابة النص كي أستحق أن أدخنها... وقد كان الأمر كذلك... لم أتوقف إلا عند النهاية... كان خطي رديئاً مشوشاً بسبب انقطاع الكهرباء «كما هي مقطوعة الآن» ولأنني كنت أرتجف برداً «رغم أني أكاد أذوب من شدة الحر الآن».. انتهت المسرحية فأشعلت السيكارة وهرعت إلى دفء الفراش... أدخن وأنا أشعر بسعادة غامرة لأنني أحسست أنني أنجزت شيئاً مميزاً... أنا لا أحكم في العادة على نصوصي إلا بعد أيام ثلاثة أو أربعة.. أتركها بعيداً عني حتى تهدأ روحي وأنفصل تماماً عن حالتي النفسية التي دفعتني للكتابة... أحاول قراءة النص ببرود. أما هذا النص بالتحديد فقد أحسست بالانتصار فور أن انتهيت منه... علمت أنه لم يكن كاملاً وأن هناك إضافات وتعديلات ضرورية «وقد أجريتها لاحقاً»... المفارقة الكبرى في هذا النص «الصامت» هي أنه نص صاخب جداً... مملوء بكل أنواع الأصوات.. كل أنواع الأصوات ماعدا الكلمات... وحتى كلمة «هووو» فهي ليست كلمة... بل مجرد صوت يطلقه البطل للتعبير عن الحالات المختلفة التي ستمر به «حزن فرح تعجب سعادة خوف.... إلخ» إنه الصوت البشري الخام وليس اللغة. فبالإضافة إلى استخدامي أصوات الحيوانات استخدمت أصوات آلات الحفر ومكائن الطباعة وصوت السيارات والطائرات والمدافع

و.. و.. و.... إنه نص مبني على مفارقة... صامت صاخب صامت يحكي قصة طويلة... قصة يمتد زمان الحدث فيها مذ قضم آدم التفاحة وحتى وصول الاحتلال الأمريكي إلى العراق... قصة ساخرة... حزينة. صامتة. صاخبة معاً... كوميديا سوداء ككثير من كتاباتي.

الساعة الآن تقترب من الرابعة صباحاً وأنا بدأت أحس بالتعب لأنني أكتب على ضوء مصباح محمول صغير... بدأ نوره يخفت وبالكاد أستطيع تمييز الكلمات... أتمنى أن أكمل غداً.

الأربعاء ١٣ / آب / ٢٠١٤

الساعة الثانية صباحاً

اليوم مات (روبن وليامز)... مات بطل فيلمي المفضل «أرق»... ربما انتحر... إذا كان وليم وأمثاله ينتحرون فما الذي عليّ أن أفعله بنفسي... لماذا لم أفكر بالانتحار رغم مشوار المعاناة الطويل الذي قطعته؟ مرة واحدة خلال حياتي الطويلة كلها فكرت جدياً بالانتحار... كان ذلك في الكلية العسكرية ولأسباب «ميتا فيزيقية» بحتة... إذ كان كياني كله يرفض الاشتراك في الحرب العراقية الإيرانية... ولا شك أن قسوة التدريب قد سهلت عليّ اتخاذ القرار الذي لم أتمكن من تنفيذه بشكل صحيح كما هو واضح... بعدها... كان لديّ دائماً حمل ثقيل على كتفي أخشى أن يسقط... كنت أسير في دروب الحياة وأنا أراقب خطواتي بحذر خشية أن أتعثر وأسقط فيسقط معي هذا الحمل... عائلتي الكبيرة... زوجتي أولادي أصدقائي وأهلي وبلدي... ورسالتي «المهمة» على هذه الأرض...

لاشك أنني أحمل رسالة مهمة وعليّ أن أوصلها... أما ماهية هذه الرسالة... ومن هو المرسل إليه فهذا هو اللغز الذي لم أتمكن من حله لحد الآن.... «على هذه الأرض ما يستحق الحياة» يقول محمود درويش... وأنا أبحث عنه على هذه الأرض منذ عقود... أما روبن ويليامز فيبدو أنه لم يجد هذا الشيء... وربما وجده وخاب أمله فيه بعد أن اكتشف أنه شيء «لا يستحق أن يحيا هو» من أجله... للمرة الـ... شاهدت اليوم فيلم «أرق» الذي عرض بمناسبة وفاته... كنت قد شاهدت هذا الفيلم لأول مرة في «المجمع الثقافي» في أبوظبي عام ٢٠٠٣ كما أذكر وأبهرني... أحب ال باتشينو لكنني لم أستمتع بأدائه كما استمتعت في هذا الفلم بالذات... ربما لأنه يتحدث عن «الأرق» رفيق حياتي الدائم... وليم أيضاً أدى بطريقة مختلفة في هذا الفيلم المبني بناء دقيقاً والمبهر بلا إبهار...

قررت اليوم أن أبدأ بقراءة الجزء الأول من هذا الكتاب... أظن أن أعصابي ستحتمل قراءة أي شيء الآن... كنت أتهرب دائماً من قراءته كي لا تهيج عليّ ذكريات أحاول أن أتناساها... أما في وضعي الحالي الآن فلا أظن أن شيئاً ما سيؤثر فيّ... فإذا كنت أحاول أن اتناسى دائماً سنوات الحصار الاقتصادي فنحن محاصرون اقتصادياً الآن... لا جديد إذن «أنا الغريق فما خوفي من البلل».

لا جديد في المدينة... ولا جديد في العراق... برقيات التهنئة انهالت على (حيدر العبادي) من كل مكان والمالكي يرفض... حتى جاءت برقية تهنئة من طهران فبدأ المالكي يهمد... كأنها الضربة القاضية... هل سيستسلم؟ هل سيترك القصر الجمهوري بهذه السهولة كما أحلم ويحلم معي كل العراقيين؟ هل سينفذ بجلده من

كل التهم الموجهة إليه نتيجة صفقة تمنحه حصانة دائمة كما تسرب وكالات الأنباء؟ كم سيبقى معه من فريقه غداً أو بعد غد؟ بدأ رفاقه يتسربون من حوله ويقفزون من السفينة الغارقة محاولين التشبث بسفينة الحكومة الجديدة.. هل ستشكل الحكومة الجديدة بسرعة؟ وإذا ما تشكلت فهل تتمكن من استعادة المدينة وفك الحصار عنا قبل أن تنفذ آخر علبة سكائر لديّ؟ أنا أحلم بذلك بشدة فلم يتبق لديّ إلا سبع علب فقط...

الخميس ٢٠١٤/٨/١٤

الساعة الواحدة فجراً...

انطلقت مظاهرات في حي الكرادة ببغداد وحطمت نقاط التفتيش بعد انفجار سيارة مفخخة تجاوزت تلك السيطرات المزودة بأجهزة كشف متفجرات لا تعمل تم تجهيز الجيش بها بصفقة فاسدة واستمر تجهيزها رغم أن من قام بتصنيع الأجهزة قد سجن في بريطانيا عشر سنوات بسبب الغش الصناعي إلا أن وكيل وزير الداخلية الأقدم عدنان الأسدي يقول إن الأجهزة صالحة للعمل... وظهر مرة على شاشة التلفاز وهو يمر أمام جندي يحمل الجهاز ليرينا أن الجهاز قد أشر باتجاه المسدس الموجود في خصره... وفوراً قال العراقيون إن (عدنان الأسدي) يضع عطراً لأن الجهاز يكشف العطور بأنواعها فوراً، ولا أظنه يكشف شيئاً آخر... عوقب ضابط ما بالسجن لثلاث سنوات لشرائه عشرات الآلاف من هذه الأجهزة بثمن قدره خمسون ألف دولار للجهاز الواحد في حين لا تزيد قيمة تصنيع الجهاز أو أمثاله في السوق عن ستين دولاراً فقط، هذا مثال واحد من مئات

الأمثلة على كيفية حدوث الأمور في عهد المالكي «حسين العصر» و»مختار العصر» كما كتب أنصاره على اللافتات التي حملوها في المظاهرة التي خرجت لتأييده اليوم «تحرسها قوات النخبة» وكالعادة فقد ظهرت صورة المالكي. بجانب صورة المسجد الأقصى... أي أنه مفتاحنا لتحرير القدس أيضاً... لماذا لا يحرر الموصل أولاً؟! بعد ذلك بساعات تسربت أنباء عن عرض المالكي تنازله عن ترشيح نفسه مقابل أن يتخلى العبادي أيضاً عن ترشيحه... وقبل ساعة واحدة أعلن حزب الدعوة «وأمينه العام السيد نوري المالكي شخصياً» بياناً رشح فيه العبادي ممثلاً عنه لرئاسة الوزراء، وذلك بعد سؤال وجهه الحزب إلى المرجعية الدينية وكان جواب المرجعية يوحي بتغير الوجوه القديمة... ثلاثة مواقف مختلفة في يوم واحد... أيقن المالكي أخيراً باستحالة بقائه في القصر الرئاسي فقدم «وبسرعة» تنازلاً يلي الآخر لعله يستطيع أن يحافظ على مكانة تجنبه المقاضاة على كل جرائمه التي ارتكبها... إذا ما حصل على حصانة فستكون بداية سيئة للحكومة الجديدة... وسيستمر البلد نزولاً...

اليوم نفسه... الساعة الرابعة صباحاً... بدأت بقراءة الجزء القديم من الكتاب... كسرت الحاجز أخيراً.. قرأت ربع النص تقريباً... هناك اضطراب في مكان ما... جزء لا أعرف متى كتبته تماماً لأنه غير مؤرخ... قد أنظر غداً في أوراقي القديمة فربما اهتديت لحل هذه المسألة.

الأحد ٢٠١٤/٨/١٧

١- أخيراً أنهيت قراءة الجزء الأول من الكتاب... حاولت أن

أكون محايداً وأنا أقرؤه، لكنني لم أتمكن من إصدار حكم ما على مستواه... هذا النص حصراً لا يمكنني تقييمه بموضوعية إطلاقاً... فهو مغرق في الذاتية... كأنه أنا... ولكنه أنا «بالتدريج»... نقحت بعض الأشياء، علامات الترقيم على وجه الخصوص... حذفت عدة كلمات وصفات نابية... وبضعة سطور من تحليلات سياسية لا محل لها من الإعراب. وكفى... لا أريد العبث بالنص... التعديلات التي أدخلتها بمجملها قد تقل عن الواحد في الألف مما كتبت. لكن السؤال الكبير الذي استوقفني هو: ما الدروس المستفادة من كل هذا السرد؟ ما الذي أريد أن أقوله للقارئ؟ هل أردت القول:

– ابتعد عن المشاركة في حرب خاسرة.. وإذا ما اضطررت للمشاركة فاهرب وحاول جاهداً ألا تكون قتيلاً أو أسير حرب.

– أم أنني أردت أن أقول «لا تقضِ حياتك في دولة يحكمها دكتاتور» ولا سيما إذا كانت دولة غنِية يمر خلالها نهران كبيران وأول حرف في اسمها هو «العراق».

– أو «لا تقضِ حياتك تحت حكم ديمقراطي مزيف»، إذ سينبت حولك فوراً ألفَ دكتاتور.

– وربما أردت القول لا تتعب نفسك في كتابة قصص قصيرة فليس الوقت ولا المكان مناسبين لنشرها فإذا نشرتها في مجلة فسوف يلفها النسيان سريعاً... وإذا فشلت في نشرها فسوف تموت كمداً.

– لا تساهم في مجلة أطفال اسمها (بيبونة)... فسيتم غلقها بعد «إصدار العدد الثالث».

– وربما أردت أن أقول.. لا تعمل في التدريس ولا تؤسس مدرسة «أوائل» فستضيّع جهود عشر سنوات مضنية.. ويتبدد حلمك فجأة

في الهواء... ولن تنسى ألم هذه الطعنة التي ستخلف ندبة كبيرة في روحك وستؤلمك طوال ما تبقى لك من حياة.

«هل أردت قول أيّ من هذه العبارات؟ أم أنني أردت القول» انس كل الأناشيد... ودروس التاريخ والجغرافيا ولا داعي لأن تحب وطنك مادام ذلك الوطن غير قادر على تلبية «أبسط حاجاتك». ربما استنتج القارئ بمفرده الخلاصة الأهم في هذا النص وهي أن «الكتابة لا تفيد» بدلاً من العبارة السينمائية الشهيرة «الجريمة لا تفيد». وهكذا يكون القارئ الذكي قد وصل بمفرده إلى الـــ (ثيمة) الأهم في هذا النص... وهذا سيضعني في إشكالية جديدة تضاف إلى كل الإشكاليات التي مررت وأمرّ بها... فإذا كانت الكتابة لا تفيد، فلماذا يبذل الإنسان جهده ليقرأ كتابي؟ إذا اقتنع القارئ بهذه الحكمة المستنبطة من كتابي فسيكون عليه أن يغلق الكتاب ويتركه إلى الأبد. ومن يعرف أو يهتم بعدها بما سيحدث في الصفحات التالية... لكن ما تبقى من حكاية نصوصي قليل...

سأترك كل هذه التوقعات الآن وليستخلص كل قارئ الثيمة التي تناسبه من النص. فحق التأويل مكفول للجميع. وسأتحدث قليلاً عن الجزء الأول من الكتاب...

أكثر ما هالني وآلمني فيه تكرار المواقف والظروف التي مررت وأمرّ بها... وخوفي القديم من السير في دائرة – وهي محنة قد وقعت بها فعلاً أكثر من مرة أثناء خدمتي في الصحراء وفي الأهوار – لكن الدائرة هذه المرة قطرها خمسة وعشرون عاماً... ومركزها ثقب أسود يسحبني «وأنا أدور حول محيطها» يسحبني إلى الأسفل دون أمل بالخلاص... عبارات ومواقف تكررت حرفياً... وأتذكر هنا

السؤال الخالد لـــــ (ليدل هارت) «ماذا لا نتعلم من التاريخ؟».

انتبهت وأنا أقرأ الجزء الأول من كتابي إلى حقيقة غريبة... فأنا لم أذكر شيئاً عن مسرحية اشتباك وهي أول مسرحية قمت بكتابتها... وهي في الحقيقة لم تكن مسرحية... بل كانت نصاً مركباً من قصة قصيرة كتبتها وأنا في بدرة عام ١٩٩٠ أمام حقل شاسع للألغام كان الطرفان يعبرانه أثناء الصولات في الحرب العراقية الإيرانية... كانت قصة قصيرة تعتمد أسلوب الحوار احترت في تسميتها ثم سميتها لاحقاً اسماً محايداً غريباً «هو والآخر» وتتحدث عن جنديين يلتقيان في البرزخ ويدور بينهما حوار ساخر مرّ... وبعد أربع سنوات وكنت قد تسرحت من الجيش وبدأت أعمل في التجارة... التقيت شاباً مهتماً بالمسرح هو (عزام المولى) قرأ لي وتحدث معي طويلاً عن المسرح مما أثارني وأحببت أن أكتب نصاً بمعالجة مسرحية: وكالعادة كان بطل النص مثقفاً يحاول أن يتكلم لكنه يخشى ذلك... ويحاول طوال النص أن يقنع المتلقي بأنه مجرد (راوي). وأنه ليس بطلاً لأن «البطولة شيء مؤلم شيء خطر... وأنا لست بطلاً فأنا الراوي... الراوي فحسب». هكذا يقول الـ «بطل اللا بطولي» والذي سيروي قصة «هو والآخر» محاولاً ألا يتحمل عاقبة الكلام عن عبثية الحروب. ملقياً المسؤولية على كاهل شخصين معاً سبق لهما أن ماتا وارتاحا... سأنسى هذه المسرحية بين أوراقي كما نسيت الكثير من كتاباتي الأخرى... والتي لا أملك أي نسخ من بعضها الآن «وقسم منها قد كتب عنه في الجزء الأول من الكتاب كقصة الساحر أو الحقائب أو المدفع العملاق» لكنني سأعثر لاحقاً على اشتباك وسيقرؤها الأساتذة في معهد الفنون الجميلة وكلية الفنون، وأظن أنها قد عرضت في

المعهد كمشروع تخرج لأحد الطلاب قبل سنوات.

أفرحني جداً بعد عودتي إلى العراق اهتمام طلاب كلية الفنون بنصوصي، حيث قدموا معظم أعمالي وأعيد عرض بعضها أكثر من مرة... وكانت البداية مع مسرحية «نديم شهريار» التي أخرجها الدكتور (محمد إسماعيل) عام ٢٠٠٥ وسط ظروف أمنية بائسة... كان عرضاً جميلاً يتيماً لم يتح له أن يتكرر ولم يشاهده إلاّ أقل من مئتي شخص... تلا ذلك عرض «آمادو» أخرجه الأستاذ منقذ البجدلي عام ٢٠٠٦ ثم جوف الحوت وجوف الحوت وجوف الحوت مراراً وتكراراً... قدمها كثيرون في الموصل... وموصليون في الغرب وقدمها ممثل سوري وآخر مصري دون علمي أو استئذاني... ولا يزعجني الأمر كثيراً... وكنت قد كتبت جوف الحوت وانهيته في تموز عام ٢٠٠٨ أثناء إعداد أطروحتي للماجستير... لم أكتبها بجلسة واحدة... ولم تستغرق مني الكثير من الوقت... هو نص قصير التقطت فكرته من سطر في كتاب الإنسان ورموزه لـ «يونغ». أذكر أنني هرعت فوراً – بعد أن قدحت الفكرة في ذهني – ورسمت في دفتر ملاحظاتي تخطيطاً لسمكة يقرفص داخلها ما يشبه الإنسان... ولم أبدأ بكتابة النص إلاّ بعد أن قرأت عن يونس / يونان... ثم نسيت ما قرأته كله وخطر لي خاطر... أن يكون النص جامعاً لنصوص كبيرة يبدأ منها ويؤاخيها ثم يتخذ مساره المستقل موظفاً مقاطع عديدة من أفكار أو سطور هذه النصوص كلبنات أساسية تشكل هيكل النص... وهكذا كان... إذ ضمنت هذه المسرحية نصوصاً كاملة من مصادر مختلفة (ملحمة كلكامش العهد القديم / الداو / القرآن الكريم / الأحاديث النبوية / هاملت / كبلنغ / نيتشه) أذبت سطور هذه

النصوص في بوتقة واحدة لأكتب نصاً مغايراً.. مونودراما أحاول فيها تجاوز كل مشاكل نصوص المونودراما الشائعة. وكنت أثناء كتابتي للأطروحة قد قرأت الكثير الكثير من نصوص المونودراما... وبدأت أحللها محاولاً الوصول إلى نقاط الضعف والقوة في هذه النصوص... وكان الكثير منها لا يتمتع بمستوى مقنع... فإذا كانت الكتابة للمسرح هي أصعب أنواع الكتابة... فإن كتابة المونودراما هي أصعب أنواع الكتابة المسرحية على الإطلاق... وحتى أطروحتي التي كان عنوانها «الصراع والشخصية في المونودراما» كانت أطروحة صعبة بسبب عدم وجود مصادر عربية تتحدث عن هذا الموضوع باستثناء أطروحة الدكتور (حسين علي هارف) التي كتبت في التسعينيات من القرن الماضي وفصول قصيرة ضمن كتب أو مقالات منشورة في الدوريات... وقد ظهر بعدها الكثير من النصوص ونال هذا الفن اهتماماً مبالغاً فيه لدى المسرحيين العرب... كانت جوف الحوت مسرحية فردية... لكنني جعلتها مسرحية فردية صاخبة وملأى بالشخصيات والأصوات... البطل... الحوت... البحر... هي... هو... وأهالي نينوى... ويطرح البطل على نفسه سؤالاً غريباً في بداية النص:

(من أوكل لي مهمة إصلاح العالم؟ ولماذا أنا؟ لماذا أنا بالذات؟).

ليستمر النص في عرض مأساة مدينة تمر بظروف الحرب والجوع والاحتلال ثم الهجرة والهرب بعيداً «سأشارك في هذه المسرحية بمهرجان الفجيرة للمونودراما وستفوز بالمرتبة الثالثة عام ٢٠١٠» ثم وبعد حرق مبنى محافظة نينوى عام ٢٠١٠ بيوم أو اثنين قمت بتسجيل هذه المسرحية بصوتي بعد أن وضع صديقاي الفنانان (نبيل

الأطرقجي ومحمد محمود) موسيقى مصاحبة وعزف محمد مقطوعات العود والكمان ونبيل على الأورغن... وقاما ومعهما بعض الأصدقاء بأداء صوت الكورال الذي صاحب الموسيقى في بعض المقاطع... وهكذا سجلت مسرحية جوف الحوت كعمل مسرحي يصلح للإذاعة مع موسيقى أعدت خصيصاً للنص... قمت فوراً بتزويد كل المحطات الإذاعة المحلية بالإضافة إلى قناة «سما الموصل» بنسخة من العمل وظننت أن جهة ما ستقوم ببثه فوراً، لكنني لا أظن أنه قد أذيع في أي محطة أو قناة، إذ كنت ألاحظ فوراً استغراب العاملين في الإذاعات من كلمة مونودراما... وعدم معرفة معظمهم بوجود شيء اسمه «مسرحية إذاعية» وربما كان ما شجعني على تسجيل المسرحية هو أنه قد سبق لي تسجيل مسرحية «بداية جديدة» باللغة الإنكليزية وبصوتي بناءً على طلب المخرجة (آن سيمون) وكان هذا التسجيل يرافق أداء (ستيف كارير) في كل العروض التي قدمها... لذا فأنا أتذكر الآن أنني فوجئت حينما التقيت بالفرقة لأول مرة في لكسمبورغ بأنهم جميعاً قالوا لي فور أن سلمت عليهم «نحن نعرف صوتك» كانوا يلتقون بي لأول مرة – باستثناء ستيف – لكن صوتي كان قد رافقهم في جولاتهم العديدة... وبقي تسجيل جوف الحوت حبيساً رغم أنني قد حاولت تنزيله على النت... توقف الرابط بعد أيام لسبب تقني على ما يبدو ولم أكرر المحاولة... وربما سأتصل غداً بصديقي (سيف شاهين) في عمان وأطلب منه أن يقوم بتنزيل العمل ثانية بعد أن يضيف إليه صوراً تناسب النص... وأرجو أن يفعل ذلك فالنص يتحدث عنا «الآن وهنا» أكثر من أي نص آخر من نصوصي أو نصوص غيري على حدّ علمي... فكأنه كتب بعد الأحداث التي

مررنا ونمرّ بها منذ ١٠ / ٦/٢٠١٤ ولحد اليوم...

بقي لديّ ثلاث علب سكائر... ستون سيكارة واثنا عشر يوماً لأكمل الكتاب قبل أن تحل ذكرى ميلادي الخمسين... هل سأستطيع أن أنجز الأمر وأفي بالعهد الذي قطعته على نفسي؟

أتمنى ذلك...

الاثنين ١٨ / ٨ / ٢٠١٤

الساعة السابعة مساء...

١-كنت أشعر بضيق شديد اليوم... بقيت لديّ ثلاثون سيكارة فقط... أأستعين بتدخين تبغ البايب؟ يبدو أن التبغ قديم فقد عثرت عليه في الثلاجة ولا أدري بالضبط متى كنت قد اشتريته... كنت متضايقاً منذ الصباح... لكن هاتفي رنّ... وكان يحمل خبراً سعيداً... أحد الأصدقاء قد تمكن من شراء عشر علب سكائر لي من مكان سري... وسيجلبها هو شخصياً بعد قليل... مازال هناك فسحة أمل لخبر سار... أنا سعيد الآن..

٢-الأخبار تقول إن القوات العراقية والبيشمركة بمساعدة الطيران الأمريكي قامت بتحرير سد الموصل من قبضة الدواعش أمس... لاتزال الأخبار متضاربة بعض الشيء... لكنني التقيت أمس بصديق أكد أنه شاهد عشرات من سيارات الدواعش محترقة على الطريق بين الموصل والسد. كان احتلال السد أمراً خطراً لم أشأ الكتابة عنه أو حتى التفكير فيه... فهو يحتجز خلفه مليارات الأمتار المكعبة من الماء... سعته أحد عشر مليار متر مكعب... وما كان فيه الآن من المياه

المخزونة يتراوح بين سبعة إلى ثمانية مليارات متر مكعب... وكان هناك حديث عن نسفه «وهذا يعني إغراق الموصل بعد ساعة بموجة قد يصل ارتفاعها إلى تسعة وعشرين متراً... موجة كهذه تنهي كل المواضيع العالقة بسرعة وبشكل حاسم... وقد يكون مريحاً أيضاً... عموماً... يبدو أن هذا الخطر قد زال الآن... لم نعد نخشى تفجير السد... لكننا ما زلنا نخشى أن ينهار لأنه بحاجة إلى صيانة يومية كونه قد بني فوق طبقة كلسية تتآكل يومياً بفعل ثقل البحيرة التي خلفه... وقد كان يحقن يومياً بأسمنت سائل لتفادي انهياره وبمعدل خمسين ألف طن سنوياً... هل تتم المعالجة الآن؟ أشك في ذلك... وأتمنى أن يلتفت المسؤولون ثانية إلى هذا الموضوع...

الساعة العاشرة مساء...».

الدواعش يحتلون مباني مدارس الأوائل... خبر صادم... لكنني كنت أتوقعه... ترك الحراس المباني... غادروها بعد وصول عدد من الدواعش لتفحص المكان «وهو فعلاً مكان استراتيجي»، إذ يقع فوق تلة تشرف على طريق رئيس يؤدي إلى شمال غرب المدينة... وهكذا... قد يتبدد آخر ما تبقى لي من حلم كان اسمه «الأوائل».

الأربعاء ٢٠ / ٨ / ٢٠١٤

الساعة الثانية صباحاً...

١ – ترك الدواعش المباني بعد ساعات من احتلالها.. وعاد الحراس إلى أماكنهم... أرجو ألا يتكرر هذا الحادث.

٢ – منذ عشر ساعات وأنا أحاول أن أقاوم الجو دون جدوى...

أحاول أن أفكر وأن أكتب لكن درجة الحرارة تجاوزت ٤٦° في الظل والهواء ساكن سكوناً قاتلاً... أجهزة التكييف لا تعمل بسبب انقطاع الكهرباء... والصيف يمسك بخناقنا ويرفض أن ينصرف... في أماكن أخرى ينتظر الناس الصيف بلهفة للاستمتاع بالـ «جو»... أما نحن... فالصيف حكم دائم بالعذاب بسبب غياب أبسط مقومات الحياة الحديثة... رغم أننا نعيش في دولة تبدد كل سنة عشرات المليارات على الخدمات... وسنة بعد أخرى تتضخم أرصدة السياسيين اللصوص... وتستمر معاناتنا دون أن يتبدل شيء على الأرض...

٣– قبل أسبوع تقريباً استسلم المالكي بعد أن رفضه الشارع والمرجعية والسياسيين ودول الجوار وأمريكا ثم إيران... وأخيراً بعض أفراد حزبه... سلّم الراية رغماً عنه لزميله في الحزب (حيدر العبادي) الذي يوشك الآن على تشكيل وزارة جديدة... ورغم أن العبادي من حزب المالكي فإن الأمل خفق في كل مكان... لدى كل من قابلته أو اتصلت به هاتفياً... فالرجل يتلقى ترحيباً محلياً ودولياً منقطع النظير... أتمنى من أعماقي أن يكون قادراً على إحداث تغيير إيجابي في واقعنا البائس... مع أني أشك بقدرة أي فرد على إحداث فرق جوهري مادامت العملية السياسية في العراق سائرة على هذا النمط الفاشل... ومادام الفاسدون يسرقون ويسرقون ويقتلون ويقتلون... دون أن يجدوا من يرفع صوتاً ضدهم... ستبقى العملية السياسية فاشلة مادامت المحكمة الاتحادية لا تحكم إلا لصالح رئيس الوزراء... ومادام البرلمان بأعضائه الثلاثمئة عاجز عن استدعاء أي مسؤول ومحاسبته عن أي كارثة ارتكبها... ستبقى

العملية السياسية فاشلة لأن السياسيين والبرلمانيين لم يضعوا لحد الآن قانوناً للأحزاب رغم مرور عشر سنوات على التغيير ولم يشرعوا قانوناً واضحاً للانتخابات... ولا للمحكمة الدستورية... خطاب المالكي الأخير استغرق اثنتا عشرة دقيقة قضى حوالي عشر دقائق منها يذكر فيها إنجازاته... والدقيقتين الأخيرتين يوضح فيهما للـ «شعب» أنه تنازل عن «حقه» في الحكم لمصلحة العراق رغم «الجور» الذي وقع عليه... ولو كان لدينا دولة حقيقية وقضاء مستقل فاعل لحكم على المالكي مراراً وتكراراً ليس بسبب فساده أو تبديده لثروة هائلة سرقها من قوت شعب يعاني الأمرّين... بل لولوغه في القتل، والقتل، والقتل... ومازالت طائراته لحد اليوم تقصف الفلوجة المحاصرة منذ سبعة شهور ببراميل مفخخة تصيب أهدافاً عشوائية... وتقتل كل يوم مزيداً من العوائل والأطفال.

٤–بقي لي تسعة أيام من المهلة... وسأستغل هذه الليلة للحديث عن رواية «أنيس في بلاد العجائب»...

قبل سفرتي الأخيرة إلى عمان بأسابيع التقيت صدفة بالشاعر الموصلي (عبد المنعم الأمير) وكنت أظنه لا يعرفني أو لم يقرأ لي شيئاً فحدثته عن بعض كتاباتي فضحك قائلاً (لقد قرأت لك نصاً مجنوناً... كيف تجرؤ على كتابة رواية تدور كل أحداثها في ثانية... بل في جزء من الثانية!!) لم أفهم كلامه... أخبرني أنه قد استعار رواية أنيس من صديقنا المشترك (حميد عبد الوهاب) وأنه قد أعجب بجرأتي الكبيرة في الكتابة بزمن مضغوط إلى هذه الدرجة... هززت رأسي بحكمة ووقار مصطنعين وذهني يراجع بسرعة شديدة الزمن في رواية «أنيس في بلاد العجائب» لأكتشف صحة ما قاله لي عبد المنعم...

ولم أكن قد انتبهت لذلك حتى نبهني... كل شيء يحدث بسرعة في هذه الرواية... ليس زمن القصة فحسب... بل زمن الكتابة نفسها، ومع ذلك فلم أكن منتبهاً إطلاقاً لما نبهني إليه الصديق... ففي عام ٢٠٠٧ تم قبولي لدراسة الماجستير في الأدب.. تأجلت دراستي عاماً واستأنفتها عام ٢٠٠٨. وكنت أهرول بين الجامعة ومدرسة الأوائل أذهب مبكراً إلى المدرسة وبعد الاطمئنان إلى سير الأمور أهرع راكضاً على قدمي إلى الجامعة في حالات غلق الطرق... أو بسيارتي إذا كان المرور ممكناً... لا أذكر أنني قد دخلت محاضرة في موعدها... ولا أذكر أنني أكملت المحاضرة الأخيرة، إذ كنت أستأذن الأساتذة وأعود راكضاً لأكمل ما تبقى من الدوام في المدرسة... ورغم هذا الضغط الشديد فقد كان ذهني يعمل بطريقة مستقلة عن إرادتي كانت هناك رواية جديدة صاخبة تملؤه... وتطرق جدران رأسي راغبة في الخروج... أجّلت الموضوع لشهور وشهور.. كان كل ما يحدث حولي من احتلال وقتل ونفاق وتدليس وكل أنواع المهازل المبتذلة الأخرى... كان عقلي يخزنه ويعيد تمثيله لا أدري بالضبط متى خطر لي أن أقرن روايتي برواية «لويس كارول» أليس في بلاد العجائب... مررت بمنزل استاذنا (طلال حسن) كاتب قصص الأطفال وعمّ المثقفين في المدينة... وأظنه يكن لي مودة خاصة، لذا لم يمانع في إعارتي كتاب «أليس في بلاد العجائب» عدت إلى البيت لأقرأه في ساعة أو أقل... وكنت قد قرأته مراراً في طفولتي ولم يعجبني... هذه المرة قرأته ليس على سبيل المتعة... بل حاولت تحليل الشخصيات والمواقف والرموز... كنت أنتظر ساعة الصفر للبدء بالكتابة. كان ما يحدث حولي يستحق الكتابة... لكنني لو حاولت

كتابة رواية واقعية على طريقة نجيب محفوظ في ثلاثيته فقد أكتب كتابة (تساعية أو عشارية بدلاً من الثلاثية) ولن يتاح لي تغطية جزء مما أريد قوله... لذا لجأت إلى الفنتازيا.. ولتكن الرواية تناصاً مع قصة شهيرة... وليكن الموضوع صادماً مؤلماً على طريقة الجورنيكا... فالتعبير عن الألم «وقتها» أهم بكثير من قول شيء جميل... هل يمكننا رسم لوحة واقعية رائعة لجثة متفسخة تنهشها الديدان؟! ولِمَ لا أستخدم شكل رواية «أليس» كقشرة خارجية أقحم فيها موضوعي بالطريقة التي أريد... لقد فعلت ذلك في مسرحية «نديم شهريار» ونجحت محاولتي... بدأت أحاول استدراج لحظة البداية... لحظة الشروع بالكتابة... وكنت – تحت وطأة عملي ودراستي ومشاغلي العائلية – أؤجل ذلك يوماً بعد يوم... لكن اللحظة كانت تقترب... ويوماً ما فاجأنا المحافظ «دريد كشمولة» بحظر تجوال لثلاثة أيام –لا أذكر الآن سبب ذلك الحظر–عندها وعصر ذلك اليوم قررت أن أبدأ الكتابة في صباح اليوم الثاني... تمددت في فراشي سعيداً وأنا أهيئ نفسي للكتابة غداً... دفتر سميك وأقلام... وأقلام أخرى ملونة... بطاريات جديدة للمصباح الذي أرتديه فوق جبيني... علب دخان وسعادة خفية لأنني سأكتب... تقلبت في فراشي طويلاً وأنا أحاول أن أنام... لكن لحظة البداية حانت... حانت رغم قسوة البرد... رغم انطفاء الكهرباء... إذن... قفزت فجأة وارتديت المصباح والعباءة... أخرجت الدفتر «في ثانية... في جزء من الثانية.......» بدا النص وتدفقت الكلمات... كنت أكتب بسرعة كبيرة... أكتب وأنا أتكتك من البرد والسيكارة ترتجف بين شفتي... كأنني كنت أدوّن وقائع فيلم سريع الأحداث أشاهده وأنا أعرف تماماً أنه لن

يعرض مرة ثانية... كتبت وكتبت حتى انغلقت عيناي... كنت قد استيقظت يومها في السادسة صباحاً لأذهب إلى عملي وها هي ذي الساعة تقترب من الرابعة... عدت إلى الفراش لأستيقظ في العاشرة صباحاً ربما... كان يوماً مشمساً لكنه كان قارس البرودة... لا أدري تماماً لماذا تركت غرفتي يومها وذهبت إلى غرفة الأولاد... طلبت من زوجتي بحزم ألا يقاطعني أحد... ويبدو أنها أدركت تماماً حجم معاناتي فقد حرصت «وليومين آخرين» على أن توفر لي الخلوة التي أردتها... مع استمرارها في ضخ الشاي والوجبات الخفيفة لي... حافظت على سرعتي في الكتابة حتى ساعة متأخرة من الليل... استيقظت متأخراً صباح اليوم الثاني وهرعت إلى العمل... تكرر نفس السيناريو... تناولت كل وجباتي في غرفة (ميس وعبيدة)... أكتب بسرعة... ولا أتوقف إلا لتأمل مزارع «حاوي الكنيسة» والذي تطل غرفة الأولاد عليه من بعيد... منطقة حاوي الكنيسة هذا المكان الذي عشت قربه طوال بقائي في الموصل... منذ ولادتي وحتى أربعة أعوام خلت... وكلمة «حاوي» تعني الوادي المرافق لمجرى النهر وهي أرض غاية في الخصوبة ملأى ببساتين الفستق... وسيستمر هذا المكان أثيراً إلى نفسي حتى سنوات قليلة خلت... إذ أصبح مكاناً خطراً تنفذ فيه كل أنواع العمليات القذرة... ومن هذا المكان بالذات تسلل الدواعش ليقتحموا الموصل قبل شهرين... كنت إذن أكتب بسرعة شديدة... ثم أتوقف فجأة لألتقط أنفاسي... أو أستوضح تفاصيل مشهد جديد سأكتبه... لأعاود انطلاقي بنفس السرعة... وقبل انتصاف الليل حاولت أن أتوقف لأرتاح... فكرت أن أنام قليلاً وأن أكمل في اليوم الثاني لكن الشخوص والأحداث

كانت تشكل المشاهد المتعاقبة... وبدلاً من حبسها على قصاصات أقوم بتأملها ثم ترتيبها وتفصيلها لاحقاً، قمت بتدوينها فوراً في الدفتر لتأخذ وضعها ضمن سياق الرواية... طار البطل في الهواء ليسقط في مكان غريب يقف فيه مخلوقات أغرب بانتظار مرورها إلى مكان يحرسه وحش لا يسمح لأحد بالمرور إلا إذا أجاب عن أحجية تقول (ما هو الشيء الذي يمشي على اثنين ويزحف على أربعة... ثم يطير في الهواء بلا أجنحة؟) البطل لا يعرف حل اللغز لكن الأرنب الذي يظهر فجأة ويمسك يده يخبر الوحش أنه قد جاء بالحل يدخلان من النفق المحفور في جذع الشجرة ليجد البطل نفسه في «أرض العجائب» التي لا تنيرها الشمس... وليقضي البطل رحلته كلها وهو يتكتك برداً «تماماً كما كنت أفعل أنا طوال كتابتي للرواية».. البطل يبحث عن الشمس... وأنا كنت أفتقد وقود التدفئة وقتها بسبب أزمة وقود طاحنة مرت بها المدينة «كالأزمة التي نمر بها الآن» وفي الساعة الثالثة فجراً أكملت النص. ووضعت عليه توقيعاً كبيراً وأرخته في ٢٠٠٩/١/٨ وتركته وذهبت سعيداً إلى فراشي... سأترك النص يومين كاملين... لأعيد قراءته لاحقاً ولن أضيف إلا مشهدين فحسب... أظنهما من أجمل المشاهد التي كتبتها طوال حياتي... وقوف البطل أمام مجموعة مرايا يرى فيها ذاته بشكل مختلف كل مرة... ذئب... حكيم... عجوز... ساخر... لا أحد... المشهد الثاني هو مشهد بئر الذاكرة وبئر النسيان... والناس الباكون قرب هذين البئرين فمن يستعيد كل ذكرياته ينوء بالكم الهائل من الأحزان التي تحتويها... ومن يشرب من بئر النسيان يضيع ولا يدرك من هو فيبكي ذاته الضائعة. كانت الرموز متحركة خلال النص... تتعمق

معانيها، بل قد تتغير وتنقلب كلما توغلت بالكتابة... وهذا ما فاجأني أنا شخصياً وقتها، لكنني أحببت اللعبة فأكملتها ولم أتوقف حتى تسلل البطل إلى السيارة المفخخة الموضوعة داخل مدرسة أرض العجائب سار على اثنين... ثم زحف مقترباً على أربع... ثم طار فجأة في الهواء دون أجنحة بعد انفجار السيارة... كان هو ذاته حلاً للغز الذي كان يفكر بحله طوال الرواية... وستدور أحداث الرواية كلها بين لحظتين... لحظة الانفجار ولحظة إدراك البطل أنه قد مات. وأحب أن أورد هنا مشهداً من الرواية، مشهداً أتذكره مع كل انتخابات عراقية...

دوى في المكان صوت انزلاق البيادق الجليدية. ركضت بذعر مبتعداً وتراكضت الكائنات من حولي. اقتربت مني دبابة جليدية ضخمة أوشكت أن تسحقني لولا أنني ألقيت نفسي منبطحاً على أحد الأرصفة وزاحفاً بسرعة لأدخل من تحت عتبة باب ما لأجد نفسي وسط منزل فخم بأسقف عالية تتدلى منها ثريات هائلة. تلفت حولي لأجد الكراسي والمناضد والأبواب والشبابيك كلها ضخمة جداً. كنت كأنني حشرة ضئيلة في المكان. حاولت التسلل للخارج قبل أن يلاحظني أحد ما لكن الدخول كان سهلاً والخروج كان مستحيلاً. لا يمكنني التسلل من العتبة باتجاه الخارج. لا بد لي من فتح الباب، لكن كيف يمكنني الوصول إلى تلك القبضة الضخمة وكيف سأتمكن من تحريكها؟ تلفت حولي فوجدت قنينة زجاجية صغيرة فيها سائل وردي شفاف ملصق عليها ورقة كتب فيها «اشربني».

لم يكن لديّ ما أخسره. وقد يكون صديقي الأرنب هو من وضع هذه القنينة. فتحت غطاء القنينة ودلقت السائل في جوفي دفعة

واحدة فأحسست بشيء غريب... ابتعدت قدماي عني بسرعة حتى أوشكت ألا أميز لون حذائي. واقتربت مني الثريات الضخمة حتى أوشكت أن تصدم رأسي. كنت قد بدأت أنمو بسرعة كبيرة وكانت خلايا جسمي تئن لهذا التمدد المفاجئ. وقبل أن أمد يدي لفتح الباب والخروج من هذا القصر سمعت صوت أبواق نحاسية عالية وصوتاً فخماً متكلفاً يصيح «لقد حضر مولانا الملك».

كانت سلحفاة ضخمة بلا أسنان ترتدي ملابس أنيقة للغاية وقفازات بيض وتنتعل في قدميها أحذية تزلج وهي تنحني لي بعظمة ويرافقها صوت الأبواق النحاسية التي ترحب بقدومي...

خجلت من فكرة محاولتي للهرب. أنا الملك.. أنا الملك وهذا قصري والأبواق تنفخ للترحيب بقدومي. وهذه السلحفاة التي فقدت أسنانها تحني عنقها القصير لي.

تلفتّ حولي باحثاً عن العرش. لم يكن هناك عرش. كنت ملكاً بلا تاج ولا عرش. ولكنني مع هذا كنت ملكاً يقف على يميني وشمالي مئات الحرس وقد انتظموا في صفين مستقيمين. صحيح أنهم كانوا شرطة من ورق اللعب إلا أن وجودهم منحني إحساساً كبيراً بالعظمة. حاولت السير بشموخ إلا أن البرد كان قد تسلل إلى عظامي. اتجهت فجأة إلى نافذة كبيرة. أنا في القصر الملكي. لاشك أن الشمس ستطلع إذا فتحت النافذة. لم يعترضني أحد. فتحت النافذة لأجد السماء الحمراء تطل منها نفس العيون المشفقة ونفس الشفاه التي تهمس لي «هسسسس» أغلقت النافذة بخيبة أمل. كان الهواء في القصر بارداً كأنه قادم من منابع الزمهرير. وكنت وحدي من يرتجف.. إذ وقفت أوراق اللعب من حولي ثابتة كأن الأمر لا يعنيها. ونفخت السحالي

في الأبواق وفتحت لي السلحفاة الكبيرة باب قاعة ضخمة تشع منها عشرات الأنوار الصناعية. لاشك أنها «قاعة العرش». سرت بعظمة حتى وصلت إلى منتصف القاعة. لم يكن فيها إلا منضدة كبيرة وضع فوقها صندوق كبير مخروم من الأعلى.

– إدل بصوتك يا جلالة الملك. مارس حقك الانتخابي ودع العالم كله يطلع على عظمة أرضنا.

نفخت الأبواق ولمعت أضواء الكاميرات أمسكت بقلم ذهبي وسحبت ورقة لا أدري ما كتب عليها. خربشت عليها برسم ما ثم طويتها ومنحت عدسات الكاميرات فرصة التقاط الكثير من الصور لي وأنا ألقي بالورقة في الصندوق_الصندوق الذي لاحظت أنه مخروم من الأسفل أيضاً. ومرتبط بسلة قمامة_ ارتفع التصفيق والهتاف من كائنات لم أتبينها فقد كادت أضواء الكاميرات أن تعمي بصري.

– لقد أدليت بصوتك أيها الملك. اغمس إصبعك في السائل البنزرقي.

أفردت سبابتي أمام العدسات ثم غمستها في قارورة زجاجية صغيرة تشبه تماماً تلك القارورة التي شربتها عند دخولي القصر ولم يتغير فيها إلا لون السائل. غمست إصبعي – مبتسماً – في السائل البنزرقي فوجدت السقف يبتعد عني فجأة ووجدت قدميّ تقتربان من وجهي بسرعة شديدة. أردت أن أصرخ لكن صوتي كان قد تضاءل كجسمي ولم يعد بإمكان أحد أن يلحظني. بعد أن أصبحت أصغر من نملة سوداء وسط مكان هائل الحجم ممتلئ بالعمالقة. تلفت حولي فرأيت آلافاً من الأشخاص وهم مثلي يتلفتون حولهم ويتحسسون أجسامهم.

– لا تدهس على قدمي. أنا الملك. قال أحدهم

– لا... بل أنا الملك. كنت كذلك قبل دقائق. قال آخر

– لا، بل أنا الملك.. أنا الملك أنا الملك.. صرخ الكثيرون هنا وهناك.

– وقبل أن أوضح للجميع بأنني أنا من كان الملك في هذا القصر فاجأنا جميعاً صوت شحطة هائلة تسبقها عاصفة غبار خانقة. لم تكن الدبابات الجليدية هذه المرة

اهربوا.. انجوا بأرواحكم.. المكنسة تنقض عليكم.. صرخ أحد الملوك السابقين وهو يركض. تشرذمنا في كل مكان ونفضت المكنسة الهائلة معها من نفضت ولم يكن العملاق الذي يمسك بالمكنسة يأبه كثيراً لمن سحقهم تحت حذائه. اما أنا فقد حملتني عاصفة الغبار وألقتني بعيداً عن القصر مع آخرين. تحسست جسدي.. كانت معظم اجزائي لا تزال في محلها. ولم تكن ملابسي قد تمزقت تماماً. لم أعد ملكاً.. ولا حتى ملكاً سابقاً. أنا مجرد قمامة ألقي بها على قارعة الطريق.

«انتهى الاقتباس»

... قرأت وقرأت ونقحت... حاولت نشر الكتاب في مكان ما... لكن جميع الظروف كانت ضاغطة وكان حجم النص محيراً أيضاً. فهو رواية قصيرة ربما لا تزيد كلماتها على أحد عشر ألف كلمة.. لا تتجاوز الستين صفحة... وهي نفس مشكلة رواية «إذا اقترب الزمان» سيقرأ النص كثير من الأصدقاء لأنني طبعته طبعة محدودة ووزعته عليهم... وهي طبعة زينتها رسوم صديقي الأستاذ «إحسان إدريس» ثم سأنسى الموضوع تماماً وأعود إلى دوامة الواقع المرير بعد

أن قبضت الجائزة التي أستحقها «متعة الكتابة» ويوماً ما سترسل لي صديقة رسالة هاتفية تحتوي عبارات عميقة أثارتني.. قرأتها مراراً «ما أعمق هذه الكلمات» قلت لها فردت عليّ رداً صادماً: إنها كلمات منقولة من رواياتك «أرض العجائب أستاذي»...

الجمعة ٢٢ / ٨ / ٢٠١٤

الساعة العاشرة ليلاً...

تم اليوم إطلاق النار على مصلين في مسجد مصعب بن عمير في قرية الويسية في ديالى... الأرقام تشير إلى سبعين ضحية... بعضهم نساء هرعن إلى المسجد فور سماع الرصاص فلقين حتفهن... شهود العيان يقولون إن إحدى مجموعات الميليشيات كانت تمر في المكان وفجرت بها عبوة ناسفة أودت بحياة بعض أفرادها مما دفع آخرين للانتقام من المصلين في الجامع القريب... قناة العراقية الرسمية تشير إلى وجود مثيري فتنة يحاولون إثارة النعرة الطائفية... والقناة لا تربط الحادثة بعدد كبير مماثل من هذه الحوادث وقعت في ديالى بالتحديد، منها ما حدث في مسجد سارية قبل عام ومات على أثره ٤٠ رجلاً، وحوادث أخرى كان آخرها العثور على جثث مقطوعة الرؤوس معلقة على أعمدة الكهرباء. والشرطة في ديالى «ككل الشرطة في العراق» لم ولن تجد أي خيط يؤدي إلى الفاعل... شهود عيان يذكرون رجلاً اسمه الزركوشي يقود الميليشيات في المنطقة ويحملونه مسؤولية الحادث... ومن الزرقاوي إلى الزركوشي... والدماء مازالت تسيل والحكومة عمياء...

السبت ٢٣ / ٨ / ٢٠١٤

اجتمع البرلمان ليناقش قضية سبايكر... ألف وسبعمئة شاب ضاعوا أو قتلوا بعد أن تم صرفهم من قاعدة عسكرية يطوقها الدواعش... طلاب في دورة عسكرية ما... خرجوا من البوابة كما يبدو ليتلقفهم الدواعش لقمة سائغة ولتتم تصفيتهم بشكل سهل... شاهدت بضع ثوانٍ من الفيلم ولم أحتمل رؤيته... مضى أكثر من شهر على الحادثة وموقفُ الحكومة منها عجيب جداً... لا يوجد أي تعليق أو توضيح أو رد فعل على الأمر... ولولا ضغط أهالي الشباب الـــ «مفقودين» المتسائلين عن مصير أبنائهم وخروجهم في مظاهرات لما تحرك البرلمان وعقد جلسته اليوم ليناقش الموضوع... وكانت الجلسة «سرية» لأسباب «أمنية»... كم تضحكني هذه الجملة «الاعتبارات الأمنية» فالكل يعلم أن البلد مكشوف من أوله إلى آخره... وأن عورات قادته «عسكريين ومدنيين» مكشوفة للجميع... ولم يكلف السيد وزير الدفاع أو وزير الداخلية نفسه عناء الحضور... أعني السيد المالكي لأنه يدير الوزارتين... ولم يكلف وكلاءه الحضور... لا سعدون الدليمي وكيل وزارة الدفاع... ولا السيد عدنان الأسدي وكيل الداخلية الذي حضر إلى مبنى البرلمان «كما قالوا» ولم يدخل إلى القاعة... مازال المسؤولون فوق القانون... لديهم أعمال أهم من حياة ١٧٠٠ عراقي «إنهم يقودون معارك للدفاع عن الوطن» اكتفوا بإرسال بعض الضباط الآخرين الذين لن يجيبوا عن أي سؤال مهم، ويوماً بعد يوم سيهدأ الأهالي بعد أن يفقدوا الأمل في عودة أبنائهم... ويوماً بعد يوم سينسى الناس ما حدث في سبايكر وتلقى المسؤولية على عاتق «الإرهاب» وينتهي الموضوع كما انتهت مئات المآسي التي سبقته...

الثلاثاء ٢٦ / ٨ / ٢٠١٤

الساعة الواحدة ليلاً...

تجولت اليوم في شوارع الموصل... الغبار يغطي كل شيء... الوجوه كالحة. ومعظم المحال مغلقة... السيارات قليلة في الشوارع... المدينة نصف مهجورة... ومن بقي من سكانها آثر أن يكمن في منزله ولا يغادره إلاّ للضرورة القصوى. لا أحد يعرف ما سيحدث غداً أو بعد غد... يتسلح البعض بالبلاهة والبلادة لمواجهة هذا الموقف الغريب الذي نمر به جميعاً في المدينة... الدولة تركت المدينة وسحبت الجيش... الدواعش «رغم قلة عددهم وندرتهم في الشوارع» يفرضون سيطرة تفوق حجمهم وقوتهم بأضعاف مضاعفة، وذلك لعدم وجود من يتصدى لهم... السنوات العشر الماضية كانت قد دمرت ما في نفوس الناس... روح المواطنة والثقة بالنظام والقانون والنظر إلى الغد بتفاؤل... لم نعد نتوقع أن يكون الغد أفضل... ولم يعد هناك من لديه أي استعداد لتقديم أي تضحية يقطف ثمارها لاحقاً سياسي فاسد ويجيّرها لصالحه... أمس ذهبت إلى المدرسة... وهناك التقيت صديقي رجل الأعمال (دريد الصفو) وهو من أعمدة الأوائل، تحدثنا كثيراً عن خططنا للعام القادم في اجتماع صغير مع بعض أفراد الكادر العاملين في المدرسة... وحينما اختليت بدريد سألته: (ما الذي تفعله هذه الأيام؟) أجابني بمرارة: (أكذب على الناس كما رأيتني أفعل قبل قليل؟) لم أستغرب جوابه لأنني مثله قضيت الشهرين الأخيرين وأنا لا أفعل شيئاً إلا الكذب على الجميع محاولاً إقناعهم بأن الأمور سرعان ما ستنصلح وأن لكل شيء بداية ووسطاً ونهاية... وأنه لن يصح إلاّ الصحيح... وأن من

يحتل المدينة الآن ويفرض عليها نمطاً شاذاً من الحياة لن يستطيع البقاء والاستمرار... وأن.. وأن.. وأن... ويوماً بعد آخر يقل حماسي للكذب.. ويوماً بعد يوم يزداد يقيني بأن حلاً سهلاً لن يلوح في الأفق... حكومتنا الحالية لم تخصص اجتماعاً وزارياً واحداً ليناقش فيه سقوط ثاني مدينة في الدولة!!... العالم الخارجي يهتم بمشاكل النازحين، ومأساة المسيحيين، والأيزيديين، أكثر من اهتمامهم بسكان مدينة تنوء تحت حكم قوة مجهولة غريبة... قوة بدأت تفرض نمطاً مختلفاً من الحياة على مدينة متحضرة... لم أر في الشوارع إلا عدداً قليلاً من النساء... وكنّ جميعاً يرتدين الخمار... زوجتي وأمي – وهي سيدة متعلمة في الخامسة والسبعين – اضطرتا كلتاهما قبل أيام لارتدائه حينما غادرتا المنزل لقضاء حاجة ما. الدواعش يحاولون إعادة عقارب الساعة إلى الوراء... فإذا لم ينجحوا بذلك كسروا الساعة وعلينا نحن أن ندفع الثمن... شاهدت في أحد المحال داعشياً أشقر بعينين ملونتين لا يتقن كلمة عربية واحدة مع اثنين من دواعش الريف الموصلي... ميزت لهجتهم وهو يسير معهم متلفتاً حوله دون أن يفقه شيئاً من حوله ولا مما يقولان... أكثر ما آلمني هو تعاون بعض أهل المدينة مع الدواعش... هناك شريحة في مجتمعنا تتعاون مع أي سلطة بغض النظر عن أي اعتبار... تعاونوا مع المحتل... ومع الميليشيات الطائفية... ومع النظام السابق... وكانوا سيتعاونون بنفس الجدية مع جيش ستالين أو هتلر فيما لو احتلوا الموصل، لكنهم هذه المرة يبررون تعاونهم بآيات قرآنية وأحاديث نبوية... وهم يعلمون تماماً خسة الدور الذي يقومون به...

بقي لي ثلاثة أيام وأبلغ الخمسين... يفترض بي أن أكمل الكتاب

قبل نهاية الأيام الثلاثة... وسأفعل ذلك... سأفي بوعدي لاسيما بعد أن تم حل مشكلة السكائر... إذ استحال منعها... ارتفعت أسعارها فحسب بعد أن أصبحت تباع خلسة هنا وهناك. بإشراف الدواعش أو بمشاركتهم!!!

بقي أن أكتب عن مسرحيتين هما مسرحية (فكرة) ومسرحية (مملكة الصخور السوداء)... مسرحية فكرة هي مونودراما غريبة.. الشخصية الوحيدة فيها هي ليست رجلاً ولا امرأة... بل هي فكرة... فكرة سعيدة تحاول إيجاد منفذ لتتحول إلى واقع... لا أدري كيف ولا متى قدحت في ذهني هذه المسرحية لأول مرة... كتبتها ببرود بعد أن تعودت أحياناً على كبح جماح نفسي... فالنص غريب... ورغم أني لا أخشى التجريب إلاّ أنني اعتنيت عناية كبيرة بالنص، لكنني لم أنشره لحد الآن... ضمنته في كتابي «عشر مسرحيات» وقد حاولت نشر هذا الكتاب حينما كنت في عمان قبل عدة أشهر لكن عودتي المفاجئة إلى الموصل وكل الظروف الطارئة التي حصلت أجلت نشر الكتاب والمسرحية... أما مسرحية «مملكة الصخور السوداء» فهي حكاية قديمة عن المملكة التي لم يكتشف أهلها صناعة الأحذية ويسيرون حفاة في دروب تملؤها الصخور القاسية... حتى تحدث لحظة انقلاب... كتبت المسرحية متأثراً بأجواء (الربيع العربي) ذلك الربيع الذي ضرب كل الجمهوريات العربية.. الجمهوريات فحسب... ولا أدري لماذا!! وكنت أتمنى أن يقدم المسرحية طلاب مدرسة الأوائل... وأن أسجلها للتلفزيون... واتفقت مع صديقي المخرج (بيات مرعي) ليقوم بإخراج العمل... ومضى عام ٢٠١٣ وأنا والمدرسة نتعرض لابتزاز مستمر ولتهديد حقير أجبرنا على إلغاء

الحفل السنوي... وجميع الأنشطة الأخرى وبضمنها المسرحية... وتكرر الأمر هذه السنة وأنا أستغرب الآن قدرتنا على إقامة الحفل المدرسي السنوي للأعوام ٢٠٠٦ إلى ٢٠١٢ وكان الحفل يعرض ويعاد عرضه من قنوات التلفزيون المحلية... وعجزنا بعد ذلك عن أي تحرك أو نشاط... والسبب أمني دائماً. لقد كان الأمن مستتباً أيام الاحتلال أكثر من استتبابه الآن كما يبدو.

كنت قد كتبت أيضاً وبشكل غير منتظم عدة سيناريوهات لأفلام قصيرة... كان أولها سيناريو فيلم «٤٢ بوصة أو شاشة جديدة» وهو سيناريو فيلم قصير صامت كتبته عام ٢٠٠٨ وتدور أحداثه في مكان واحد... وفي عام ٢٠١٠ – وكنت في زيارة لعمان – قمنا أنا وصديقي «سيف شاهين» بتحويل قصة غيث إلى سيناريو فيلم قصير... وقد تطلب تحويل القصة القصيرة إلى سيناريو تغيرات جذرية أدخلناها على النص الأصلي لنتمكن من تحويل الكلمات إلى مشاهد... وتطلب منا الأمر إضافة شخصية ثالثة إلى النص... لكنها شخصية صامتة رغم أنها محورية... ولم يجد سيف تمويلاً لإنتاج الفيلم لحد الآن... سأكتب أيضاً سيناريو قصير لفيلم عن زهرة يحاول (هو) أن يعطيها إلى (هي) دون جدوى... إنه نص عن استحالة التواصل... أو عن سوء الفهم البسيط الذي قد يؤدي إلى تراجيديا كبرى... وأخيراً كتبت سيناريو لفيلم صامت آخر هو «صورة رئاسية» هذا السيناريو يمكن أن يكون مسرحية صامتة قصيرة... أو فيلماً صامتاً... وأظنه يعبر خير تعبير عن «ربيعنا العربي» أو ديمقراطيتنا العراقية... فكرة السيناريو بسيطة جداً... وهو قدحة واحدة قدحت في ذهني... وكتبته دفعة واحدة دون مشقة... لمَ لا أدرجه ضمن كتابي؟

صورة رئاسية
سيناريو فيلم قصير صامت

الشخصيات

دكتاتور برأس ضخم أصلع وشارب هتلري ونظارات مدورة

مصور فوتوغرافي أشيب طويل محني الظهر مع كاميرا خشبية ضخمة ذات غطاء قماشي

حفيدة المصور: طفلة جميلة في السادسة من العمر بملابس قديمة وهي تمسك عصا رفيعة كقلم الرصاص برأسها عصفور بلاستيك ملون وتمسك بسطل الماء الذي يستخدمه جدها لتظهير الصور.

الشخصيات الأخرى

حلاق مهندم جداً شعره لامع وشاربه رفيع محدد بدقة

رجل يرتدي بدلة وله شارب ولحية ويمسك سبحة

رجل ببدلة وله شارب فقط

رجل يرتدي جنز وتي شيرت أحمر حليق اللحية والشارب تسريحته عصرية مبالغ بها وعلى زنديه وشم

رجل بدشداشة عربية

رجل بزي كردي

رجل دين بعمامة بيضاء وسبحة طويلة رفيعة

رجل دين بعمامة سوداء وسبحة غليظة ضخمة الحجارة

امرأة بدينة بملابس مودرن سافرة الشعر ملابسها قصيرة متبرجة بمبالغة وتحمل حقيبة يد صغيرة فاقعة اللون.

امرأة نحيفة بعباية تقليدية وتحمل زنبيلاً ومشتريات منزلية.

المكان: غرفة تحتوي على منضدة مكتب ضخمة وكرسي فخم ويغطي الجدار الخلفي بالكامل علم كبير معلق بالطول ويخفي كامل الجدار.. لون العلم أحمر أبيض أسود ووسطه ديك ينفش ريشه ويصيح.

نهاري /داخلي	
لقطة قريبة	وجه طفلة يضحك
لقطة قريبة جداً	شارب مربع ومشط يمشي عليه ومقص يتحرك بسرعة ورشاقة...
لقطة متوسطة	الحلاق يمشط شارب الدكتاتور ويقصه بمقص رفيع وبيده مرآة مدورة.. الدكتاتور ينظر ثم يهمهمويهز رأسه منزعجا «أمممممم» يهرع الحلاق ثانية لتضبيط الشارب... ويعيد المرآة إلى وضعها ثانية.. الدكتاتور يهمهم باقتناع «أممم» يختفي الحلاق.
لقطة قريبة جداً	صورة لشوارب الدكتاتور في المرآة
لقطة متوسطة	المصور يهزّ رأسه ثم يجهز الكاميرا
لقطة قريبة	الطفلة ترفع العصا وتشير بسبابتها إلى العصفور وكأنها تطلب من الرجل أن ينظر إليه يد الطفلة تنقر على العصفور.
لقطات قريبة	شارب الرجل يتحرك وكأنه يستعد للتصوير.

بالعرض البطيء	أصابع المصور تضبط العدسة. أيادٍ مختلفة تمتد وتمسك أرجل الكرسي من الأسفل. أصابع الطفلة تنقر على العصفور شتر العدسة يتحرك مع إضاءة الفلاش الشارب يهتز.
لقطة كبيرة ثابتة لثواني	الأيدي تسحب الكرسي بالتزامن مع الفلاش صورة للمكتب بلا كرسي ولا أحد خلفه.
لقطة متوسطة	جانب المكتب.. الكرسي مقلوب وفارغ يد تمسك الكرسي.. ثم تمسكه يد بملابس أخرى من جهة أخرى. يد ثالثة ورابعة وأصوات همهمات تتنازع على الكرسي....
لقطة متوسطة	المصور يصفق بكفيه... يشير للمهمهمين أن يترتبوا ليلتقط لهم صورة.
لقطة قريبة ضبابية تصور الأيدي الممسكة بالكرسي ثم تنسحب الكاميرا لتصبح اللقطة كبيرة	الأيدي تبدأ بترك الكرسي والاصطفاف إلى جانبه.

لقطة متوسطة	تبدأ ملامح الحشد بالظهور بالتدريج حتى يكتمل ظهور الشخصيات التسعة التي تتنازع على الكرسي.... يحاولون الوقوف جنباً إلى جنب بطريقة نظامية.
لقطة كبيرة	المصور يضع رأسه تحت قماشة الكاميرا ويده تعبث بالعدسة.
لقطة قريبة	المجموعة تحاول الوقوف وتتبادل الأماكن... فوضى وهمهمات.
لقطة قريبة	وجه المعمم الأبيض مبتسماً بتصنع يلتفت إلى يمينه ثم يقطب فجأة.
لقطة متوسطة	وجه المعمم بالأسود مبتسماً بتصنع. يلتفت إلى شماله ثم يقطب فجأة.
لقطة كبيرة	المعممان الأبيض والأسود جنباً إلى جنب.. يكشران ويتبادلان الهمهمات ويبتعد كل منهما عن الآخر.
لقطة قريبة	يتبعثر الحشد.
لقطة قريبة	وجه لابس الدشداشة يبتسم.
لقطة متوسطة	وجه لابس الزي الكردي يبتسم.

لقطة كبيرة	الاثنان يتبسمان... يلتفت كل منهما إلى الآخر فيكشران فجأة ويهمهمان.
لقطة متوسطة	الحشد يتبعثرويحاول أن يتجمع من جديد.
لقطة متوسطة	المصور يتكئ على الكاميرا ويده على خده بانتظار وقوف المجموعة كي يصورها.
لقطة كبيرة ضبابية	الطفلة تهزّالعصا والعصفور لشد انتباه الحشد.
لقطة قريبة جداً	الحشد وكأنه قد ثبت.
لقطة كبيرة	حقيبة السيدة الملونة قرب زنبيل لابسة العباءة. الزنبيل يدفع الحقيبة ويضايقها. الحقيبة تدفع الزنبيل. مشاجرة بين الحقيبة والزنبيل «همهمات وشتائم غير مفهومة». يتوقفان عن التشاجر فجأة وكأن أحداً قد أمسك بكلتيهما... ينسحبان فجأة كل إلى جهته ويختفيان من المشهد.
لقطة قريبة	المصور يصفق بيديه خلف الكاميرا لشد الانتباه والحشد يتنازع للوقوف بطريقة مرضية.

لقطة كبيرة ضبابية تتضح بالتدريج دون الوصول إلى نقاء كامل	الطفلة تضحك من الجميع وتغطي فمها بيدها لتكتم ضحكتها. الحشد يحاول أن ينتظم... والمصور يضع رأسه تحت قماشة الكاميرا.
لقطة متوسطة	الرجل بالبدلة واللحية يقف إلى جانب الرجل ذي الـ تي شيرت الأحمر،وبعده الرجل ذو البدلة والشارب... يهز لابسا البدلتين رأسيهما رافضين.. يغير مكانه فيقف لابسا البدلتين قرب بعضهما بعضاً وبعدهما لابس الـ تي شيرت.. يستنكران ذلك... يغيّر الثلاثة أوضاعهم عدة مرات مع همهمات وعدم رضى وحركات عنيفة وتهديدات باليد.
لقطة كبيرة	يشتبك الثلاثة فيتدخل لابس الدشداشة وينزع عقاله وينزع لابس الـ تي شيرت حزامه. يستخدم رجلا الدين السبحتين والمرأتان والحقيبة والزنبيل ويبدأ الحشد بالتشاجر وتتضبب الصورة.
لقطة قريبة	المصور يغطي وجهه بكفيه.
لقطة قريبة	الطفلة تضحك بشيطنة وتبدو أسنانها.
لقطات كبيرة ومتوسطة وقريبة	مشاجرة تستمر لعشر ثوانٍ.

لقطة كبيرة جداً	المشاجرة والمصور من ظهره والطفلة... المتشاجرون يقتربون من العلم أثناء شجارهم.
لقطة قريبة جداً	المسمار الذي يثبت العلم ينتزع بفعل الشد على العلم في الأسفل وصوت القماش يتمزق.
لقطة متوسطة	جانب من العلم يسقط.
لقطة قريبة	المسمار الثاني للعلم ينتزع مع صوت القماش.
لقطة قريبة جداً	ينتزع المسمار الثالث والعلم يتمزق.
لقطة كبيرة بالعرض البطيء	العلم يهوي ويغطي الحشد وحركة الحشد والأصوات تخمد بالتدريج وكأنهم قد رقدوا جميعاً تحت العلم.
لقطة قريبة	المصور يفتح كفيه حيرة.
لقطة كبيرة	الطفلة تركض وتقف فوق الحشد ترفع جزءاً من العلم وكأنها تتلحف به وتواجه الكاميرا.
لقطة متوسطة	المصور ساكناً مندهشاً... يفهم ما يجري أمامه يبتسم ابتسامة كبيرة ثم يضع رأسه تحت القماشة.

لقطة كبيرة تقترب العدسة بالتدريج لتصبح لقطة قريبة جداً	الطفلة تهزّ العصا والعصفور وتنظر إليها ثم إلى الحشد ثم إلى العصفور وتبتسم بسعادة.
لقطة قريبة جداً	صورة عدسة الكاميرا وحركة الشتر وصوت الفلاش ووميضه.
لقطة متوسطة قريبة ثابتة	صورة الطفلة تبتسم ابتسامة عريضة متفائلة وكأنها صورة شخصية.
	النهاية

وربما كان ما فتح شهيتي على كتابة هذه السيناريوهات هو تقديمي لبرنامج تلفزيوني ثقافي في قناة «سما الموصل».. كانت القناة في بدايتها... اتصل بي أحدهم وطلب مني الدعم والمشاركة في الفقرات الثقافية للقناة الوليدة... ظننت أنها قد تكون فرصة مناسبة للوصول إلى عدد أكبر من الناس... وكنت أستهدف على وجه الخصوص شريحة الطلاب... طلاب الجامعة... وضعت مخططاً لعدة أنشطة وبرامج وكان أولها وأسهلها تنفيذاً هو برنامج «كتاب» إذ لم يكن الأمر سيتطلب مني الكثير... وفي مكتبي في المدرسة كان كادر التصوير والمخرج الصديق «محمد حازم» يحضرون يوم الاثنين من كل أسبوع لتصوير حلقة من البرنامج... وكنت أعرض في كل حلقة كتاباً مختلفاً... وكان الكتاب الأول الذي عرضته هو أحب الكتب العراقية إلى قلبي على

الإطلاق (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث) استمر عملي مع القناة دورة تلفزيونية. سجلت خلالها –ودون مقابل مادي– ثلاث عشرة حلقة، وقدمت في كل حلقة كتاباً مختلفاً،لكن معظم الكتب كانت تدور عنّا «الآن وهنا» باستثناء كتاب تراثي واحد هو «أخبار الحمقى والمغفلين» لابن الجوزي وكان هدفي من اختيار هذا الكتاب خبيثاً جداً... تابعت اهتمام الناس بالبرنامج فلم أجدله أثراً يذكر بينهم... كانت القناة التي تبث البرنامج ضعيفة... وازدادت ضعفاً بمرور الأيام بسبب تنازعات تافهة... وبسبب غياب رؤية أو منهج واضحين... وكان موعد بث البرنامج يتغير أسبوعياً... مما جعلني أفتر وأقرر عدم الاستمرار في بذل جهد غير مجدٍ. وقد أغلقت هذه القناة فور سقوط الموصل وأظن أن الحلقات التي سجلتها قد ضاعت إلى الأبد... ويؤسفني أنني لم أحتفظ بأي حلقة منها...

الثلاثاء ٢٦ / ٨ / ٢٠١٤

الساعة الحادية عشرة صباحاً

أكتب صباحاً الجو خانق ودرجات الحرارة تأبى أن تنخفض لتصبح أقل من ٤٥°.. الهواء ساكن... وكل شيء حولي ساكن باستثناء طائرات عسكرية لا تكف عن التحليق في سماء الموصل... بعد أن كفت الطائرات المدنية عن المرور فوق سماء المدينة، إذ إن خطوط الطيران العالمية التي تربط الخليج بأوربا غيرت طريقها ولم تعد تمرّ في أجوائنا وأفسحت المجال كاملاً للطيران الحربي...

وأنا في الصفحات الأخيرة لكتابي الذي أردت خلاله سرد محاولتي «غير الموفقة» في أن أصبح كاتباً له أثره عند الناس.. أدرك الآن أنني

لم أكتب عن جميع نصوصي... نسيت بعضها أو تناسيته ولكنني لا أحب إنهاء هذا الكتاب دون ذكر ما أعده نصاً من أهم النصوص التي كتبتها خلال تلك الرحلة... ليس رواية ولا مسرحية ولا قصة قصيرة... بل هو مقالة قصيرة عنوانها (في المشكلة العراقية... تغيير الجغرافيا لتغيير التاريخ) أذكر أنني قد قضيت ثلاثة أشهر وأنا أجمع المعلومات وأنظر إلى الخرائط الورقية والإلكترونية... قرأت عن قناة السويس وبنما وو وو... ثم بدأت بالكتابة... كنت وقتها في زليتن / ليبيا ونشر المقال في أحد أيام شهر تموز / ٢٠٠٢ في صحيفة القدس العربي... قدمت فيها عرضاً تاريخياً موجزاً لمشاكل العراق الحدودية وحربيه اللتين خاضهما ضد جيرانه إيران والكويت... وكان واضحاً لي أن الحروب دارت«وستدور» لسبب رئيس واحد هو أن بريطانيا حينما رسمت حدود الدولة العراقية الحديثة فإنها صممت على خنق العراق وحرمانه من منفذ بحري يتناسب مع حجم البلد السكاني والاقتصادي. وقد دافعت إيران والكويت عن حدودهما وبقي العراق مخنوقاً ومازال...

اقترحت في مقالتي فكرة جديدة... قد تبدو غريبة بعض الشيء وهي شق قناة بين البصرة وبانياس لربط الخليج العربي بالبحر المتوسط... موضحاً أن هذه القناة ستكون طريقاً استراتيجياً جديداً يختصر آلاف الكيلومترات بين آسيا وأوربا... ومع علمي أن طول القناة سيكون عشرة أضعاف طول قناة السويس إلا أننا لو تذكرنا أن قناة السويس قد تم حفرها بالقوة البشرية... الفأس والمجرفة والمقطف... لذا فإن شق القناة العراقية المقترحة قد يكون أسهل بكثير في القرن الحادي والعشرين من حفر قناة السويس في القرن التاسع عشر... كانت المقالة مملوءة بالتفاصيل والاقتراحات وكنت

أدرك تماماً أهم صعوبة تواجهها فكرة كهذه وهي مرورها بدولتين متعاديتين «وقتها» العراق وسوريا... وحينما عرضت المقالة على عدد من أساتذة الهندسة المختصين وجدت لديهم ملاحظة واحدة متكررة «ممكن عملياً ومستحيل سياسياً» وكانت هذه الملاحظة تغيظني... فما دامت الفكرةممكنة «وهي حل جذري لمشكلة عراقية مستعصية» فإن واجب السياسيين –كما أؤمن– هو تذليل كل العقبات في سبيل تحقيقها،كنت قد تخيلت القناة... والموانئ والمدن الجديدة التي ستنشأ على ضفافها جنوب العراق... تخيلت الناقلات الكبيرة التي ستبحر فيها ومنصات التحميل... تخيلت العراقيين الذين سيعيشون في هذه المدن الجديدة ليشكلوا مجتمعات جديدة... ويبدأوا صفحات تاريخ عراقي جديد... نشرت المقالة في القدس العربي... ثم في بعض مواقع الإنترنت... قرأها الأصدقاء هنا أو هناك... ثم جاء الاحتلال الأمريكي ونسيت الموضوع تماماً ولم أتذكره إلا منذ أيام وأنا مستغرق في العمل على هذا الكتاب. مازلت أظن الفكرة ممكنة... وأن تنفيذها أو تنفيذ فكرة استراتيجية مماثلة سيكون حلاً مبتكراً لعدد كبير من المشاكل التي يعانيها العراق وسيكون أمامنا فرصة لبداية جديدة مع الجيران.. إيران والكويت وسوريا... وبدل العداء الـ «تاريخي» سيكون هناك اعتماد متبادل ومصالح مشتركة تحقق المنفعة للجميع... لكنها فكرة... مجرد فكرة... لن ترى النور هي وأمثالها من الأفكار التي تقترح حلولاً ما لم يتبنّها عقل يبحث عن حلول جذرية... وليس عقلاً سياسياً مملوءاًبالجمل الجاهزة التافهة... التي تستخدم للتغطية على انتهازية سياسية وضيعة لا ترى أبعد من المصالح الضيقة للحزب أو الطائفة أو العائلة أو حتى للفرد ذاته... يخطر في بالي أن أعيد كتابة هذا المقترح

مستعيناً بأحد أصدقائي المختصين... وتقديمه إلى حكومتنا الجديدة... هل سأكون غبياً أو ساذجاً لو قلت إنني متفائل «ولو قليلاً» بهذه الحكومة؟ شاهدت أمس أول مؤتمر صحفي يعقده(د. حيدر العبادي) وقد لاحظت فوراً أن الرجل دمث –كما يبدو ظاهراً –ربما لأنه لم يحاول أن يظهر بمظهر «القائد التاريخي» أو «الزعيم الأوحد» كان يجيب ببساطة وبكلمات واضحة مباشرة عن أسئلة الصحفيين..

أنا متفائل... متفائل بحذر شديد... فقد عرفت قسوة ومرارة الأمل حينما يخون... وأحاذر تكرار هذه التجربة...

الخميس ٢٨ / ٨ / ٢٠١٤

الساعة الآن هي الثانية عشرة إلا ربعاً ليلاً...

ربع ساعة فقط وسأكمل دورتي الخمسين حول الشمس... حاولت أن أنهي الكتاب قبل يومين لكنني قدمت لنفسي كل الذرائع التي تمكنني من التهرب من الكتابة ولا أدري لماذا!! هل لأنني سأشعر بالخواء فور أن أنتهي من كتابة آخر كلمة في هذا الكتاب؟ لا أدري... لديّ مشاريع كتابية ومخطوطات ناقصة وقصاصات تحمل أفكاراً قد يستغرق مني إنجازها عشر سنوات أخرى... لكن لهذا الكتاب بالذات خصوصية كبيرة في نفسي... وسأحاول أن أنهيه الآن... شربت قهوتي ودخنت وفكرت وفكرت... والآن... عليّ أن أكتب... سأبدأ بما هو عام بما يخص المدينة... والعراق... يبدو أن موضوع الموصل قد أصبح قضية دولية حقاً... أطراف أوربية جديدة تنضم كل يوم إلى التحالف المزمع تشكيله لمحاربة «داعش»... وهذا يقودني فوراً إلى سؤالين مهمين:متى سيحدث هذا التدخل؟ وكيف سيتم تحرير المدينة؟

متى؟ وكيف؟ وهل سنتعرض للقصف الجوي... كم من البيوت ستهدم... وكم إنساناً سيموت؟... وما هو رد فعل»الدواعش»؟ هل سيهربون من المدينة؟ هل سيقاتلون حتى النفس الأخير في الشوارع؟ هل سيلقون سلاحهم ويذوبون بين الناس؟ أسئلة لا أعرف جوابها... وإن كنت أدعو الله كل يوم أن يلطف بنا... بالمدينةوأهلها... وبالعراق كله.. هذا العراق الذي هدّه التعب،ولم يرحمه أحد... وكان أقسى ما عاناه هو خيانة أبنائه له... الوضع العام في العراق مازال مضطرباً... مازال الجيش يتقدم خطوة ويتراجع خطوات على طريق تكريت... والأمر لم يحسم في ديالى... وتعرضت الفلوجة اليوم أيضاً للقصف بالبراميل المتفجرة... وكانت بغداد وبابل قد تعرضتا أمس وأول أمس لانفجار سيارات مفخخة في مناطق شعبية مخلفة عدداً كبيراً من الضحايا... وبالمناسبة... لقد تعرض اليوم مبنى وزارة الداخلية لحريق «عارض» حدث في غرفة المفتش العام لوزارة الداخلية وأظن أننا أكثر دولة في العالم تتعرض فيها مكاتب الوزارات للحرائق، وخاصة في فترة تغيير الوزارات أو الوزراء...

خبر آخر سمعته اليوم وأظنه يعبّر عن وضع العراق الحالي أدق تعبير فقد نقلت كل وكالات الأنباء خبر (إسقاط طائرة مسيّرة مجهولة الهوية.. بواسطة نيران مجهولة المصدر.. قرب مطار بغداد الدولي!!)... هذه هي صورة العراق الآن بدقة كاملة. نيران مجهولة ضد طائرة مجهولة فوق عاصمة الرشيد... ولا أحد يستغرب ولا أحد يهتم... فقد ملّ الجميع من كل شيء... الساعة تجاوزت الثانية عشرة من ليلة الخميس... بدأ صباح الجمعة منذ عشر دقائق... أنا الآن «رسمياً» في الخمسين... «كل عام وأنا بخير» سأتمنى –كما أتمنى كل عام دون

جدوى– أن يكون العام القادم عام سلام على الجميع... وعام سلام لروحي التي أرهقها جرّ قطار ذكريات طويـــل لا تحصى عرباته المحملة بحكايات ملؤها التعب... وآخر حكاياتي ستكون عن آمادو... آمادو ثانية، ولكن في «لكسمبورغ» فحينما قررت فرقة مسرحية من لكسمبورغعرض مسرحيتي هناك وسيقوم بالتمثيل ستيف كارير وولفرام كوخ وستقوم آن سيمون ثانية بإخراج النص لم أصدق في البداية أنني سأتمكن من حضور العرض... فقد ضاعت مني الكثير من الدعوات لصعوبة حصولي على التأشيرة حتى داخل الوطن العربي... فجواز سفر العراقي هو ثاني أسوأ جواز سفر في العالم بعد الجواز الأفغاني كما تقول مراكز البحوث والاستبيانات... لم يكن الأمر سهلاً لكنني كنت مصمماً على مشاهدة مسرحيتي تعرض أمام متفرجين من ثقافة أخرى... تطلّب مني الحصول على تأشيرة رحلتين إلى عمان لمراجعة قنصلية لكسمبورغ في السفارة البلجيكية. طرت من عمان إلى لكسمبورغ مروراً بباريس لأصل «ويا للعجب»في الموعد المحدد... بعد قليل كنت مع الفرقة الصغيرة. وكان الممثلون يرتدون ملابس العرض ويستعدون لأداء بروفة كاملة للمسرحية... وبعد ترحيب قصير ابتدأوا التمرين... كان الممثلون يتحدثون الألمانية... وأنا لا أعرف كلمة واحدة من هذه اللغة،إلا أنني كنت أتابع حوارهم جملة بجملة –كما ظننت– لأنني كنت أحفظ النص. كان الزي الذي يرتديه الممثلان يشبه زي الجنود الألمان في الحرب العالمية الثانية ولا علاقة له إطلاقاً بالأزياء التي اقترحتها في النص المكتوب... انتهت البروفة دون أن أرى شخصية»الراوي» الذيكان يقدم لكل مشهد... وبكلماته ينتهي المشهد الأخير... وهو مشهد يهمني كثيراً... وماإن انتهى التمرين حتى

جلسنا في حلقة وكان الجميع متشوقين لمعرفة رأيي في التغييرات التي أجروها على المسرحية. قلت لهم معاتباً :(قبل أن أعطيكم رأيي بعملكم... لماذا حذفتم شخصية الراوي ومعها المشهد الأخير من النص؟) أخبرتني المخرجة فوراً أنها لم تقم بحذف كلمة واحدة من النص... وأنها قد استعاضت عن الراوي بالممثلين «ستيف وولفرام معاً» في كل مرة يتطلب فيها العمل ظهور الراوي... يقفان جنباً إلى جنب... ويقولان معاً كلماته... وكان حلاً ذكياً أعجبني... كان الإخراج مبتكراً... متقشفاً جداً بكلشيء... الألوان، والمؤثرات، والموسيقى، والديكور... هذا التقشف في الأشياء المادية كان يقابله حضور مسرحي قوي من كلا الممثلين اللذين تبادلا القيام بشخصية آمادو في كل فصل... رافقت المجموعة أسبوعاً أثناء إجراء التدريبات الأخيرة على العرض... وأذكر الآن البروفة الأخيرة... وصلت إلى المسرح عصراً ودخلت إلى الغرفة التي يتمرن فيها الممثلون على حفظ الحوار... وجدت الجميع معاً... وكانوا واجمين... لم يكن هناك الجو المرح الذي اعتدته سابقاً... كان ولفرام ينظر من النافذة الصغيرة، وستيف مطرق إلى الأرض،وآن تجلس أمام المنضدة ورأسها بين كفيها... وكذلك كان حال بقية الكادر... ولما سألتهم مستغرباً عما يجري... ولماذا لا يستعدون لإجراء البروفة الأخيرة. نظرت إليّ آن ثم لم تجب... قال لي ستيف بعد تردد «نحن نظن الآن أن النص صعب جداً. وسيلتبس الموضوع على المتفرجين ولن يستطيعوا إدراك التغييرات التي ستحدث أمامهم... وقد يفشل العرض» أدركت فوراً ما كان يحدث... وكنت قد مررت سابقاً بتجربة كهذه مع أول عرض لمسرحية لي حينما قدمها د. محمد إسماعيل في كلية الفنون الجميلة... أذكر أني كنت قد أنهيت

عملي في المدرسة وكنت عائداً إلى البيت حينما اتصل بي د. محمد قائلاً «يبدو أننا لن نقدم العرض غداً... الممثلون خائفون ويرفضون أداء البروفة الأخيرة» درت بالسيارة عائداً إلى الكلية ودخلت فوراً إلى قاعة التدريب لأجد الجميع واجمين والممثلة الرئيسة تبكي... لم أكن قد شاهدت لهم إلا جزءاً بسيطاً من تمرين يوم واحد... لكنني بدأت فور وصولي بتوجيه كلمات قاسية للجميع.. الحل العسكري الذي اعتدته... المدح بما يشبه الذم... وبقسوة... قلت لهم هل أنتم من الحماقة لكيلا تدركوا أهمية العرض الذي تقدمونه غداً... انهضوا فوراً إلى التمرين... وغداً ستقدمون عرضاً رائعاً وسيصفق لكم الجمهور طويلاً... هيّا إلى التمرين «نهض الجميع وقتها وبدأوا التمرين»... غادرتهم لأعود في الغد إلى مسرح الكلية وأشاهد العرض الجميل الذي قدمه الطلابعلى مسرحها... وبنفس الكلمات تقريباً خاطبت آن وستيف وولفرام... قلت لهم بجدية (هل تظنون أن النص جيد؟) فأجابوني بالإيجاب قلت لهم (وأنا أخبركم أن أداءكم للنص ممتاز) كانت كلمات ثناء بلهجة تشبه الشتيمة.. أكملت قائلاً (لدينا نص جيد وفرقة ممتازة... وهذا يعني شيئاً واحداً... هو أنكم ستقدمون غداً عرضاً مميزاً... وسيصفق لكم الجمهور طويلاً... وسأذكركم غداً بذلك ونحن نسمع التصفيق.. هيا إلى التمرين) يبدو أن كلماتي قد فعلت فعلها فقد قام الجميع بأداء بروفة أخيرة ممتازة... ومساء اليوم الثاني... وقبل العرض بقليل وجدت نفسي في موقف محرج يضحكني الآن كلما تذكرته أو شاهدته... كنت قد اصطحبت معي كاميرا فيديو صغيرة وقد صورت بواسطتها الكثير من المواقف التي مررت بها. لكن أغرب ما شاهدته بعد عودتي هو صورتي أمام الكاميرا وقبل العرض بربع ساعة أو أكثر... كنت أجلس وحيداً

في الشرفة... وأتحدث – خائفاً – مع الكاميرا عن جمهور المسرحية الذي لم يحضر إلى المسرح... كانت الدقائق تمرّ ببطء لم يكن هناك أي شخص سوى بعض العاملين في المسرح يدخلون أحياناً ويخرجون من هنا أوهناك... وكلما اقترب وقت العرض ازداد توتري وخوفي من عدم حضور أحد لمشاهدة المسرحية... ما قيمة أي عمل فني مهما كان عظيماً مالم يشاهدهأحد؟؟... وقبل موعد العرض بدقائق قليلة فتح باب الصالة ودخل المتفرجون معاً ويبدو أنهم كانوا في قاعة خارجية... ولا يسمح لهم بالدخول إلا في وقت محدد... بدأت أحصي عدد الحضور – كنت قد أحصيت قبلها عدد المقاعد – امتلأ المسرح تقريباً وبقيت أنا في الأعلى طوال فترة العرض أراقب همسات المتفرجين تماماً كما أراقب التمثيل على الخشبة... أحسست بأن صمت القاعة الرهيب يحمل معنى إيجابياً... صمت ذكّرني بمسرح جامعة الموصل حينما عرضت فيه آمادو عام ٢٠٠٦... يومها بدأ العرض وكثير من الطلاب يتكلم أو يمزح أو يتحرك... وكلما تقدم العرض ازداد الحاضرون صمتاً وتركيزاً حتى خيم صمت ثقيل لم ينته إلاّ بتصفيق حار مع نهاية العرض... وقد تكرر الموقف تماماً... فمع كلمات الممثلين الأخيرة وحينما يقول الراوي...

إنني أموت أمامكم... أموت... أموت

ولا أحد منكم يرغب حتى في النظر إليّ

مازالت الحرائق تشتعل في جسدي

مازال الألم يفتك بي

ما زلت راغباً في الصراخ فاستمعوا إلى صرختي...

أنا هنا... أحمل كل هذه الجراح... ولكنني ما زلت واقفاً هنا...

أصبحت أعرف أكثر... وما زلت مستعداً لمواصلة الطريق.

لم أعد أنتظر كفاً تمسح الدم عن جراحي... لم أعد بحاجة إليكم...

اخرجوا... عودوا إلى بيوتكم... هيا... لقد انتهى العرض...

أما أنا فسأحمل جراحي وأواصل طريقي حتى النهاية...

وحيداً.... وحيداً.... وحيداً....

مع الكلمات الأخيرة... كنت قد وصلت – راكضاً – مع آن إلى الكواليس... وانفجرت عاصفة من التصفيق.. كنت أحمل الكاميرا بيدي... خرجت مع باقي أعضاء الفرقة –والكاميرا لاتزال دائرة ومعلقة في رسغي –... أردت أن يكون معي شاهد يوثق لحظة جميلة.. فلطالما مرت بي هذه اللحظات وأنا وحيد... عدنا إلى الكواليس فقالت لي آن بفرح... تماماً كما قلت لنا بالأمس... فقلت لها ببلاهة (وماذا كنتُ قد قلت لكم بالأمس؟) أجابتني بسعادة... التصفيق.... لقد نجح العمل... استمر التصفيق دقائق طويلة... ناداني الناس فخرجت ثانية وحييتهم... كنت سعيداً جداً وحزيناً معاً... لماذا يصفق لي الآخرون ولا يعرفني الناس الذين قضيت عمري أكتب لهم!!انتهى العرض وكنت وأعضاء الفرقة بمنتهى السعادة... كان هناك حفلة صغيرة في إحدى قاعات المسرح... حيث التقيت بعدد ممن شاهدوا المسرحية... وكان الجميع معجبين بالنص وبالأداء... وسيستمر عرض المسرحية أربع ليالٍ أخرى كان أهمهما العرض الأخير... فبعد العرض الأول للمسرحية كتبت الصحف مقالات عن العرض... جاءني ستيف صباح يوم ما يخبرني أن إذاعة برلين الوطنية قد قدمت تقريراً عن العمل ولما قلت له «ثم ماذا» أخبرني أن هذا لا يحدث إلا نادراً وأن هذا التقرير دليل على النجاح الكبير للعرض... وقد حضر العرض الأخير عدد

من الفنانين الألمان التقيتهم في مقهى مجاور للمسرح بعد انتهاء العرض... بدا لي أن هناك نخبة من الكتاب والممثلين والمخرجين رجالاً ونساء... قدمني لهم ولفرام الذي لازمني طوال الأسبوعين تقريباً وفي العاشرة مساء بدأنا نقاشاً لم ينته إلا بعد الواحدة ليلاً... وكانت أسئلتهم تستفزني أحياناً... وتسعدني أحياناً... قال لي أحدهم بعد تردد... (اسمع... سأقول لك شيئاً وأرجو ألا تشعر بالـ...)ثم أشار لي إشارة غامضة بيديه... ثم أكمل ربما تكون هذه المسرحية هي أول إضافة جديدة للمسرح في العالم... منذ بيتر بروك ولحد الآن... أرجو أن... أرجو ألا تشعر بالغرور... فالغرور سيضرك كثيراً ككاتب)...

لم أكن بحاجة لوصيته... فأنا – مغرور ومتواضع معاً – أشعر بالغرور حينما أستعرض أعمالي، أو أقرأ بعضها أحياناً... وأشعر بالتواضع الشديد طوال الوقت المتبقي من حياتي فكل ما حولي يجبرني على الإحساس بالتواضع... بل بالضعف في أحيان كثيرة... كنت أشعر بالسعادة والحزن معاً... سعيد لأنني نجحت في إيصال أفكاري وكلماتي إلى ثقافة أخرى ولغة أخرى... وليست أي ثقافة... ولا أي لغة... إنهم جمهور غوتيه وبريخت ودورينمات.... وحزني لأنني لم أنجح في خلق تواصل كهذا مع محيطي الأقرب... رغم أني أكتب لهم وعنهم... أحسست وقتها وبعمق بأن الفن يمكن أن يكون وسيلة جدية للتواصل بين الناس... كل الناس... شرط أن يحمل مضموناً قادراً على مخاطبةالجميع... وهزّ الأوتار العميقة في ذواتهم... تحدث بعض الحضور عن (بيكت)... لكنني رفضت وبشدة أي علاقة لنصي بنصوص بيكت... لديّ حساسية سابقة من هذا الموضوع... كاتبان أتحسس كثيراً منهما... (بيكت وسعد الله ونوس) إذ طالما ربط أصدقاء أو كتاب

بين بعض نصوصي وبعض نصوص هذين الكاتبين.. أذكر أن الأديب السوري فرحان ريدان همس في أذني مرة،»كيف جرؤت على أن تكتب مسرحية عن سقوط بغداد وقد سبقك إليه عملاق مثل ونوس... كيف تضع رأسك برأسه؟»فقلت له فوراً»لا أخشى أبداً أن أتأثر بكاتب لم أقرأ له شيئاً»... وقد كنت صادقاً مع ريدان... فأنا لم أكن قد قرأت لـ(ونوس) شيئاً... وما زلت... العجيب أني شرعت فور احتلال بغداد بكتابة مسرحية تبين أنها تشبه في فكرتها العامة مسرحية «حفلة سمر من أجل ٥حزيران»... قرأت في مكان ما عن هذه المسرحية فألغيت مسرحتي فوراً... أما بيكت فلم أقرأ له لحد الآن إلا نصاً واحداً هو «فصل بلا كلمات» وهو مونودراما صامتة قصيرة... لم أقرأ أياً من مسرحياته رغم أني قد قرأت نصوصاً نقدية عديدة تتناول بعض مسرحياته أو أشهرها أعني مسرحية»انتظار غودو» وستتكرر المقارنة مراراً ومراراً وقد فاجأتني يوماً الصديقة المترجمة (لارا المعاني)وهيتعكف على ترجمة أحد نصوصي قائلة:(أتعرف أن الذي يجذبني إلى نصوصك هو شبهها الكبير بنصوص بيكت)قلت لها فوراً : (إذا بقيت تلاحظين هذا الشبه فتوقفي عن ترجمة النصوص فوراً...). كانت ملاحظتها موجعة لاسيما وأنها متخصصة في أدب بيكت. وأناأظن الآن أن أوجه الشبه بيني وبين ونوس عائد إلى كوننا قد كتبنا نصوصاً بعد انتهاء حرب لا طائل منها... بيكت كتب بعد الحرب العالمية الثانية... وهو يكتب بتجريد عالٍ وبعدد محدود من الشخصيات... هذا وجه شبه بين أعمالنا.. وونوس كتب بعد نكسة حزيران... وأنا كتبت بعد حرب ونكسة وهزيمة... هكذا أظن... لم أقلد يوماً ما أحداً آخر... لم أرد أن أكون إلا أنا... أنا وحسب... ولم أحصل من الكتابة إلاّ على شيءواحد... أظنه –

بالنسبة لي – شيئاً ثميناً... لقد كانت الكتابة هي الخيط الوحيد الذي شدّ فصول حياتي المبعثرة ورصّها جنباً إلى جنب... كانت الكتابة هي ما أضفى على حياتي معنى ما... أو ظلال معنى حلم طفولة بقيت أسعى وراءه عقوداً كاملة هي كل حياتي التي عشتها طفلاً ساذجاً ومراهقاً حالماً وشاباً واهماً... وما زلت لحد اللحظة أحمل ذات الطفل في داخلي وذات المراهق وذات الشاب رغم كل الشيب وخطوط التجاعيد التي بدأت تغزو وجهي.. هذا ما لاحظته وأنا أكتب هذا الكتاب... هذا الكتاب الذي لا أعرف كيف سيصنف! فلو كان سيحمل على غلافه اسم الكاتبة المغربية «سلمى مصمودي» –وهو اسم اخترعته للتو – لما شكك أي ناقد في كونه رواية.. وربما قال أحدهم»وهي رواية تعتمد أسلوب اليوميات والكاتبة لم تسلم من الوقوع في المبالغة فليس من الطبيعي أن يمر الإنسان بكل هذه المواقف»... وقد خرقت الكاتبة بعض المبادئ الأساسية لكتابة الرواية... إذ لم تقدم الأحداث بصورة متسلسلة مما يولد إرباكاً لدى المتلقي... كما أنها لم تقم بتقسيم الزمن بصورة متناسقة وأهملت تماماً الجوانب السلبية للشخصية... ولم توضح الدوافع المنطقية لبعض تصرفاتها... لكنه جهد طيب من الكاتبة على أية حال.. جهد يبشر بولادة موهبة نسوية فذة ننتظر منها الكثير... هذا ما سيقوله السيد الناقد... – غالباً ما تكون المواهب النسوية فذة مهما كان مستواها –ويمر ببالي خاطر ما... ماذا لو كان كتاب «روبنسون كروزو» يحمل توقيع كروزو شخصياً بدلاً من(دانيال ديفو)... لما قال أحد إذن إن ديفو هو من رواد الرواية في العالم ولعدّ كتاب كروزوسيرة ذاتية فحسب.. وربما لم تكن للكتاب أي أهمية... والكتاب في الواقع سيرة شخص حقيقي لم يقمهو بكتابتها.... كتابي هذا ليس سيرة

ذاتية... إذ إن مقاطع طويلة مملة من حياتيقد أهملتها تماماً... وقد عمدت إلى الانتقاء... وتضمن الكتاب كثيراً من مواضيعغير شخصية على الإطلاق... يقول (إ. جي ويلز): «إن الرواية مثل الحقيبة... بإمكاننا أن نضع فيها ما نشاء» وقد وضعت في حقيبتي الكثير الكثير من الأشياء.... وعليكم أن تنتقوا منها ما تحبون... أغرب ما حدث معي وأنا أتصفح بسرعة مجمل ما كتبت هو غياب مواقف مهمة طالما قصصتها لأولادي وأصدقائي... تلك اللحظة المهمة في حياتي وكنت وقتها في التاسعة من عمري أو أقل.. حينماخاطبني فيها أبي – ونحن معاً وحدنا في سيارته – قال بجدية «لقد كان في عائلتنا الكثير من العلماء والكتّاب ولم يبق منهم أحد الآن.. وأنا أظنك ستكون شيئاً ما... وتعيد للعائلة اسمها» قال لي ذلك برجاء... هززت رأسي موافقاً ووعدته ببذل جهدي... وقد حاولت حقاً تنفيذ وعدي له....

لاحظت أنني لم أتحدث أيضاً عن لحظة بدء الحرب عام ١٩٩١... حينما أفقت مذعوراً وعجزت عن تحريك ساقيّ... كأنني أصبت بشلل مؤقت، ولم أتمكن من السير إلا بعد دقائق وبعد أن استخدمت صافرتي مستدعياً عريف الفصيل الذي اندمجت معه – وأنا نصف مستلق عاجزاً عن تحريك ساقيّ المشلولتين–أصدرت له الأوامر بالتفصيل، والقصف يهزنا هزاً ثم نسيت خوفي وشللي المؤقت، وخرجت راكضاً خلفه بعد قليل لأتابع الجنود... لم أتحدث عن اللحظات المرة وأنا أغادر العراق بحثاً عن عمل... ولم أتحدث عن مطار طبرق الذي تركته ماشياً محاولاً الوصول إلى المدينة التي تبعد ٢٠ كيلومتراً وأنا أجرّ خلفي حقيبتي الثقيلة وسط صحراء مجدبة ليس فيها أحد سواي، وجيوبي الخاوية تمنعني من الحصول على توصيلة... أسير في شارع مهجور وأنا لا

أعلم إن كانت المدينة على يميني أم شمالي... لم ولم ولمولم أتحدث عن (آلاء) أختي. ورفيقة طفولتي العذبة التي قاسمتني طفولة سعيدة... ونافستني قارئة وكاتبة... ثم تركت الكتابة لتتفوق في الدراسة ولتشق طريقها العلمي والعملي مدرسة ومهندسة، ثم ستعيش حياتها موزعة مالها ووقتها وصحتها في سبيل الآخرين. كل الآخرين.. ثملتتركنا وتنطفئ سريعاً وهي دون الخمسين... ليس لها مكان محدد في هذا الكتاب رغم أنها شاركتني معظم أحداثه – ولو كانت معنا لكانت من أول قرائي –....

لن أحاول العمل أكثر على هذا الكتاب... سأكتفي بتصحيحه ثم طباعته... سأبدأ بذلك في أقرب وقت... سألقي عبئه عن كتفي... ربما لأبدأ بالعمل على كتاب جديد... الأوديسة العربية ربما... أو المسرحيات الأربع التي كتبت فيها ولم أكملها... وربما أكملت يوماً كتابي الساخر «كيف تكتب رواية عراقية»... أو كتابيالمهم «المثقف حماراً» وقد جمعت له المصادر وجذذتهوكنت قد بدأت بالتخطيط لكتابته منذ عام ٢٠٠٢ وأنا في ليبيا... وربما اشتغلت على روايتي التاريخية التي تدور أحداثها في الجزائر... أو سلسلة كتب اليافعين بأجزائها الستة والتي جمعت الكثير من المصادر وسجلت الكثير من الأفكار والملاحظات أملاً في أن أجد متسعاً من وقت لكتابتها...

عزيزي القارئ... أرجو أن تسمحوا لي جميعاً الآن باستخدام جملة «عزيزي القارئ»وهي جملة كان يستخدمها كتّاب الرواية الأوائل كثيراً حينما كانوا يرغبون في الحديث مباشرة إلى القراء ناسين أو متناسين أنهم يعملون على إيهام القارئ بما يقرأ... إذ كان من حق المؤلف وقتها أن يظهر كما يشاء ووقتما يشاء ليقول ما يشاء... سأستخدمهذا

الأسلوب ثانية وأسمح لنفسي بأن أسألك أنت «عزيزي القارئ» سؤالاً مكرراً... هل استخلصت ثيمة ما من هذا الكتاب... إذا كنت قد فعلت فهذا أمر طيب... وإن كنت لم تنجح في ذلك فدعني أتحفك بعبارتين لم أجد لهما مكاناً في هذا الكتاب مع أني استخدمتهما مراراً وتكراراً كل يوم.. كل يوم... وأحشرهما في كل إجابة... العبارة الأولى تقول «الكل لا يساوي مجموع أجزائه» ثم أشرح لاحقاً – وبابتسامة حكيمة –أن ما يهم حقاً هو العلاقة بين هذه الأجزاء. فشكل العلاقة بين الأجزاء هو ما يحدد قيمة أو معنى كل شيء... ثم أضرب مثلاً للآخرين من باب التوضيح فأقول... ماذا لو كان لدينا شعب دؤوب متعلم... أرض خصبة... موارد مائية متاحة... ثروات طبيعية هائلة... عمق حضاري كبير... هذه الأجزاء ماذا قد تنتج لنا... (بلداً راقياً متقدماً).... يجيبني الآخرون فأقول لهم مبتسماً بانتصار... هذه هي عناصر ومكونات العراق... هل تظنون أنه بلد متقدم!!...

العبارة الثانية «عزيزي القارئ» هي...

(لكل شيء بداية... ووسط... ونهاية) هذه العبارة لا أملّ من تكرارها... سعيداً كنت أم حزيناً.. جاداً كنت أم مازحاً... هل توصلت أنت إلى ثيمتهاالحقيقية؟؟ وما علاقتها بي؟؟ أو بما يحدث في العراق؟؟ أو بهذا الكتاب؟... لا أدري.... لكنها عبارة عظيمة.. يمكنك أنت أيضاً – ما لم تخنك الذاكرة – أن تستخدمها في أي مكان تشاء... وستجدها تناسب ذلك الموقف تماماً... سواء كان الموقف في بدايته أو وسطه أو نهايته... وإذا ما أدركت «عزيزي القارئ» أنني قد «حشرتُ» هذه العبارة وأنا أوشك على كتابة السطور الأخيرة من كتابي فاعلم أنك دقيق الملاحظة... ولكن أرجو أن تتذكر أنه قد كان بإمكاني استخدامها

في أي جزء من هذا الكتاب وبنفس السهولة... أما إذا ربطتها باحتفالي بيوم مولدي الخمسين وكل تداعيات هذا اليوم فإنك حقاً ستكون قد فاجأتني... ولن أتحدث أكثر عن الاحتمالات الأخرى...

الساعة الآن تقترب من الرابعة صباحاً...

أكتب السطور الأخيرة وفي رأسي تدوّي كلمات (صلاح جاهين) بصوت (ماجدة الرومي)...

راح اللي راح... ماعادش فاضل كثير

آدي اللي كان.. وآدي القدر.. وآدي المصير

حنودع الماضي.... وحلمه الكبير..........

أكتب الكلمات الأخيرة... والموصل محاصرة، إذ لا طريق للدخول ولا الخروج منها... والجيوش تتجمع حولها والطائرات قد تقصفنا ثانية وثالثة و.. و.. و.. و...

الدواعش في الشوارع بأسلحتهم.... قد يفخخون البيوت والجسور والطرقات وقد يقاتلون من شارع لشارع ومن دار لدار... وقد يقصفهم الآخرون شارعاً شارعاً وداراً فدار...

قد تتناثر كل هذه الأوراق قبل أن أتمكن من طباعتها وإرسالها إلى مكان آمن...

ربما... ربما يتاح لي طباعة هذه الأوراق... وربما لن يتاح لي ذلك.....

قد أتمكن يوماً من نشرها وقد لا أتمكن...

قد يقرؤها أحد ما... وربما لن تجدأوراقي من يقرؤها...

ولكنني... لكنني.. ورغم كل شيء.. أحس بسعادة من نوع ما...

لقد أزلت عن كاهلي حملاً أتعبني سنينطويلة...

سألقيه عن كتفي الآن... وأحاول أن أبدأ غداً حياة جديدة..

غداً أتمنى أن يكون أفضل مما عشته..

سأتمنى ذلك الآن بعمق..

وأتمنى بعمق أكبر... أن تتحقق أمنيتي..

فأنا بطبيعتي متفائل...

متفائل دائماً............

تم